http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٨٦

نارا ، تسجر بها نار جهنم ، كما يسجر التنور بالحطب» وعن ابن عباس : المسجور : المحبوس «١» ، أي : الملجم بالقدرة.

والواو الأولى للقسم ، والتوالي للعطف ، والمقسم عليه : إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ لنازل حتما ، ما لَهُ مِنْ دافِعٍ أي : لا يمنعه مانع ، والجملة : صفة لواقع ، أي : وقع غير مدفوع. و«من» مزيدة للتأكيد ، وتخصيص هذه الأمور بالإقسام بها لأنها أمور عظام ، تنبئ عن عظم قدرة اللّه تعالى ، وكما علمه ، وحكمته الدالة على إحاطته تعالى بتفاصيل أعمال العباد ، وضبطها ، الشاهدة بصدق أخباره ، التي من جملتها : الجملة المقسم عليها.

الإشارة : أقسم اللّه تعالى بجبل العقل ، الذي أرسى به النّفس أن تميل إلى ما فيه هلاكها ، وبما كتب فى قلوب أوليائه من اليقين ، والعلوم ، والأسرار ، قال تعالى : أُولئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ» وذلك حين رقّت وصفت من الأغيار ، ثم أقسم أيضا بذلك القلب ، وهو البيت المعمور لأن القلب بيت الرّب ، «يا داوود طهّر بيتا أسكنه ...»

الحديث «٣» ، وهو معمور بالمعارف والأنوار ، وأقسم بسماء الأرواح المرفوعة عن خوض عالم الأشباح ، وهو سقف بيت القلب ، وبحر الأحدية الذي عمر كلّ شيء ، وأحاط بكلّ شيء ، وأفنى كلّ شيء ، فالوجود كله بحر متصل ، أوله وآخره ، وظاهره وباطنه. إنّ عذاب ربك لأهل العذاب ، وهم أهل الحجاب ، لواقع ، وأعظم العذاب : غم الحجاب وسوء الحساب. ومن دعاء السرى السقطي : اللهم مهما عذبتنى فلا تعذبنى بذل الحجاب. هـ. ما له من دافع لا يدفعه أحد من الخلق ، إلا من رحم اللّه ، أو : من أهلّه اللّه لذلك من أهل التربية النّبوية.

ثم ذكر وقت ما أقسم عليه ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٩ الى ١٦]

يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (٩) وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣)

هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦)

يقول الحق جل جلاله : واذكر يَوْمَ تَمُورُ أو : لواقع يوم تمور السَّماءُ أي : تدور كالرحى مضطربة مَوْراً عظيما تتكفأ بأهلها كالسفينة ، وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أي : تزول عن وجه الأرض ، فتصير فى الهواء

---

(١) أخرجه الطبري.

(٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

(٣) ذكره ابن القيسرانى فى تذكرة الموضوعات (٥٣٦).

كالهباء. وتأكيد الفعل بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة ، أي : مورا عجيبا وسيرا بديعا ، لا يدرك كنههما. فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ إذا وقع ذلك ، أو : إذا كان الأمر كما ذكر ، فويل لهم إذا وقع ذلك ، الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ أي : فى اندفاع عجيب فى الأباطيل والأكاذيب يَلْعَبُونَ : يلهون ، فالخوض غلب بإطلاقه فى الاندفاع فى الباطل والكذب ، ومنه قوله : وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ «١». يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا أي : يدفعون إليها دفعا عنيفا شديدا ، بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ، فيدفعون إلى النّار على وجوههم ، ويقال لهم : هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ فى الدنيا.

أَفَسِحْرٌ هذا ، توبيخ وتقريع لهم ، حيث كانوا يسمون الوحى النّاطق بذلك العذاب سحرا ، كأنه قيل : كنتم تقولون للقرآن النّاطق بهذا سحرا ، أفهذا أيضا سحر؟. وتقديم الخبر لأنه محط الإنكار ومدار التوبيخ. أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ أم أنتم عمى عن المخبر عنه ، كما كنتم عميا عن الخبر؟ وهذا تقريع وتهكم ، اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا أي : ادخلوها وقاسوا شدائدها فافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه ، سَواءٌ عَلَيْكُمْ الأمران الصبر وعدمه ، ف «سواء» : مبتدأ حذف خبره. وعلل استواء الصبر وعدمه بقوله : إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من الكفر والمعاصي ، فالصبر إنما يكون له مزية على الجزع لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، وأما الصبر على العذاب ، الذي هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزيّة له على الجزع. نعوذ باللّه من موارد الهوان.

الإشارة : يوم تمور سماء الأرواح ، أي : تتحرك الأرواح وتهيج بالواردات الإلهية ، شوقا إلى اللقاء ، فإذا حصل اللقاء وقع لها السكون والطمأنينة ، ولذلك قيل : «المحبة أولها جنون ، ووسطها فنون ، وآخرها سكون». وسبب هذا الاضطراب الذي يظهر على المريد فى أول بدايته : أنّ جند الأنوار إذا أراد أن يدخل على جند الأغيار ، ويخرجه من وطنه – الذي هو باطن العبد – وقع بينهما تجارب

وتضارب ، فجند الأنوار يريد أن يقلع جند الأغيار من باطن العبد ، ويسكن هو ، وجند الأغيار يريد المقام فى وطنه ، فلا يزال القتال بينهما ، حتى يغلب واحد منهما ، فإذا غلب جند الأنوار سكن فى الباطن ، وسكن الظاهر ، ولم تقع فكرة العبد إلا فى التوحيد ، أو ما يقرب إلى الحق تعالى ، وإذا غلب جند الأغيار ، ولم يترك جند الأنوار يدخل إلى الباطن ، سكن الظاهر أيضا ، ويبقى باطن العبد محشوا بالخواطر والوساوس الدنيوية كما كان ، ورجع العبد إلى مقام العمومية.

وقوله تعالى : وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً أي : تزول جبال وجود العبد عند إشراق أنوار الحقائق ، فويل يومئذ للمكذّبين ، أي : بعد لأهل الإنكار عن حضرة الأسرار ، حين ظفر الطالب بالمطلوب ، ووصل المحب إلى المحبوب ،

---

(١) الآية ٤٥ من سورة المدثر.

الذين هم فى خوض الدنيا وشهواتها وزخارفها يلعبون ، لا حديث لهم إلا عليها ، ولا فكرة إلا فيها. يوم يدعّون إلى النار القطيعة والبعد ، دعّا ، لا خلاص منها ، ولا رجوع ، فتناديهم عزة الحق تعالى : هذه النّار التي كنتم بها تكذّبون ، وتقولون : لا يقطعنا عن اللّه شيء من الدنيا ، وترمون أهل التربية بالسحر ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون حقائق هذه المعاني؟ أصلوا نار القطيعة ، فاصبروا على غم الحجاب ، أو لا تصبروا ، إذ لم تصبروا على مخالفة النفوس حين ينفعكم الصبر ، سواء عليكم أجزعتم أم صبرتم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون فى الدنيا ، من إيثار الهوى والحظوظ ، على مجاهدة النّفوس.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ١٧ الى ٢٣]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (٢١)

وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (٢٣)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُتَّقِينَ الشرك والمعاصي فِي جَنَّاتٍ عظيمة وَنَعِيمٍ أىّ نعيم ، فالتنكير للتفخيم ، أو : للتنوع ، أي : جنات مخصوصة بهم ، ونعيم مخصوص ، فاكِهِينَ ناعمين متلذذين بِما

آتاهُمْ رَبُّهُمْ بما أتحفهم ، وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ ، عطف على «آتاهم» على أن «ما» مصدرية ، أي :

فاكهين بإتيانهم وبوقايتهم ، أو : على «فى جنات النّعيم» أي : استقروا فى جنات ووقاهم ، أو : حال ، إما من المستكن فى الخبر ، أو : من فاعل «آتى» ، أو : مفعوله بإضمار «قد». وإظهار الرّب فى موضع الإضمار مضافا إلى ضمير (هم) لتشريفهم ، ويقال لهم : كُلُوا وَاشْرَبُوا ما شئتم هَنِيئاً أي : أكلا وشربا هنيئا ، أو : طعاما وشرابا هنيئا ، لا تنغيص فيه بخوف انقطاعه أو فواته ، بِما كُنْتُمْ أي : عوض ما كنتم تَعْمَلُونَ فى الدنيا من الخير ، أو جزاءه.

مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ مصطفة ، وهو حال من الضمير فى «كلوا واشربوا» ، وَزَوَّجْناهُمْ أي : قرنّاهم بِحُورٍ جمع حوراء عِينٍ : جمع عيناء ، أي : عظام الأعين حسانها. وفى الكشّاف : وإنما دخلت

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٨٩

الباء فى (بحور) لتضمن معنى زوجناهم قرناهم. هـ. وقال الهروي : (زوّجناهم) أي : قرناهم ، والأزواج : الأشكال والقرناء ، وليس فى الجنة تزويج. هـ. والمنفي : تحمل مؤنة التزويج والمعاقدة ، وإنما يقع التمليك والإقران.

وَالَّذِينَ آمَنُوا : مبتدأ ، وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ : عطف على (آمنوا) ، وبِإِيمانٍ متعلق بالاتباع ، والخبر : أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ «١» أي : تلحق الأولاد بدرجات الآباء إذ شاركوهم فى الإيمان ، وإن قصرت أعمال الذرية عن أعمال الآباء ، وكذلك الآباء تلحق بدرجة الأبناء لتقرّ بذلك أعينهم ، فيلحق بعضهم ببعض ، إذا اجتمعوا فى الإيمان من غير أن ينقص أجر من هو أحسن عملا شيئا ، بزيادته فى درجة الأنقص ، ولا فرق بين من بلغ من الذرية ، أو لم يبلغ ، إذا كان الآباء مؤمنين. انظر الثعلبي.

وفى حديث ابن عباس : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يسأل الرّجل عن أبويه ، وزوجته ، وولده ، فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت ، فيقول : لقد عملت لى ولهم أجمعين ، فيؤمر بإلحاقهم به» «٢». قال القشيري : ليكمل عليهم سرورهم بذلك فإنّ الانفراد بالنعمة والقلب مشتغل بالأهل والذرية ينغص العيش ، وكذلك كلّ من يلاحظ قلبا من صديق وقريب ووليّ وخادم ، قال تعالى فى قصة يوسف : وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ «٣». هـ.

قال فى الحاشية : وربما يستأنس بما ذكر فى الجملة بقوله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ... الآية «٤» ، وما قيل فى سبب نزولها «٥» ، وكذلك حديث : «المرء مع من أحب» «٦» ، وحال الجنة مما لا يخطر على بال ، فيجوز أن يكون الأدنى مع الأعلى بمنازلته معه ،

مع مباينته له بحقيقته ، كما أنّ حيطة الحق تعالى شاملة للكل ، وكلّ يتعرف له على قدره ، فالكلّ معه بمطلق التعرف ، مع تحقق التفاوت ، وأهل الجنة فيها على حكم الأرواح ، وأحكامها لا تكيف ، واعتبر بالفروع مع الأصول ، مع تفاوتها. واللّه أعلم. هـ.

---

(١) أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة «ذرياتهم» بالجمع ، وهى قراءة نافع وأبى جعفر ، فى الثاني دون الأول ، وقرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : «ذريتهم» بالتوحيد فى الأول والثاني ، وقرأ ابن عامر ويعقوب «ذرياتهم» بالجمع فى الأول والثاني.
انظر الإتحاف ٢/ ٤٩٥ – ٤٩٦.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٤٨) للطبرانى وابن مردويه ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه مرفوعا ..

(٣) من الآية ٩٣ من سورة يوسف.

(٤) الآية ٦٩ من سورة النّساء. [.....]

(٥) راجع سبب نزول الآية فى (١/ ٥٢٥).

(٦) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب علامة الحب فى اللّه ، ح ٦١٦٩ وح ٦١٧٠) عن ابن مسعود ، وأبى موسى – رضي اللّه عنهما ، ومسلم فى (البر والصلة ، باب المرء مع من أحب ، ح ٢٦٤٠) عن ابن مسعود.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٠

والحاصل : أنهم يلحقون بهم فى الطبقة ، ويتفاوتون فى نعيم الأرواح والأشباح ، وفى الرّؤية والزيادة «١». واللّه تعالى أعلم.

وَما أَلَتْناهُمْ أي : ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق مِنْ عَمَلِهِمْ من ثواب عملهم مِنْ شَيْءٍ بأن أعطينا بعض مثوباتهم لأبنائهم ، فتنقص مثوبتهم ، وتنحط درجتهم ، وإنما رفعناهم إلى منزلتهم بمحض التفضل والإحسان. والألت : البخس. وقرأ المكي : (ألتناهم) بكسر اللام ، من : ألت يألت ، كعلم يعلم «٢» ، و«من» الأولى متعلقة ب «ألتناهم» ، والثانية زائدة لتأكيد النّفى. كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أي : كل امرئ مرهون عند اللّه تعالى بعمله ، فإن كان صالحا فله ، وإلا أهلكه. والجملة : استئناف بيانى ، كأنه لمّا قال : ما نقصناهم من عملهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم على سبيل التفضل ، قيل : لم كان الإلحاق تفضلا؟ قال : لأن كلّ امرئ بما كسب رهين ، وهؤلاء لم يكن لهم عمل يلحقوا بسببه بهم ، فألحقوا تفضلا.

وَأَمْدَدْناهُمْ أي : وزودناهم فى وقت بعد وقت بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ من فنون النّعماء وألوان اللآلئ ، وإن لم يطلبوا ذلك. يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً أي : يتعاطون ويتعاورون «٣» هم وجلساؤهم من أقربائهم كأسا فيها خمر ، يتناول هذا الكأس من يد هذا ، وهذا من يد هذا ، بكمال رغبة واشتياق ، لا لَغْوٌ فِيها أي : فى شربها ، فلا يتكلمون فى أثناء الشراب إلا بكلام طيب ، فلا يجرى بينهم باطل ، وَلا تَأْثِيمٌ أي : لا يفعلون ما يوجب إثما لصاحبه لو فعله فى دار التكليف ، كما هو شأن المنادمين فى الدنيا ، وإنما يتكلمون بالحكم وأحاسن الكلام ، ويفعلون ما يفعله الكرام.

قال القشيري : لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ لا يجرى بينهم باطل ولا ما فيه لوم ، كما يجرى من الشّرب «٤» اليوم فى الدنيا ، ولا تذهب عقولهم ، فيجرى بينهم ما يخرج عن حدّ الأدب والاستقامة ، وكيف لا يكون مجلسهم بهذه الصفة ، وعلى المعلوم من يسقيهم بمشهد من مجلوسهم ، وعلى رؤية من شربهم ، والقوم عن الدار وعن ما فيها مختطفون باستيلاء ما يستغرقهم ، فالشراب يؤنسهم ، ولكن لا يمر بحاستهم. هـ.

وقرأ المكي والبصري بالفتح «٥» فيها على إعمال «لا» النافية للجنس.

---

(١) على هامش النّسخة الأم ما يلى : هذا تحكم على الآية ، وعلى كرم اللّه تعالى ، فإن الآية مطلقة فى الإلحاق ، فلا يقيدها إلا آية ، أو حديث صحيح. هـ.

(٢) والأول (ألتناهم) بفتح اللام ، من : ألت يألت ، كضرب يضرب.

(٣) تعوروا الشيء وتعاوروه : تداولوه فيما بينهم. انظر اللسان (عور ٤/ ٣١٦٨).

(٤) الشّرب : جمع شارب ، كراكب ، وركب. وهم القوم يشربون ويجتمعون للشراب ، انظر اللسان (شرب ، ٤/ ٢٢٢٢).

(٥) فى «لا لغو فيها ولا تأثيم» وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالفتح بلا تنوين ، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين. انظر الإتحاف ١/ ٤٩٦.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩١

الإشارة : إنّ المتقين ما سوى اللّه فى جنات المعارف عاجلا ، وجنات الزخارف والمعارف آجلا ، ونعيم المشاهدات والمكاشفات والمناجاة ، فاكهين ، معجبين ، متلذذين بما آتاهم ربهم من أصناف ألطافه ، وتقريبه ، ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم ، أي : نار شهوة نفوسهم ، فبردت عنهم ، وسلموا منها ، كلوا من طعام المشاهدات ، واشربوا من أمداد الزيادات والترقيات ، هنيئا بما كنتم تعملون من

المجاهدات والمكابدات ، متكئين على سرر المقامات ، والدرجات ، مصفوفة فى منازل العبودية ، وزوجناهم بحور عين من أبكار الحقائق ، وثيبات العلوم ، والذين آمنوا بهذه الطريق وسلكوها ، واتبعتهم ذريتهم ومن تعلق بهم من طلاب الحق ، ألحقنا بهم ذريتهم ومن تعلق بهم ، وإن لم يبلغوا صفاء مشربهم من الوصال والاتصال ، فيكونون معهم فى الدرجة ، مع تفاوتهم فى نعيم المشاهدة ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ، بل ألحقناهم بهم فضلا وكرما ، مع توفر ثواب عمل الملحق بهم. كل امرئ بما كسب رهين ، لا يزيد نعيم روحه على سعيه فى الدنيا ومجاهدته ، وإن تساوى فى الدرجة مع غيره. وأمددناهم بفاكهة من حلاوة المعاملة ، ولحم مما يشتهون من لذائذ المشاهدة ، يتنازعون فيها فى جنة المعارف ، كأس خمرة المحبة والفناء ، فيفنون عن وجودهم فى شهود محبوبهم. يتناولون ذلك من أشياخهم واحدا بعد واحد ، وقد يجتمعون فى كأس واحدة ، لا لغو فيها ، أي : لا حديث للنفس فى حال شربها ، بل الهم كله مجموع فيها ، كما قال القائل :

وإذا جلست إلى المدام وشربه فاجعل حديثك كلّه فى الكأس

فالخمرة التي يشوبها شيء من حديث النّفس ليست بصافية من الأكدار. ولا تأثيم بنزوع الرّوح إلى طبع النفس ، إذا نزلت إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، بل تكون فى ذلك باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه ، تنزل بالإذن والتمكين ، والرّسوخ فى اليقين ، جعلنا اللّه من ذلك القبيل بمنّه وكرمه.

وقال الورتجبي : يَتَنازَعُونَ ... الآية ، وصفهم اللّه فى شربهم كاسات شراب الوصلة بالمسارعة والشوق إلى مزيد القربة ، ثم وصف شرابهم أنه يورثهم التمكين والاستقامة فى السكر ، لا يزول حالهم إلى الشطح والعربدة ، وما يتكلم به سكارى المعرفة فى الدنيا عند الخلق ، ولا يشابه حال أهل الحضرة حال أهل الدنيا من جميع المعاني. هـ.

ثم قال تعالى :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٢٤ الى ٢٨]

وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٥) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٢

يقول الحق جل جلاله : وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ أي : بالكأس أو : فى شأن الخدمة كلها غِلْمانٌ لَهُمْ أي : مماليك مخصصون بهم ، قيل : أولاد الكفار الذين ماتوا صغارا ، وقيل : توجدهم القدرة من الغيب ،

وفى الحديث : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه ، فيجيبه ألف ، كلهم يناديه : لبيك لبيك» «١». قلت : هذا فى مقام أهل اليمين ، ولما المقربون فإذا اهتموا بشيء حضر ، بغلام أو بغير غلام ، من غير احتياج إلى نداء. وقال ابن عمر رضي اللّه عنه : (ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألف غلام ، كل غلام على عمل ما عليه صاحبه) «٢».

كَأَنَّهُمْ من بياضهم وصفائهم لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ مصون فى الصدف لأنه حينئذ يكون أصفى وأبهى ، أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمن الغالي القيمة. قيل لقتادة : هذا الخادم فكيف المخدوم؟ ، فقال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم :

«والذي نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر النّجوم» «٣».

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ يسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله ، وما استحق به نيل ما عند اللّه ، ف كل بعض سائل ومسئول. قالُوا أي : المسئولون فى جوابهم ، وهم كلّ واحد منهم فى الحقيقة : إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا أي : فى الدنيا مُشْفِقِينَ أرقّاء القلوب من خشية اللّه ، أو : خائفين من نزع الإيمان وفوت الأمان ، أو : من ردّ الحسنات والأخذ بالسيئات ، أو : واجلين من العاقبة ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا بالمغفرة والرّحمة وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ وهى الرّيح الحارة ، التي تدخل المسامّ ، فسمّيت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة. إِنَّا كُنَّا قَبْلُ أي : من قبل لقاء اللّه والمصير إليه – يعنون : فى الدنيا ، نَدْعُوهُ نعبده ولا نعبد غيره ، أو نسأله الوقاية ، إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ المحسن الرَّحِيمُ الكثير الرّحمة ، الذي إذا عبد أثاب ، وإذا سئل أجاب ، وقرأ نافع والكسائي بالفتح «٤» ، أي : لأنه ، أو بأنه.

الإشارة : ويطوف على قلوبهم علوم وهبية ، وحكم غيبية ، تزهو على اليواقيت المكنونة. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون : كيف سلكوا طريق الوصول ، وكيف كانت مجاهدة كلّ واحد ومسيره إلى اللّه ، إما تحدثا بالنعم ، أو :

للاقتداء بهم ، وفى الحكم : «عبارتهم إما لفيضان وجد ، أو : لهداية مريد» «٥». إنّا كنا قبل الوصول فى أهلنا ، أي : فى عالم الإنسانية مشفقين من الانقطاع والرّجوع ، خائفين من سموم صفات البهيمية والشيطانية ، والشهوات الدنيوية ، فإنها تهب بسموم قهر الحق ، قهر بها جلّ عباده فانقطعوا عنه ، فمنّ اللّه علينا ، ووصلنا بما منه إلينا ، لا بما منا إليه ،

---

(١) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (ص ١٦٠) للثعلبى ، عن وكيع عن هشام عن أبيه ، عن السيدة عائشة – رضي اللّه عنها.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرّزّاق فى التفسير (٢/ ٢٤٨) والطبري (٢٧/ ٢٩) عن قتادة ، مرسلا.

(٤) فى «ندعوه أنه» على التعليل ، وقرأ الباقون «إنه» بالكسر على الاستئناف. انظر الإتحاف (٢/

.(٤٩٧

(٥) حكمة رقم ١٨٦ انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ٣٦).

(٤٩٢/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٣

ووقانا عذاب السموم ، وهو الحرص والجزع ، والانقطاع عن الحبيب ، ولو لا فضله ما تخلصنا منه ، إنّا كنا من قبل الوصول ندعوه أن يأخذ بأيدينا ، ويجذبنا إلى حضرته ، ويرحمنا بالوصول ، ويبرّ بنا ، إنه هو البر بمزيده ، الرحيم بمن ينيب إليه.

ثم أمر نبيّه باستمراره على ما أمره به من التذكير فيما سلف ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٢٩ الى ٤٣]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (٣٨)

أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣)

يقول الحق جل جلاله : فَذَكِّرْ أي : فاثبت على ما أنت عليه من تذكير النّاس وموعظتهم ، فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ أي : بحمده وإنعامه عليك بالنبوة ورجاحة العقل بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ كما زعموا ، قاتلهم اللّه أنّى يؤفكون ، أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ أي : حوادث الدهر ، أي : ننتظر به نوائب الزمان حتى يهلك كما هلك الشعراء من قبله ، زهير والنّابغة. و«أم» فى هذه الآي منقطعة بمعنى «بل».

قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أتربّص هلاككم ، كما تتربصون هلاكى. وفيه عدة كريمة بإهلاكهم.

وقد جرب أنّ من تربص موت أحد لينال رئاسته ، أو ما عنده ، لا يموت إلا قبله.

أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ أي : عقولهم بِهذا التناقض فى المقالات ، فإنّ الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر فى

الأمور ، والمجنون مغطى عقله ، مختل فكره ، والشاعر يقول ما لا يفعل ، فكيف يجتمع أوصاف هؤلاء فى

(٤٩٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٤

واحد؟ وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنّهى ، فكذبهم ما صدر منهم من هذه المقالات المضطربة ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ يجاوزون الحدود فى المكابرة والعناد ، ولا يحومون حول الرّشد والسداد. وإسناد الأمر إلى الأحلام مجاز.

أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ اختلقته من تلقاء نفسه ، بَلْ لا يُؤْمِنُونَ ، ردّ عليهم ، أي : ليس الأمر كما زعموا ، بل لكفرهم وعنادهم يقذفون بهذه الأباطيل ، التي لا يخفى بطلانها على أحد ، فكيف يقدر البشر أن يأتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ أي : مثل القرآن فى البلاغة والإعجاز إِنْ كانُوا صادِقِينَ فى أن محمدا تقوّله من تلقاء نفسه لأنه بلغاتهم ، وهم فصحاء ، مشاركون له صلّى اللّه عليه وسلم فى العربية والبلاغة ، مع ما لهم من طول الممارسة للخطب والأشعار ، وكثرة المقاولة للنظم والنّثر ، والمبالغة فى حفظ الوقائع والأيام ، ولا ريب فى أنّ القدرة على الشيء من موجبات الإتيان به مع دواعى الأمر بذلك من تعجيزهم وإفحامهم وطلب معارضتهم.

أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أي : أم أحدثوا وقدّروا هذا التقدير البديع ، الذي عليه فطرتهم ، من غير محدث ومقدّر. أو : أم خلقوا من غير شيء من الحكمة ، بأن خلقوا عبثا ، فلا يتوجه عليهم حساب ولا عقاب؟ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ الموجدون لأنفسهم؟ فيلزم عليه الدور ، وهو تقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها ، أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فلا يعبدون خالقهما بَلْ لا يُوقِنُونَ لا يتدبرون فى الآيات ، فيعلمون خالقهم ، وخالق السموات والأرض ، فيفردونه بالعبادة.

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ من النّبوة والرّزق وغيرهما ، فيخصّوا بما شاءوا من شاءوا ، أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ أي : الأرباب الغالبون ، المسلّطون على الأمور يدبرونها كيف شاءوا ، حتى يدبروا أمر الرّبوبية ، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم. وقرأ المكي والشامي بالسين على الأصل.

أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ منصوب يرتقون به إلى السماء ، يَسْتَمِعُونَ فِيهِ كلام الملائكة ، وما يوحى إليهم من علم الغيب ، حتى يعلموا أن ما هم عليه حق ، وما عليه غيرهم باطل ، أو ما هو كائن من الأمور التي يتفوّهون بها رجما بالغيب ، ويعلّقون بها أطماعهم الفارغة من هلاكه صلّى اللّه عليه وسلم قبلهم ، وانفرادهم بالرئاسة. و«فى» : سببية ، أي :

يستمعون بسبب حصولهم فيه ، أو : ضمّن «يستمعون» يعرجون. وقال الزجاج : (يستمعون فيه) أي : عليه ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة ، تصدق استماع مستمعهم.

(٤٩٤/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٥

ثم سفّه أحلامهم بقوله : أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ، حيث اختاروا للّه ما يكرهون ، وهم حكماء فى زعمهم ، أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً على التبليغ والإنذار فَهُمْ لأجل ذلك مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أي : من التزام غرامة فادحة محمّلون الثقل ، فلذلك لا يتبعونك. والمغرم : أن يلزم الإنسان ما ليس عليه. أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أي : اللوح المحفوظ ، المكتوب فيه الغيوب ، فَهُمْ يَكْتُبُونَ ما فيه ، حتى يتكلموا فى ذلك بنفي أو إثبات.

أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً هو كيدهم برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فى دار النّدوة ، فَالَّذِينَ كَفَرُوا وهم المذكورون ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر ، أي : ف هُمُ الْمَكِيدُونَ الذين يحيق بهم كيدهم ، ويعود عليهم وباله ، لا من أرادوا أن يكيدوه وهو ما أصابهم يوم بدر وغيره. أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يمنعهم من عذابه ، سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ أي : تنزيها له عن إشراكهم ، أو : عن شركة ما يشركونه به. وحاصل ما ذكر الحق وتعالى من الإضرابات : أحد عشر ، ثمانية طعنوا بها فى جانب النّبوة ، وثلاثة فى جانب الرّبوبية ، وهو قوله : أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ ذكرها الحق تعالى تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أي : كما طعنوا فى جنابك طعنوا فى جانبى ، فاصبر حتى نأخذهم.

الإشارة : فذكّر أيها الخليفة للرسول ، فما أنت بحمد اللّه بكاهن ولا مجنون ، وإن رموك بشىء من ذلك. قال القشيري : قد علموا أنه صلّى اللّه عليه وسلم برىء من الكهانة والجنون ، ولكنهم قالوه على جهة الاشتفاء ، كالسفيه إذا بسط لسانه فيمن يشنأه «١» بما يعلم أنه برىء مما يقوله. هـ. وكلّ ما قيل فى جانب النّبوة يقال مثله فى جانب الولاية ، سنّة ماضية. قال القشيري : طبع الإنسان متنفرة من حقيقة الدين ، مجبولة على حب الدنيا والحظوظ ، لا يمكن الخروج منها إلا بجهد جهيد ، على قانون الشريعة ، ومتابعة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلم وخلفائه ، وهم العلماء الرّبانيون ، الراسخون فى العلم باللّه ، من المشايخ المسلّكين فى كلّ زمان ، والخلق مع دعوى إسلامهم ينكرون على سيرهم فى الأغلب ، ويستبعدون ترك الدنيا والعزلة ، والانقطاع عن الخلق ، والتبتل إلى اللّه ، وطلب الأمن. كتب اللّه فى قلوبهم الإيمان ، وأيّدهم بروح منه ، وهو الصدق فى الطلب ، وحسن الإرادة المنتجة من بذر يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، وذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء. هـ مختصرا.

وقوله تعالى : قُلْ تَرَبَّصُوا ... الآية ، قال القشيري : ولا ينبغى لأحد أن يتمنى نفاق سوقه بموت أحد ، لتنتهى النوبة إليه ، قلّ ما تكون هذه صفتة إلا سبقته منيته ، ولا يدرك ما تمناه. هـ. وقال فى مختصرة : الآية تشير إلى التصبر فى الأمور ، ودعوة الخلق إلى اللّه ، والتوكّل على اللّه فيما يجرى على يد عباده ، والتسليم لأحكامه فى

---

(١) أي : يبغضه.

المقبولين والمردودين. هـ. وقوله : أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا ... إلى قوله : عَمَّا يُشْرِكُونَ هذه صفة أهل الانتقاد على أهل الخصوصية فى كلّ زمان ، وهى تدلّ على غاية حمقهم وسفههم ، نجانا اللّه من جميع ذلك.

ثم هددهم بعد تبيين عنادهم ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٤ الى ٤٧]

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً قطعة مِنَ السَّماءِ ساقِطاً عليهم لتعذيبهم ، يَقُولُوا من فرط طغيانهم وعنادهم : هذا سَحابٌ مَرْكُومٌ أي : تراكم بعضها على بعض لمطرنا ، ولم يصدقوا أنه ساقط عليهم لعذابهم ، يعنى : أنهم بلغوا من الطغيان بحيث لو أسقطناه عليهم حسبما قالوا : أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً «١» لعاندوا وقالوا سحاب مركوم. فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ «٢» ، وهو اليوم الذي صعقوا فيه بالقتل يوم بدر ، لا عند النّفخة الأولى ، كما قيل إذ لا يصعق بها إلا من كان حيّا حينئذ «٣». وقرأ عاصم والشامي بضم الياء ، يقال : صعقه ، فصعق ، أو : من أصعقه.

يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً من الإغناء ، بدل من «يومهم» ولا يخفى أن التعرض لبيان عدم نفع كيدهم يستدعى استعمالهم له فى الانتفاع به ، وليس ذلك إلا ما دبّروه فى أمره صلّى اللّه عليه وسلم من الكيد يوم بدر ، من

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة الإسراء. [.....]

(٢) قرأ عاصم وابن عامر «يصعقون» بضم الياء ، مبنيا للمفعول. وقرأ الباقون بفتحها ، مبنيا للفاعل. انظر الإتحاف (٢/ ٤٩٨).

(٣) على هامش النّسخة الأم مايلى :

هذا باطل بداهة ، بل المراد به عند النّفخة ، كما فى آية المعارج : ... حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ، يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ ... الآية : ٤٢ – ٤٣. وقوله : لا يصعق بها إلا من كان حيا حينئذ ، أبطل من الذي قبله ، فإن اللّه تعالى يقول : فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ ... ومن فى الأرض عام ، بدليل الحديث المخرّج فى الصحيح : «يصعق النّاس فأكون أول من أفاق ، فإذا موسى باطش بالعرش ، فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أو كان ممن استثنى اللّه ، فصرح صلّى اللّه عليه وسلم النبي بأن جميع الخلق يصعقون ، فمن أين جاء هذا الوهم فى تخصيص ذلك بالأحياء ، بل قوله تعالى : فَإِذا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ نص فى ذلك أيضا لأن الضمير عائد على من فى السموات ومن فى الأرض. وأيضا : فإن يوم بدر لم يكن فيه صعق ، وإنما كان فيه قتل ، وليس هو بصعق. ثم إن اللّه يخاطب كفار قريش كلهم ، ولم يمت منهم يوم بدر إلا سبعون ... هـ.

قلت : حديث الصعق الذي ذكره المحشى ، أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب نفخ الصعق ح ٦٥١٧) ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل موسى ، رقم ٢٣٧٣ ، ح ١٦٠) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٧

مناشبتهم القتال ، وقصد قتله خفية ، وليس يجرى فى نفخة الصعق شيء من الكيد والحيل ، فلا يليق حمله عليه «١».

وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم.

وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أي : لهم ، ووضع الموصول موضع الضمير تسجيلا عليهم بالظلم ، أي : وإنّ لهؤلاء الظلمة عَذاباً آخر دُونَ ذلِكَ دون ما لا قوة من القتل ، أي : قبله ، وهو القحط الذي أصابهم ، حتى أكلوا الجلود والميتة. أو : وإنّ لهم عذابا دون ذلك ، أي : وراءه ، وهو عذاب القبر وما بعده من فنون عذاب الآخرة ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ أن الأمر كما ذكر ، وفيه إشارة إلى أن فيهم من يعلم ذلك ، وإنما يصر على ذلك عنادا أو : لا يعلمون شيئا أصلا إذ هم جاهلية جهلاء.

الإشارة : أهل الحسد والعناد لا ينفعهم ما يرونه من المعجزات والكرامات ، أو الحسد يغطى نور

البصيرة ، فذرهم فى غفلتهم وحيرتهم ، وكثافة حجابهم ، حتى يصعقوا بالموت فيعرفون الحق ، حين لا تنفع المعرفة فيقع النّدم والتحسّر. وإنّ لهم عذابا دون ذلك ، وهو عيشهم فى الدنيا عيش ضنك فى هم وغم وجزع وهلع ، ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ذلك لأنهم لا يرون إلا من هو مثلهم. ومن توسعت دائرة معرفته ، فعاش فى روح وريحان ، فهو غائب عنهم ، لا يعرفون مقامه ، ولا منزلته.

ثم أمر بالصبر ، الذي هو عنوان الظفر بكلّ مطلوب ، فقال :

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٤٨ الى ٤٩]

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (٤٩)

يقول الحق جل جلاله لنبيه صلّى اللّه عليه وسلم ولمن كان على قدمه : وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ بإمهالهم إلى اليوم الموعود مع مقاساتك آذاهم ، أو : واصبر لما حكم به عليك من شدائد الوقت ، وإذاية الخلق ، فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا أي :

حفظنا وحمايتنا ، بحيث نراقبك ونكلؤك. والمراد بالحكم : القضاء السابق ، أي : لما قضى به عليك ، وفى إضافة الحكم إلى عنوان الرّبوبية تهييج على الصبر ، وحمل عليه ، أي : إنما هو حكم سيدك الذي يربيك ويقوم بأمورك وحفظك ، فما فيه إلا نفعك ورفعة قدرك. وجمع العين والضمير للإيذان بغاية الاعتناء بالحفظ والرّعاية. وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي : نزّهه ملتبسا بحمده على نعمائه الفائتة للحصر ، حِينَ تَقُومُ أي : من أىّ مكان قمت ، أو : من

---

(١) بل يليق حمله على نفخة الصعق ، على أن يكون المراد بكيدهم : ما كادوا به فى الدنيا.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٤٩٨

منامك. وقال سعيد بن جبير : حين تقوم من مجلسك تقول : سبحانك اللهم وبحمدك. وقال الضحاك والرّبيع : إذا قمت إلى الصلاة فقل : سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك ، وتعالى جدّك ، ولا إله غيرك «١». هـ. وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ أي : فى بعض الليل وأفراده لأن العبادة فيه أشق على النّفس ، وأبعد من الرّياء ، كما يلوح به تقديمه على الفعل ، والمراد إما الصلاة فى الليل ، أو التسبيح باللسان سبحان اللّه وبحمده ، وَإِدْبارَ النُّجُومِ أي : وقت إدبارها ، أي : غيبتها بضوء الصبح ، والمراد : آخر الليل ، وقيل : التسبيح من الليل : صلاة العشاء ، وإدبار النّجوم :

صلاة الفجر. وقرأ زيد عن يعقوب بفتح الهمز «٢» ، أي : أعقابها إذا غربت.

الإشارة : فى هذه تسلية لأهل البلاء والجلال ، فإنّ من علم أن ما أصابه إنما هو حكم ربه ، الذي يقوم به ويحفظه ، وهو بمرئ منه ومسمع ، لا يهوله ما نزل ، بل يزيده غبطة وسرورا لعلمه بأنه ما أنزله به إلا لرفعة قدره ، وتشحير «٣» ذهب نفسه ، وقطع البقايا منه ، فهو فى الحقيقة نعمة لا نقمة ، وفى الحكم : «من ظن انفكاك لطف اللّه عن قدره فذلك لقصور نظره». «٤»

قال القشيري : أي : اصبر لما حكم به فى الأزل ، فإنه لا يتغير حكمنا الأول إن صبرت وإن لم تصبر ، لكن إن صبرت على قضائى جزيت ثواب الصابرين بغير حساب. وفيه إشارة آخري ، أي : اصبر فإنك بأعيننا نعينك على الصبر لأحكامنا الأزلية ، كما قال تعالى : وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ «٥». هـ. وقيل المعنى : فإنك من جملة أعيننا ، وأعيان الحق الكمل من الأنبياء ، والرّسل ، والملائكة ، وأكابر أوليائه ، فإنهم أعيان تجلياته ، ولذلك الإشارة بقول عمر رضي اللّه عنه فى شأن علىّ – كرم اللّه وجهه ، حين ضرب شخصا فشكاه : «أصابته عين من عيون اللّه» ، وذلك لما تمكنوا من سر الحقيقة ، صاروا عين العين. ومن ذلك قولهم : ليس الشأن أن تعرف الاسم ، إنما الشأن أن تكون عين الاسم ، أي : عين المسمّى ، وهو سر التصرف بالهوية عند التمكين فيها ، وتمكن غيبة الشهود فى الملك المعبود ، وقوله تعالى : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ... إلخ ، فيه إشارة إلى مداومة الذكر ، والاستغراق فيه ، ودوام التّنزيه للّه تعالى عن رؤية شيء معه. وباللّه التوفيق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٧/ ٣٨) وزاد السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ١٥١) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، عن الضحاك.

(٢) وقرأ بها أيضا الأعمش ، كما فى مختصر ابن خالويه (ص ١٤٧) وسالم بن أبى الجعد ، ومحمد بن السميفع ، كما فى القرطبي (٧/ ٦٤٣٨).

(٣) أي : تنقية وتصفية.

(٤) حكمة رقم (١٠٦) انظر تبويب الحكم (ص/ ٢١).

(٥) من الآية ١٢٧ من سورة النّحل.

سورة النّجم

مكية. وهى اثنتان وستون آية. وهى أول سورة أعلن بها النّبىّ صلّى اللّه عليه وسلم. ومناسبتها لما قبلها

: قوله : أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ «١» فأقسم هنا أنه ما ينطق عن الهوى ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ١ الى ١٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (١) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (٢) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (٤)

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (٧) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (٨) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى (٩)

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (١٠) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (١١) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (١٤)

عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (١٦) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (١٧) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (١٨)

يقول الحق جل جلاله : وَالنَّجْمِ أي : الثريا ، أو : جنس النّجم إِذا هَوى إذا غرب ، أو : انتثر يوم القيامة ، أو طلع ، يقال : هوى هويا ، بوزن «فيول» إذا غرب ، وهوى هويا ، بوزن دخول : إذا طلع «٢». والعامل فى (إذا) فعل القسم ، أي : أقسم بالنجم وقت غروبه أو طلوعه. وجواب القسم : ما ضَلَّ عن قصد الحق صاحِبُكُمْ أي : محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، والخطاب لقريش. وَما غَوى فى اتباع الباطل ، أو : ما اعتقد باطلا قط ، أي : هو فى غاية الهدى والرّشد ، وليس مما تتوهموه من الضلالة والغواية فى شيء. فالضلال نقيض الهدى ، والغى نقيض الرّشد ، ومرجعهما لشيء واحد ، وهو عدم اتباع طريق الحق.

---

(١) الآية سورة الطور ٣٣.

(٢) راجع لسان العرب (مادة هوا ٦/ ٤٧٢٧).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٠

وقال الفخر : أكثر المفسرين لم يفرقوا بين الغى والضلال ، والفرق بينهما : أنّ الغى فى مقابلة الرّشد ، والضلال أعم منه ، والاسم من الغى : الغواية – بالفتح – والحاصل : أنّ الغى أقبح من الضلال ، إذ لا يرجى فلاحه. وإيراده صلّى اللّه عليه وسلم بعنوان صاحبهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة ، وإحاطتهم خبرا ببراءته – عليه الصلاة والسّلام – مما نفى عنه بالكلية ، وباتصافه – عليه

الصلاة والسّلام – بغاية الهدى والرّشد فإنّ كون صحبتهم له صلّى اللّه عليه وسلم ، ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتما. وتقييد القسم بوقت الهوى لأن النّجم لا يهتدى به الساري إلا عند هبوطه أو صعوده ، وأما ما دام فى وسط السماء فلا يهتدى به ، ولا يعرف المشرق من المغرب ، ولا الشمال من الجنوب.

ثم قال : وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى أي : وما يصدر نطقه بالقرآن أو غيره عن هواه ورأيه أصلا ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ من اللّه تعالى يُوحى إليه ، وهى صفة مؤكدة لوحى ، لرفع المجاز ، مفيدة لاستمرار التجدد للوحى ، واحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء – عليهم السّلام – ويجاب بأن اللّه تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد وقررهم عليه كان كالوحى ، لا نطقا عن الهوى.

عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى أي : ملك شديد قواه ، وهو جبريل عليه السّلام ، فإنه الواسطة فى إيراد الوحى إلى الأنبياء ، ومن قوته أنه خلع قرى قوم لوط من الماء الأسود الذي تحت الثرى ، وحملها على جناحه ، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود ، فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده أسرع من لحظة.

ذُو مِرَّةٍ أي : ذو خصابة «١» فى عقله ، ورزانة ومتانة فى دينه. وأصل المرة : الشدّة ، من مراير الحبل ، وهو فتله فتلا شديدا ، أو : ذو حسن فى منظره ، فَاسْتَوى : عطف على «علّمه» بطريق التفسير ، فإنه إلى قوله :

(ما أوحى) بيان لكيفية التعليم ، أو : فاستقام على صورته التي خلقه اللّه عليها ، دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وذلك أنّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أحب أن يراه فى الصورة التي خلقه اللّه عليها ، وكان صلّى اللّه عليه وسلم بحراء ، فطلع له جبريل من المشرق ، وسدّ الأرض من المغرب ، وملأ الأفق ، فخرّ رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فنزل فى صورة الآدمي ، فضمه إلى نفسه ، وجعل يمسح الغبار عن وجهه. قيل : ما رآه أحد من الأنبياء فى صورته الأصلية إلا النّبى صلى اللّه عليه وسلم فإنه رآه فيها مرتين مرة فى الأرض ، ومرة فى السماء ، وقيل : استوى بقوته على ما جعل له [من الأمر] «٢».

---

(١) فى تفسير أبى السعود [خصافة].

(٢) زيادة من تفسير أبى السعود.

وَهُوَ أي : جبريل بِالْأُفُقِ الْأَعْلى أفق الشمس ، أي : مطلعها ، ثُمَّ دَنا جبريل من النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فَتَدَلَّى أي : زاد فى القرب ، أو : استرسل من الأفق مع تعلق به. يقال : تدلت الشجرة ، ودلّى رجله من السرير ، وأدلى دلوه ، والدوالي : الثمر المعلّق. فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أي : مقدار قوسين عربيين. والقاب : المقدار. قال قتادة وغيره : معناه : من طرف العود إلى طرفه الآخر. وقال مجاهد والحسن : من الوتر إلى العود فى وسط القوس ، أي :

فكان بين جبريل والنّبى صلّى اللّه عليه وسلم مقدار قوسين ، أَوْ أَدْنى فى تقديركم ، كقوله : أَوْ يَزِيدُونَ «١» وهذا لأنهم خوطبوا على لغتهم وفهمهم ، وهم يقولون : هذا مقدار قوسين أو أدنى.

فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى

أي : فأوحى اللّه تعالى إلى عبده بواسطة تجلى جبريل (ما أوحى) من الأمور العظيمة التي لا تفى بها العبارة ، وقيل : أوحى إليه : «أنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها ، وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ويمكن حمل الآية على قصة المعراج ، أي : (علّمه شديد القوى) وهو اللّه تعالى ، (ذو مرة) أي : شدة ومتانة ، ومنه : اسمه «المتين» ، (فاستوى) بنوره أي : تجلى بنور ذاته من ناحية الأفق ، أي : العلو (فتدلى) ذلك النّور (فكان قاب قوسين أو أدنى) وفى البخاري : «فدنا ربّ العزة دنو يليق بجلاله ومجده» ويرجع لتجليه لنبيه ، وتنزله له ، وتعرّفه له ، وفى حديث الإسراء عنه – عليه الصلاة والسّلام : «سمع النّداء من العلي الأعلى : أدن يا خير البرية ، أدن يا محمد ، فأدنانى ربى حتى كنت كما قال تعالى : ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى ». قال القشيري : ويقال : كان بينه وبين ربه قدر قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى.

ما كَذَبَ الْفُؤادُ أي : فؤاد محمد عليه السّلام ما رَأى أي : ما رآه ببصره من صورة جبريل على تلك الكيفية ، أو :

من نور الحق تعالى الذي تجلى له ، أي : ما قال فؤاده لمّا رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا لأنه عرفه بقلبه ، كما عرفه ببصره ، وقيل : على إسقاط الخافض ، أي : ما كذب القلب فيما رآه البصر ، بل ما رآه ببصره حققه ، وفى الحديث : سئل صلّى اللّه عليه وسلم هل رأيت ربك؟ قال : «رأيت ربى بفؤادى مرتين» «٢» ، حديث آخر : «جعل نور بصرى فى فؤادى ، فنظرت إليه بفؤادى» «٣» ، يعنى أنه انعكس نور البصر إلى نور البصيرة فرأى ببصره ما رأته البصيرة ، وجاء

---

(١) من الآية ١٤٧ من سورة الصافات.

(٢) أخرجه الطبري ، وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٦٠) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن بعض أصحاب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم. وأخرج مسلم فى (الإيمان ، باب معنى قول اللّه عز وجل : وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى .. رقم ٢٨٤ ح ١٧٦) عن ابن عباس ،

قال : «رآه بفؤاده مرتين». [.....]

(٣) أخرجه بطوله ، الطبري ، عن ابن عباس ، فى رواية لحديث «اختصام الملأ الأعلى فى الدرجات والكفارات». قال ابن كثير فى التفسير (٤/ ٢٥١) : «إسناده ضعيف».

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٢

أيضا : أنه لما انتهى إلى العرش صار كله بصرا ، وبهذا يرتفع الخلاف ، وأنه رآه ببصر رأسه وقوله صلّى اللّه عليه وسلم ، حين سأله أبو ذر : هل رأيت ربك؟ فقال : «نورانى أراه» «١» وفى رواية : «نور أنّى أراه»؟ «٢» بالاستفهام ، وفى طريق آخر :

«رأيت نورا» «٣» وحاصلها : أنه رأى ذات الحق متجلية بنور من نور جبروته إذ لا يمكن أن ترى الذات إلا بواسطة التجليات ، كما هو مقرر عند محققى الصوفية ، كما قال الشاعر :

وليست تنال الذات من غير مظهر ولو هتك الإنسان من شدة الحرص

وقال كعب لابن عباس : إنّ اللّه قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى ، فكلّم موسى مرتين ، ورآه محمد مرتين «٤». وقيل لابن عباس : ألم يقل اللّه : لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «٥» ، قال : ذلك إذا تجلى بنوره «٦». الذي هو نوره الأصلى ، يعنى أن اللّه تعالى يتجلىلخلقه على ما يطيقون ، ولو تجلى بنوره الأصلى لتلاشى الخلق ، كما قال فى الحديث : «حجابه النّور ، لو كشفه لأحرقت تجليات وجهه ما أدركه من بصره» «٧».

أَفَتُمارُونَهُ أي : أفتجادلونه ، من : المراء ، وهو المجادلة ، واشتقاقه من : مرى النّاقة ، وهو استخراج لبنها ، كأنّ كلّ واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه ، أي : يستخرجه. وقرىء فى التواتر : «أفتمرونه» «٨» أي :

أفتغلبونه. ولما فيه من معنى الغلبة ، قال تعالى : عَلى ما يَرى فعدّى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا ، وقيل :

أفتمرونه : أفتجحدونه ، يقال : مريته حقّه : جحدته ، وتعديته ب «على» على مذهب التضمين ، والمعنى : أفتخاصمونه على ما يرى معاينة ، وحققه باطنا.

---

(١) ذكر هذه الرّواية بنصها السيوطي فى الدر المنثور (٦/ ١٦٠) وعزاها لمسلم والترمذي وابن مردويه ، عن أبى ذر ، ولم أقف عليها فى مسلم والترمذي. وقال الإمام النّووى فى شرح صحيح مسلم (٣/ ١٢) : قال الإمام المازري : وروى : «نورانى أراه» بفتح الرّاء وكسر النّون وتشديد الياء ، ويحتمل

أن يكون معناه راجعا إلى ما قلنا ، أي : خالق النّور المانع من رؤيته ، فيكون من صفات الأفعال.
وقال القاضي عياض – رحمه اللّه : هذه الرّواية لم تقع إلينا ، ولا رأيتها فى شيء من الأصول. هـ.
(٢) أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله صلّى اللّه عليه وسلم : نور أنى أراه ، رقم ٢٩١ ، ح ١٧٨).
(٣) أخرجه مسلم فى الموضع السابق (رقم ٢٩٢).
(٤) أخرجه بطوله الترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة النّجم ، ح ٣٧٢٨).
(٥) من الآية ١٠٣ من سورة الأنعام.
(٦) أخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (ص ٤١٠) وضعّفه ، عن عكرمة عن ابن عباس ، بلفظ : «قال : يا لا أم لك ، ذلك نوره الذي هو نوره ، إذا تجلى بنوره لا يدركه شى ء».
(٧) جزء من حديث صحيح أخرجه مسلم فى (الإيمان ، باب فى قوله عليه السّلام : «إن اللّه لا ينام ، رقم ٢٩٣ ح ١٧٩) عن أبى موسى رضي اللّه عنه.
(٨) «أفتمرونه» بفتح التاء وسكون الميم بلا ألف. وبها قرأ حمزة والكسائي ويعقوب ، وخلف. وقرأ الجمهور «أفتمارونه» بضم التاء وفتح الميم وألف بعدها. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠١).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٣
وَلَقَدْ رَآهُ أي : رأى محمد جبريل على صورته الأصلية ، أو : رأى ربه على تجل خاص وتعرف تام ، نَزْلَةً أُخْرى مرّة أخرى ، والحاصل : أنه عليه السّلام رأى ربه بتجل خاص جبروتى مرتين ، عند خرق الحجب العلوية فوق العرش ، عند السدرة ، وأما رؤيته عليه السّلام للّه تعالى فى مظاهر الكائنات ففى كلّ حين ، لا يغيب عنه طرفة عين.
والنّزلة : فعلة من النّزول ، نصب نصب الظرف الذي هو «مرّة». عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى ، الجمهور : أنها شجرة النّبق فى السماء السابعة ، عن يمين العرش ، وتسميتها المنتهى إما لأنها فى منتهى الجنة وآخرها ، أو : لأنها لم يجاوزها أحد ، وإليها ينتهى علم الخلائق ، ولا يعلم أحد ما وراءها ، أو : إليها ينتهى أرواح الخلائق ، أو : أرواح الشهداء ، وفى الحديث : «أنها شجرة يسير الرّاكب فى ظلها ألف عام ، لا يقطعها ، والورقة منها تظل الأمّة ، وتمرها كالقلال الكبار». «١»
عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى أي : الجنة التي يصير إليها المتقون ويأوون إليها ، أو : تأوى إليها أرواح الشهداء والصدّيقين والأنبياء. قال ابن جزى : يعنى أن الجنة التي وعد اللّه بها عباده هى عند سدرة المنتهى ، وقيل : هى جنة أخرى ، والأول أظهر وأشهر. هـ. ويؤيده ما فى الحديث : «إن النّيل والفرات يخرجان

من أصلها» وهما من الجنة ، كما فى الصحيح «٢». إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى ، ظرف للرؤية ، أي : لقد رآه عند السدرة وقت ما غشيها ما غشيها ، مما لا يكتنهه الوصف ، ولا يفى به البيان ، وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية ، استحضارا لصورتها البديعة ، أو للإيذان باستمرار الغشيان وتجدده ، وقيل : يغشاها الجمّ الغفير من الملائكة ، يعبدون اللّه تعالى عندها ، وقيل : يزورونها متبركين بها ، كما يزور النّاس الكعبة ، وقيل : يغشاها فراش من ذهب ، والفراش – بفتح الفاء – ما يطير ويضطرب. ما زاغَ الْبَصَرُ أي : بصر محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، أي : ما عدل عن رؤية العجائب التي مكّن من رؤيتها ، وَما طَغى وما جاوز ما أمر برؤيته ، لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى أي : واللّه لقد رآى من عجائب الملكوت وأسرار الجبروت وما لا يفى به نطاق العبارة ، وقد دونت هنا كتب فى عجائب ما رآه صلّى اللّه عليه وسلم ليلة المعراج.

الإشارة : أقسم اللّه تعالى بنجم العلم إذا طلع فى أفق سماء القلوب الصاحية ، إنّ هذا القلب الذي طلع فيه نجم العلم باللّه ، وأشرقت عليه شمس الحقائق ، لا يضل صاحبه ولا يغوى ، وما ينطق عن الهوى لأنه مستغرق فى شهود الحق ، لا يتجلى فيه إلا الحق ، (إن هو) أي : ما يتجلى فيه إلا وحي يوحى من قبل الإلهام الإلهى ، علّمه شديد القوى ، وهو الوارد الرّبانى ، ذو مرة وشدة لأنه من حضرة قهّار ، ولا يصادم شيئا إلا دفعه ، فاستوى وهو بالأفق

---

(١) جزء من حديث الإسراء الطويل ، وأخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ، ح ٣٢٠٧) ومسلم فى (الإيمان ، باب الإسراء رقم ٢٦٤ ، ح ١٦٤) عن أنس ، عن مالك بن صعصعة ، وفيه : «ورفعت لى سدرة المنتهى ، فإذا نبقها كأنه قلال هجر ، وورقها كأنه آذان الفيول ، فى أصلها أربعة أنهار ، نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فسألت جبريل ، فقال : «أما الباطنان ففى الجنة ، وأما الظاهران النّيل والفرات ..» الحديث.

(٢) قوله : «هما فى الجنة كما فى الصحيح» يشير الشيخ – رحمه اللّه – إلى ما أخرجه مسلم فى (الجنة ، باب ما فى الدنيا من أنهار الجنة ح ٢٨٣٩) عن أبى هريرة رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «سيحان وجيحان والنّيل والفرات كلّ من أنهار الجنة».

الأعلى من سماء الغيوب ، ثم دنا من القلب فتدلى ، فكان من القلب قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى اللّه تعالى بواسطة ذلك الوارد إلى عبده ما أوحى من علوم الحقائق والأسرار ، ومن مكاشفات غيوب

الأقدار ، ما كذب الفؤاد فيما رأى لأنه حق ، لكن قهرية العبودية غيّبت عنه تعيين وقت وقوعه. ولقد رآه ، أي : رأى القلب أسرار ذات الحق ، نزلة أخرى فى عالم الجبروت ، الخارج عن دائرة التجليات الكونية ، وهى الأسرار اللطيفة ، المحيطة فى الأنوار الملكوتية والملكية ، عند سدرة المنتهى ، وهى شجرة القبضة المحمدية ، التي انتهى إليها علم العلماء ، وأرواح الشهداء ، إذ لا يخرج عن دائرتها أفكار العارفين. عندها جنة المأوى التي يأوى إليها أفكار العارفين وأسرار الرّاسخين ، إذ يعشى السدرة – أي : شجرة الكون – ما يغشى من الفناء والتلاشى عند سطوع شمس الحقائق ، ما زاغ بصر البصيرة عن شهود تلك الأسرار ، وما حجبه عنها أرض ، ولا سماء ، ولا عرش ، ولا كرسى لتلطف تلك العوالم فى نظر العارف ، وما طغى : وما جاوز العبودية حتى يطمع فى الإحاطة بعظمة كنه الرّبوبية ، فإنّ الإحاطة لا تمكن ، لا فى هذه الدار ، ولا فى تلك الدار ، بل يبقى الترقي فى الكشوفات ، والمزيد من حلاوة الشهود أبدا سرمدا ، لقد رأى هذا القلب الصافي من عجائب ربه الكبرى ، حيث وسع من لم تسعه أرضه ولا سماؤه.

وقال الورتجبي : بعد كلام : فى هذه الآية بيان كمال شرف حبيبه ، إذ رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، ظن صلى اللّه عليه وسلم أنّ ما رآه فى الأول لا يكون فى الكون – أي : فى مظهر الكون – لكمال علمه بتنزيه الحق ، فلما رآه ثانيا علم أنه لا يحجبه شيء من الحدثان ، وعادة الكبراء إذا زارهم أحد يأتون معه إلى باب الدار إذا كان عليهم كريما ، فهذا منه سبحانه إظهار كمال حبه لحبيبه. وحقيقة الإشارة : أنه سبحانه أراد أن يعرف حبيبه مقام الالتباس ، فلبس [الأمر] «١» ، وظهر المكر ، وبان الحقّ من شجرة سدرة المنتهى ، كما بان من شجرة العناب لموسى ، ليعرفه حبيبه بكمال المعرفة ، إذ ليس بعارف من لم يعرف حبيبه فى لباس مختلفة ، وبيان ذلك فى قوله : (إذ يغشى السدرة ما يغشى) وأبهم ما غشيه لأن العقول لا تدرك حقائق ما يغشاها ، وكيف يغشاها ، والقدم منزّه عن الحلول فى الأماكن؟! كان ولا شجرة ، وكانت الشجرة مرآة لظهوره سبحانه ، ما ألطف ظهوره ، لا يعلم تأويله إلا اللّه ، والرّاسخون فى العلم يؤمنون به بعد عرفانهم به. هـ.

ولمّا فرغ من ذكر عظمة اللّه وكبريائه ، ذكر حقارة من عبد من دونه ، ترهيبا وترغيبا ، فقال

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ١٩ الى ٢٥]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (٢٣)

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (٢٥)

---

(١) زيادة أثبتها من الورتجبي.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٥

يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى أي : أخبرونى عن هذه الأشياء التي تعبدونها من دون اللّه ، هل لها من القدرة والعظمة التي وصف بها ربّ العزة فى الآي السابقة حتى استحقت العبادة ، أم لا؟ واللات وما بعدها : أصنام كانت لهم ، فاللات كانت لثقيف بالطائف ، وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش ، وهى فعلة ، من : لوى لأنهم كانوا يلوون عليها ويطوفون بها. وقرأ ابن عباس ومجاهد ورويس بتشديد التاء ، على أنه اسم فاعل ، اشتهر به رجلا كان يلتّ السّويق بالزيت ، ويطعمه الحاجّ ، فلما مات عكفوا على قبره يعبدونه «١». (و العزى) كانت لغطفان ، وهى شجرة كانوا يعبدونها ، فبعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها ، واضعة يدها على رأسها ، وهو تولول ، فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها ، فأخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فقال : «تلك العزى ، لن تعبد بعد اليوم أبدا» «٢».

(و مناة) : صخرة على ساحل البحر لهذيل وخزاعة ، وقيل : بيت بالمشلّل يعبده بنو كعب ، وسميت مناة لأن دماء النّسائك تمنى ، أي : تراق عندها لأنهم كانوا يذبحون عندها. وقرأ ابن كثير بالهمزة بعد الألف ، مشتق من النوء لأنهم كانوا يستمطرون بالأنواء عندها ، تبركا بها ، وقيل : سموا هذه الأصنام بأسماء اللّه ، وأنّثوها ، كأنها بنات اللّه فى زعمهم الفاسد ، فاللات من «اللّه» ، كما قالوا : عمر وعمرة ، وعباس وعباسة ، فالتاء للتأنيث. والعزّى : تأنيث العزيز ، ومناة : تأنيث منان ، فغيّر تخفيفا ، ويؤيد هذا قوله تعالى ردا عليهم : أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى .

والْأُخْرى : صفة ذمّ لها ، وهى المتأخرة الوضيعة القدر ، كقوله : قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ «٣» أي : وضعاؤهم لرؤسائهم ، وقيل : وصفها بالوصفين لأنهم كانوا يعظّمونها أكثر من اللات والعزى ، والفاء فى قوله : (أ فرأيتم) للعطف على محذوف ، وهى لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : عقب ما سمعتم من كمال عظمته تعالى فى ملكه وملكوته ، وأحكام قدرته ، ونفوذ أمره فى الملأ الأعلى وما تحت الثرى وما بينهما ، رأيتم هذه الأصنام مع حقارتها بنات اللّه ، مع وأدكم البنات ، وكراهتكم لهنّ؟.

---

(١) أخرج البخاري المقطع الأول : «كان اللات رجلا يلت سويق الحاج» فى (التفسير ، سورة النّجم ، باب أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى رقم ٤٨٥٩).

(٢) عزاه المناوى فى الفتح السماوي ٣/ ٩٠٧ لابن مردويه ، من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه.

[.....]

(٣) من الآية ٣٨ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٦

أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى أي : أتحبون لكم الذكر وتنسبون له الأنثى كهذه الأصنام والملائكة؟ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى أي : جائرة ، من : ضازه يضيزه : إذا ظلمه ، وصرح فى القاموس بأنه مثلث الضاد ضيزى وضوزى وضازى ، وهو هنا فعلى بالضم ، من الضيز ، لكنه كسر فاؤه لتسلم الياء ، كما فعل فى «بيض» ، فإن «فعلى» بالكسر لم تأت وصفا ، وإنما هى من بناء الأسماء ، كالشّعرى والدفلى. وقال ابن هشام : فإن كانت فعلى صفة محضة وجب قلب الضمة كسرة ، ولم يسمع من ذلك إلا «قسمة ضيزى» «ومشية حيكى» ، أي : يتحرك فيها المنكبان. هـ.

وقرأ المكىّ بالهمز «١» ، من : ضأزه : ظلمه ، فهو مصدر نعت به.

إِنْ هِيَ أي : هذه الأصنام إِلَّا أَسْماءٌ وليس تحتها فى الحقيقة مسميات لأنكم تدّعون لها الألوهية ، وهى أبعد شىء منها ، سَمَّيْتُمُوها آلهة ، أو : سميتم بها هذه الأصنام ، واعتقدتم أنها آلهة ، بمقتضى أهوائكم الباطلة ، أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ، ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها بعبادتها مِنْ سُلْطانٍ من حجة. إِنْ يَتَّبِعُونَ فيما ذكر من التسمية والعمل بموجبها إِلَّا الظَّنَّ : إلا توهم أنّ ما هم عليه حق ، توهما باطلا ، وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ أي : ما تشتهيه أنفسهم الأمّارة ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى الرسول والكتاب فتركوه.

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى. «أم» : منقطعة ، والهمزة للإنكار ، أي : ليس للإنسان كلّ ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور التي من جملتها أطماعهم الفارغة فى شفاعة الآلهة ونظائرها ، كقول بعضهم : وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى «٢» ، وكتمنّى بعضهم أن يكون هو النّبى ، فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى أي : الدنيا والآخرة ، هو مالكهما والحاكم فيهما ، يعطى الشفاعة والنّبوة من شاء ، لا من تمناهما بمجرد الهوى ، وهو تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما تمنّى ، فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون للإنسان شىء مما تمنى إلا أن يشاء ويرضى.

الإشارة : هذه الأصنام موجودة فى كلّ إنسان ، فاللات : حب اللذات والشهوات الجسمانية الفانية ، فمن كان حريصا عليها ، جامعا لأسبابها ، فهو عابد لها ، والعزى : حب العز والجاه والرّئاسة وسائر الشهوات القلبية ، فمن طلبها فهو عبد لها ، ومناة : تمنى البقاء فى الدنيا الدنية الحقيرة ، وطول الأمل فيها ، وكراهية الموت ، فمن كان هذا وصفه فهو عبد الدنيا ، كاره لقاء اللّه ، فيكره اللّه لقاءه ، فتوجه لهؤلاء العتاب بقوله تعالى : أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ حيث تحبون ما هو كمال لأنفسكم ، وَلَهُ الْأُنْثى ؟ حيث جعلتم هذه الأشياء الحقيرة

(١) «ضئزى» بهمزة ساكنة ، وبها قرأ ابن كثير المكي. انظر الإتحاف (١/ ٥٠١).
(٢) الآية ٥٠ من سورة فصلت.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٧
شريكة للّه فى استحقاق العبادة والمحبة ، تلك إذا قسمة ضيزى جائرة ، ما هى إلا أسماء ليس تحتها طائل ، تفنى ويبقى عليها العذاب والعتاب ، سميتموها واعتنيتم بشأنها والانكباب عليها ، أنتم وآباؤكم ، ما أنزل اللّه بمتابعتها والحرص على تحصيلها من سلطان ولا برهان ، إن يتبعون فى اتباعها والحرص عليها إلا الظن ، ظنوا أنها حيث كانت مباحة فى ظاهر الشرع لا تضر القلب ولا تحجبه عن شهود الرّب ، وهو رأى فاسد إذ ليس للقلب إلا وجهة واحدة ، إن توجه لطلب الحظوظ أعرض عن اللّه قطعا ، وإن توجه للّه أعرض عما سواه ، وراجع ما تقدم فى قوله :
أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ الآية «١». ويتبعون أيضا ما تهوى الأنفس الأمّارة لأنها لا تهوى إلا ما فيه حظها وهواها ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أي : من يهدى إلى طريق السلوك ، بقطع العلائق النّفسانية والقلبية ، وهم خلفاء الرّسول عليه السّلام ، الدعوان إلى اللّه ، من شيوخ التربية فى كلّ زمان ، أم للإنسان ما تمنى ، ليس له ما يتمنى إلا بسابق العناية ، فلا يدرك العبد من الدنيا والآخرة ، ومن اللّه تعالى ، إلا ما سبق به القدر ، كما قال الشاعر :
ما كلّ ما يتمنى المرء يدركه تجرى الرّياح بما لا تشتهى السفن
فللّه الآخرة والأولى ، قال القشيري : يشير إلى قهرمانية الحق تعالى على العالم كله ، ملكه وملكوته ، الأخروى والدنيوي ، فلا يملك الإنسان من أمر الدارين شيئا ، بل ملك الآخرة تحت تصرف يده اليمنى ، المقتضية لموجبات حصول الآخرة من الأعمال الصالحة والأفعال الحسنة ، يهبه باسمه الواهب لمن شاء أن يكون مظهرا للطفه وجماله ، وملك الدنيا تحت تصرف يده اليسرى ، المقتضية لأسباب حصول الدنيا ، من حب الدنيا الدنية ، المنتجة للخطيئة ومتابعة النّفس الخبيثة ، وموافقة الطبيعة اللئيمة ، باسمه المقسط ، لمن شاء أن يكون مظهر قهره وجلاله ، وليس ذلك يزيد فى ملكه ، ولا هذا ينقص من ملكه ، وكلتا يديه ملأى سحّاء ، أي : فياضة. هـ.
ثم نفى الشفاعة عمّن يستحقها من الملائكة الكرام ، فضلا عمن لا يستحقها من الأصنام اللئام ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٢٦ الى ٣٠]
وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (٢٦)

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (٢٧) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (٢٩) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (٣٠)

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأحقاف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٨

قلت : (كم) : خبرية ، تفيد التكثير ، ومحلها : رفع بالابتداء ، والجملة المنفية : خبر ، وجمع الضمير فى (شفاعتهم) لأن النّكرة المنفية تعم.

يقول الحق جل جلاله : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ أي : كثير من الملائكة لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ عند اللّه تعالى شَيْئاً من الإغناء فى وقت من الأوقات ، إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لهم فى الشفاعة لِمَنْ يَشاءُ أن يشفعوا له ، وَيَرْضى ويراه أهلا للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، وأما من عداهم من أهل الكفر والطغيان فهم عن إذن اللّه بمعزل ، وعن الشفاعة بألف معزل ، فإذا كان حال الملائكة فى باب الشفاعة كما ذكر ، فما ظنهم بحال الأصنام؟! ثم شنّع عليهم فى اعتقادهم الفاسد فى الملائكة ، فقال : إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وما فيها من العقاب على ما يتعاطونه من الكفر والمعاصي لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ المنزّهين عن سمات النّقص تَسْمِيَةَ الْأُنْثى ، فإن قولهم : الملائكة بنات اللّه ، قول منهم بأن كلا منهم بنته – سبحانه ، وهى التسمية بالأنثى ، وفى تعليقها بعدم الإيمان بالآخرة إشعار بأنهم فى الشناعة واستتباع العقوبة بحيث لا يجترىء عليها إلا من لا يؤمن رأسا.

وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ أي : بما يقولون. وقرئ «بها» أي : بالتسمية ، أو بالملائكة. إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وهو تقليد الآباء ، وَإِنَّ الظَّنَّ أي : جنس الظن ، ولذلك أظهر فى موضع الإضمار ، لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً من الإغناء لأن الحق عبارة عن حقيقة الشيء ، وهو لا يدرك إلا بالعلم ، والظن لا اعتداد به فى باب المعارف الحقيقية ، وإنما يعتد به فى العمليات وما يؤدى إليها.

فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا أي : عنهم ، ووضع الموصول موضع ضميرهم للتوصل إلى وصفهم بما فى حيز الصلة من الأوصاف القبيحة ، ولتعليل الحكم ، أي : فأعرض عمن تولى عن ذكرنا المفيد للعلم اليقيني ، وهو القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين ، المذكّر بالأمور الآخرة ، أو : عن ذكرنا كما ينبغى ، فإن ذلك يستتبع ذكر الآخرة وما فيها من الأمور المرغوب فيها والمرهوب عنها ،

قال الطيبي : أعرض عن دعوة من تدعوه إلى لقاء ربه والدار الآخرة ، وهو يقول : ما هى إلا حياتنا الدنيا ... إلخ ، وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا وزخارفها ، قاصرا

(٥٠٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٠٩

نظره إليها ، والمراد بالإعراض عنه : إهماله والغيبة عنه ، فإنّ من أعرض عن الذكر ، وانهمك فى الدنيا ، بحيث كانت هى منتهى همته ، وقصارى سعيه ، لا تزيده الدعوة إلى خلافها إلا عنادا ، وإصرارا على الباطل.

ذلِكَ أي : ما هم فيه من التولّى ، وقصر الإرادة على الحياة الدنيا هو مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ أي : منتهى علمهم ، لا يكادون يجاوزونه إلى غيره ، فلا تجدى فيهم الدعوة والإرشاد شيئا. وجمع الضمير بعد أن أفرده باعتبار معنى «من» ولفظها ، والمراد بالعلم : مطلق الإدراك الشامل للظن الفاسد. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى أي : هو أعلم بالضال والمهتدى ومجازاتهما ، وهو تعليل الأمر بالإعراض ، وتكرير «هو أعلم» لزيادة التقرير ، وللإيذان بكمال تباين المعلومين ، أي : هو المبالغ فى العلم بمن لا يرعوى عن الضلال ، ومن يقبل الاهتداء فى الجملة ، فلا تتعب نفسك فى دعوتهم ، فإنهم من القبيل الأول.

الإشارة : شفاعة كلّ أحد على قدر جاهه وتمكنه من اللّه ، فقد يشفع الولىّ فى أهل زمانه ، كما تقدم فى مريم «١». والاعتقاد فى الملائكة : أنهم أنوار لطيفة من تجليات الحق ، اللطافة فيهم أغلب ، لا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، يتشكلون كيف شاءوا. وقوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا ... الآية ، فيه تحذير من مخالطة الغافلين والصحبة لهم ، فإنّ صحبتهم سم قاتل ، والجلوس معهم تضييع وبطالة ، إلا أن يستولى نور من يصحبهم على ظلمتهم ، فيجرّهم إلى اللّه ، فهذا جلوسه معهم كمال. وقال بعضهم : الوحدة أفضل من الجلوس مع العامة ، والجلوس مع الخاصة أفضل من العزلة ، إلا من تحقق كماله ، فلا كلام معه.

إشارة أخرى : وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ .... إلخ ، أي : كثير من الأرواح الصافية السماوية لا تغنى شفاعتها فى الأنفس الظلمانية الطبيعية ، لتنقلها من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، إلا من بعد أنّ يأذن اللّه لمن يشاء انتقاله وعروجه إلى سماء الأرواح ، ويرضى أن يسكنه فى الحضرة القدسية. إن الذين لا يؤمنون بالحالة الآخرة ، وهى الانتقال من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، وينكرون على من يوصل إليها ، ليسمون الخواطر القلبية بتسمية الخواطر النّفسانية ، أي : لا يميّزون بينهما ، لجهلهم بأحوال القلوب ، ما لهم به – أي : بهذا التمييز – من علم ، إن يتبعون فى جلّ اعتقاداتهم إلا الظن القوى ، وإنّ الظن

لا يغنى عن الحق شيئا ، فلا ينفع فى مقام الإيمان إلا الجزم عن دليل وبرهان ، ولا فى مقام الإحسان إلا شهود الحق بالعيان ، فمن لم يحصل هذا فهو غافل عن ذكر اللّه الحقيقي ، يجب الإعراض عنه ، قال تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا وزخارفها ، ذلك مبلغهم

---

(١) راجع إشارة الآية ٨٧ من سورة مريم.

من العلم ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون. وقال اللجائى ، فى قطبه : وإياك أن تكون دنياك إرادة قلبك تبعا لشهوات نفسك ، أو تكون دنياك أحب إليك من آخرتك ، وقلبك من ذكر مولاك خاليا معرضا ، فإنها صفة الهالكين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا ... الآية. وقيل لأبى الحسن الشاذلى : يا سيدى ، بم فقت أهل عصرك ، ولم نر لك كبير عمل؟ فقال : بخصلة ، أمر اللّه بها نبيه صلّى اللّه عليه وسلم ، وتمسكت بها أنا ، وهى الإعراض عنكم وعن دنياكم. هـ. إن ربك هو أعلم بمن ضلّ عن طريق الوصول إليه ، وهو أعلم بمن اهتدى إليها ، فيعينه ، ويجذبه إلى حضرته ، فإن الأمر كله بيده ، كما قال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٣١ الى ٣٢]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا وملكا ، لا لغيره ، لا استقلالا ولا اشتراكا ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا بعقاب ما عملوا من السوء ، أو : بسبب ما عملوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى بالمثوبة الحسنى ، وهى الجنة ، والمعنى : أن اللّه تعالى إنما خلق هذا العالم العلوي والسفلى ، وتصرف فيه بقدرته بين جلاله وجماله ، ليجزى المحسن من المكلّفين ، والمسيء منهم إذ من شأن الملك أن ينصر أولياءه ويكرمهم ، ويقهر أعداءه ويهينهم.

وقال الطيبي : «ليجزى» راجع لقوله : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ .. الآية ، والمعنى : إنّ ربك هو أعلم بمن ضل وبمن اهتدى ليجزى كلّ واحد بما يستحقه ، يعنى : أنه عالم ، كامل العلم ، قادر ، تام القدرة ، يعلم أحوال المكلّفين فيجازيهم ، لا يمنعه أحد مما يريده لأنّ كلّ شيء من السموات والأرض ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ، فقوله : وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ : جملة معترضة ، توكيد للاقتدار

وعدم المعارض. هـ.
الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ : بدل من الموصول الثاني ، أو : رفع على المدح ، أي : هم الذين يجتنبون. والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. وكبائر الإثم : ما يكبر عقابه من الذنوب ، وهو ما رتّب

(٥/٥١٠)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١١
عليه الوعيد بخصوصه. قال ابن عطية : وتحرير القول فى الكبائر : أنها كلّ معصية يوجد فيها حدّ فى الدنيا ، أو توعّد عليها بنار فى الآخرة ، أو بلعنة ونحوها. وقرأ الأخوان : (كبير الإثم) على إرادة الجنس ، أو الشرك ، وَيجتنبون الْفَواحِشَ وهو ما فحش من الكبائر ، كأنه قيل : يجتنبون الكبائر وما فحش منها خصوصا ، فيحتمل أن يريد بالكبائر : ما فيه حق اللّه وحده ، والفواحش منها : ما فيه حق اللّه وحق عباده ، إِلَّا اللَّمَمَ أي : إلا ما قلّ وصغر ، فإنه مغفور لمن يجتنب الكبائر ، وقيل : هى النّظرة والغمزة والقبلة ، وقيل : الخطرة من الذنب ، وقيل : كل ذنب لم يجعل اللّه فيه حدّا ولا عذابا.
والاستثناء منقطع لأنه ليس من الكبائر ولا من الفواحش.
إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر ، أو : حيث يغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة ، وهذا أحسن ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ فى ضمن إنشاء أبيكم آدم عليه السّلام مِنَ الْأَرْضِ إنشاء إجماليا ، حسبما مرّ تحقيقه مرارا ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ أي : يعلم وقت كونكم أجنة فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ على أطوار مختلفة ، لا يخفى عليه حال من أحوالكم ، ولا عمل من أعمالكم.
فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ فلا تنسبوها إلى زكاء الأعمال ، وزيادة الخير والطاعات ، أو : إلى الزكاة والطهارة من المساوئ ، ولا تثنوا عليها ، واهضموها ، فقد علم اللّه الزكىّ منكم والتقىّ ، قبل أن يخرجكم من صلب آدم ، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم. وقيل : كان ناس يعملون أعمالا حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحجّنا ، فنزلت.
وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرّياء ، لا على سبيل الاعتراف بالنعمة ، والتحدث بها ، فإنه جائز لأن المسرة بالطاعة طاعة ، وذكرها شكرها. والأحسن فى إيراد الاعتراف والشكر أن يقدم ذكر نقصه ، فيقول مثلا : كنا جهالا فعلّمنا اللّه ، وكنا ضلّالا فهدانا اللّه ، وكنا غافلين فأيقظنا اللّه ، وهكذا فنحن اليوم كذا وكذا.
قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون نهيا عن أن يزكّى بعض النّاس بعضا ، وإذا كان هذا ، فإنما ينهى عن تزكية السّمع «١» ، أو القطع بالتزكية ، ومن ذلك الحديث فى «عثمان بن مظعون» عند موته «٢» ،

وأما تزكية القدوة أو الإمام ، أو أحدا ، ليؤتم به أو ليتهمّم النّاس بالخير ، فجائز ، وقد زكّى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أبا بكر وغيره ، وكذلك تزكية الشهود فى الحقوق جائزة للضرورة إليها ، وأصل التزكية : التقوى ، واللّه تعالى أعلم بتقوى النّاس منكم. هـ «٣».

---

(١) فى ابن عطية : السمعة والمدح للدنيا.

(٢) حديث عثمان بن مطعون رضي اللّه عنه – سبق ذكره وتخريجه عند التعليق على إشارة الآية ٩ من سورة الأحقاف ، فراجعه إن شئت.

(٣) ببعض المعنى

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٢

وقال فى القوت : هذه الذنوب تدخل على النّفوس من معانى صفاتها ، وغرائز جبلاتها ، وأول إنشائها من نبات الأرض ، وتركيب الأطوار فى الأرحام ، خلق من بعد خلق ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها مع بعض ، ولذلك عقبه بقوله : هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ ... الآية. هـ.

ثم قال تعالى : هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى ، فاكتفوا بعلمه عن علم النّاس ، وبجزائه عن ثناء النّاس. وباللّه التوفيق.

الإشارة : وللّه ما فى سموات الأرواح من أنوار الشهود ، وما فى أرض النّفوس من آداب العبودية ، رتّب ذلك ليجزى الذين أساءوا بوقوفهم مع أرض النّفوس فى العالم المحسوس ، ويجزى الذين آمنوا بترقيهم إلى مقام الإحسان ، بالحسنى ، وهى المعرفة ، حيث ترقّوا من أرض الأشباح إلى عالم سماء الأرواح ، وهم الذين يجتنبون كبائر الإثم ، وهو شهود وجودهم مع وجود الحق محبوبهم ، ووقوفهم مع عالم الحس ، والفواحش ، وهو اعتراضهم على اللّه فيما يبرز من عنصر قدرته ، وتصغيرهم شيئا مما عظّم اللّه ، إلا اللمم خواطر تخطر ولا تثبت.

قال القشيري : كبائر الإثم ثلاث محبة النّفس الأمّارة ، ومحبة الهوى النّافخ فى نيران النّفس ، ومحبة الدنيا ، التي هى رأس كلّ خطيئة ، ولكلّ واحدة من هذه الثلاث فاحشة لازمة لها ، أما فاحشة محبة النّفس : فموافقة الطبيعة ومخالفة الشريعة ، وأما فاحشة محبة الهوى : فحب الدنيا وشهواتها ، وأما فاحشة محبة الدنيا فالإعراض عن اللّه ، والإقبال على ما سواه. وقوله إِلَّا اللَّمَمَ أي : الميل اليسير إلى الهوى والنّفس والدنيا ، بحسب ضرورته البشرية من استراحة البدن ، ونيل قليل من حظوظ الدنيا ، بحسب الحقوق ، لا بحسب الحظوظ ، فإنّ مباشر الحقوق مغفور ، ومباشر الحظوظ مغرور. هـ.

إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ يستر العيوب ، ويوصل إلى حضرة الغيوب. هو أعلم بكم إذ أنشأكم من أرض البشرية ، ورقّاكم إلى عالم الرّوحانية ، وإذ أنتم أجنة فى أول بدايتكم فى بطون أمهاتكم ، فى بطون الهوى والغفلة ، ودائرة الكون ، فأخرجكم منها بمحض فضله ، فلا تزكّوا أنفسكم ، فتنظروا إليها بعين الرّضا ، أو تنسبوا إليها شيئا من الكمالات قبل صفائها. قال القشيري : تزكية المرء نفسه علامة كونه محجوبا لأنّ المجذوب عن بقائه ، المستغرق فى شهود ربّه ، لا يزكّى نفسه. هـ. قلت : هذا مادام فى السير ، وأما إن حصل له الوصول فلا نفس له ، وإنما يزكّى ربه إذا زكّاها ، هو أعلم بمن اتقى ما سواه.

(٥/٥١٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٣

ثم ذكر وبال من زكى نفسه ، فقال :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٣٣ الى ٤١]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (٣٦) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧)

أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (٤٠) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (٤١)

يقول الحق جل جلاله : أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى أعرض عن الإيمان وَأَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى أي : قطع عطيته وأمسك ، وأصله : إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية – وهى صلابة ، كالصخرة – فيمسك عن الحفر. [قال] «١» ابن عباس : «هو فيمن كفر بعد الإيمان» ، وقيل : فى الوليد بن المغيرة ، وكان قد اتّبع رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فعيّره بعض الكافرين ، وقال : تركت دين الأشياخ ، وزعمت أنهم فى النّار؟ قال : إنى خشيت عذاب اللّه ، فضمن له إن أعطاه شيئا من ماله ، ورجع إلى شركه ، أن يتحمّل عنه عذاب اللّه ، ففعل ذلك المغرور ، وأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له ثم بخل به ومنعه «٢». أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى أي : يعلم هذا المغرور أنّ ما ضمنه له حق؟

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ يخبر بِما فِي صُحُفِ مُوسى أي : التوراة ، وَإِبْراهِيمَ أي : وما فى صحف إبراهيم الَّذِي وَفَّى أي : أكمل وأتم ما ابتلى به من الكلمات ، أو : ما أمر به ، أو بالغ فى الوفاء بما عاهد اللّه عليه.

وعن الحسن : ما أمره اللّه بشىء إلا وفّى به. وعن عطاء بن السائب : عهد ألّا يسأل مخلوقا ، فلما قذف فى النّار قال له جبريل : ألك حاجة؟ فقال : أما إليك فلا. وقال الشيخ المرسى : وفّى بمقتضى قوله : (حسبى اللّه) وعن النّبى صلّى اللّه عليه وسلم :

«وفّى عمله كلّ يوم بأربع ركعات فى صدر النّهار» «٣» وهى صلاة الضحى. وروى : «ألا أخبركم لم

سمّى خليله «الذي وفّى» كان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : «فسبحان اللّه حين تمسون ...» إلى «تظهرون»» «٤» وقيل : وفّى سهام

---

(١) زيادة ليست فى الأصول.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٧٠) عن ابن زياد ، بدون تعيين من نزلت فيه.

(٣) أخرجه الطبري (٢٧/ ٧٣) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٦٨) لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والشيرازي فى الألقاب ، والديلمي ، بسند ضعيف ، عن أبى أمامة رضي اللّه عنه.

(٤) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٤٣٩) عن سهل بن سعد الساعدي عن أبيه ، وقال الهيثمي (١٠/ ١١٧) : «فيه ضعفاء وثقوا».

وأخرجه الطبري (٢٧/ ٧٣) عن أنس عن أبيه.

(٥١٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٤

الإسلام ، وهى ثلاثون ، عشرة فى التوبة : التَّائِبُونَ ... «١» إلخ ، وعشرة فى الأحزاب : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ... «٢»

وعشرة فى المؤمنين : قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. وقيل : وفىّ حيث أسلم بدنه للنيران ، وولده للقربان ، وطعامه للضيفان.

وروى : أنه كان يوم يضيف ضيفا ، فإن وافقه أكرمه ، وإلّا نوى الصوم «٣». وتقديم موسى لأنّ صحفه وهى التوراة أكثر وأشهر.

ثم فسّر ما فى تلك الصحف فقال : أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي : أنه لا تحمل نفس وازرة وزر نفس أخرى ، بل كلّ نفس تستقل بحمل وزرها ، يقال : وزر يزر إذا اكتسب وزرا ، و«أن» مخففة ، وكأنّ قائلا قال : ما فى صحف موسى وإبراهيم؟ فقال : ألّا تحمل نفس مثقلة بوزرها وزر نفس أخرى.

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى هو أيضا مما فى صحف موسى وإبراهيم ، وهو بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم انتفاعه من حيث رفع الضرر عنه به ، وأما ما صح من الأخبار فى الصدقة عن الميت والحج عنه ، فلأنه لمّا نواه عنه كان كالوكيل عنه ، فهو نائب عنه.

قال ابن عطية : الجمهور أنّ قوله : وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى محكم لا نسخ فيه ، وهو لفظ عام مخصّص. هـ. يعنى : أن المراد : الكافر ، وهكذا استقرئ من لفظ «الإنسان» فى القرآن ، وأما المؤمن

فجاءت نصوص تقتضى انتفاعه بعمل غيره ، إذا وهب له من صدقة ودعاء وشفاعة واستغفار ، ونحو ذلك ، وإلّا لم يكن فائدة لمشروعية ذلك ، فيتصور التخصيص فى لفظ «الإنسان» وفى السعى ، بأن يخص الإنسان بالكافر ، أو السعى بالصلاة ، ونحو ذلك مما لا يقبل النّيابة مثلا. والحاصل : أن الإيمان سعى يستتبع الانتفاع بسعى الغير ، بخلاف من ليس له الإيمان. هـ. قاله الفاسى : وكان عز الدين يحتج بهذه الآية فى عدم وصول ثواب القراءة للميت ، فلما مات رؤى فى النّوم ، فقال : وجدنا الأمر خلاف ذلك.

قلت : أما فى الأجور فيحصل الانتفاع بسعى الغير ، إن نواه له ، وأما فى رفع الستور ، وكشف الحجب ، والترقي إلى مقام المقربين ، فالآية صريحة فيه ، لا تخصيص فيها إذ ليس للإنسان من حلاوة المشاهدة والقرب إلا بقدر ما سعى من المجاهدة. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة.

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب. [.....]

(٣) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٨/ ١٦٤ : وللمفسرين أقوال غير هذه ، وينبغى أن تكون هذه الأقوال أمثلة لما وفّى ، لا على سبيل التعيين. هـ.

ثم قال : وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى أي : يعرض عليه ، ويكشف له يوم القيامة فى صحيفته وميزانه ، ثُمَّ يُجْزاهُ أي : يجزى العبد سعيه ، يقال : جزاه اللّه عمله ، وجزاه عليه ، بحذف الجار وإيصال الفعل ، ويجوز أن يكون الضمير للجزاء ، ثم فسّره بقوله : الْجَزاءَ الْأَوْفى أو : أبدله منه ، أي : الجزاء الأكمل بحيث يزيده ولا ينقصه.

الإشارة : أفرأيت الذي تولى عن طريق السلوك ، بعد أن أعطى نفسه وفلسه ، وتوجه إلى حضرة مولاه ، ثم منّته نفسه ، وغرّته أنه يصل بلا عطاء ولا مجاهدة ، فقطع ذلك واشتغل بنفسه ، أو غرّه أحد حتى ردّه ، وضمن له الوصول ، بلا ذلك ، أعنده علم الغيب حتى علم أنه يصل بلا واسطة ولا مجاهدة؟ فهو يرى عاقبة ما هو سائر إليه.

وتصدق الإشارة بمن صحب شيخا ، وأعطاه بعض ماله أو نفسه ، ثم رجع ومال إلى غيره ، فلا يأتى منه شيء ، أعنده علم الغيب ، وأنّ فتحه على يد ذلك الشخص ، فهو يرى ما فيه صلاحه وفساده؟ وهذا إن كان شيخه أهلا للتربية ، وإلّا فلا. أم لم ينبأ هذا المنقطع بما فى صحف موسى وإبراهيم ، أنه لا

يتحمل أحد عن أحد مجاهدة النفوس ورياضتها؟ وأن ليس للإنسان من لذة الشهود والعيان إلا ما سعى فيه بالمجاهدة ، وبذل النّفس والفلس ، وأنّ سعيه سوف يرى؟ أي : يظهر أثره من الأخلاق الحسنة ، والرّزانة والطمأنينة ، وبهجة المحبين ، وسيما العارفين.

وقسّم القشيري السعى على أربعة أقسام الأول : السعى فى تزكية النّفس وتطهيرها ، ونتيجته : النهوض للعمل الصالح ، الذي يستوجب صاحبه نعيم الجنان. الثاني : السعى فى تصفية القلب من صداء ظلمات البشرية ، وغطاء عورات الطبيعية ، ونتيجته : صحته من الأمراض القلبية ، كحب الدنيا والرّئاسة والحسد ، وغير ذلك ، ليتهيأ لدخول الواردات الإلهية. الثالث : السعى فى تزكية الرّوح ، بمنعها من طلب الحظوظ الرّوحانية ، كطلب الكرامات ، والوقوف مع المقامات ، وحلاوة المعاملات ، لتتهيأ بذلك للاستشراف على مقام المشاهدات ، وحمل أعباء أسرار الذات. الرابع : السعى فى تزكية السر بتحليته بالصفات الإلهية ، والأخلاق الرّبانية ، ليتحقق بمقام الفناء والبقاء ، وهو منتهى السعى وكماله. هـ. بالمعنى.

وإلى هذا الانتهاء أشار تعالى بقوله :

[سورة النجم (٥٣) : الآيات ٤٢ الى ٦٢]

وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (٤٦)

وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (٥٠) وَثَمُودَ فَما أَبْقى (٥١)

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (٥٣) فَغَشَّاها ما غَشَّى (٥٤)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (٥٥) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (٥٦)

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (٦١)

فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٦

يقول الحق جل جلاله فى بقية ذكر ما فى الصحف الأولى : وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى أي : الانتهاء ، أي : ينتهى إليه الخلق ويرجعون ، إليه كقوله : وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ «١» أو : ينتهى علم العلماء إليه ثم يقفون ، لقوله صلّى اللّه عليه وسلم :

«لا فكرة فى الرّب» «٢» أي : كنه الذات ، وسيأتى فى الإشارة. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى أي : خلق الضحك والبكاء ، أو : خلق الفرح والحزن ، أو : أضحك المؤمنين فى الآخرة ، وأبكى الكافرين ، أو : أضحك المؤمنين فى العقبى بالمواهب وأبكاهم فى الدنيا بالنوائب ، وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا أي : أمات الآباء وأحيا الأبناء ، أو : أمات بالكفر وأحيا بالإيمان.

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى ، مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى : إذ تدفق وتدفع فى الرّحم. يقال : منى وأمنى ، وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى الإحياء بعد الموت ، وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى أي : صيّر الفقير غنيا وَأَقْنى أي : أعطى القنية ، وهو المال الذي تأثّلته «٣» ، وعزمت ألّا تخرجه من يدك. وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى ، وهو كوكب يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر ، وكانت خزاعة تعبدها. سنّ لهم ذلك «ابن أبى كبشة» رجل من أشرافهم ، قال :

لأن النّجوم تقطع السماء عرضا ، والشعرى طولا ، ويقال لها : شعرى العبور. انظر الثعلبي. وكانت قريش تقول لرسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ابن أبى كبشة ، تشبيها له صلّى اللّه عليه وسلم به ، لمخالفته إياهم فى دينهم ، فأخبر تعالى أنه ربّ معبودهم ، فهو أحق بالعبادة وحده.

---

(١) من الآية ٤٨ من سورة الحج.

(٢) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٤١٧) وزاده السيوطي عزوه فى الدر (٦/ ١٧٠) للدارقطنى فى الأفراد ، عن أبى بن كعب.

وهذا مثل ما روى عن ابن عباس مرفوعا : «تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق ، فإنكم لن تقدروا» عزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٧٠) لأبى الشيخ فى العظمة. وانظر : كشف الخفاء ٨/ ٣٧١ ، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى ٤/ ٣٩٧.

(٣) المتأثل : الجامع. والتأثل اتخاذ أصل مال ، وكلّ شيء له أصل قديم ، أو جمع حتى يصير له أصل ، فهو مؤثّل.

انظر اللسان (أثل ١/ ٢٨).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٧

وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى ، وهم قوم هود ، وعاد الأخرى : عاد إرم ، وقيل : معنى الأولى [العدمي] «١» لأنهم أولى الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، وقال الطبري وغيره : سميت «أولى» لأن ثمّ عادا آخرة ، وهى قبيلة كانت بمكة مع العماليق ، وهم بنوا لقيم بن هزّال. واللّه أعلم. هـ «٢». قلت : والتحقيق :

أن عادا الأولى هى عاد إرم ، وهى قبيلة هود التي هلكت بالريح ، ثم بقيت منهم بقايا ، فكثروا وعمّروا بعدهم ، فقيل لهم عاد الأخيرة ، وأنظر أبا السعود فى سورة الفجر. «٣» وهاهنا قراءات ، وجّهناها فى كتاب الدرر «٤».

وَثَمُودَ «٥» أي : وأهلك ثمودا ، وهم قوم صالح ، فَما أَبْقى أحدا منهم ، وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثمود ، إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى من عاد وثمود لأنهم كانوا يضربونه حتى لا يكون به حراك ، وينفرون منه حتى كانوا يحذّرون صبيانهم أن يسمعوا منه ، وَالْمُؤْتَفِكَةَ أي : والقرى التي ائتفكت ، أي : انقلبت بأهلها ، وهم قوم لوط. يقال : أفكه فائتفك ، أي : قلبه فانقلب ، (و المؤتفكة) منصوب ب أَهْوى أي : رفعها إلى السماء على جناح جبريل ، ثم أهواها إلى الأرض ، أي : أسقطها ، فَغَشَّاها ألبسها من فنون العذاب ما غَشَّى ، وفيه تهويل لما صبّ عليها من العذاب ، وأمطر عليها من الصخر المنضود.

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ أيها المخاطب تَتَمارى أي : تتشكك؟ ، أي : فبأى نعم من نعم مولاك تحجد ولا تشكر؟ فكم أولاك من النّعم ، ودفع عنك من النّقم ، وتسمية الأمور المتعددة قبل نعما مع أن بعضها نقم لأنها أيضا نعم من حيث إنها نصرة الأنبياء والمرسلين ، وعظة وعبرة للمعتبرين. هذا نَذِيرٌ أي : محمد منذر مِنَ النُّذُرِ الْأُولى من المنذرين الأولين ، وقال : «الأولى» على تأويل الجماعة ، أو : هذا القرآن نذير من النّذر الأولى ، أي : إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم.

---

(١) فى تفسير أبى السعود [القدماء].

(٢) العبارة بالمعنى ، ونصها كما فى تفسير الطبري (٢٧/ ٧٨) : «وإنما مثل لعاد بن إرم : عاد الأولى ، لأن بنى لقيم بن هزال بن هزيل بن عبيل بن ضد بن عاد الأكبر ، كانوا أيام أرسل اللّه تعالى على عاد الأكبر عذابه ، سكانا بمكة مع إخوانهم من العمالقة».

(٣) عند تفسير الآية السادسة من سورة الفجر ، وانظر تفسير أبى السعود ٩/ ١٥٤.

(٤) للشيخ ابن عجيبة – رحمه اللّه تعالى – مؤلف فى القراءات ، سماه «الدرر المتناثرة فى توجيه القراءات المتواترة» وهو كما يقول ابن عجيبة فى الفهرسة : تأليف يشتمل على آداب القراءة والتعريف بالشيوخ العشرة ، ورواتهم ، وتوجيه قراءة كلّ واحد منهم ، وفيه عشرون كراسة. انظر الفهرسة/ ٣٨.

(٥) أثبت المفسر قراءة «ثمودا» بالتنوين ، وقرأ عاصم وحمزة ويعقوب بغير تنوين. والباقون بالتنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٣).

أَزِفَتِ الْآزِفَةُ أي : قربت الساعة الموصوفة بالقرب فى قوله : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ «١» ، وفى ذكرها بعد إنذارهم إشعار بأنّ تعذيبهم مؤخر إلى يوم القيامة ، لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ أي : ليس لها نفس مبيّنة وقت قيامها إلّا اللّه تعالى ، وهذا كقوله : لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ «٢» أو : ليس لها نفس قادرة على كشف أهوالها إذا وقعت إلا اللّه تعالى ، فيكشفها عمن شاء ، ويعذّب بها من شاء.

ولمّا استهزؤوا بالقرآن ، الناطق بأهوال القيامة ، نزل قوله تعالى : أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ إنكارا ، وَتَضْحَكُونَ استهزاء ، وَلا تَبْكُونَ خشوعا ، وَأَنْتُمْ سامِدُونَ غافلون ، أو : لاهون لاعبون ، وكانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا النّاس عن استماعه ، فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ولا تعبدوا معه غيره ، من اللات والعزى ومناة الشعرى ، وغيرها من الأصنام ، أي : اعبدوا رب الأرباب ، وسارعوا له ، رجاء فى رحمته. والفاء لترتيب الأمر بالسجود على بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ، ووجوب تلقيه بالإيمان والخضوع والخشوع ، أي : إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا للّه الذي أنزله واعبدوه.

الإشارة : وأنّ إلى ربك المنتهى ، انتهى سير السائرين إلى الوصول إلى اللّه ، والعكوف فى حضرته. ومعنى الوصول إلى اللّه : العلم بأحدية وجوده ، فيمتحى وجود العبد فى وجود الرّب ، وتضمحل الكائنات فى وجود المكوّن ، فتسقط شفعية الأثر ، وتثبت وترية المؤثّر ، كما قال القائل :

وبروح وراح عاد شفعى وترى

وقال آخر : فلم يبق إلا اللّه لم يبق كائن فما ثمّ موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان ، فما أرى بعينىّ إلا عينه إذ أعاين

إلى غير ذلك مما غنّوا به من أذواقهم ووجدانهم.

ثم قال تعالى : (و أنه هو أضحك وأبكى) أي : قبض وبسط ، أو : أنه أضحك أرواحا بكشف الحجاب ، وأبكى نفوسا بذل الحجاب ، أو : أضحك إذا تجلى بصفة الجمال ، وأبكى إذا تجلى بصفة الجلال ، وأنه هو أمات قلوبا بالجهل والغفلة ، بمقتضى اسمه القهّار ، وأحيا قلوبا بالعلم والمعرفة ، بمقتضى اسمه الغفار ، أو : أمات نفوسا عن شهواتها الفانية ، وأحيا بسبب ذلك أرواحا بكمال المعرفة ، فاتصفت بالأوصاف الرّبانية ، أو : أمات أرواحا بغلبة ظلمة النّفس واستيلائها عليها ، وأحيا نفوسا باستيلاء الأرواح عليها ، وغلبة نورها ، فحييت وانقلبت روحا. وأنه خلق الزوجين ، أي : الصنفين الذكر والأنثى ، الحس والمعنى ، الحقيقية والشريعة ، القدرة والحكمة ، كما تقدم. وقال القشيري : الروح

---

(١) الآية الأولى من سورة القمر.

(٢) من الآية ١٨٧ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥١٩

كأنها ذكر موصوفة بصفة الفاعلية ، والنّفس أنثى موصوفة بصفة القابلية ، لتحصل نتيجة القلب ، بحصول المطالب الدنيوية والأخروية. هـ. مختصرا. وقال بعضهم : والشيطان كالذكر ، والنّفس كالأنثى ، يتولد بينهما المعصية. هـ.

وأنّ عليه النّشأة الأخرى ، وهو بعث الأرواح من موت الغفلة ، وحشرها إلى موقف المراقبة والمحاسبة ، ثم إدخالها جنة المعارف ، فلا تتشاق إلى جنة الزخارف أبدا ، أو : النشأة الأخرى : الجذب بعد السلوك ، والفناء بعد البقاء ، ثم البقاء بعد الفناء ، البقاء الأول بوجود النّفس ، والثاني باللّه. وأنه هو أغنى به بوصول العبد إلى مشاهدته ، وأفنى بأن مكّنه منه فزاد غناه. وطبّل على ماله ، وأنه هو ربّ الشّعرى ، وهو كلّ ما عبد من الهوى والدنيا ، فكيف يعبد المربوب اللئيم ، ويترك الرّب الكريم؟! وأنه أهلك عادا الأولى النفوس المتفرعنة ، والأهوية المغوية ، أرسل عليهم ريح الهداية القوية ، حتى اضمحلت وخضعت لمولاها ، وثمود الخواطر ، فما أبقى منها إلا خواطر الخير ، التي تأمر بالخير ، وقوم نوح من القواطع الأربعة النفس ، والشيطان ، والنّاس ، والدنيا ، فطعنهم عن المتوجه من قبل ، أي : من قبل أن يتوجه إلينا ، لما سبق فى علمنا أنهم كانوا هم أظلم وأطغى من بقية العلائق ، والنّفس المؤتفكة ، أي :

المنقلبة عن التوجه ، أهوى بها فى أسفل سافلين ، باعتبار أهل عليين ، فغشّاها من الدنيا ومن الخواطر والهموم والغموم ، ما غشّى.

فإذا سلمت أيها العبد من هؤلاء القواطع والعلائق ، وتوجهت إلى مولاك ، فبأى آلاء ربك تتمارى؟ بل الواجب عليك أن تشكر اللّه آناء الليل والنّهار. هذا الذي أخذ بيدك نذير من النّذر الأولى ، المتقدمين الداعين إلى اللّه فى كل زمان ، أزفت الآزفة ، أي : قربت ساعة الفتح حين توجهت وانقطعت عنك العلائق ، ووجدت من يدخلك بحر الحقائق ، ليس لها من دون اللّه كاشفة ، لا يشكف لك هذه الحقائق إلا الذي منّ عليك بصحبة من يدلك عليه. قال القشيري : أزفت الآزفة : قربت الحقيقة الموصوفة بالقرب والدنو ، وأنت أيها السالك فى عينها ، وما لك بها شعور ، لفنائك فى أوصافك النّفسانية «١». هـ. مختصرا. أفمن هذا الحديث العجيب ، والغزل الرّقيق الغريب ، تعجبون ، إنكارا ، وتضحكون استهزاء؟ قلت : وقد رأيت كثيرا ممن ينكر الإشارة ، ويستهزئ بها ، ويتنكب مطالعتها ، وقد قيل :

من كره شيئا عاداه. ولا تبكون على أنفسكم ، حيث حرمت من هذه المواهب ، وأنتم سامدون غافلون لاهون ، للدنيا طالبون ، فاسجدوا للّه واعبدوا ، وتضرعوا إليه ، حتى يخرجكم من سجن هواكم

ونفوسكم.
وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) لم أقف على هذا النّص أو على معناه فى لطائف الإشارات.

(٥١٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢٠

(٥٢٠/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢١

سورة القمر

مكية كلها عند الجمهور ، وقيل : إلّا قوله : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ ... إلخ. وهى خمسون آية ، ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : أَزِفَتِ الْآزِفَةُ «١» وهى التي أخبر عنها بقوله :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤)

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (٦) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)

يقول الحق جل جلاله : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ قربت القيامة ، قال القشيري : ومعنى قربها : أنّ ما بقي من الزمان إلى القيامة قليل بالإضافة إلى ما مضى. هـ. قال ابن عطية : وأمرها مجهول التحديد ، وكلّ ما يروى من التحديد فى عمر الدنيا فضعيف. هـ. وَانْشَقَّ الْقَمَرُ نصفين ، وقرىء : و«قد انشقّ القمر» ، أي : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أنّ القمر قد انشقّ ، كما تقول : أقبل الأمير ، وقد جاء البشير بقدومه.

قال ابن مسعود رضي اللّه عنه : انشق القمر على عهد النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فرقتين ، فكانت إحداهما فوق الجبل ، والأخرى أسفل من الجبل ، فقال صلّى اللّه عليه وسلم : «اشهدوا» «٢». قال ابن عباس : إنّ المشركين قالوا للنبى صلّى اللّه عليه وسلم : إن كنت صادقا فشق لنا القمر فلقتين ،

فقال : «إن فعلت أتؤمنون؟» فقالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل صلّى اللّه عليه وسلم ربه فانشق فرقتين ، نصف على أبى قبيس ، ونصف على قعيقعان «٣». وقيل : سألوا آية مجملة ، فأراهم انشقاق القمر «٤». قال ابن عطية : وعليه الجمهور ، يعنى عدم التعيين.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة النّجم.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، تفسير سورة القمر ، باب وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) ومسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب انشقاق القمر ، ح ٢٨٠٠). [.....]

(٣) ذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٤٨٣). وقعيقعان : جبل بمكة. انظر اللسان (قعع ٥/ ٣٦٩٦).

(٤) أخرجه البخاري فى (مناقب الأنصار ، باب انشقاق القمر ح ٣٨٦٨) عن أنس بن مالك.

وفى صحيح مسلم : أنه انشق مرتين «١» ، وصرح فى شرح المواقف بأن انشقاقه متواتر. هـ. وقيل : معناه انشق ، أي : ينشق يوم القيامة ، وهو ضعيف ، ولا يقال : لو انشقّ لما خفى على أهل الأقطار ، ولو ظهر عندهم لنقل متواترا لأن الطباع جبلت على نشر العجائب ، لأنه يجوز أن يحجبه اللّه عنهم بغيم أو غيره ، مع أنه كان ليلا ، وجلّ النّاس نائمون ، وأيضا : عادة اللّه – تعالى – فى معجزاته أنه لا يراها إلّا من ظهرت لأجله فى الغالب.

تنبيه : قال القسطلاني فى المواهب اللدنية : ما يذكره بعض القصاص أن القمر دخل فى جيب النّبى صلّى اللّه عليه وسلم وخرج من كمه ، ليس له أصل ، كما حكاه الزركشي عن شيخه العماد ابن كثير. هـ.

وَإِنْ يَرَوْا أي : أهل مكة آيَةً تدل على صدق رسوله صلّى اللّه عليه وسلم يُعْرِضُوا عن الإيمان وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ محكم شديد قوىّ ، من : المرّة ، وهى القوة ، أو : دائم مطّرد. روى : أنه لما انشق قالوا : هذا سحر ابن أبى كبشة؟ فسلوا السّفار ، فلما قدموا سألوهم ، فقالوا : إنهم قد رأينه ، فقالوا : قد استمر سحره فى البلاد ، فنزلت «٢». قال البيضاوي : دل قوله : (مستمر) على أنهم رأوا قبله آيات أخرى مترادفة ، ومعجزات سابقة. هـ. أو : مستمر ذاهب ومارّ ، يزول ولا يبقى ، من : مرّ الشيء واستمر : ذهب.

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ الباطلة ، وما زيّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره ، حتى قالوا : سحر القمر ، أو : سحر أعيننا ، وَكُلُّ أَمْرٍ وعدهم اللّه به مُسْتَقِرٌّ كائن فى وقته ، أو : كل أمر قدر واقع لا

محالة يستقر فى وقته ، أو : كل أمر من الخير والشر يقع بأهله من الثواب والعقاب ، وقرىء «مستقر» بالجر «٣» ، فيعطف على «الساعة» ، أي : اقتربت الساعة وكلّ أمر مستقر ، يعنى : أشراطها.

وَلَقَدْ جاءَهُمْ أي : أهل مكة فى القرآن مِنَ الْأَنْباءِ من أخبار القرون الماضية ، وكيف أهلكوا بالتكذيب ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ أي : ازدجار عن الكفر والعناد ، يقول : زجرته وازدجرته ، أي : منعته ، وأصله : ازتجر ، افتعل ، من الزجر ، ولكن التاء إذا وقعت بعد زاى ساكنة أبدلت دالا لأن التاء حرف مهموس ، والزاى حرف مجهور.

فأبدل من التاء حرف مجهور ، وهو الدال ليناسب الميم.

---

(١) أخرجه مسلم فى (صفات المنافقين وأحكامهم ، باب انشقاق القمر ح ٢٨٠٢) عن قتادة.

(٢) أخرجه الطبري (٢٧/ ٨٥) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٧٦) لابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبى نعيم ، والبيهقي ، كلاهما فى الدلائل ، عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

(٣) قرأ أبو جعفر «مستقر» بخفض الرّاء ، صفة ، ورفع (كل) حينئذ بالعطف على «الساعة» ، وقيل : بالابتداء والخبر ، أي : وكلّ أمر مستقر لهم فى القدر بالغوه. وقرأ الباقون بالرفع ، خبر «كل». انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٥).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢٣

حِكْمَةٌ بالِغَةٌ : بدل من «ما» ، أو : خبر ، أي : هو حكمة بالغة ناهية فى الرّشد والصواب ، أو : بالغة من اللّه إليهم. قال القشيري : والحكمة البالغة الصحيحة الظاهرة الواضحة لمن فكّر فيها. هـ. قال المحلى : وصفت بالبلاغة لأنها تبلغ من مقصد الوعظ والبيان ما لا يبلغ غيرها هـ. فَما تُغْنِ النُّذُرُ شيئا ، حيث سبق القدر بكفرهم ، و«ما» نافية ، أو استفهامية منصوبة ب «تغن» ، أي : فأىّ إغناء تغنى النّذر مع سابق القدر؟ والنّذر : جمع نذير ، وهم الرّسل ، أو : المنذر به ، أو : مصدر بمعنى الإنذار ، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء ، واستمراره حسب تجدد مجيء الزواجر واستمرارها.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لعلمك بأنّ الإنذار لا يغنى فيهم شيئا ، واذكر يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ «١» وهو إسرافيل عليه السّلام إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ أي : منكر فظيع ، تنكره النّفوس ، لعدم العهد بمثله ، وهو هول القيامة. خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ ، ف «خشعا» : حال من فاعل «يخرجون» ، أي : يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ أذلة أبصارهم من شدة الهول لأن ذلة الذليل وعزة العزيز يظهرن فى أعينهما ، ومن قرأ : «خاشعا» «٢» فوجهه : أنه أسند إلى ظاهر ، فيجب تجريده كالفعل ، وأما من قرأ بالجمع ، فهو على لغة : «أكلونى

البراغيث» ، كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ فى الكثرة والتموّج والتفرق فى الأقطار. قال ابن عطية : فى الحديث : أن مريم دعت للجراد فقالت : اللهم أعشها بغير رضاع ، وتتابع بينها بغير شباع. هـ.

ثم وصف خروجهم من القبور ، فقال : مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ مسرعين مادى أعناقهم إليه ، أو ناظرين إليه ، يَقُولُ الْكافِرُونَ استئناف بيانى ، وقع جوابا عما نشأ من وصف اليوم بالأهوال ، وأهله بسوء الحال ، كأنّ قائلا قال : فما ذا يكون حينئذ؟ فقال : يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ صعب شديد. وفى إسناد هذا القول إلى الكفار تلويح بأنّ المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : اقتربت ساعة الفتح لمن جدّ فى السير ، ولازم صحبة أهل القرب ، قال القشيري : الساعة ساعتان كبرى ، وهى عامة ، وصغرى ، وهى خاصة بالنسبة إلى السالك إلى اللّه ، برفع الأوصاف البشرية ، وقطع العلائق الطبيعية. ثم قال : وإليه الإشارة بقوله صلّى اللّه عليه وسلم : «من مات فقد قامت قيامته» «٣» راجعة إلى الساعة الصغرى. هـ. أي :

---

(١) أثبت المصنف الياء فى «الداع إلى» وهى قراءة ورش وأبى عمرو وأبى جعفر ، وصلا ، والبزي ويعقوب فى الحالين. وقرأ الباقون بغير ياء وصلا ووقفا. انظر السبعة/ ٦١٧ والإتحاف ٢/ ٥٠٥.

(٢) قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب «خاشعا» بفتح الخاء وألف بعدها وكسر الشين مخففة ، بالإفراد. وقرأ الباقون «خشعا» بضم الخاء وفتح الشين وتشديدها بلا ألف. انظر الإتحاف (٢/ ٥٠٦).

(٣) قال العراقي فى المغني ٤/ ٦٧ : «أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت ، من حديث أنس ، بسند ضعيف» وكذا قال الشوكانى فى الفوائد المجموعة (ص ٢٦٧) وزاد : «وهو من قول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى» وأخرجه الديلمي ، الفردوس بمأثور الخطاب (ح ١١١٧) عن أنس بلفظ : «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته ...» الحديث. وانظر كشف الخفاء (ح/ ٢٦١٨).

من مات عن رؤية نفسه قامت قيامته بلقاء ربه وشهوده. وقوله تعالى : وَانْشَقَّ الْقَمَرُ أي : قمر الإيمان فإنه إذا أشرقت عليه شمس العيان ، لم يبق لنوره أثر ، ليس الخبر كالعيان ، وإن يروا – أي : أهل الغفلة والحجاب – آية تدل على طلوع شمس العيان على العبد المخصوص ، يعرضوا منكرين ، وَيَقُولُوا : هذا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .. الآية ، وكلّ أمر قدّره الحق – تعالى فى الأزل ، من أوقات الفتح أو غيره ، مستقر ، يستقر ويقع فى وقته ، لا يتقدم ولا يتأخر ، فلا ينبغى للمريد أن يستعجل الفتح قبل إبانه ،

فربما عوقب بحرمانه ، ولقد جاءهم من الأخبار عن منكرى أهل الخصوصية ، وما لحق أهل الانتقاد من الهلاك أو الطرد والبعد ما فيه مزدجر ، كما فعل بابن البراء وأمثاله ، حكمة من اللّه بالغة ، وسنة ماضية ، يقول : «من آذى لى وليّا فقد آذن بالحرب» فما تغن النّذر إذا سبق الخذلان ، فتولّ أيها السالك عنهم ، وعن خوضهم ، واشتغل باللّه عنهم فسيكفيكهم اللّه وهو السميع العليم ، واذكر الموت وما بعده ، فإنه حينئذ يظهر عز الأولياء ، وذل الأغبياء ، يقولون : هذا يوم عسر على من طغى وتجبر.

ثم سرد قصص الأنبياء ، تسلية لرسوله صلّى اللّه عليه وسلم – وتفسيرا لقوله : وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٩ الى ١٧]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (١٣)

تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل أهل مكة قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا نوحا عليه السّلام. ومعنى تكرار التكذيب : أنهم كذّبوا تكذيبا عقب تكذيب ، كلما خلا منهم قرن مكذّب ، جاء عقبه قرن آخر مكذّب مثله ، وقيل : كذبت قوم نوح الرّسل ، (فكذّبوا عبدنا) لأنه من جملتهم. وفى ذكره عليه السّلام بعنوان العبودية مع إضافته لنون العظمة تفخيم له عليه السّلام ورفع لمحله ، وزيادة تشنيع لمكذّبيه ، وَقالُوا مَجْنُونٌ أي : لم يقتصروا على مجرد التكذيب ، بل نسبوه للجنون ، وَازْدُجِرَ أي : زجر عن أداء الرّسالة بالشتم ، وهدّد بالقتل ، أو : هو من جملة قولهم ، أي : قالوا : هو مجنون وقد ازدجرته الجن ، أي : تخبّطته وذهبت بلبه.

(٥/٥٢٤)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢٥

فَدَعا رَبَّهُ حين أيس منهم أَنِّي مَغْلُوبٌ أي : بأنى مغلوب من جهة قومى ، بتسليطهم علىّ ، فلم يسمعونى ، واستحكم اليأس من إجابتهم. قال القشيري : مغلوب بالتسلط لا بالحجة ، إذ الحجة كانت له. هـ. وهذا جار فيمن لم يستجب لك ، تقول : غلبنى. ثم دعا عليهم بقوله : فَانْتَصِرْ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وذلك بعد تحقق يأسه منهم وعظم إذايتهم. فقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيضربه حتى يغشى عليه ، فيقول :

اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ منصب بكثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما ، قال يمان : حتى طبق بين السماء والأرض «١» ، وقيل : كانوا يطلبون المطر سنين ، فأهلكوا بمطلوبهم. وفتح الأبواب كناية عن كثرة الأمطار ، وشدة أنصابها ، وقيل : كان فى السماء يومئذ أبواب حقيقة.

وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ، ومثله : وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً «٢» فى إفادة العموم والشمول ، فَالْتَقَى الْماءُ أي : مياه السماء ومياه الأرض ، وقرىء : «الماءان» «٣» ، أي : النوعان من الماء السمائى والأرضى. عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ أي : قضى فى أم الكتاب ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان ، أو : قدر أنّ الماءين يكون مقدارهما واحدا من غير تفاوت. قيل : كان ماء السماء باردا كالثلج ، وماء الأرض مثل الحميم ، ويقال : إنّ الماء الذي نبع من الأرض نضب ، والذي نزل من السماء بقي حارا.

وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ أي : أخشاب عريضة ، والمراد : السفينة ، وهى من الصفات التي تقوم مقام موصوفها كالشرح له ، وهو من فصيح الكلام ومن بديعه ، وَدُسُرٍ ومسامير ، جمع : دسار ، وهو المسمار ، فعال من : دسره : إذا دفعه لأنه يدسر به منفذه. تَجْرِي بِأَعْيُنِنا أي. بمرأىّ منا ، أو : بحفظنا ، وهو حال من فاعل «تجرى» ، أي : تجرى محفوظة جَزاءً مفعول له ، أي : فعلنا ذلك جزاء لِمَنْ كانَ كُفِرَ وهو نوح عليه السّلام ، وجعله مكفورا لأن النّبى نعمة من اللّه ورحمة ، فكان نوح نعمة مكفورة. وقرأ مجاهد بفتح الكاف ، أي : عقابا لمن كفر باللّه. قيل : ما نجا من الغرق إلّا عوج بن عنق ، كان الماء إلى حجزته «٤» ، وسبب نجاته : أنّ نوحا احتاج إلى

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره ٧/ ٤٢٨.

(٢) من الآية ٤ من سورة مريم.

(٣) عزاها فى مختصر ابن خالويه ، وزاد فى البحر المحيط (٨/ ١٧٥) عليّ والحسن ومحمد بن كعب.

(٤) الحجزة : موضع التكة من السروال.

خشب الساج للسفينة ، فلم يمكنه نقلها ، فحمل عوج تلك الخشب إليه من الشام ، فشكر اللّه له ذلك ، ونجّاه من الغرق.

قاله الثعلبي «١». قلت : وقد تقدم إبطاله فى سورة العقود «٢» ، وأنه من وضع الزنادقة. ذكره القسطلاني.

وَلَقَدْ تَرَكْناها أي : السفينة ، أو : الفعلة ، أي : جعلناها آيَةً يعتبر بها من يقف على خبرها. وعن قتادة : أبقاها اللّه بأرض الجزيرة ، وقيل : على الجوديّ ، حتى رآها أوائل هذه الأمة «٣». فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ من متعظ يتعظ ويعتبر ، وأصله : مذتكر ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، وأدغمت الذال فيها لقرب المخرج ، فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! استفهام تعظيم وتعجيب ، أي : كان عذابى وإنذارى لهم على هيئة هائلة ، لا يحيط بها الوصف ، والنّذر :

جمع نذير ، بمعنى الإنذار.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أي : سهّلناه للادّكار والاتعاظ بأن شحنّاه بأنواع المواعظ والعبر ، وصرّفنا فيه من الوعد والوعيد ما فيه شفاء وكفاية. فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ إنكار ونفى للمتعظ على أبلغ وجه ، أي : فهل من متعظ يقبل الاتعاظ ، وقيل : ولقد سهّلناه للحفظ ، وأعنّا من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه؟ قال القشيري : وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ يسّر قراءته على ألسنة قوم ، وعلمه على قوم ، وفهمه على قلوب قوم ، وحفظه على قلوب قوم ، وكلهم أهل القرآن ، وكلهم أهل اللّه وخاصته. ويقال : كاشف الأرواح من قوم قبل إدخالها فى الأجساد ، فهل من مدكر يذكر العهد الذي جرى لنا معه؟. هـ.

ويروى : أن كتب أهل الأديان من التوراة فى الإنجيل والزبور لا يتلوها أهلها إلا نظرا ، ولا يحفظونها ظاهرا كالقرآن ، وفى القوت : مما خصّ اللّه به هذه الأمة ثلاثة أشياء : حفظ كتابنا هذا ، إلا ما ألهم اللّه عزيزا من التوراة بعد أن كان بختنصّر أحرق جميعها ، ومنها : تبقية الإسناد فيهم ، يأثره خلف عن سلف ، متصلا إلى نبينا صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما كانوا يستنسخون الصحف ، كلما خلقت صحيفة جددت ، فكان ذلك أثرة العلم فيهم ، والثالثة : أن كان مؤمن من هذه الأمة يسئل عن علم الإيمان ، ويسمع قوله مع حداثة سنه ، ولم يكن مما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين والرّهبان. وزاد رابعة : وهى ثبات الإيمان فى قلوبهم ، لا يعتوره شك ، ولا يختلجه شرك ، مع تقليب الجوارح فى المعاصي. وقد قال قوم موسى : اجْعَلْ لَنا إِلهاً «٤» بعد أن رأوا الآيات العظيمة ، من انفلاق البحر وغيره. هـ. قال أبو السعود : وحمل تيسيره على حفظه لا يساعده المقام. هـ.

---

(١) وذكره القرطبي فى تفسيره (٧/ ٦٤٨٩).

(٢) لم يذكر الشيخ شيئا عن عوج بن عنق فى تفسير سورة المائدة. وقد ولع بعض المفسرين بذكر قصة عوج عند تفسير قوله تعالى :

قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها المائدة/ ٢٢. وقد بين العلماء زيف ما نقل فى هذه القصة. راجع فى هذا ، الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة/

١٨٦. [.....]

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٧/ ٩٥) وعزاه السيوطي فى الدر (٦/ ١٨٠) لعبد الرّزّاق وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) من الآية ١٣٨ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢٧

الإشارة : فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء ، وإجابة الدعاء على الظالم ، لهم إن [أذن] «١» لهم فى ذلك بإلهام أو هاتف ، وإلّا فالصبر أولى ، وجعل القشيري نوحا إشارة إلى القلب ، وقومه جنود النّفس ، من الهوى والدنيا وسائر العلائق ، فيكون التقدير : كذبت النّفس وجنودها القلب ، فيما يرد عليه من تجليات الحق ، وكشوفات الغيب ، وقالوا : إنما هو مجنون فيما يخبر به ، فزجرته ، ومنعته من تلك الواردات الإلهية بظلمات شهواتها ، فدعا ربه وقال :

أنى مغلوب فى يد النّفس وجنودها ، فانتصر لى حتى تغيبنى عنهم ، ففتحنا أبواب سماء الغيب بأمطار الواردات الإلهية القهّارية ، لتمحق تلك الظلمات النّفسانية ، وفجرنا أرض البشرية بعلوم آداب العبودية ، فالتقى ماء الواردات ، التي هى من حضرة الرّبوبية ، مع ماء علوم العبودية ، على أمر قد قدر أنه ينصر القلب ، ويرقيه إلى حضرة القدس ، وحملناه على سفينة الجذب والعناية ، تجرى بحفظنا ، جزاء لنعمة القلب التي كفرت به النّفس وجنودها ، ولقد تركنا هذه الفعلة آية يعتبر بها السائرون إلينا ، والطالبون لنا ، فهل من مدكر؟ فكيف كان عذابى لمن استولت عليه النّفس وجنودها؟ وكيف كان إنذارى من غم الحجاب ، وسوء الحساب ، ولقد يسّرنا القرآن للذكر للاتعاظ ، فهل من مدكر ، فينهض من غفلته إلى مولاه؟.

ثم ذكر قصة عاد ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ١٨ الى ٢٢]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (١٩) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٢٢)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ عادٌ هودا عليه السّلام ، فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! أي : وإنذارى لهم بالعذاب قبل نزوله ، والاستفهام لتوجيه قلوب السامعين للإصغاء إلى ما يلقى إليهم قبل ذكره لتهويله وتعظيمه ، وتعجيبهم من حاله قبل بيانه ، كما قبله وما بعده ، كأنه قيل : كذبت عاد فهل سمعتم ما حلّ

بهم؟ أو : فاسمعوا ، فكيف كان عذابى وإنذارى لهم.
ثم بيّن ما أجمل فقال : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً باردة أو : شديدة الصوت فِي يَوْمِ نَحْسٍ شؤم مُسْتَمِرٍّ شؤمه عليهم إلى أن أهلكهم ، وكان فى أربعاء آخر شوال ، تَنْزِعُ النَّاسَ أي : تقلعهم ، وجاء بالظاهر

---

(١) فى الأصول [أوذن].

مكان المضمر ليشمل ذكورهم وإناثهم ، صغيرهم وكبيرهم. روى : أنهم كانوا يتداخلون الشّعاب ، ويحفرون الحفر ، ويندسون فيها ، ويمسك بعضهم ببعض فتزعجهم الرّيح ، وتصرعهم موتى.
قال ابن إسحاق : ولمّا هاجت عليهم الرّيح ، قام سبعة نفر من عاد [فأولجوا]»
العيال فى شعب بين جبلين ، ثم اصطفوا على باب الشعب ، ليردوا الرّيح عنهم ، فجعلت الرّيح تجعفهم «٢» رجلا رجلا. هـ. ثم صاروا بعد موتهم كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ أي : أصول نخل منقلع من مغارسه ، وشبهوا بأعجاز النّخلة ، وهى أصولها التي قطعت رؤوسها لأنّ الرّيح كانت تقطع رؤوسهم ، فتبقى أجسادا بلا رؤوس ، فيتساقطون على الأرض أمواتا ، وهم جثث طوال. وتذكير صفة النّخل بالنظر إلى اللفظ ، كما أن تأنيثه فى قوله تعالى : أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ «٣» بالنظر للمعنى. فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟! تهويل وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما ، فليس فيه شائبة تكرار ، وما قيل :
من أن الأول لما حاق بهم فى الدنيا ، والثاني لما يحيق بهم فى الآخرة ، يرده ترتيب الثاني على العذاب الدنيوي.
وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟! وفى تكريره بعد كلّ قصة تنبيه على أن إيراد قصص الأمم إنما هو للوعظ والتذكار ، وللانزجار عن مثل فعلهم ، لا لمجرد السماع والتلذذ بأخبارهم ، كما هى عادة القصاص.
الإشارة : من شأن النّفوس العاتية المتجبرة العادية تكذيب أهل الخصوصية كيفما كانوا ، ولا ترضى بحط رأسها لمن يدعوها إلى ربها ، فيرسل اللّه عليهم ريح الهوى والخذلان ، فتصرعهم فى محل الذل والهوان ، وتتركهم عبيدا لنفوسهم الخسيسة ، وللدنيا الدنية ، فكيف كان عذابى لهؤلاء وإنذارى لهم؟!.
ولقد يسرنا القرآن للذكر ، وبيّنا فيه ما فعلنا بأهل التكبر والعناد من الإهانة والطرد والإبعاد ، فهل من مدكر ، يتيقظ من سنة غفلته ، ويرحل من دنياه لآخرته ، ومن نفسه إلى ربه؟.

ثم ذكر قصة ثمود ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٢٣ الى ٣٢]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧)

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (٢٨) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢)

---

(١) فى الأصول : [فألجوا].

(٢) تجعفهم : تصرعهم.

(٣) من الآية ٧ من سورة الحاقة.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٢٩

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ بصالح عليه السّلام لأنّ من كذّب واحدا فقد كذّب الجميع لاتفاقهم فى الشرائع ، أو : كذّبوا بالإنذارات والمواعظ التي يسمعونها من صالح ، فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا أي : كائنا من جنسنا ، وانتصابه بفعل يفسره «نتبعه» أي : أنتبع بشرا منا واحِداً منفردا لا تباعة له؟ أو : واحدا من النّاس لا شرف له نَتَّبِعُهُ وندع ديننا؟ إِنَّا إِذاً أي : على تقدير اتباعنا له ، وهو مفرد ونحن أمة جمة لَفِي ضَلالٍ عن الصواب وَسُعُرٍ نيران تحرق ، جمع «سعير». كان صالح يقول لهم : إن لم تتبعونى كنتم فى ضلال عن الحق ، وصرتم إلى سعير ، ونيران تحرق ، فعكسوا عليه ، لغاية عتوهم ، وقالوا : إن اتبعناك كنا كما تقول.

وقيل : المراد بالسعر : الجنون ، لأنها تشوه صاحبها ، أنكروا أن يكون الرّسول بشرا ، وطلبوا أن يكون من الملائكة ، وأنكروا أن تتبع أمة واحدا ، أو : رجلا لا شرف له فى زعمهم ، حيث لم يتعاط معهم أسباب الدنيا. ويؤيد التأويل الثاني قولهم : أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ أي : الوحى عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوة؟ بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ أي. بطر متكبر ، حمله بطره وطلبه التعظيم علينا على ادعائه ذلك. قال تعالى : سَيَعْلَمُونَ غَداً أي : عن قريب ، وهو عند نزول العذاب بهم ، أو يوم القيامة ، مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ أصالح أم من كذّبه؟ وقرأ الشامي وحمزة بتاء الخطاب ، على حكاية ما قاله صالح مجيبا لهم. إِنَّا

مُرْسِلُوا النَّاقَةِ باعثوها ومخرجوها من الهضبة كما سألوا ، فِتْنَةً لَهُمْ ابتلاء وامتحانا لهم ، مفعول له ، أو : حال ، فَارْتَقِبْهُمْ فانتظرهم وتبصّر ما هم صانعون وَاصْطَبِرْ على أذاهم ، ولا تعجل حتى يأتيك أمرى.

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ مقسوم بينهم ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم ، وقال : «بينهم» تغليبا للعقلاء.

كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ محضور ، يحضر القوم الشرب يوما ، وتحضر النّاقة يوما ، فَنادَوْا صاحِبَهُمْ قدار بن سالف ، حمير ثمود ، فَتَعاطى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم ، غير مكترث به ، فَعَقَرَ الناقة ، ، أو : فتعاطى النّاقة فعقرها ، أو : تعاطى السيف فقتلها ، والتعاطي : تناول الشيء بتكلف. وقال أبو حيان : هو مضارع عاطا ، وكأنّ هذه الفعلة تدافعها النّاس بعضهم بعضا ، فتعاطاها قدار وتناول العقر بيده. هـ.

(٥٢٩/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٠

فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ فى اليوم الرّابع من عقرها ، صَيْحَةً واحِدَةً صاح بهم جبريل عليه السّلام فَكانُوا فصاروا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ كالشجر اليابس الذي يجده من يعمل الحظيرة ، فالهشيم :

الشجر اليابس المتكسر ، الذي يبس من طول الزمان ، وتتوطّؤه البهائم فيتحطّم ويتهشّم ، والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة. قال ابن عباس : «هو الرّجل يجعل لغنمه حظيرة من الشجر والشوك ، فما يسقط من ذلك ودرسته الغنم فهو هشيم» «١» شبههم فى تبددهم ، وتفرق أو صالهم ، بالشوك الساقط على الأرض ، وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ فيتعظ بما يسمع من هذه القصص.

الإشارة : سبب إنكار النّاس على أهل الخصوصية ظهور وصف البشرية عليهم ، ولا يلزم من وجود الخصوصية عدم وصف البشرية ، ووصف البشرية على قسمين :

قسم لازم ، لا تنفك العبودية عنه ، كالأكل والشرب والنّوم والنّكاح ، وغيرها من الأوصاف الضرورية ، وهذه هى التي تجامع الخصوصية وبها سترت ، واحتجبت حتى أنكرت ، فوجودها فى العبد كمال لأنها صوان لسر الخصوصية. قال فى الحكم : «سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بعظمة الرّبوبية فى إظهار العبودية». وقسم عارض يمكن زواله وهى الأوصاف المذمومة ، كالكبر والحسد والحقد ، وحب الدنيا والرّياسة ، وغير ذلك ، فهذا لا تجامعه الخصوصية ، ولا بد من التطهير منه فى وجودها.

وللقشيرى إشارة أخرى ، وحاصلها : كذبت ثمود النفس الأمّارة وجنودها صالح القلب حين دعاها إلى الخروج عن عوائدها ، والتطهر من أوصافها المذمومة ، فقالت النّفس وجنودها : أنتبع واحدا منا ، لأنه

مخلوق مثلنا ، ونحن عصبة؟ إنا إذا لفى ضلال وسعر ، أألقي الذكر الإلهامى عليه من بيننا؟ بل هو كذّاب أشر ، سيعلمون غدا ، حين يقع لهم الرّحيل من عالمهم ، من الكذاب الأشر ، أثمود النّفس وجنودها ، أم صالح القلب؟ إنّا مرسل ناقة النّفس فتنة لهم ، ابتلاء ليظهر الخصوص من العموم ، فارتقبهم ، لعلهم يرجعون إلى أصلهم من النّزاهة والطهارة ، واصطبر فى مجاهدتهم ، ونبئهم أنّ ماء الحياة – وهى الخمرة الأزلية – قسمة بينهم ، من شرب منها صفا ، ومن تنكب عنها أظلم ، كل شرب يحضره من يتأهل له. فنادوا صاحبهم – وهو الهوى – فتعاطى ناقة النّفس ، التي أرادت العروج إلى وطن الرّوح ، فعقرها وردها إلى وطنها الخسيس ، فكيف كان عذابى لها ، وإنذارى إياها؟ إنّا أرسلنا عليهم صيحة القهر ، فسقطوا إلى الحضيض الأسفل ، فكانوا كهشيم المحتظر صاروا أرضيين بعد أن كانوا سماويين. هـ بالمعنى مع تخالف له.

---

(١) انظر تفسير البغوي ٧/ ٤٣١.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣١

ثم قال القشيري : اعلم أن النّفس حقيقة واحدة ، غير متعددة ، لكن بحسب توارد الصفات المتباينة تعددت أسماؤها ، فإذا توجهت إلى الحق توجها كليّا سميت مطمئنة ، وإذا توجهت إلى الطبيعة البشرية توجها كليا سميت أمّارة ، وإذا توجهت إلى الحق تارة ، وإلى الطبيعة أخرى سميت لوّامة. هـ مختصرا.

ثم ذكر قصة لوط ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٣٣ الى ٤٠]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (٣٤) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (٣٧)

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ، وقد تقدم ، إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ أي : على قوم لوط حاصِباً أي : ريحا تحصبهم ، أي : ترميهم بالحصباء ، إِلَّا آلَ لُوطٍ ابنتيه ومن آمن معه ، نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ ملتبسين بسحر من الأسحار ، ولذا صرفه ، وهو آخر الليل ، أو : السدس الأخير منه ، وقيل : هما سحران ، فالسحر الأعلى : قبل انصداع الفجر ، والآخر : عند انصداعه ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا أي :

إنعاما منا ، وهو علة لنجّينا ، كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء العجيب نَجْزِي مَنْ شَكَرَ نعمتنا بالإيمان والطاعة.

وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لوط بَطْشَتَنا أخذتنا الشديدة بالعذاب ، فَتَمارَوْا فكذّبوا بِالنُّذُرِ بإنذاره متشاكّين فيه ، وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ قصدوا الفجور بأضيافه ، فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فمسخناها وسويناها كسائر الوجه ، أي : صارت وجوههم صفيحة واحدة لا ثقب فيها.

روى أنهم لمّا قصدوا دار لوط ، وعالجوا بابها ليدخلوا ، قالت الرّسل للوط : خلّ بينهم وبين الدخول ، فإنّا رسل ربك ، لن يصلوا إليك. وفى رواية : لمّا منعوا من الباب تسوروا الحائط ، فدخلوا ، فصفعهم جبريل بجناحه فتركهم عميا يترددون ، ولا يهتدون إلى الباب ، فأخرجهم لوط عميا. وقلنا لهم على ألسنة الرّسل ، أو بلسان الحال :

فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ أي : وبال إنذارى ، والمراد به : الطمس فإنه من جملة ما أنذروا به.

(٥/٥٣١)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٢

وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً أول النّهار عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ لا يفارقهم حتى يسلمهم إلى النّار ، وفى وصفه بالاستقرار إيماء إلى أنّ عذاب الطمس ينتهى إليه ، فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ ، حكاية لما قيل لهم حينئذ من جهته – تعالى – تشديدا للعتاب.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ، قال النّسفى : وفائدة تكرير هذه الآية أن يجدّدوا عند سماع كلّ نبأ من أنباء الأولين ادّكارا واتعاظا إذا سمعوا الحث على ذلك ، وأن يستأنفوا تنبّها واستيقاظا إذا سمعوا الحثّ على ذلك ، وهكذا حكم التكرير فى قوله ، فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ «١» عند كلّ نعمة عدّها ، وقوله : وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ «٢» عند كلّ آية أوردها ، وكذا تكرير القصص فى أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصوّرة فى الأذهان ، [مذكّرة] «٣» غير منسيّة فى كلّ أوان. هـ.

الإشارة : قال القشيري : يشير إلى أنّ كلّ من غلبته الشهوة البهيمية – شهوه الجماع – يجب عليه أن يقهر تلك الصفة ، ويكسرها بأحجار ذكر «لا إله إلا اللّه» ، ويعالج تلك الصفة بضدها ، وهو العفة. هـ. فالإشارة بقوم لوط إلى الشهوات الجسمانية ، فقد كذّبت الرّوح حين دعتها إلى مقام الصفا ، ودعتها النّفس بالميل إليها إلى الحضيض الأسفل ، فإذا أراد اللّه نصر عبده أرسل عليها حاصب الواردات والمجاهدات ، فمحت أوصافها الذميمة ، ونقلتها إلى مقام الرّوحانية ، قال تعالى : إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ يعنى الأوصاف المحمودة ، نجيناهم فى آخر ليل القطيعة ، أو : الروح وأوصافها الحميدة ، نجيناها فى وقت النّفحات من التدنس بأوصاف النّفس الأمّارة ، نعمة من عندنا ،

لا بمجاهدة ولا سبب ، كذلك نجزى من شكر نعمة العناية ، وشكر من جاءت على يديه الهداية ، وهم الوسائط من شيوخ التربية. ولقد أنذر الرّوح النّفس وهواها وجنودها بطشتنا : قهرنا ، بوارد قهرى ، من خوف مزعج ، أو شوق مقلق ، حتى يخرجها من وطنها ، فتماروا بالنذر ، وقالوا : لم يبق من يخرجنا من وطننا ، فقد انقطعت التربية ، ولا يمكن إخراجنا بغيرها ، ولقد راودوه عن ضيفه ، راودوا الرّوح عن نور معرفته ويقينه ، بالميل إلى شهوات النّفس فطمسنا أعينهم ، فلم يتمكنوا من رد الرّوح إذا سبقت لها العناية ، فيقال للنفس وجنودها : ذوقوا عذابى ونذرى بالبقاء مع الخواطر والهموم ، ولقد صبّحهم أول نهار المعرفة حين أشرقت شموس العيان عذاب مستقر ، وهو محق أوصاف النّفس ، والغيبة عنها أبدا سرمدا. واللّه تعالى أعلم.

---

(١) كررت هذه الآية فى سورة الرّحمن إحدى وثلاثين مرة ، المرة الأولى جاءت فى الآية ١٣.

(٢) الآية ١٥ من سورة المرسلات.

(٣) فى النّسفى [مذكورة].

ثم ذكر قوم فرعون ، تعالى :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤١ الى ٤٢]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ موسى وهارون ، جمعهما لغاية ما عالجا فى إنذارهم ، أو : بمعنى الإنذار ، وصدّر قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات ، وكثرتها ، وهول ما لا قوة من العذاب ، واكتفى بذكر آل فرعون للعلم بأنّ نفسه أولى بذلك ، كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها وهى التسع فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ لا يغالب مُقْتَدِرٍ لا يعجزه شىء.

الإشارة : النفوس الفراعنة ، التي حكمت المشيئة بشقائها ، لا ينفع فيها وعظ ولا تذكير لأنّ الكبرياء من صفة الحق ، فمن نازع اللّه فيها قصمه اللّه وأبعده.

ثم هدد قريشا بما نزل على من قبلهم ، فقال :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٨]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ

وَسُعُرٍ (٤٧)
يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨)
يقول الحق جل جلاله : أَكُفَّارُكُمْ يا معشر العرب ، أو : يا أهل مكة خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ الكفار المعدودين فى السورة قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، والمعنى : أنه أصابهم ما أصابهم مع ظهور خيريتهم منكم قوّة وآلة ومكانة فى الدنيا ، أو : كانوا أقلّ منكم كفرا وعنادا ، فهل تطمعون ألّا يصيبكم مثل ما أصابهم ، وأنتم شر منهم مكانة ، وأسوأ حالا؟ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ أم نزلت عليكم يا أهل مكة براءة فى الكتب المتقدمة : أنّ من كفر منكم وكذّب الرّسول كان آمنا من عذاب اللّه ، فأمنتم بتلك البراءة؟
أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ أي : جماعة أمرنا جميع مُنْتَصِرٌ ممتنع لا نرام ولا نضام ، والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم الإعراض عنهم ، وإسقاطهم عن رتبة الخطاب ، وحكاية قبائحهم لغيرهم ، أي : أيقولون واثقين

(٥٣٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٤
بشوكتهم : نحن أولوا حزم ورأى ، أمرنا مجتمع لا يقدر علينا ، أو : منتصرون من الأعداء ، لا نغلب ، أو :
متناصرون ، ينصر بعضنا بعضا. والإفراد باعتبار لفظ «جميع».
سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ جمع أهل مكة ، وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ الأدبار. والتوحيد لإرادة الجنس ، أو : إرادة أنّ كل منهم يولّى دبره ، وقد كان كذلك يوم بدر. قال عمر رضي اللّه عنه : لما نزلت : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ كنت لا أدرى أي جمع يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم يلبس الدرع ، ويقول : سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ فعرفت تأويلها «١» ، فالآية مكية على الصحيح. بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ أي : ليس هذا تمام عقوبتهم ، بل الساعة موعد أصل عذابهم ، وهذا طلائعه ، وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ أي : أقصى غاية من الفظاعة والمرارة من عذاب الدنيا.
والداهية : الأمر الفظيع الذي لا يهتدى إلى الخلاص منه ، وإظهار الساعة فى موضع إضمارها تربية لهولها.
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ من الأولين والآخرين فِي ضَلالٍ عن الحق فى الدنيا وَسُعُرٍ ونيران تحرق فى الآخرة ، أو : لفى هلاك ونيران مسعرة ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يجرّون فيها عَلى وُجُوهِهِمْ ويقال لهم :
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ أي : قيسوا حرها وألمها ، كقولك : وجد مسّ الحمّى ، وذاق طعم الضرب لأن النّار

إذا أصابتهم بحرّها فكأنها تمسهم مسّا بذلك ، و«سقر» غير مصروف للعلمية والتعريف لأنها علم لجهنم ، من : سقرته النّار :

إذا لوّحته.

الإشارة : ما قيل فى منكرى خصوصية النّبوة ، يقال فى منكرى خصوصية الولاية إذا اشتغل بأذاهم ، يعنى : أنّ من أنكر على الأولياء المتقدمين قد أصابهم ما أصابهم ، إما ذل فى الظاهر ، أو طرد فى الباطن ، وأنتم أيها المنكرون على أهل زمانكم مثلهم. أمنتقدكم خير من أولئكم أم لكم براءة من العذاب فى كتب اللّه تعالى؟ أم يقولون : نحن جميع ، أي : مجتمعون على الدين ، لا يصيبنا ما أصاب الكفار ، فيقال لهم : سيهزم جمعكم ، ويتفرق شملكم ، وتفضوا إلى ما أسلفتم ، نادمين على ما فعلتم ، ولن ينفع النّدم حين تزل القدم ، فتبقون فى حسرة البعد على الدوام ، فالكفار حرموا من جنة الزخارف ، وأنتم تحرمون من جنة المعارف ، مع غم الحجاب وذل البعد عن الحضرة القدسية ، إن المجرمين – وهم أهل الطعن والانتقاد – فى ضلال عن طريق الوصول إلى اللّه ، ونيران القطيعة ، يوم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٣٢٩) والطبري (٢٧/ ١٠٨). وزاد المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ١٠١٨ – ١٠١٩) عزوه لعبد الرّزاق وابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، فى تفاسيرهم ، من مرسل عكرمة.

يسحبون على وجوههم ، فينهكمون فى الدنيا فى الحظوظ والشهوات ، وفى الآخرة فى نار البعد والقطيعة ، على دوام الأوقات ، ويقال لهم : ذوقوا مرارة الحجاب وسوء الحساب ، وكلّ هذا بقدر وقضاء سابق ، كما قال تعالى :

[سورة القمر (٥٤) : الآيات ٤٩ الى ٥٥]

إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣)

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ أي : بتقدير سابق فى اللوح قبل وقوعه ، قد علمنا حاله وزمانه قبل ظهوره ، أو : خلقناه كلّ شىء مقدّرا محكما مرتبا على حسب ما اقتضته الحكمة ، و«كل» : منصوب بفعل يفسره الظاهر. وقرىء بالرفع شاذا ، والنّصب أولى لأنه لو رفع لأمكن أن يكون «خلقنا» صفة لشىء ، ويكون الخبر مقدرا ، أي : إنا كلّ شىء مخلوق لنا حاصل بقدر ، فيكون

حجة للمعتزلة ، باعتبار المفهوم ، وأن أفعال العباد غير مخلوقة للّه. فلم يسبق لها قدر ، تعالى اللّه عن قولهم ، ويجوز أن يكون الخبر : «خلقناه» ، فلا حجة فيه ، ولا يجوز فى النّصب أن يكون «خلقنا» صفة لشيء لأنه يفسر النّاصب ، والصفة لا تعمل فى الموصوف ، وما لا يعمل لا يفسر عاملا. قال أبو هريرة : جاء مشركو قريش إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم يخاصمونه فى القدر ، فنزلت الآية «١» ، وكان عمر يحلف أنها نزلت فى القدرية ، أي : على طريق الإخبار بالغيب.

وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ أي : كلمة واحدة ، سريعة التكوين ، وهو قوله تعالى : كُنْ أي : وما أمرنا لشيء نريد تكوينه إلّا أن نقول له : كن ، فيكون ، أو : إلّا فعلة واحدة ، وهو الإيجاد بلا معالجة ، كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ فى السرعة ، أي : على قد ما يلمح أحد ببصره ، وقيل : المراد سرعة القيامة ، لقوله تعالى : وَما أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ «٢».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ أي : أشباهكم فى الكفر من الأمم ، وقيل : أتباعكم ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ من متعظ بذلك وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ من الكفر والمعاصي مكتوب على التفصيل فِي الزُّبُرِ فى ديوان الحفظة ، وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ من الأعمال ، ومن كلّ ما هو كائن مُسْتَطَرٌ مسطور فى اللوح بتفاصيله.

---

(١) أخرجه مسلم فى (القدر ، باب كلّ شيء بقدر ، ح ٢٦٥٦).

(٢) الآية ٧٧ من سورة النّحل.

ولمّا بيّن سوء حال الكفرة بقوله : إِنَّ الْمُجْرِمِينَ ... إلخ ، بيّن حسن حال المؤمنين ، جمعا بين الترهيب والترغيب فقال : إِنَّ الْمُتَّقِينَ أي : الكفر والمعاصي فِي جَنَّاتٍ عظيمة وَنَهَرٍ أي : أنهار كذلك. والإفراد للاكتفاء بذكر الجنس ، مراعاة للفواصل ، وقرىء : «ونهر» «١» جمع «نهر» ، كأسد وأسد. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ فى مكان مرضى ، وقرئ «فيمقاعد صدق» «٢» ، عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ أي : مقربين عند مليك قادر لا يقادر قدر ملكه وسلطانه ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكوته ، سبحانه ، ما أعظم شأنه. والعندية : عندية منزلة وكرامة وزلفى ، لا مسافة ولا محاسّة.

الإشارة : هذه الآية وأشباهها هى التي غسلت القلوب من الأحزان والأغيار ، وأراحت العبد من كدّ التدبير والاختيار لأنّ العاقل إذا علم علم يقين أنّ شئونه وأحواله ، وكلّ ما ينزل به ، قد عمه القدر ، لا يتقدم شيء عن وقته ولا يتأخر ، فوّض أمره إلى اللّه ، واستسلم لأحكام مولاه ، وتلقى ما ينزل به من النّوازل بالرضا والقبول ، خيرا كان أو شرا ، كما قال الشاعر :

إذا كانت الأقدار من مالك الملك فسيّان عندى ما يسر وما يبكى

وقال آخر :

تسلّ عن الهموم تسل «٣» فما الدنيا سوى ثوب يعار

وسلّم للمهيمن فى قضاه ولا تختر فليس لك اختيار

فما تدرى إذا ما الليل ولّى بأيّ غريبة يأتى النّهار

وقوله تعالى : وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ .. إلخ ، هذا فى عالم الأمر ، ويسمى عالم القدرة ، وأما فى عالم الخلق ، ويسمى عالم الحكمة ، فجلّه بالتدريج والترتيب ، سترا لأسرار الرّبوبية ، وصونا لسر القدرة الإلهية ، ليبقى الإيمان بالغيب ، فتظهر مزية المؤمن ، ويقال لأهل العناد المتجبرة : ولقد أهلكنا أشياعكم إما بالهلاك الحسى ، أو المعنوي ، كالطرد والبعد ، فهل من متعظ ، يرجع عن عناده؟ وكلّ شىء فعلوه فى ديوان صحائفهم ، وكلّ صغير وكبير من

---

(١) عزاها فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ للأعرج. وزاد فى البحر المحيط (٨/ ١٨٢) الأعمش وأبا مجلز واليماني وأبا نهيك وزهير العرقبى. [.....]

(٢) عزاها فى مختصر ابن خالويه/ ١٤٩ وفى البحر المحيط (٨/ ١٨٢) لعثمان البتى.

(٣) كذا ، والشطرة غير مستقيمة الوزن ، وقد تكون : «تسل عن الهموم به تسل».

أعمال العباد مسطورة فى العلم القديم. إنّ المتقين ما سوى اللّه ، فى جنات المعارف ، وأنهار العلوم والحكم ، فى مقعد صدق ، هو حضرة القدس ، ومحل الأنس ، عند مليك مقتدر. قال الورتجبي : مقامات العندية جنانها زفارف الأنس ، وأنهارها أنوار القدس ، أجلسهم اللّه فى بساط الزلفة والمداناة ، التي لا يتغير صاحبها بعلة القهر ، ولا يزول عنها بالتستر والحجاب لذلك سماه «مقعد صدق» أي : محل كرامة دائمة ، ومزية قائمة ، ومواصلة سرمدية ، واللّه مقدّر قادر. انظر تمام كلامه.

وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق ، وصلّى اللّه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم «١».

---

(١) إلى هنا ينتهى المجلد الخامس بتجزئة المحقق. ويتلوه – إن شاء اللّه – المجلد السادس ، وأوله تفسير سورة «الرحمن» ، أسأل اللّه تعالى أن ينفعنى وجميع المسلمين به ، وأن يبلغنا بهذا الكتاب أسمى الدرجات ، وأن يوفقنا لما يقربنا إليه فى كلّ الأوقات ، وألا يجعلنا من المفتونين. اللهم اغفر لنا

وارحمنا ويسر لنا كلّ عسير. آمين.

أحمد عبد اللّه القرشي

(٥٣٧/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٨

(٥٣٨/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٥٣٩

فهرس المجلد الخامس

سورة ص ٥ سورة الزمر ٤٧ سورة غافر ١٠٩ سورة فصلت ١٥٩ سورة الشورى ١٩٣ سورة الزخرف ٢٣٣ سورة الدخان ٢٧٧ سورة الجاثية ٢٩٩ سورة الأحقاف ٣٢٣ سورة محمد ٣٥٣ سورة الفتح ٣٨٣ سورة الحجرات ٤١٣ سورة ق ٤٤٣ سورة الذاريات ٤٦٣ سورة الطور ٤٨٥ سورة القمر ٥٢١ ... ...
... ...

(٥٣٩/٥)

تنبيه :

نظرا لعدم اكتمال هذه النسخة فقد تم الاعتماد من أول سورة الرحمن : آخر سورة الناس على دار الكتب العلمية . بيروت

عدد الأجزاء / ٨

الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م . ١٤٢٣ هـ

تنبيه آخر

أولا : الترقيم داخل الصفحات

ثانيا : الترقيم لذيل الصفحات وليس لأولها

(٢٦٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {الرحمنُ علَّمَ القرآنَ} عدّد في هذه الصورة الكريمة ما أفاض على كافة الأنام من فنون نِعمه الدينية والدنيوية ، الأنفسية والآفاقية ، وأنكر عليهم إثر كل منها إخلالهم بموجب شكرها ، وبدأ بتعليم القرآن ؛ لأنه أعظمها شأناً ، وأرفعها مكاناً ، كيف لا وهو مدار السعادة الدينية والدنيوية ؟ وإسناد تعليم القرآن إلى اسم " الرَّحْمَان " للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها.

ثم ثنَّى بنعمة الإيمان ، فقال : {خَلَقَ الإِنسانَ} أي : جنس الإنسان ، أو آدم ، أو محمد صلى الله عليه وسلم ، والمراد بخلقه : إنشاؤه على ما هو عليه من القُوى الظاهرة والباطنة. {علَّمه البيانَ} وهو المنطق الفصيح ، المُعْرِب عما في الضمير ، وليس المراد بتعليمه : تمكينه من بيان ما في نفسه ، بل منه ومِن فهم بيان غيره ، إذ هو الذي يدور عليه التعليم. وأَخَّر ذِكر خلق الإنسان عن تعليم القرآن ؛ ليعلم إنما خلقه للدين ، وليُحيط علماً بوحي الله وكُتبه ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان ، وهو البيان والإفصاح عما في الضمير. والجمل الثلاث أخبار مترادفة للرحمن ، وإخلاء الأخيرتين عن العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزّك بعد ذلك ، كثَّرك بعد قِلَّة ، فعل بك ما لم يفعل أحدٌ بأحدٍ ، فما تُنكر إحسانه ؟ .

٢٦٦

ثم ذكر النِعَم الآفاقية ، فقال : {الشمسُ والقمرُ بحُسْبَانٍ} أي : يجريان بحساب معلوم ، وتقدير سويٍّ ، في بُروجهما ومنازلهما ، بحيث ينتظم بذلك أمور الكائنات السفلية ، وتختلف الفصول والأوقات ، ويُعلم منها عدد السنين والحساب ، ولو كان الدهر كله نهاراً أو ليلاً لبطلت هذه الحكمة ، ولم يَدْر أحدٌ كيف يحسب شيئاً ، ولاختلّ نظام العالم بالكلية ، وقال مجاهد : (بحُسْبان) كحسبان الرحا ، يدوران في مثل قطب الرحا ، وهو مُؤيِّدٌ لأهل التنجيم. قال بعضهم : إنَّ الشمس قدر الدنيا مائة وعشرون مرة ، لأجل ذلك أن الإنسان يجدها قبالته حيث صار. وقال في شرح الوغليسية : إنَّ الشمس قدر الدنيا بمائة ونيف وستين مرة ، والقمر قدر الدنيا ثمان مرات ، ويُحيط بهما بصر أقل من حبة السمسم ، الله أكبر وأعز وأعلا. هـ. ويقال : مكتوب في وجه الشمس : " لا إله إلا الله محمد رسول الله ، خلق الشمس بقدرته ، وأجراها بأمره " وفي وجه القمر مكتوب : " لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، خالق الخير والشر بقدرته ، يبتلي بهما مَن يشاء مِن خلقه ، فطُوبى لمَن أجرى اللّهُ الخير على يديه ، والويل لمَن أجرى اللّهُ الشر على يديه ".

}

والنجمُ والشجرُ يسجدان} النجم : النبات الذي ينجم ، أي : يطلع من الأرض ولا ساق له ، كالبقول ، والشجر : الذي له ساق. وقيل : {النجم} : نجوم السماء وسجودهما : انقيادهما لما يُراد منهما ، شُبّها بالساجدين من المكلّفين في انقيادهما ، واتصلت هاتان الجملتان بالرحمن بالوصل المعنويّ ، لِما علم أنَّ الحُسبان حسبانه ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه والنجم والشجر يسجدان له ، ولم يذكر العاطف في الجُمل الأُولِ وجِيء به بعدُ ؛ لأنّ الأُولَ وردت على سبيل التعديد كما تقدّم ، ثم ردَّ الكلام إلى منهاجه في وصل ما يجب وصله ؛ للتناسب والتقارب بالعطف وبيان والتناسب : أنَّ الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فعطف أحد المتقابلين على الآخر ، وأيضاً : حُسبان الشمس والقمر نوع من الانقياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر. ثم قال تعالى : {والسماءَ رفَعها} أي : خَلَقها مسموكةً مرفوعةً ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومسكن ملائكته الذي يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبّه بذلك على كبرياء شأنه ، ومُلكه وسلطانه ، {وَوَضَعَ الميزانَ} أي : كل ما يُوزن به الأشياء ويعرف مقاديرها ، من ميزان ، وقَرَسْطون ، ومكيال ، ومعيار ، والقرسطون – بفتحتين : العدلة التي توزن بها الفضة ، أي : خَلَقه موضعاً على الأرض من حيث علّق به أحكام العباد على التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم. وقيل : معنى الميزان ، العدل ، أي : شرع العدل وأمر به حتى يوفّى كل ذي حق حقه ، حتى انتظم أمر العالم واستقام ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " بالعدل قامت السماوات والأرض " ، والعدل : ما حكمت به الشريعةُ المحمدية ، من كتاب ، وسُنة ، وإجماع ، وقياس. وأمر بذلك {ألاَّ تَطْغَوْا في الميزانِ} أي : لئلا تجوروا في الميزان بعد

الإنصاف في حقوق العباد ، فـ " أن " ناصبة ، أو مُفَسِّرة ، أو ناهية ، {وأَقيموا الوزنَ بالقِسْطِ} وأقيموا أوزانكم بالعدل {ولا تُخْسِرُوا الميزانَ} ولا تنقصوه بالتطفيف ، نهى عن الطغيان ، الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران ، الذي هو تطفيف ونقصان ، وكرّر لفظ " الميزان " تشديداً للوصية ، وتقويةً للأمر باستعماله الحثّ عليه.

ولمّا ذكر نعمة الإمداد المعنوي ، وهو مدد الأرواح ، ذكر مددَ الأشباح ، فقال : {والأرضَ وضعها} خفضها مدحوّة على الماء {للأنام} للخلق ، وهو ما على وجه الأرض من دابة. وعن الحسن : الجن والإنس ، فهي كالمهاد ، يتصرفن فوقها. {فيها فاكهةٌ} ضروب مما يُتفكّه به ، {والنخلُ ذاتُ الأكمام} وهي أوعية الثمر ، واحدها : كِمٌّ ، بكسر الكاف ، أو : كلّ ما يَكُم ، أي : يُغطّى ، من ليفه وسعفه وكُفُرَّاه ، والكُفرّ : وعاء الطَّلْعِ ، وكله مُنتفع به ، كما يُنتفع بالمكموم من ثمره وجُمّاره وجّذوعه.

}

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦

والحبُّ ذو العَصْفِ} هو ورق الزرع ، أو التبن ، {والريحانُ} أي : الرزق وهو اللبّ ، أي : فيها ما يتلذذ به ، والجامع بين التلذُّذ والتغذّي ، وهو تمر النخل ، وما يتغذّى به فقط ، وهو الحب المشتمل على علق الدواب وزرق العباد. وقرأ الأخَوان : (والريحانِ) بالجر ، عطفاً على " العصف " والباقون بالرفع عطفاً على " الحب " على حذف مضاف ، أي : وذو الريحان ، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مقامه. وقيل : معناه : وفيه الريحان الذي يُشم. وقرأ الشامي بنصب الجميع ، أي : خلق الحب والريحان.

{فَبأيّ آلاءِ رَبِّكما} أي : نِعَمَه التي عَدَّدها من أول السورة ، {تُكَذِّبان} والخطاب للثقلين المدلول عليهما بقوله تعالى : {للأنام} وينطق به قوله : {أيه الثقلان} والفاء لترتيب الإنكار والتوبيخ على ما فصّل من فنون النعماء ، وصنوف الآلاء ، الموجبة للإيمان والشكر ، والتعرُّض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية ، مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ. ومعنى تكذيبهم آلائه تعالى : كفرهم بها ، وإمّا بإنكار كونه نعمة في نفسه ، كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية ، وإمّا بإنكاره كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه ، كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى ، اشتراكاً أو استقلالاً ، صريحاً أو دلالة ، فإنَّ إشراكهم لآلهتهم معه تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالى. انظر أبا السعود. أي : إذا كان الأمر كما فصّل فبأيّ فرد من أفارد نعمه تعالى تُكذِّبان ، مع أنّ كُلاً منها ناطق بالحق ، شاهد بالصدق ؟ والله تعالى أعلم.

الإشارة : اعلم أنَّ " الرحمن " من الأسماء الخاصة بالذات العلية ، لا يُوصف به غيره تعالى ، لا حقيقة ولا مجازاً ؛ لأنها مقتضية لنعمة الإيجاد ، ولا يصح مِن غيره ، بخلاف

٢٦٨

" الرحيم " فإنه مقتضٍ لنعمة الإمداد ، وقد يصح من غيره تعالى مجازاً ، فلذلك يجوز أن يُوصف العبد بالرحيم ، ولا يوصف بالرحمن ، ثم إنَّ الرحمة المشتمل عليها الرحمن على قسمين : رحمة ذاتية لا تُفارق الذات ، ورحمة صفاتية يقع بها الإمداد للخلق ، فيرحَم بها مَنْ يشاء من عباده ، وتسمى الرحمة الذاتية رحمانية ، ولمَّا كانت لا تُفارق الذات وقع التعبير بها في الاستواء ، فقال تعالى : {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه : ٥] ، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَانُ} [الفرقان : ٥٩] ، وإليه أشار في الحِكَم بقوله : يا مَن استوى برحمانيته على عرشه ، فصار العرش غيباً في رحمانيته... الخ.

وأما الرحمة الصفاتية ، وهي التي يقع بها الإمداد ، فتتنوع بتنوُّع الأسماء الحسنى ، وهي تسعة وتسعون. أمّا الأسماء الجمالية فالرحمة فيها ظاهرة ، وأمّا الأسماء الجلالية فالرحمة فيها : عدم انفكاك لطف الله عن قدره ، والرحمة الذاتية هي المُوفية مائة ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " إنّ اللّهَ تعالى خَلَقَ مائةَ رحمة ، أَمسك عنده تسعةً وتسعين ، وأنزل واحدةً إلى الدنيا ، بها يتراحم الخلقُ " الحديث ، أو كما قال عليه السلام. ولمَّا كان القرآن من أجلّ النِعَم عبّر عن تعليمه بالرحمانية ، التي هي من الصفات الخاصة ؛ لأنّ القرآن مُظهر لأوصاف الذات وأسرارها وأفعالها ، وكاشف لحقائقها ، عند مَن فُتحت بصيرته.

وقوله تعالى : {خَلَقَ الإِنسانَ} أي : أظهره من سر اللطافة إلى مظهر الكثافة جاهلاً به من جهة الجسمانية ، ثم {علَّمه البيان} أي : بيان السير إلى معرفته ، بأن ركّب فيه العقل المميز ، ونَصَبَ له مظاهر يتعرّف بها ، وبعث له دالاً يدله ، ويُعلمه أسرار الربوبية وآداب العبودية ، فلا يزال يُحاذيه ، ويسير به حتى يستنير قمر توحيده ، وتُشرق شمس عرفانه ، وإليه الإشارة بقوله : {الشمس والقمر بُحسبان} أي : يجريان بحسب معلوم ، في زيادة نور التوحيد ونقصانه ، على حسب استعداد العبد وتوجهه. قال القشيري بعد كلام : وكذلك شموس المعارف ، وأقمار العلوم – في طلوعها في أوْج القلوبِ والأسرار – في حكم الله تعالى وتقديره حسابٌ معلومٌ ، يُجْريهما على ما سبق به الحُكْمُ. هـ. والنجم والشجر يسجدان ، أي : ونجم نور العقل الطبيعي ، وشجر الفكر الاعتباري يخضعان ويضمحلان عند سطوع شمس نهار العرفان ، وأمَا نور العقل الوهبي ، والفكر الاستبصاري ، فيطويان الكونَ طيّاً ؛ لانَّ نورهما مستمد من العقل الأكبر ، وهو أول الفيض الإلهي ، المتدفق من بحر الجبروت ، وسماء الأرواح ، رَفَعَا عن لوث عالم الأشباح ، وهو محل شهود أسرار الذات وأنوار الصفات ، وتجليات الأنبياء والرسل ، فمَن ترقّى إليه لا تغيب عنه أرواح الأنبياء وذواتهم ، فالمتجلي واحد. ووضع الميزان على النفوس الظلمانية ، ألاَّ تَطْغَوا في الميزان ، بتعديّ حدود الرياضة والمجاهدة ، وأقيموا عليها الوزن بالقسط ، ولا تُخسروا

الميزان بإهمالها في هواها وحظوظها. والأرض ، أي : أرض البشرية وضعها لقيام وظائف العبودية ، اليت رتّبها للأنام ، فيها فاكهة العلوم الوهبية إن صفت ، ونَخْل علوم الشريعة ذات الأكمام ، وهي البراهين التي تستخرج بها مسائلها ، فمَن وقف مع قشر الأكمام كان مقلّداً. ومَن نفذ إلى لُبها كان مجتهداً منِ نِحريراً.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦

وقال القشيري : {والنخلُ ذات الأكمام} من فواكه الوحدانيات المستورة عن الأغيار ، المستورة عن غير أهلها. ثم قال : {والحب ذو العصف} من حبة المحبة الذاتية ، غير القابلة للتغيُّر والاستبدلال ، المشتملة على الأرزاق المكتنفة بالمعارف والحاقئق والحِكِم. هـ. والريحان هو قوت الأرواح من اليقين ، أو نسيم الأذواق والوجدان ، {فبأي آلاء ربكما تُكذّبان} أيها الثقلان ، أو أيها النفس والروح ؛ إذ كل منهما فاز بأمنيته ، ووصل إلى نهاية ما اشتهاه ، إذا عمل بما تقدّم ، وأصغى بأُذن قلبه إلى ما عددناه. وبالله التوفيق.

(٢٦٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٦٦

يقول الحق جلّ جلاله : {خَلَقَ الإنسانَ} آدم {من صلصالٍ} من طين يابس ، له صلصلة ، أي : صوت {كالفَخَّار} كالطين المطبوخ بالنار وهو الخزف. ولا تخالف بين هذا وبين قوله : {مِّنْ حَمإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر : ٢٦] و {مِّن طِينٍ لاَّزِب} [الصافات : ١١] لاتفاقهما معنىً ، لأنَّ المعنى : أنَّ أصل خلقه من تراب ، ثم جعله طيناً ، ثم حمأً مسنوناً ، ثم صلصالاً. {وخَلَقَ الجانَّ} أي : الجن ، او أبا الجن إبليس ، {من مَارِجٍ من نار} والمارج هو اللهب الصافي ، الذي لا دخان فيه ، وقيل : المختلط بسواد النار ، من : مَرجَ الشي : إذا اضطرب أو اختلط ، و " مِن " : بيانية ، كأ ، هـ قيل : مِن صاف النار ، أو مختلط من النار ، أو أراد : من نار مخصوصة.

{فبأي آلاءِ ربكما تُكَذِّبان} مما أفاض عليكما في تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم. قال القشيري : وكرّر سبحانه هذه الآية في غير موضع ، على جهة التقرير بالنعمة على التفاصيل. نعمة بعد نعمة ، ووجه النعمة في خلق آدم من طين : أنه رقّاه إلى رتبةٍ

٢٧٠

بعد أن خلقه من طين ، وكذلك القول في {مارج من نار}.هـ. يعني : أنَّ آدم رقّاه إلى رتبة الروحانية والخلافة ، والجن إلى رتبة التصرُّف الباطني في الآدمي وغيره.

{ربُّ المشْرِقَين وربُّ المغربين} أي : مشرقي الشمس في الصيف والشتاء ، ومَغْربيها. قال ابن الحشا : المشرق الشتوي : هو النقطة التي تطلع فيها الشمس فيها في الأفق في نصف دجنبر ، أقصر ما يكون النهار من أيام السنة ، والمشرق الصيفي : هو النقطة التي تطلع فيها الشمس في نصف يونية ، أطول ما يكون من أيام السنة. والمغربان : حيث تغرب في هذين اليومين ، ومشارق الشمس ومغاربها في سائر

أيام السنة ليس هذين المشرقين والمغربين.هـ. وقوله : في نصف دجنبر ونصف يونية ، هذا في زمانه ، وأمّا اليوم فهي على ثمانية أيام ونحوها ، لزيادة حركة الإقبال. قال ابن عطية : متى وقع ذكر المشرق والمغرب فهو إشارة إلى الناحيتين ، أي : مشرق الصيف والشتاء ومغربهما. ومتى وقع ذكر الشارق والمغارب فيهو إشارة إلى تفصيل مشرق كل يوم ومغربه ، ومتى ذكر المشرقان فهو إشارة إلى نهايتي المشارق والمغارب ؛ لأنّ ذكر نهايتي الشيء ذكر لجميعه. هـ.

}

(٢٧٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} قال القشيري : ووجه النعمة في مشرق الشمس ومغربها : جريانه على ترتيب بديع ؛ ليكمل انتفاع الخلق بذلك. هـ.

{مَرَجَ البحرين يلتقيان} أي : أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين بإسماك أحدهما عن الآخر في مرأى العين. قال في الحاشية : ويُقرب ما ذكره ما هو مشهود في الريف مع الماء ، فاعتبر به ، وبالأبيض من البيضة مع الأصفر منها ، وقيل : أرسل بحري فارس والروم يلتقيان في المحيط ؛ لانهما خلجان يتشعبان منه ، {بينهما برزخٌ} حاجز من قدرة ا لله تعالى ، {لا يَبغِيان} لا يتجاوزان حدّيهما ، ولا يبغي أحدُهما على الآخر بالممازجة وإبطال الخاصية ، أو : لا يتجاوزان حدّيهما بإغراق ما بينهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} وليس شيء منها يقبل التكذيب.

{يَخْرُجُ منهما اللؤلؤُ والمَرجانُ} اللؤلؤ : الدرّ ، والمَرجان : الخرزُ الأحمر المشهور. قلت : هو شجر ينبت في الحجر في وسط البحر ، وهو موجود في بحر المغرب ، ما بين طنجة وسبتة. وقال الطرطوشي : هو عروق حُمر يطلع من البحر كأصابع الكف ، وشاهدناه بأرض المغرب مراراً. هـ. وقيل : اللؤلؤ : كِبار الدر ، والمرجان : صِغاره. وإنما قال : " منهما " وهما إنما يخرجان من الملح ؛ لأنهما لمّا التقيا وصارا كالشيء الواحد جاز أن يُقال : يخرجان منهما. ونقل الأخفش عن قوم : أنهما يخرجان من المالح والعذب ، وليس لِمن ردّه حجة قاطعة ، ومَن أثبت أَولى ممن نفى. هـ. قال أبو حيان : والظاهر خروجهما منهما ، وحكاه الأخفش عن قوم. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكَذَّبان} مع ظهور هذه النعمة.

{وله الجوارِ} أي : السفن ، جمع : جارية ، {المُنشَئاتُ} المرفوعات الشُرَّع ، وقرأ حمزة ويحيى بكسر الشين ، أي : الرافعات الشُروع ، أي القلاع ، أو : اللاتي يُنشئن الأمواج

بمَخْرهن {في البحر كالأعلام} كالجبال الشاهقة ، جمع عَلَم ، وهو الجبل الطويل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مِن خلق مواد السفن والإرشاد إلى أخذها ، وكيفية تركيبها ، وإجرائها في البحر ، بأسباب لا يَقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه.

{كُلُّ مَن عليها} على الأرض {فانٍ ويبقى وجهُ ربك} أي : ذاته ، قال القشيري : وفي بقائه سبحانه خَلَفُ من كلِّ تلفٍ ، وتسليةٌ للمؤمنين عما يُصيبهم من المصائب ، ويفوتهم من المواهب. هـ. {ذو الجلال} ذو العظمة والسلطان ، {والإكرام} أي : الفضل التام بالتجاوز والإحسان. وهذه الصفة من عظم صفات الله تعالى ، وفي الحديث : " ألظوا – أي : تعلقوا – بيا ذا الجلال والإكرام " يعني : نادوه به ، يُقال : ألظ بالمكان : إذا أدام به ، وألظ بالدعاء : إذا لزمه ، وروي أنه صلى الله عليه وسلم مرّ برجل يُصلِّي ، ويقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال : " قد استُجيب لك " {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ إفناءهم وإخراجهم من ضيق هذه الدار الدنية ، وإحياءهم وإبقاءهم في الدار الباقية في النعيم السرمدي من عظائم النِعم.

(٢٧١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

الإشارة : اختص مظهَر الإنسان عن سائر المظاهر باعتدال خلقته ، لطافةً وكثافةً ، معنىً وحسّاً ، روحانيّاً وبشريةً ، فلذلك فاقت معرفته إذا عرف سائر المخلوقات ، بخلاف الجن والملائكة ، اللطافةُ غالبة عليهم ، فمَن كان منهم عارفاً لا تجده إلا متحرفاً ، غالباً عليه الهيمان والسُكْر ، وأمّا الآدمي فمَن غلبت رَوحانيتُه على صلصاليته ، ومعناه على حسه ، كان كالملائكة أو أفضل ، ومَن غلبت طينتُه على روحانيته ، وحسُّه على معناه ، كان كالبهائم أو أضل.

وقوله تعالى : {رَبُّ المشرقين وربُّ المغربين} أي : رب مشرق شمس العرفان وقمر الإيمان ، ومغربهما عند غين الأنوار والأغيار. وقال القشيري : يُشير مشرق الروح والقلب ، ومغرب النفس والهوى. هـ. فإذا أشرق نور الروح والقلب غابت ظلمة النفس والهوى ، وإذا استولت ظلمة النفس والهوى على الروح والقلب غربت شمسهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع ما في ذلك في اللطائف الغامضة ، والغوامض الخفية ، من عدم سكون الروح والقلب إلى التجلِّي الجمالي ، وعدم اضطراب النفس والهوى بالتجلِّي القهري الجلالي ؛ لأنَّ الكامل من هذه الطائفة هو الذي يُشاهد الجمالَ في الجلال ، والجلالَ في الجمال ، فلا يسكن إلى شيء ، ولا يقف مع شيء.

وقوله تعالى : {مَرَجَ البحرين يلتقيان} يُشير إلى بحر علم الشريعة ، وبحر علم الحقيقة ، يلتقيان في الإنسان الكامل ، {بينهما برزخ} وهو العقل ، فإنه يحجز الشريعةَ أن

تعدو محلها ، والحقيقة أن تُجاوز محلها ، فالشريعة محلها الظواهر ، والحقيقة محلها البواطن ، والعقل برزخ بينهما ، يقوم بحُكم كل واحدة منهما ، فمَن خفَّ عقله غلبت إحداهما عليه ، إمّا الشريعة ، فيكون يابساً جامداً لا يخلو من فسوق ، وإمّا الحقيقة ، فيكون إما سكراناً أو زنديقاً. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان ؟ } حيث هَدى العبدَ إلى القيام بحقهما ، وإنزال كل واحدة في محلها ، {يَخرج منهما اللؤلؤ والمرجان} فيخرج من بحر الحقيقة جواهرَ الحِكم ويواقيت العلوم ، ومن بحر الشريعة مَرجان تحرير النقول ، وتحقيق مبانيها ، والإتيان بها من معادنها ، {فبأي آلاء ربكما تُكذَّبان} حيث وفَّق غوّاص بحر الحقيقة إلى استخراج أسرارها ، وغوّاص بحر الشريعة إلى إظهار أنوارها. {وله الجوارِ} ، أي : سفن استخراج أسرارها ، وغوّاص بحر الشريعة إلى أظهار أنوارها. {المنشأت} في بحر الذات ، مع رسوخ عقلها ، كالجبل الراسي ، فتعوم سفنُ أفكار العارفين في بحر الجبروت وأنوار الملكوت ، ثم ترسي في مرساة العبودية ، للقيام بآداب الربوبية ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع عظيم هذا اللطف الكبير ، والمنَّة الكريمة ، حيث يتلاطم عليهم أمواَجُ بحر الذات ، فيكونوا من المغرقين في الزندقة ، أو ذهاب العقل بالكلية ، لكن مَنْ صَحبَ رئيسا عارفاً لا يخاف من الغرق إن شاء الله.

}

(٢٧٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

كلُّ مَن عليها فانٍ} كل مَنْ على بساط المملكة فَانٍ متلاشٍ ، {ويبقى وجه ربك} أي : ذاته المقدسة ، فلا موجود معها على الحقيقة ، كما قال الشاعر :

فَالْكُلُّ دُونَ اللَّه إِنْ حَقَّقْتَه

عَدمٌ عَلَى التَّفْصِيل والإجمال

وهذا معلوم عند أرباب الأذواق ، مُقرر عند أهل الفناء والبقاء ، فلا يجحده إلاَّ جهول ، كما قال تعالى : {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} ؟ .

(٢٧٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٠

يقول الحق جلّ جلاله : {يَسْأَلُه مَن في السماوات والأرض} مِن ملَكٍ وإنسٍ وجن وغيرهم ، لا غنى

لأحد منهم عنه سبحانه ، كل منهم يسأل حاجته ، إما بلسان مقاله ، أو بلسان حاله ، أهل السموات يسأله قوت أرواحهم ، وأهل الأرض قوتَ أشباحهم

٢٧٣

وأرواحهم. وقال أبو السعود : فإنهم كافة ، من حيث حقائقهم الممكِنة ، بمعزلٍ من استحقاق الوجود ، وما يتفرّع عليه من الكمالات بأسره ، بحيث لو انقطع ما بينهم وبين العناية الإلهية من العلاقة لم يشمُّوا رائحة الوجود أصلاً ، فهم في كل أمر مستمدون على الاستدعاء والسؤال. هـ.

ويُوقف على قوله : {والأرض} ثم يبتدأ بقوله : {كُلَّ يومٍ} فهو ظرف لقوله : {هو في شأن} أي : هو كائن كل وقت وحين في شأنٍ من شؤون خلقه ، التي من جملتها : إعطاؤهم ما سألوا ، فإنه تعالى لا يزال يُنشئ أشخاصاً ، ويُفني آخرين ، ويأتي بأحوالٍ ويذهب بأحوالٍ ، حسبما تقتضيه مشيئته ، المبنية على الحِكَم البالغة ، وسمعتُ شيخنا الفقيه العلاّمة ، سيدي " التاودي بن سودة " – رحمه الله – يقول في تفسيرها : إنَّ من شؤونه تعالى أنه كل يوم يُجهّز ثلاثة جيوش : جيشاً إلى الأرحام ، وجيشاً إلى الدنيا ، وجيشاً إلى المقابر. هـ. وعن ابن عيينة : الدهر عند الله يومان ، أحدهما : اليوم الذي هو مدة الدنيا ، فشأنه فيه : الأمر والنهي ، والإحياء والإماتة ، والإعطاء والمنع ، والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه : الجزاء والحساب.

ورُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه تلاها ، فقيل له : ما هذا الشأن ؟ فقال : " من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرّج كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين " وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إن الله لا يقضي يوم السبت شأناً ، فردّ الله عليهم ؛ والمراد بهذه الشؤون : أمور يُبديها ولا يبتديها ، فقد جفّ القلم بما هو كائن إلى ما لا نهاية له. ومنه : ما جاء في القضاء على الولد في الرحم ، بسعادةٍ أو غيرها ، ليس ذلك القضاء إنشاء وابتداء ، وإنما هو إبداء وإظهار للملائكة ما سبق به قضاؤه وقدره ، وهو مسطور في اللوح ، ولذلك جاء : " إنه يُقال للملك : انطلق إلى أم الكتاب ، فينطلق ، فيجد قصة ذلك فيه... " الحديث. وقيل : شأنه تعالى : سَوْق المقادير إلى المواقيت.

(٢٧٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٣

قال النسفي : قيل : إنَّ عبد الله بن طاهر دعا الحسينَ بن الفضل ، وقال له : أشكلت عليّ ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لي ، قوله تعالى : {فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ} [المائدة : ٣١] وقد صحّ : أن الندم توبة ، وقوله : {كل يوم هو في شأنٍ} وقد صحّ أن القلم جفّ بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقوله : {وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى} [النجم : ٣٩] فما بال الأضعاف ؟ فقال الحسين : يجوز ألاَّ يكون

الندم توبة في تلك الآية. وقيل : إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله وتكلفه مشقته ، وقوله : {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} مخصوص بقوم إبراهيم وموسى – عليهما السلام– ، وأمَّا قوله : {كل يوم هو في شأن} فإنها شؤون يُبديها لا يبتديها ، فقال عبدُ الله فقبَّل رأسه ووسّع خراجه. هـ.

٢٧٤

{فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع مشاهدتكم لما ذكر من شؤون إحسانه تعالى.

{سَنَفْرُغ لكم أيه الثقلانِ} سنتجرّد لحسابكم وجزائكم ، مستعار من قول الرجل لمَن يتهدّده : سأفرغ لك ، أي : سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك ، ويجوز أن يُراد : ستنتهي الدنيا ويبلغ آخرها ، وينتهي عند ذلك شؤون الخلق ، التي أرادها بقوله : {كل يوم هو في شأن} فلا يبقى إلاَّ شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغاً لهم على طريق المثل ، و " الثقلان " : الجن والإنس ، سُمّيا بذلك ؛ لثقلهما على الأرض ، أو : لرزانة آرائهما ، أو : لأنهما مُثقلان بالتكليف ، {فبأي آلاء ربكما} التي من جملتها : التنبيه على ما يلقونه يوم القيامة ، للتحذير عما يؤدي إلى سوء الحساب ، {تُكذِّبان} بأقوالكما أو بأعمالكما.

{يا معشرَ الجنِّ والإنس} هو كالترجمة لقوله : " أيه الثقلان " {إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرضِ} بأن تهربوا من قضائي ، وتخرجوا من ملكوتي ، ومن أقطار سماواتي وأرضي ، {فانفذوا} وخلِّصوا أنفسكم من عقابي ، {لا تنفُذون} لا تقدرون على النفوذ {إلاَّ بسلطانٍ} إلاّ بقوةٍ وقهرٍ ، وأنتم من ذلك بمعزل بعيد. قيل : يُقال لهم هذا يوم القيامة ، حين تُحدق بهم الملائكة ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجهاً إلاّ وجدوا الملائكة أحاطت به. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} التي من جملتها : التنبيه والتحذير ؛ ليقع التأهُّب لتلك الأهوال.

{يُرْسَلُ عليكم شُواظ من نارٍ} أي : لهب خالص منها. وفيه لغتان : ضم الشين وكسرها ، {ونُحاسٌ} أي : دخان ، مَن رفعه عطفه على " شواظ " ومَن جرّه فعلى " نار " ، والمعنى ، إذا خرجتم من قبوركم يُرسل عليكم لهب خالص من النار ، ودخان يسوقكم إلى المحشر ، {فلا تنتصرانِ} فلا تمنعان منهما ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ بيان العواقب لُطفٌ ونعمةٌ لمَن ينتبه.

}

(٢٧٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٣

فإذا انشقت السماءُ} أي : انصدعت يوم القيامة {فكانت وَرْدَةً} فصارت كلون الورد الأحمر

{كالدِّهان} كدهن الزيت ، كما قال : {كَالْمُهْلِ} [المعارج : ٨] وهو دُردِيّ الزيت ، وهو جمع دهن ، وقيل : الدهان : الأديم الأحمر. وجواب " إذا " محذوف ، أي : يكون من الأهوال والأحوال ما لا يحيط به دائرة المقال.

قلت : وهذا الانشقاق يحصل للسموات والناسُ في المحشر ، ثم تدنو الشمس من الخلائق ، فيعظم الخطب والهول ، إلاّ ما استثني في حديث السبعة. وقيل : يحصل قبل

البعث ، كما في البدور السافرة. والله أعلم بحقيقة الأمر.

{فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} مع عِظم شأنها ، {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جانٌّ} لأنهم يُعرفون بسيماهم وذلك أول ما يخرجون من القبور ، ويُحشرون إلى الموقف أفواجاً على اختلاف مراتبهم ، وأمّا قوله تعالى : {فوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر : ٩٢] ونحوه ؛ ففي موقف المناقشة والحساب ، فيوم القيامة يوم طويل ، وفيه مواطن ، يُسألون في موطن ، ولا يُسألون في آخر. وقال قتادة : قد كانت مسألة ، ثم ختم على أفواه القوم. وقيل : لا يُسأل ليَعلم من جهته ، ولكن يُسأل للتوبيخ. وضمير {ذنبه} للإنس لتقدُّمه رتبة ، وإفراده لأنّ المراد فرد من الإنس ، والمراد بالجان الجن ، فوضع الجان – الذي هو أبو الجن موضع الجن ، كأنه قيل : لا يُسأل عن ذنبه أنسي ولا جني ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} مع كثر منافعها ؛ فإنَّ الإخبار بما ذكر يزجركم عن الشر المؤدي إليه.

الإشارة : يسأله مَن في سماوات الأرواح ما يليق بروحانيته ، من كشف الأسرار ، وتوالي الأنوار ، فهو دائم سائل مفتقر ، لا يزول اضطراره ، ولا يكون مع غير الله قراره ، وسؤاله إما بلسان حاله أو مقاله ، ويسأله مَن في أرض البشرية ممن لم يترقّ إلى عالم الروحانية ما يليق بضعف بشريته ، من القوت الحسي ، وما يلائمه من ضرورية البشرية ، أو يكون سبب نجاته ونعيمه يوم القيامة ، من الاستقامة الظاهرة.

وأشار بقوله : {كل يوم هو في شأن} إلى اختلاف تجلياته في كل لحظة ، فيتجلّى في ساعة واحدة بقبض قوم وبسط آخرين ، ورفع قوم وذلّ آخرين ، وإعطاء قوم ومنع آخرين ، وترقية قوم وخفض آخرين ، إلى ما لا نهاية له ، ولذلك تختلف الواردات على قلوب العارفين ، ينسخ بعضها بعضاً ، ولذلك أيضاً تجد العارفين لا يسكنون إلى شيء ، ولا يقفون مع شيء ولا يُعولون على شيء ، بل ينظرون ما يبرز من عنصر القدرة ، فيسيرون معه ، إذا أصبحوا نظروا ما يفعل الله بهم ، وإذا أمسوا كذلك ، قد هدمت المعرفة أركانَ عزائمهم ، وحلّت عقدهم ، فهم في عموم أوقاتهم لا يُريدون ولا يختارون ولا يُدبّرون ؛ لعِلمهم أن الأمر بيد غيرهم ، ليس لهم من الأمر شيء.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٣

وقوله تعالى : {سنفرغ لكم أيه الثقلان} فسّر القشيري الثقلين بالروح وصفاتها الحميدة ، وبالنفس وصفاتها الذميمة ، أي : سنفرغ لإكرامكم ، ورفع أقداركم يا معشر الأرواح المطهرة ، بأن أتجلّى لكم ، فتُشاهدوني في كل وقت وحين ، وسنفرغ لكم أيتها النفوس الظلمانية بأنواع الامتحان بصُنوف المحن ، فلا تدخلوا جنتي حتى تتهذبوا وتصفوا من كدرات الأغيار ، ولا أتجلّى لكم إلاّ في وقت الاحتياج والاضطرار. والحاصل : أنَّ المدار كله على هذه الدار ، فمَن صفا هنا صُفي له ثَمّ ، ومَن كدر هنا كدر عليه هناك. ويُقال لأهل النفوس الظلمانية : {يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض} بفكرة بصائركم فانفذوا ، ولا قدرة لكم على ذلك ؛ لسجن أرواحكم

٢٧٦

في هياكل ذواتكم ، وإحاطة دائرة الكون بكم ، لا تنفذون إلاّ بسلطانٍ : إلاّ بقوة سلطان أرواحكم على نفوسكم ، فتجذبها إلى عالم الروحانية ، بصحبة طبيب ماهر ، فحينئذ تنفذ بصيرتكم عن دائرة الأكوان ، وتُفضوا إلى فضاء العيان ، وإذا كان يوم القيامة خرقت أرواحُهم بأشباحهم محيطاتِ الأكوان ، وأَفضوا في الهوى إلى سعة الجنان ، قال تعالى : {وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِين} [الشعراء : ٩٠] ، وقد تقدّم معناه. {يُرسل عليكم شُواظ من نار ونُحاس...} الخ ، قال القشيري : يُخاطب معشر جن النفس بإرسال لهب البُعد والقطيعة عليهم ، بواسطة انغماسهم وانهماكهم في استيفاء اللذات الجسمانية ، والشهوات الحيوانية ، على الدوام والاستمرار ، ويُخاطب معشر إنس الروح بصب الصُفر المذاب على رؤوسهم ، بسبب انحطاطهم من المقام الروحي العلوي ، إلى المقام النفس السفلي بالتراجع ، ولا يقدر أحدهما على نصرة الآخر. {فبأي آلاء ربكما تُكذّبان} فإنَّ تعذيب مستحق العذاب ، وتنعيم متسحق النعيم ، والتمييز بين جن النفس العاصي ، وبين إنس الروح ، من الآلاء العظيمة. هـ. فإذا انشقت السماء الحسية ، أي : ذابت وتلاشت بذكر اسم الله عليها من العارف ، فكانت وردةً يهب بنسيم المعاني من أكنافها ، كالدهان : كالزيت المُذاب ، حين تذوب بالفكرة الصافية ، والحاصل : أنَّ سائر الكائنات ، تذوب وتتلطّف حين تستولي عليها المعاني القائمة بها ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} مع ظهور هذه النعمة العظيمة ، التي خَفِيَتْ عن جُلّ الناس ، {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان} ممن بلغ منهم إلى هذه المرتبة العظيمة ، فأهل العيان لم يبقَ في حقهم طاعة ولا عصيان ، فلا يتوجه إليهم سؤال ولا عتاب ، وفي مناجاة الحق لسيدنا موسى عليه السلام : لا يا موسى إنما يُطيعني ويعصيني أهل الحجاب ، وأما مَن لا حجاب بيني وبينه فلا طاعة في حقه ولا معصية. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : يبلغ الوليّ مبلغاً يُقال له : افعل ما شئت ، أصحبناك السلام ، وأسقطنا عنك الملامة. هـ. وهذا بعد محق أوصاف النفس ، وبعد التحقق بالفناء والبقاء. والله تعالى أعلم.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٣

يقول الحق جلّ جلاله : {يُعْرَفُ المجرمون} أي : الكفرة {بسيماهم} بسواد وجوههم ، وزُرقة عيونهم ، أو : بما يعلوهم من الكآبة والحزن. قيل : هو تعليل لقوله : {فيومئذ لا يُسأل عن ذنبه إنس ولا جان} أي : لا يُسألون لأنهم معروفون ، {فيُؤخذُ بالنواصي والأقدام} أي : يُجمع بين نواصيهم وأقدامهم في سلسلة من وراء ظهورهم ،

٢٧٧

وقيل : تسحبهم الملائكةُ ، تارة يُأخذ بالنواصي ، وتارة بالأقدام ، فالجار نائب الفاعل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} فإنَّ التخويف من هذه الأهوال قبل وقوعها من أجلّ النعم ؛ ليقع الزجر عما يُؤدي إليها. {هذه جهنمُ التي يُكذِّب بها المجرمون} أي : يُقال لهم : هذه جهنم التي كذبتم بها ، توبيخاً وعقاباً ، {يطوف بينهما وبين حميمٍ آنٍ} أي : بالغ من الحرارة أقصاها ، فالحميم : المار الحار ، " والآنِ " : البالغ في الحرارة ، فهم يُعذّبون بين الحرق بالنار وشرب الحميم الحار. قال كَعْب : إن وادياً من أودية جهنم ، يجتمع فيه صديد أهل النار ، ينغمسون بأغلالهم فيه ، حتى يخلع أوصالهم ، ثم يُخرجون منها ، وقد أحدث اللّهخ لهم خلقاً جديداً ، فيُلقون في النار ، فذلك قوله تعالى : {يطوفون بينها وبين حميمٍ آنٍ} ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ، وقد تقدّم تفسير كون هذا نِعماً مراراً.

الإشارة : فسَّر القشيري " المجرمون " هنا بطائفتين ، الأولى : المتشدقون من علماء الكلام ، الذي يتكلمون في ذاته وصفاته وأفعاله بما ليس لهم به علم ، ويُجادلون أربابَ الكشف والشهود بسبب علومهم الجدلية ، ويفوهون بقوة الجبهة وصلابة الناصية ، فلا شك أنهم يُجرون على ناصيتهم في نار البُعد والطرد عن مراتب أهل العرفان. الطائفة الثانية : المتصوفة الجاهلة ، المنقطعون عن الطريق المستقيم ، والمنهج القويم ، بسبب دخولهم في هذه الطريق بالتقليد ، من غير إذن شيخ كامل ، واصِلٍ مُوصِل ، فلا شك أنهم يخرجون بأقدامهم المُعْوَجة عن سلوك طريق الحق إلى نار البُعد والقطيعة. هـ. بالمعنى. والسيما التي يُعرفون بها ، إما علو النفس ، وغِلظة الطبع ، وطلب الجاه ، وإما قلقة اللسان ، وإظهار العلوم ، فالعارف الكامل بعكس هذا كله ، متواضع ، سهل ، لَيِّن ، الخفاء أحب إليه من الظهور ، لسان حاله أفصح من مقاله. ثم قال تعالى : {هذه جهنم التي يُكذِّب بها المجرمون} المتقدمون ، لأنهم ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا. وهم يحسبون أنهم يُحسنون صُنعاً ، {يطوفون بينها} أي : بين نار القطيعة وحميم التدبير والاختيار ، مِن هَمّ الرز ، وخوف الخلق ، وغم الحجاب : نسأل الله العصمة بمنِّه وكرمه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٧

٢٧٨

يقول الحق جلّ جلاله : {ولِمَنْ خافَ مقامَ ربه} أي : قيامه بين يديه للحساب {يوم يقوم الناس لرب العالمين} أو : قيامه تعالى على أحواله ، من : قام عليه ، إذا راقبه ، كقوله : {أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد : ٣٣]. قال مجاهد : هو الرجل يهم بالمعصية ، فيذكر الله تعالى ، فيدعها من خوفه. قال السدي : شيئا ، مفقودان : الخوف المزعج ، والشوق المقلق. هـ. أي : للخائف {جنتانِ} أي : بستانان من الياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر ، مسيرة كل بستان : مائة سنة. وقال صلى الله عليه وسلم : " هل تدرون ما هاتان الجنتان ؟ هما بستانان في بستانين ، قرارهما لابث ، وفرعهما ثابت ، وشجرهما نابت " ، أَكْرَم بهما المؤمن ليتكامل سروره بالتنقُّل لمن جنة إلى جنة ، وقيل : جنة لخوفه وجنة لتركه شهوته ، أو : جنة لعقيدته وجنة لعمله ، أو : جنة لفعل الطاعة وجنة لتركه المعصية ، أو : جنة يُثاب بها وجنة يُتفضل عليه بها ، أو : روحانية وجسمانية ، أو : جنة للسابقين وجنة لأهل اليمين ، أو : جنة للإنس وجنة للجن ؛ لأنّ الخطاب للثقلين ، كأنه قيل : لكل خائف منكما جنتان. والأول أرجح ، وسيأتي في الإشارة بقيته ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

ثم وصف تلك الجنتين بقوله : {ذَوَاتا أفنَانٍ} أغصان ، جمع " فَنن " ، وخصّ الأفنان لأنها هي التي تُورق ، ومنها تُجنى الثمار ، وتعقد الظلال ، أو جمع فَنّ ، بمعنى النوع ، أي : ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، مما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} وليس فيها شيء يقبل التكذيب.

}

(٢٧٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

فيهما} أي : في الجنتين {عينانِ تجريان} حيث شاؤوا إلى الأعالي والأسافل. وعن الحسن : تجريان بالماء الزلال ، إحداهما : التسنيم ، والأخرى : السلسبيل ، وقيل : بالماء والخمر ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} ، {فيهما من كل فاكهةٍ زوجان} صنفان ، صنف معروف وصنف غريب ، أو رطب ويابس. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

{متكئينَ} نصب على المدح للخائفين ، أو : حال منهم ؛ لأنّ مَن خاف في معنى الجمع ، {على فُرُش بطائنُها من إستبرقٍ} من ديباج ثخين ، وحيث كانت بطائنها كذلك فما ظنك بظاهرها ؟ وقيل : ظاهرها سُندس ، وقيل : من نور ، وقيل : لا يعلمها إلاّ الله. والبطائن : جمع بطانة ، وهو : ما يلي الأرض ،

والإستبرق معرَّب ، {وجَنَى الجنتين دانٍ} أي : ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب ، يناله القائم والقاعد والمضطجع. قال ابن عباس رضي الله عنه : تدنو الشجيرة حتى يجنيها وليُّ الله ، إن شاء قائماً ، وإن شاء قاعداً ، وإن شاء مضطجعاً.

قال القشيري : وفي الخبر المسند : " مَن قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ،

٢٧٩

والله أكبر ، غرس له بها ألف شجرة في الجنة ، أصلها الذهب ، وفرعها الدر ، وطلعها كثدي الأبكار ، ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، كلما أُخذ منها شيء عاد كما كان ، وذاك قوله تعالى : {وجَنَى الجنتين دانٍ} إذا أرادوه أتى إلى أفواههم ، حتى يتناولون من غير مشقة ، ويقال : ينالها القائم والقاعد والنائم. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ، {فيهن} أي : الجنتين ؛ لاشتمالها على أماكن وقصور ومجالس ، أو : في هذه الآلاء المعدودة ، من الجنتين والعينين والفاكهة والغرس والجَنْي ، {قاصراتُ الطَّرْفِ} جَوار قَصَرْنَ أبصارَهنّ على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، {لم يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قبلهم ولا جانٌّ} أي : لم يمس الإنسيات أحدٌ من الإنس ، لا الجنيات أحدٌ من الجن. والطمث : الجماع بالتدمية. وفي الآية دليل على أنّ الجن يطمثون كما يطمث الإنس. {فبأي آلاء رَبكما تُكذِّبان كأنهنَّ} أي : تلك الجوار {الياقوتُ} صفاءً {والمَرْجانُ} بياضاً ، على أنَّ المرجان صغار الدر ، أو : في الصفاء وحُمرة الوجه. قيل : إنَّ الجواري تلبس سبعين حلة ، فيُرى مُخ ساقها من ورائها ، كام يرى الشراب الأحمر في الزجاجة. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.

{هل جزاءُ الإِحسان إِلاَّ الإِحسانُ} هو استئناف مقرر لما فصّل قبله ، أي : ما جزاء الإحسانِ في العمل إلاّ الإحسانُ في الثواب ، قال أنس : قرأها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : " هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قال : هل جزاءُ مَن أنعمتُ عليه بالتوحيد إلاّ الجنة " وفي لفظ آخر : " هل جزاء مَن أنعمت عليه بتوحيدي ومعرفتي إلاّ أن أُسكنه جنتي وحظيرة قدسي برحمتي " أو : هل جزاء مَن قال " لا إله إلا الله " إلاَّ الجنة. قال السدي : هل جزاء الذين أطاعوا في الدنيا إلاّ الكرامة في الآخرة. وقال جعفر الصادق : هل جزاء مَن أحسنتُ إليه في الأزل إلاَّ حفظ الإحسان عليه في الأبد. قال الحسن : هي مسجلة – أي مطلقة – للبر والفاجر ، للفاجر في دنياه ، وللبَر في عُقباه. هـ. {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان}.

(٢٨٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

الإشارة : {ولمن خاف مَقام ربه} فرَاقَبه ، ثم شاهَده ، {جنتان} جنة المعارف مُعجّلة ، وجنة الزخارف

معها مُؤجلة ، أو : جنة المعارف لأرواحهم ، وجنة الزخارف لأشباحهم. قال القشيري : جنتان : جنة مُعَجَّلة من حلاوة الطاعة ورَوْح القرب ، ومؤجَّلة في الآخرة ، وهي جنة الثواب ، وهم مختلفون في جنان الدنيا على قدر تفاوت مقادير أحوالهم ، كما يختلفون في الآخرة في درجاتهم. هـ. فجنة حلاوة الطاعة لأهل اليمين ، وجنة روح القرب للمقربين. قال الورتجبي : جنتان : جنة المشاهدة وجنة المكالمة ، جنة

٢٨٠

المحبة وجنة المكاشفة ، جنة المعرفة وجنة التوحيد ، جنة المقامات وجنة الحالات ، جنة القلب وجنة الروح ، جنة الكرامات وجنة المداناة. هـ. أو : جنة الوصال وجنة الكمال ، أو : جنة الكمال وجنة التكميل ، أو جنة الفناء وجنة البقاء ، أو جنة البقاء وجنة الترقِّي إلى غير انتهاء.

وقوله تعالى : {ذواتا أفنان} يُشير إلى ما في هاتين الجنتين من فنون العلوم والأذواق ، والأسرار والأنوار ، وتفنُّن الأفكار في بحار الأسرار ، فيهما لكل واحدٍ عينان تجريان ، إحداهما بعلوم الشريعة والمعاملة وآداب العبودية ، وأخرى بعلوم الحقيقة والطريقة والتوحيد الخاص ، فيهما من كل فاكهةٍ من فواكه الأذواق صنفان : صنف حاصل ، وصنف يتجدّد بتجدُّد الأنفاس ، أو : صنف لعالم الحكمة ، وصنف لعالم القدرة ، أو : صنف للذات وصنف للصفات ، أو : صنف لحلاوة المشاهدة وصنف لآداب المعاملة. متكئين على فُرش الأُنس ، بطائنها من استبرق الروح والفَرح ودوام البِسط ، وجنا الجنتين دانٍ لمَن تمكّن من الشهود ؛ لأنّ ثمار المعارف من حلاوة الشهود والأُنس صارت طوع يده ، فشُهوده دائم ، وقُربه للحبيب لازم ، فمهما أجال فكرته غاصت في بحار الأحدية ، واستخرجت من يواقيت الحِكَم ، وجواهر العلوم ، ما لا يُحيط به المفهوم ، بخلاف غير المتمكن ، تعب الفكرة ينقص له من لذة الشهود. قال القشيري : إذ لا لذة في أوائل المشاهدة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم ارزقني لذةَ النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، في غير ضرّاء مضرة... " الحديث. هـ. فِيهن قاصرات الطرف ، أي : أبكار الحقائق خاصة بهم لا تنكشف لغيرهم. لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ؛ لم يمس تلك الحقائق غيرهم ، لأنها خاصة بأهل الأذواق ، وكل واحد يمس من الحقائق ما لا يمس غيره ، وينكشف له ما لا ينكشف لغيره ، لأنها على حسب الاستعداد. كأنهن – أي : تلك الحقائق – الياقوتُ في صفاء معناها ، والمرجان في حسن مبناها ، هذا جزاء أهل مقام الإحسان.

}

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان} أي : هل جزاء أهل مقام الإحسان إلاَّ الإحسان والتقريب والتخصيص بهذه العلوم والحقائق ، أو : هل جزاء الإحسان معنا إلا الإحسان بكشف ذاتنا ، أو : هل جزاء الإحسان إلى عبادي إلاّ الإحسانُ بقربي وولايتي. قال ابن جزي : ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل عليه السلام " أن تعبد الله كأنك تراه " فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين ، ويُقوي ذلك : انه جعل هاتين

٢٨١

الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العَلي ؛ وجعل جنتين وجعل جنتين دونهما لمَن كان دون ذلك ، فالجنتان المذكورتان أولاً للسابقين ، والمذكورتان بعد ذلك لأصحاب اليمين ، حسبما ورد في الواقعة. انظر تمامه.

(٢٨٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٧٨

يقول الحق جلّ جلاله : {ومِن دونهما جنتانِ} أي : ومن دون تَيْنِك الجنتين الموعودتين للمقربين {جنتان} أخريان لِمن دونهم من أصحاب اليمين ، ويؤيده حديث أبي موسى ، قال في هذه الآية. {ولمن خاف مقام ربه} قال : " جنتان من ذهب للسابقين ، وجنتان من وَرِق لأصحاب اليمين " ورَفَعه ، ولا شك أنَّ الذهب أرفع من الوَرِق ، فلا يلتفت إلى الفضة مَن له الذهب ، خلافاً لمن قال : يلزم حرمان أهل الطبقة الأولى – وهم السابقون – ما ذكر في الحديث من الفضة ، واختار في نوادر الأصول أنَّ قوله : {ومن دونهما} أي : في القُرب إلى العرش ، وأنَّ هذه أعلى وَصْفاً مما ذكر قبلُ ، إلى العرش ، وبَسَطَ القول في ذلك ، ومثله ذكره ابن عطية عن ابن عباس ، واحتج لذلك ، ولكن الأكثرعلى خلاف ذلك ، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

{فبأي آلاء ربكما تُكّذِبان مُدْهامَّتان} خضراوان تميلان إلى السواد ، من شدة الخضرة ، وفيه إشعار بأنَّ الغالب على هاتين الجنتين النبات والرياحين المنبسطة على وجه الأرض ، وعلى الأُوليين الأشجار والفواكه ، ومَن اشتهى فيها شيئاً يُعطاه ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} كرر التوبيخ مع ذكر الموصوف ومع صفته تنبيهاً على أنّ تكذيب كل من الموصوف والصفة حقيق بالإنكار ، {فيهما عينان نَضَّاختان} فوّارتان بالماء ، والنضخ أكثر من النضح – بالمهملة – وهو الرش ، {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان}. {فيهما فاكهةٌ ونخلٌ ورمانٌ} عطف الأخيرين على الفاكهة عطف خاص على عام ؛ لفضلهما ، فإنَّ ثمر النخل فاكهة وغذاء ، والرمان فاكهة ودواء. قال أبو حنيفة : مَن حَلَفَ لا يأكل فاكهة فأكل رُماناً أو

رطباً لم يحنث ، وقوفاً مع ظاهر العطف ، وعندنا الأَيمان مبنية
٢٨٢
على الأعراف ، وهي تختلف باختلاف الأقطار. {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} ولا شيء منها يقبل الإنكار.
}

(٢٨٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٢
فيهنَّ خَيْراتٌ حِسَانٌ} أي : في الجنتين المشتملتين على قصور ومساكن نساء {خيرات} أي : فاضلات الخُلُق ، حِسان الخَلْق ، وهو مخفف من " خير " بالتشديد ، وقرئ (خيِّرات) على الأصل ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}. {حُورٌ} بدل من " خيرات " {مَقصوراتٌ في الخيام} قُصِرن في خدورهن. يقال : امرأة قصيرة وقَصُورة ، ومقصورة ، أي مخدّرة ، أو : مقصورات الطرف على أزواجهن ساكنة في الخيام. قال القشيري : قصرن أنفسَهن وقلوبَهن وأبصارَهن على أزواجهن. هـ. يقلن : نحن الناعماتُ فلا نبأس ، الخالداتُ فلا نَبيدُ ، الراضيات فلا نَسْخَط. وفي خبر : أن عائشة قالت : " إنَّ المؤمنات أجَبْنَهُنَّ ، نحن المُصلِّياتُ وما صلَّيْتُنَّ ، نحن الصائمات وما صُمتُنَّ ، نحن المتصدِّقاتُ وما تصدَّقْتنَّ ، قالت عائشة : فغلبنهن ". والخيام من الدر المجوف ، {فبأي آلاء ربكنما تُكَذِّبان}. {لم يَطْمِثْهُن إِنسٌ قبلهم ولا جانٌّ فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان}.
{متكئين} نصب على الاختصاص ، {على رَفْرَفٍ} هو كل ثوب عريض ، وقيل : هو الوسائد ، والأظهر من الحديث أنه سرير مفروش بثياب خُضر ، يركب فيه أهل الجنة ، ويسير بهم حيث شاؤوا ، وقوله : {خُضْرٍ} ، وصف لرفرف ؛ لأنه مُحلّى بثيابٍ خُضر ، والرفرف : إما اسم جنس ، أو اسم جمع ، واحده : رفرفة. {وعبقريٍّ حِسَانٍ} أي : طنافس ، وهي جياد البُسط ، كالزرابي وشبهها. والعبقري : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه اسم بلد الجن ، يسبون إليه كل شيء عجيب. وقال أبو عبيد : هو منسوب إلى أرض يُعمل فيها الوَشي ، فينسب إليها كل مبالغ في الوصف ، وقال الخليل : كل جليل فاضل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم عند العرب عبْقري ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في عمر : " فلم أرَ عَبْقرِيّاً من الناس يَفْرِي فَرْيَه " والمراد به الجنس ، ولذلك وصفه بالجمع ، {فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان} قال النسفي : وإنما تقاصرت صفات هاتين الجنتين عن الأوليين حتى قيل : [ومن دونهما] لأنَّ {مدهامتان} دون {ذواتا أفنان} ، و {نضّاختان} دون {تجريان} ، و {فاكهة} دون {من كل فاكهة زوجان} ، وكذلك صفة الحور والمتّكأ. هـ.

{تبارك اسمُ ربك} أي : تنزّه وتقدّس ، أو تكاثر خيره. وفيه تقرير لما ذكر في السورة الكريمة من آلائه الفائضة على الأنام ، {ذي الجلال} ذي العظمة. وقرأ الشامي بالرفع ، صفة لاسم ، {والإكرام} لأوليائه بالإنعام.

٢٨٣

قيل : لمَّ ختم تعالى نِعم الدنيا بقوله : {ويبقى وجهُ ربك ذي الجلال والإكرام} ختم نِعم الآخرة بقوله : {تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام} وناسب هذا ذكر البقاء والديمومية له تعالى ، إذ ذكر فناء العالم ، وناسب هنا ذكر ما امتنّ به من البركة ، وهي الخير والزيادة ، إذ جاء ذلك عقب ما امتنّ به على المؤمنين ، وما آتاهم في دار كرامته من الخير وزيادته وديمومته.

(٢٨٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٢

روَى جابر أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة الرحمن ، فقال : " ما لي أراكم سكوتاً ، لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً ، ما أتيتُ على قول الله : {فبأي آلاء ربكما تُكذِّبان} إلاَّ قالوا : ولا شيء من نعمك ربنا نكذِّب ، فلك الحمد ولك الشكر ". وكررت هذه الآية في هذه السورة إحد وثلاثين مرة ، ذُكرت ثمانية منها عقب آيات فيها عجائب خلق الله ، وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبوب جهنم ، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنتين وأهلها ، على عدد أبوب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما ، فمَن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها فُتحت له أبواب الجنة وغُلقت أبواب جهنم. قاله النسفي.

الإشارة : ومن دون جنتي أهل المقربين جنتا أهل اليمين ، وهما جنة حلاوة الطاعة وكمال الاستقامة ، أو حلاوة المعاملات وظهور الكرامات ، أو حلاوة المناجاة وحصول المداناة ، أو : جنة مُعجَّلة في البرزخ لأرواحهم ، وأخرى بعد البعث لأشباحهم ، وهذا يجري أيضاً في حق المقربين. وقوله : {مُدْهامتان} شديدة خضرتها ؛ لانَّ النظر إلى الخضرة أمْيَلُ ، وكذلك أهل العبادة الظاهرية حين يجدون حلاوتها ، ويقفون معها ، ترمُقهم أبصار العامة بالتعظيم والتكريم ، فربما يجنون بعض جزاء أعمالهم ، بخلاف أهل الباطن ، أهل الفناء والبقاء ، لا ترى منهم إلاّ النيران ؛ لفرارهم من الخلق ، ولخفاء عبادتهم بين فكرة ونظرة ، فيهما عينان نضاختان فوارتان بالعلوم الظاهرة التي أثمرتها التقوى ، لقوله تعالى : {وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} [البقرة : ٢٨٢] ، وكثرة العلوم كمال عند أهل الظاهر ، ولا يعتبره أهل الباطن ؛ إذ المدار عندهم على الأذواق والوجدان ، وتحقيق عين العيان. وفي كتاب شيخ شيوخنا ، سيدي " عليّ العمراني " رضي الله عنه قال : علم الحرب وما جرى بينهم إنما يوجد عند المستشرف

على المعركة ، وأمّا المباشِر للحرب فهو في شغل شاغل عنه.

٢٨٤

فيها فاكهة ، أي : تفنُّن في تحقيق المسائل ، ونخل ؛ تضلُّع من علم الحديث ، ورُمان ؛ تغلغل في التفسير ، أو : فيهما فاكهة تحقيق علم المعاملة ، ونخل تحقيق علم الاعتقادات المجازية ، ورمان تمسك بعلم التصوُّف ، الذي هو دواء القلوب ، فيهن خيرات حسان في تلك الجنان أخلاق حسان ، وهي ثمرة العلم النافع ، حور مقصورات في الخيام ، أي : تلك الأخلاق الطيبة مقصورة على قلوب أهل الصفا ، لا تظهر إلا لهم ، أو : في تلك الجنان الذي هي القلوب ، علوم غريبة ، لم تكشف لغيرهم ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ؛ لم يفك انغلاقها أحد قبلهم. وفي التسهيل : وإذا كانت العلوم مِنحاً إلهية ، ومواهب اختصاصية ، فغير مستبعد أن يدخر لكثير من المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين. هـ. متكئين على رَفرفٍ ، أي : بساط فكرة الاعتبار ، يستخرج بها جواهر العلوم ، ووصفه بالخضرة لظهور أثر فكرهة الاعتبار بما تجليه من العلوم ، وفي الحديث : " ساعة من العالِم يتفكر في علمه خير من عبادة الجاهل ألف سنة " أو كما قال صلى الله عليه وسلم ، وكذلك وصفه بالعبقرية والجَودة ؛ لكماله في محله. {تبارك اسم ربك} أي : تعاظم قدره {ذي الجلال والإكرام} حيث مَنَّ بهذه النعم الجِسام على الفريقين ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم ، وصلّى على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

٢٨٥

(٢٨٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٢

سورة الواقعة

(٢٨٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٥

قال ابن عطية : رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن دوام على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً " ، ودعا عثمانُ عبدَ الله بنَ مسعود إلى عطائه ، فأبى أن يأخذ ، فقيل له : خُذ للعيال ، فقال : إنهم يقرؤون سورة الواقعة ، وسمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول : " مَن قرأها لم يفتقر أبداً " قال ابن عطية : فيها ذكر القيامة ، وحظوظ الناس في الآخرة ، وفَهْمُ ذلك غِنىً لا فقر معه ، ومَن

فهِمه شُغل بالاستعداد. هـ. وقال مسروق : مَن أراد أن يعلم نبأ الأولين ، ونبأ أهل الجنة ، ونبأ أهل النار ، ونبأ الدنيا والآخرة ؛ فليقرأ سورة الواقعة. هـ.

يقول الحق جلّ جلاله : {إِذا وَقَعت الواقعةُ} إذا قامت القيامة ، وذلك عند النفخة الثانية ، ووُصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة ، فكأنها واقعة في نفسها ، كأنه قيل : أذا وقعت التي لا بُدّ من وقوعها. ووقوع الأمر : نزوله ، يقال : وقع ما كنت أتوقعه ، وانتصاب {إذا} بمضمر يُنبئ عن الهول والفظاعة ، كأنه قيل : إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال ما لا يَفي به المقال ، أو : بالنفي المفهوم من قوله : {ليس لِوقعتها كاذبةٌ} أي : لا كذب وقت وقوعها ، أو : باذكر ، أو : بمضمون السورة قبلها ، أي : يكون ما ذكر من نعِيم

٢٨٦

الفريقين إذا وقعت الواقعة ، ثم استأنف بقوله : {يس لوقعتها كاذبةٌ} أي : لا يكون عند وقوعها نَفْسٌ تَكذب على الله ، أو : تكذب في نفسها كما تكذب اليوم ، لأنَّ كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدّقة ، وأكثر النفوس اليوم كواذب مكذّبات ، واللام مثلها في قوله : {قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى} [الفجر : ٢٤] ، أي : ظرفية ، أي : ليس عند وقوعها كذب ، أو : تعليلية ، قال الفراء : {كاذبة} : مصدر ، كالعاقبة والعالية ، وقيل : صفة لمحذوف ، كما تقدّم.

}

(٢٨٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٦

خافضةٌ رافعةٌ} أي : هي خافضة لأقوام ، رافعة لآخرين ، وهو تقرير لِعظمها وتهويل لأمرها ، فإنَّ الوقائع العِظام شأنها كذلك ، أو : بيان لِما يكون يومئذ من حَطّ الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى الدرجات ، ومن زلزلة الأشياء وإزالة الأجرام عن مقارها ، بنثر الكواكب وتسيير الجبال ، كما أبان ذلك بقوله : {إِذا رُجَّتِ الأرضُ رجّاً} : حُرِّكت تحريكاً شديداً حتى تهدِم كلَّ شيء فوقها ، من جبل وبناء ، وهو متعلق بخافضه ، أي : تخفض وترفع وقت رج الأرض ، أي : عند ذلك ينخفض ما هو مرتفع ، ويرتفع ما هو منخفض ، أو : بدل من : {إذا وقعت} ، وجواب الشرط : {فأصحاب الميمنة} ، والمعنى : إذا كان كذا فأصحاب الميمنة ما أسعدهم ، وما أعظم ما يُجازون به ، وما أعظم رتبتهم عند الله في ذلك الوقت الشديد الصعب على العالم. وتقديم الخفض الملتّت ، من : بسَّ السويق : إذا لتّه ، أو : سِيقت وسُيّرت عن أماكنها ، من : بسّ الغنم : إذا ساقها ، كقوله تعالى : {وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ} [النبأ : ٢٠]. {فكانت} أي : فصارت بسبب ذلك ؛ {هباءً} غباراً {مُنبثاً} منتشراً متفرقاً في الهواء ،

والهباء : ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ، ولا يكاد يُرى إلاّ في الشمس إذا دخلت في كُوة ، {وكنتم} معاشر الخلق ، أو : أيتها الأُمة {أزواجاً} أصنافاً {ثلاثة} صنفان في الجنة ، وصنف النار ، قال قتادة : هي منازل الناس يوم القيامة.

ثم فسّر تلك الأزواج ، فقال : {فأصحابُ الميمنة} وهم الذي يؤتون صحائفهم بأيمانهم {ما أصحابُ الميمنة} ، تعظيم لشأنهم ، و " ما " : استفهام تعجب مبتدأ ، و " أصحاب " : خبر ، والجملة : خبر المتبدأ الأول ، والأصل : فأصحاب الميمنة ما هم ؟ أي : أيّ شيء هم في حالهم وصفتهم ؟ فوضع الظاهر موضع المضمر زيادة في التعظيم ، ومثله : {الْحَآقَّةُ مَا الْحَآقَّةُ} [الحاقة : ١ ، ٢] ونظائرها.

{وأصحابُ المشئمةِ} أي : الذين يُؤتون صحائفهم بشمالهم {ما أصحابُ المشئمة} أي : أيّ شيء هم ؟ ! تعجيب من حالهم الفظيع ، أو : فأصحاب المنزلة السنية ؛ وأصحاب المنزلة الدنية الخسيسة ، من قولك : فلان مِني باليمين ، وفلان مِني بالشمال ؛ إذا وصفتهما عندك بالرفعة والوضعة ، وذلك لتيمُّنهم بالميامن وتشاؤمهم بالشمائل ، وقيل : يُؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين ، وبأل النار ذات الشمال. وقال القشيري : أصحاب الميمنة : هم الذين

٢٨٧

في جانب اليمين من آدم وقت ذرَّ الذرية من صُلبه ، وأصحاب المشئمة الذين كانوا في جانب شماله. هـ. قلت : وكذلك رآهم النبي – عليه الصلاة والسلام – ليلة المعراج.

}

(٢٨٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٦

والسابقون السابقون} مبتدأ وخبر ، على معنى تعظيم الأمر وتفخيمه ؛ لأنّ المبتدأ إذا أُعيد بنفسه خبراً دلَّ على التفخيم ، كقوله الشاعر :

أنا أبو النَّجْمِ وشِعْري شِعْري

والمعنى : والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالُهم ، وعُرفت محاسنهم ، أو : والسابقون إلى الخيرات هم السابقون إلى الجنات ، وقال أبو السعود : الذي تقتضيه جزالة النظم أنَّ " أصحاب الميمنة " : خبر مبتدأ محذوف ، وكذا قوله تعالى : {والسابقون} فإنَّ المترقب عند بيان انقسام الناس إلى الأقسام الثلاثة بيان أنفس الأقسام ، وأمّا أوصافها وأحوالها فحقها أن تُبين بعد ذلك بإسنادها إليه ، والتقدير : فأحدها أصحاب الميمنة ، والآخر أصحاب المشئمة ، والثالث السابقون. ثم أطال الكلام في ذلك ، فانظره.

واختُلف في تعيينهم ، فقيل : هم الذين سبقوا إلى الإيمان ، وإيضاحه ، عند ظهور الحق من غير تلعثم ولا توان ، وقيل : الذين سبقوا في حيازات الفضائل والكمالات ، وقيل : هم الذي صلُّوا إلى القبلتين ، كما قال تعالى : {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} [التوبة : ١٠٠] وقيل : السابقون إلى الصلوات الخمس ، وقيل : المسارعون في الخيرات. والتحقيق : أنهم السابقون إلى الله بالمجاهدة والمكابدة ، حتى أفضوا إلى مقام المشاهدة ، وهو مقام الإحسان.

{أولئك المقرَّبون} أشار إليهم بإشارة البُعد مع قُرب العهد ؛ للإيذان ببُعد منزلتهم في الفضل والشرف ، أي : أولئك السابقون إلى الله هم المقربون إلى الله في الكرامة والتعظيم ، الذي تلي درجاتهم درجات الأنبياء ، وهم {في جنات النعيم} أي : ذات التنعُّم ، فتَصْدق بالفردوس ، التي هي مسكن المقربين ، وإنما أخَّر ذكر السابقين مع كونهم أحق بالتقدُّم في الذكر ؛ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم ، ويتخلّص إلى ذكر نعيمهم الآتي ، على أنّ إيرادهم بعنوان المسبق مطلقاً مُعْرِبٌ عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الأمور. الإشارة : إذا وقعت الحقيقة المتوقعة للمتوجهين ؛ كان من العلوم والأسرار ما لا تُحيط به عامة الأفكار ، ووقوع الحقيقة : برزوها معهم ، وإشراق أنوارها على قلوبهم ،

٢٨٨

فتفنى الكائنات وتضمحل الرسوم والإشارات ، ويبقى الحيّ القيوم وحده ، كما كان وحده ، ليس لوقعتها كاذبة ؛ لا كذب في وقوعها ، ولا شك في إظهارها على مَن توجه إليها ، وصَحِبَ أهلها ، وحطّ رأسه لأربابها ، وامتثل كل ما يأمرونه به ، خافضة لمن توجه إليها ، وَوَصَلَ لأنوارها ، وتحقق بأسرارها. يعني : هكذا شأنها في الجملة ، تخفض قوماً وترفع آخرين ، وإنما تقع لمَن توجه إليها إذا رُجت أرض النفوس منه رجّاً ، أي : تحركت واضطربت ، بمنازلة الأحوال ، وارتكاب الشدائد والأهوال ، وتوالي الأذكار ، والاضطراب في الأسفار ، فإنَّ كُمون سرها في الإنسان كَكمُون الزبد في اللبن ، فلا بد من مخضه لاستخراج زُبده. وبُست جبال العقل منه بسّاً ، فكانت هباءً مُنبثاً ؛ لأنّ نور العقل يتغطّى بنور شمس العرفان ، ويضمحل كما يضمحل نور القمر إذا طلعت الشمس ، وكنتم أيها الطالبون المتوجهون أصنافاً ثلاثة : قومٌ توجهوا إليها ، ثم قنعوا بما برز لهم من شعاع أنوارها ، وهم عامة المتوجهين. وقوم استشرفوا عليها فلم يطيقوا أنوارها ، فرجعوا القهقرى ، وهم أهل الحرمان ، من أهل المشأمه. وقوم أدركوها ، وتحققوا بها ذوقاً وكشفاً ، ففنوا وبقوا ، سَكروا وصحوا ، وهم السابقون المقربون في جنات المعارف ، ونعيم الشهود ، أبداً سرمداً ، جعلنا من خواصهم آمين ، وسيأتي إن شاء الله في آخر السورة تحقيق الفرق بين المقربين وأصحاب اليمين.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٦
يقول الحق جلّ جلاله : {ثُلّةٌ} أي : هم ثلة ، أي : جماعة كثيرة {من الأولين} والثُلة : الأمة الكثيرة من الناس ، {وقليل من الآخِرين} ممن يتأخر من هذه الأمة ، والمعنى : أن السابقين في أول الأمة المحمدية كثير ، وفي آخرها قليل ، وذلك أنَّ صدر هذه الأمة كَثُر فيها خير ، وظهرت فيها أنوار وأسرار ، وخرج منها جهابذة من العلماء والأولياء ، بخلاف آخرها ، السابقون فيها قليلون بالنسبة إلى عامة أهل اليمين ، ويُؤيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم : " خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " ، وصرّح في حديث
٢٨٩
آخر أنهم جميعاً من أمته ، فقال : " الفرقتان من أمتي " ، فسابق أول الأمة ثلة ، وسابق سائرها إلى يوم القيامة قليل. هـ. من الثعالبي. وقيل : المراد بالأولين : الأمم الماضية ، والآخرين : الأمة المحمدية ، وهو بعيد أو فاسدٌ ، واقتصر في نوادر الأصول على أنَّ الثلة الأنبياء ، وخُتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم ومِنْ بعده الأولياء ، وعددهم قليل في كل زمان. هـ. وفي المَحلِّي هنا تخليط. انظر الحاشية.
{على سُرُرٍ} جمع سرير ، {موضونةٍ} قال ابن عباس : " مرمولة " ، أي : منسوجة بقضبان الذهب ، وقضبان اللؤلؤ الرطب ، طولُ السرير : ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد الجلوس تواضع ، فإذا استوى عليه ارتفع ، {متكئين عليها} حال من الضمير في الظرف ، وهو العامل فيه ، أي : استقروا على سُرر متكئين عليها اتكاء الملوك على الأَسِرة ، {متقابلين} ينظر بعضهم في وجوه بعض ، ولا ينظر بعضهم من أقفاء بعض. وُصفوا بحسن العِشْرة ، وتهذيب الأخلاق ، وصفاء المودة. وهو أيضاً حال.
{يطوف عليهم} يَخدمهم {وِلدانٌ} غلمان ، جمع وليدٍ ، {مُخلَّدون} مُبْقَّوْنَ أبداً على شكل الولدان ، لا يتحولون عنه إلى الكِبَر ، وقيل : مقرَّطون ، والخِلَدَةُ : القُرْط ، وهو ما يلقى في الأذن من الأخراص وغيرها. قيل : هم أطفال أهل الدنيا ، لم يكن لهم حسنات يُثابون عليها ، ولا سيئات يعاقبون عليها. وفي الحديث : " أولاد الكفار خُدّام أهل الجنة " وهذا هو الصحيح. {بأكوابٍ} جمع كوب ، وهو آنية لا عروة لها ولا خرطوم ، {وأباريقَ} جمع إبريق ، وهو ما له خرطوم وعروة ، {وكأسٍ} أي : قدح فيه شراب ، فإن لم يكن فيه شراب فلا يُسمى كأساً ، {من مَعينٍ} من خمر ، يجري من العيون ، {لا يُصَدَّعون عنها} أي : بسببها ، أي : لا يصدر عنها صُداع ، وهو وجع الرأس ، {ولا يُنزَفُونَ} ولا يسكرون ، يقال : نزَف الرجل : ذهب عقله بالسُكر ، فهو نزيف ومنزوف. وقرأ أهل الكوفة بضم الياء وكسر الزاي ، أي : لا ينفذ شرابهم ، يقال : أُنزف القوم : إذا نفد شرابهم. وفي الحديث : " زَمزمُ لا تُنْزَفُ ولا تُذَمّ " أي : لا ينفذ ماؤها.
}

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٩

وفاكهةٍ مما يتَخيَّرون} أي : يختارونه ويأخذون خيره وأفضله ، يجنونه بأيديهم ، وهو أشد نعيماً وسروراً من أخذه مجنياً ، {ولحم طيرٍ مما يشتهون} مما يتمنون مشوياً أو مطبوخاً ، {وحُورٌ عِينٌ} أي : وفيها حور عين ، أو : لهم حور عين ، ويجوز أن يعطف

٢٩٠

على " ولدان " أي : وتخدمهم حُور عين ، زيادة في التعظيم ، ومَن قرأ بالخفض عطفه على " جنات النعيم " كأنه قيل : هم في جنات النعيم وفاكهة ولحم طير وحور {كأمثالِ اللؤلؤ المكنونِ} في الصفاء والنقاء. والمكنون : المصون في صَدفه. وقال الزجاج : كأمثال الدُرِّ حين يخرج من صدفه ، لم يُغيرّه الزمان واختلاف الأيدي عليه ، {جزاء بما كانوا يعملون} مفعول له ، أي : يفعل بهم ذلك لجزاء أعمالهم الصالحة أو : مصدر ، أي : يُجزَون جزاء ، فنفس الدخول للجنة بمحض الرحمة ، وكثرة النعيم والغُرف بالعمل ، والترقي باليقين والمعرفة – والله تعالى أعلم – فلا تعارض.

{لا يَسْمَعون فيها} في الجنة {لَغواً} باطلاً {ولا تأثيماً} هذياناً ، أو : ما يُؤهم صاحبه لو كف ، {إلاَّ قِيلا} أي : قولاً {سلاماً سلاماً} أي : ذا سلامة. والاستثناء منقطع ، و " سلاماً " بدل من " قيلاً " أو : مفعول به لـ " قيلاً " ، أي : لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاماً سلاماً ، والمعنى : أنهم يُفشون السلام فيُسَلِّمون سلاماً بعد سلام ، أو : لا يسمع كلٌّ من المسلِّم والمسلَّم عليه إلا سلام الآخر بدءاً ورداً. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أخبر تعالى أنّ المقربين في الصدر الأول أكثر من الزمان الأخير ، وهو كذلك من جهة الكمية ، وأما من جهة الكيفية فالمقربون في آخر الزمان أعظم رتبةً ، وأوسع علماً وتحقيقاً ؛ لأنهم نهضوا في زمان الغفلة ، وجدُّوا في زمان الفترة ، لم يجدوا من أهل الجدّ إلا قليلاً ، ولا من أهل الحق إلا نذراً يسيراً ، فحيث نهضوا وحدهم عوّضهم الله مرتبة لم يعطها لغيرهم ، ويشهد لهذا قوله عليه السلام : " اشتقت إلى إخواني " قال أصحابه ، نحن إخوانك يا رسول الله ؟ قال : " أنتم أصحابي ، إخواني قوم يأتون بعدي ، مِن نعتهم كذا وكذا " ثم قال : " يعدل عمل واحد منهم سبعين منكم " قالوا : يا رسول الله منهم ؟ قال : " منكم " قيل : بماذا يا رسول الله ؟ قال : " إنكم وجدتم على الخير أعواناً ، وهم لم يجدوا عليه أعواناً " وفي حديث آخر ، رواته ثقات : قالوا : يا رسول الله ؛ هل أحد خير منا ؟ قال : " قوم يجيئون بعدكم ، فيجدون كتاباً بين لوحين ، يؤمنون بما فيه ، ويؤمنون بي ، ولم يروني ، ويُصَدِّقون بما جئتُ به ، ويعملون به ، فهم خير منكم " ، ولا يلزم من تفضيلهم مِن جهةٍ تفضيلهم مطلقاً.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٩

ثم وصف المقرّبين بكونهم على سُرر الهداية ، منسوجة بالعِز والعناية ، محفوفة بالنصر والرعاية ، متكئين عليها ، راسخين فيها ، متقابلين في المقامات والأخلاق ، أي : يواجه بعضهم بعضاً بقلوبهم وأسرارهم ، لا تَباغض بينهم ولا تحاسد ، تطوف عليهم الأكوان وتخدمهم ، " أنت مع الأكوان ما لم تشهد المُكوّن ، فإذا شهدت المُكوّن كانت الأكوان معك " : يُسقون بأكوابٍ وأباريق من علم الطريق ، وكأس من خمر الحقيقة ، فلا

٢٩١

يتصدّعون من أجلها ؛ إذ ليست كخمر الدوالي ، ولا يُنزفون : لا يسكرون سُكْر اصطلام ، وإنما يسكرون سُكراً مشوباً بصَحْوٍ ، إذا كان الساقي عارفاً ماهراً. وفاكهة ؛ حلاوة الشهود ، مما يتخيرون ، إن شاؤوا بالفكرة والنظرة ، وإن شاؤوا بالذِكر والمذاكرة ، وكان بعض أشياخنا يقول : خمرة الناس في الحضرة ، وخمرتنا في الهدرة ، أي : المذاكرة. ولحم طير من علوم الطريقة والشريعة ، مما يشتهون منها ، وحُورق عِين من أبكار الحقائق ، مصونة عن غير أهلها ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء على مجاهدتهم ومكابدتهم. لا يسمعون في جنة المعارف لغواً ولا تأثيماً ؛ لتهذيب أخلاق أهلها ، كما قال ابن الفارض رضي الله عنه :

تُهذّبُ أخلاقَ النّدامى ، فيَهْتدي
بها لطريقه العزم مَن لا له عَزْم
ويكرُمُ مَن لا يَعْرف الجودَ كَفّه
ويحلُمُ عند الغيظ مَن لا له حِلم

فلا تسمع من الصوفية إلا قيلاً سلاماً سلاماً ، كما قيل في حقيقة التصوُّف : أخلاقٌ كرام ، ظهرت من قوم كرام ، في زمن كريم.هـ.

(٢٩٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٨٩

يقول الحق جلّ جلاله : {وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين} استفهام تعجيب ، تفخيماً لحالهم ، وتعظيماً لشأنهم ، ثم ذكر نعيمهم فقال : {في سِدْرٍ مَّخْضُودٍ} والسدر : شجر النبق ، والمخضود : الذي لا شوك له ، كأنه خُضِد شوكه ، أي : قُطع ، أي : ليس هو كسِدر الدنيا ، وقيل : مخضود ، أي : ثنى إغصانه من كثرة حمله ، من خَضَدَ الغصن : إذا ثناه وهو رطب. قال ابن جُبَيْر : ثمرها أعظم من القلال ، وثمار الجنة كلها بادية ، ليس شيء منها في غلاف. رُوي أنَّ المسلمين نظروا إلى وادٍ بالطائف

مخصب ، فأعجبهم سِدرها ، وقالوا : يا ليت لنا مثله في الجنة ، فنزلت ، وقال أمية بن أبي الصلت في وصف الجنة :

إنَّ الحَدائِقَ في الجِنان ظَلِيلةٌ

فيها الكواعِبُ ، سِدْرُهَا مَخْضُودُ

{وطَلْحٍ مَّنضُودٍ} الطلح : شجرة الموز ، والنضود : الذي نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة ، وفي جامع العُتْبية عن مالك ، قال : بلغني أنّ الطلح المنضود ، المذكور في الآية ، هو الموز ، وهو مما يشبه ثمار الجنة ، لقوله تعالى :

٢٩٢

{أُكُلُهَا دَآئِمٌ} [الرعد : ٣٥] ، والموز يؤكل في الشتاء والصيف.هـ.

{وظِلّ ممدودٍ} منبسط ، لا يتقلص ولا ينقطع ، كظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس. {وماءٍ مسكوبٍ} جارٍ بلا أُخدود ، يُسْكَب لهم أين شاؤوا ، وكيف شاؤوا ، بلا تعب. {وفاكهةٍ كثيرةٍ} بحسب الأنواع والأجناس ، {لا مقطوعةٍ} لا تنقطع في بعض الأوقات ، كفواكه الدنيا ، بل هي دائمة ، {ولا ممنوعةٍ} عن تناولها بوجه من الوجوه ، أو : لا يحظر عليها ، كبساتين الدنيا ، أو : لا مقطوعة بالأزمان ، ولا ممنوعة بالأثمان.

{وفُرُشٍ مرفوعةٍ} رفيعة القدر ، أو : مرفوعة على الأسرَّة ، وارتفاع السرير خمسمائة سنة ، وقيل : كنّى بالفُرُش عن النساء ؛ لأنَّ المرأة يُكنّى عنها بالفراش ، مرفوعة على الأرائك ، قال تعالى : {هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الأَرَآئِكِ مُتَّكِئُونَ} [يس : ٥٦] ، ويؤيده قوله : {إِنَّا أنشأناهن إنشاءً} أي : ابتدأنا خلقهن ابتداءً من غير ولادة. فإما أن يُراد : اللاتي ابتدئ إنشاؤهن ، وهن الحور ، أو : اللاتي أُعيد إنشاؤن ، وهن نساء الدنيا ، وعلى غير هذا التأويل أضمر لهنّ ؛ لأنّ ذكر الفُرش ، وهي المضاجع ، دلَّ عليه. {فجعلناهن أبكاراً} أي : عذارى ، كلما أتاهنَ أزواجهنَ وجدوهنَ أبكاراً. {عُرُباً} جمع عَرُوب ، وهي المحبّبة لزوجها ، الحسنة التبعُّل ، {أتراباً} : مستويات في السنّ ، بنات ثلاثٍ وثلاثين ، وأزواجهنّ كذلك. {لأصحاب} أي : أنشأناهن أصحاب {اليمين}.

}

(٢٩٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٢

ثُلةٌ} أي : أصحاب اليمين ثلة : جماعة كثيرة {من الأولين} ، {وثُلة} وجماعة كثيرة {من الآخرِين} فالسابقون كثيرون من الأولين وقليل من الآخرين ، وأصحاب اليمين كثيرون من الأولين والآخرين. هذا

المتعين في تفسير الآية. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أصحاب اليمين هم أهل الحجاب ، المحصورون في سجن الأكوان ، المحيط بهم دوائر حسهم ، من العُبّاد والزُهّاد ، والعُلماء بالشرائع ، والصالحين الأبرار ، وعامة المسلمين. هم في سدر مخضود ؛ كثرة الأعمال المخضودة من شوك الرياء والعجب ، المنزهة من الفتور والقصور ، وطلح منضود ؛ حلاوة الطاعات ، وتحقيق المقامات ، وظِلٍّ ممدود ؛ ظل راحة القناعة لمَن أُعطيها ، وروح الرضا والتسليم لمَن منحه. وماء مسكوب ؛ عِلْم التوحيد البرهاني أو الإلهامي ، وفاكهة كثيرة : حلاوة المناجاة ، وظهور الكرامات ، ولذة التفنُّن في العلوم الرسمية ، لا مقطوعة ولا ممنوعة لمَن رسخ فيها. وفُرش مرفوعة ؛ تفاوت درجاتهم على حسب أعمالهم : إنّا أنشأناهن إنشاءً ، لكل فريق مما تقدم ، زيادة في عمله ، أو علمه ، أو زهده ، على ما يليق بحاله ، فكل صنفٍ له تَرقٍّ في فنه وزيادة في محله. فجعلناهن أبكاراً ؛ لأن كل زيادة تكون جديدة لم يعهدها

٢٩٣

صاحبها ، عُرباً يعشقها وتعشقه ، أتراباً ، تكون على قدر حاله وفهمه وذوقه. هذا لعامة أصحاب اليمين ، وهم كثيرون ، سَلفاً وخَلفاً.

(٢٩٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٢

يقول الحق جلّ جلاله : {وأصحابُ الشمال ما أصحابُ الشمال} تفظيع لشأنهم ، والشمال والمشأمة واحد. {في سَمُوم} في حرّ نار تنفذ في المسامّ ، {وحميم} وماء حارّ ، تناهي في الحرارة ، {وظِلٍّ من يَحْمُوم} من دخان أسود بهيم ، {لا باردٍ} كسائر الظلال ، {ولا كريم} فيه خير مّا في الجملة ، سمّاه ظلاً ، ثم نفى عنه برد الظل ورَوْحَه ونفعَه لمَن يأوي إليه من أذى الحر ، وذلك كرمه – ليمحي عنه ما في مدلول الظل من الاسترواح إليه ، والمعنى : أنه ظلٌّ حار ضارّ.

{إنهم كانوا قبل ذلك} أي : في الدنيا {مُتْرَفِينَ} منعّمين بأنواع النِعَم ، من المآكل والمشارب ، والمساكن الطيبة ، والمقامات الكريمة ، منهمكين في الشهوات ، فمَنَعَهم ذلك من الانزجار ، وشَغَلَهم عن الاعتبار. وهو تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب ، {وكانوا يُصِرُّون} يُداومون {على الحِنْثِ العظيم} أي : على الذنب العظيم ، وهو الشرك ؛ لأنه نقض عهد الميثاق ، وخروج عن طاعة الملك إلى نصر غيره. والحنث : نقض العهد الموثّق باليمين ، أو : الكفر بالبعث ، لقوله : {وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ} [النحل : ٣٨] ، ثم صار يُطلق على مطلق الذنب ، ومنه : بلغ الغلامُ الحنث ، أي : وقت الحلم ووقت المؤاخذة بالذنب.

{وكانوا يقولون} لغاية عتوهم : {أئِذا مِتْنَا وكنا تراباً وعظاماً} أي : إذا صارت أجزاؤنا من الجلد والعظم واللحم ، بعضها تراباً ، وبعضها عظاماً نخرة ، نُبعث بعد ذلك ؟ وتقديم التراب لعراقته في الاستبعاد وانقلابها حيواناً. والعامل في " إذا " ما دلّ عليه قوله : {أئنا لمبعوثون} أي : أنْبعث إذا صرنا في هذه الحالة ؟ ولا يعمل فيه لفظه ؛ لأنّ " إنّ " والاستفهام لا يعمل ما بعدها فيما قبلهما ، {أَوَ آباؤنا الأولون} يُبعثون أيضاً ؟ دخلت همزة الاستفهام على حرف العطف ، وحسن العطف على المضمر في {لمبعوثون} من

٢٩٤

غير توكيدٍ بـ " نحن " للفاصل الذي هو الهمزة ، يعنون بذلك : أن بعث آبائهم أبعد في الوقوع من بعثهم. وقرئ في السبع بأو العاطفة.

(٢٩٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٤

ثم ردّ عليهم بقوله : {قل إِنّ الأولين والآخِرين} أي : إنّ الأولين من الأمم المتقدمين ، الذين من جملتهم آباؤكم ، والآخرين ، الذين من جملتهم أنتم. وفي تقديم " الأولين " مبالغة في الرد ، حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد مع مراعاة الترتيب ، {لمجموعون} بالبعث {إِلى ميقاتِ يومٍ معلوم} أي : إلى ما وقتت به الدنيا باعتبار فنائها من يوم معلوم ، وهو يوم البعث والحساب ، والإضافة بمعنى " من " كخاتم فضة.

{ثم إِنكم أيها الضالون} عن الهدى {المكذِّبون} بالبعث ، والخطاب لأهل مكة وأضرابهم ، {لآكلون} بعد البعث والجمع ودخول جهنم {مِن شجرٍ مِن زقوم} " مِن " الأولى : لابتداء الغاية ، والثانية : لبيان الشجر. {فمالئُون منها البطونَ} أي : بطونكم من شدة الجوع ، {فشاربون عليه} عقب ذلك بلا ريث {من الحميم} الماء الحار. أنّث ضمير الشجر على المعنى ، وذكّره على اللفظ في " منها " و " عليه ". {فشاربون شُرْبَ الهِيم} وهي الإبل التي بها الهُيَام ، وهو داء يُصيبها فتشرب ولا تروَى ، أي : لا يكون شربكم شراباً معتاداً ، بل يكون مثل شرب الإبل الهيم ، واحدها : " هيماء وأَهْيَم " وحاصل الآية : أنه يُسلط عليهم من الجوع ما يضطرون إلى شرب الحميم ، الذي يُقَطِّع أمعاءهم ، فيشربونه شرب الهِيم ، وإنما صحّ عطف الشاربين على الشاربين ، وهما لذوات متّفقة ، لأنَّ كونهم شاربين الحميم مع ما هو عليه من تناهي الحرارة ، وقطع الأمعاء ، أمر عجيب ، وشربهم له على ذلك كشرب الهِيم الماء أمر عجيب أيضاً ، فكانت صفتين مختلفتين.

{هذا نُزُلُهم} النُزل : هو الرزق الذي يُعدّ للنازل تكرمةً له ، {يَوْمَ الدِّينِ} يوم الجزاء ، فإذا كان نُزلهم

هذا ، فما ظنك بعدما استقر بهم القرار ، واطمأنت بهم الدار في النار ؟ وفيه من التهكُّم ما لا يخفى. {نحن خلَقناكم فلولا} فلاّ {تُصَدِّقُونَ} تحضيض على التصديق ، إمَّا بالخَلق ؛ لأنهم وإن كانوا مصدّقين به إلاّ أنه لمّا كان مذهبهم خلاف ما يقتضيه التصديق فكأنهم مكذّبون به ، وإمّا بالعبث ؛ لأنّ مَن خلَق أولاً لم يمتنع عليه أن يَخلق ثانياً.

(٢٩٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٤

الإشارة : أصحاب الشمال هم أهل الخذلان من العصاة والجُهال ، في سَموم الجهل والبُعْد ، ينفذ في مسام أرواحهم وقلوبهم ، وحميم الحرص والتعب ، والجزع والهلع ، وظِلٍّ من يحموم ، وهو التدبير والاختيار ، لا بارد ولا كريم ، أي : ليس كظل الرضا وبرد التسليم ، بل هو ظل مشؤوم ، حاجب عن شمس العيان ، مُوقع في ظل الذل والطمع والهوان. إنهم كانوا قبل ذلك ؛ قبل وقت وصول العارفين مُترفين متنعمين في الحظوظ ، منهمكين في الشهوات ، وكانوا يُصِرُّون على الحنث العظيم ، وهو حب الدنيا ، الذي هو

٢٩٥

رأس كل خطيئة ، وكانوا يُنكرون بعث الأرواح من الجهل إلى العرفان ، ويقولون : {أئذا متنا وكنا تراباً} ، أي : أرضيين بشريين ، وعظاماً يابسين بالقسوة والبُعد ، {أئنا لمبعوثون} من هذه الموتة إلى حياة أرواحنا بالعلم والمعرفة ؟ والحاصل : أنهم كانوا ينكرون وجود أهل التربية ؛ الذي يُحيي اللّهُ بهم القلوبَ والأرواحَ الميتة بالجهل والغفلة. قل إنَّ الأولين منكم الذين كانوا على هذا الوصف ، والآخرين إلى يوم القيامة ، لمجموعون إلى الحضرة ، إذا صَحِبوا أهل التربية ، فيفتح الله عليهم إلى ميقات يوم معلوم ، وهو الحد الذي سبق لفتحهم. ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون المنكِّرون لوجود الطبيب ، الذي يُحيي الأرواح الميتة والقلوب ، {لآكلون من شجر من زقوم} وهي شجرة الجهل وتوارد الشكوك والخواطر على قلوبكم ، فمالئون منها بطونكم ، بحيث لا يبقى في بواطنكم متسع لأنوار اليقين والمعرفة ، فشاربون على ذلك من الحميم ، وهو الغضب والتدبير والاختيار ، {فشاربون شُرب الهيم} ، لا يملُّون منه ليلاً ولا نهاراً ، كذا يَظلُّون يَبنون ويَهدمون ، وهو عين البطالة والتضييع. {هذا نُزلهم يوم الدين} ، أي : يوم يُجازِي الحقُّ المتوجهين إليه بالوصال وراحة الاتصال. {نحن خلقناكم} : أنشأناكم من العدم ، فلولا تُصدِّقون في إحياء أرواحكم بالعلم والمعرفة بعد موتها ، فإنّ القادر على إنشاء الأشباح قادر على إحياء الأرواح. والله تعالى أعلم.

(٢٩٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٤

يقول الحق جلّ جلاله : {أفرأيتم ما تُمْنُون} أي : تقذفونه في الأرحام من النُطف ، {أأنتم تخلقونه} تُقدِّرونه وتُصورونه وتجعلونه بشراً سويّاً {أم نحن الخالقون} من غير علة ولا علاج " ؟ قال الطيبي : وجه الاستدلال بهذه الآية على البعث أن يُقال : إنّ المَني إنما يحصل من فضلة الهضم ، وهو كالطل المنبث في أطراف الأعضاء ، وبهذا تشترك الأعضاء بالتذاذ الوقاع لحصول الانحلال عنها كلها ، ثم إنّ الله سبحانه وتعالى يُسلط قوة الشهوة على البنية ، حتى إنها تجمع تلك الأجزاء الطلّية ، والحاصل أن تلك الأجزاء كانت مفْترقة جدّاً أولاً في أطراف العالم ، ثم إنه تعالى جمعها في بدن ذلك الحيوان ، فتفرّقت في

٢٩٦

أطراف بدنه ، ثم جمعها الله في أوعية المَني ، فأخرجها ماءً دافقاً إلى قرار الرحم ، فإذا كان قادراً على جمع هذه الأجزاء المتفرقة ، وتكوين الحيوان منها ، فإذا افترقت بالموت مرة أُخرى ؛ لم يمتنع عليها جمعها وتكوينها مرة أخرى. هـ. وذَكَرَ عند قوله تعالى : {يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَرَآئِبِ} [الطارق : ٧] أنَّ المني يتولد من فضلة الهضم الرابع ، وينفصل من جميع أجزاء البدن ، فيأخذ من كل عضو طبيعته وخاصيته ، ومعظمُهُ يتولد من الدماغ ، وهو أعظم الأعضاء معنويةً فيه. انظر بقيته في الحاشية. }

(٢٩٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

نحن قدَّرنا بينكم الموتَ} أي : قسمناه ووقّتنا موت كل أحد بوقت معين ، حسبما تقتضيه قسمتنا ، المبنية على الحِكَم البالغة. قال القشيري : فيكون في الوقت الذي نريده ، منكم مَنْ يموت طفلاً ، ومنكم مَن يموت شابّاً ، وكهلاً وشيخاً ، وبعللٍ مختلفة ، وبأسباب متفاوتة ، وأوقاتٍ مختلفة. هـ. {وما نحن بمسبوقين} بعاجزين {على أن نُبَدِّلَ أمثالَكم} بل نحن قادرون على ذلك ، لا تسبقوني ولا تغلبونني على أن نُذهبكم ، ونأتي مكانكم بأشباهكم من الخلق ، والتبديل يكون بالذات أو بالصفات ، {ونُنشِئَكم فيما لا تعلمون} ونخلقكم بعد التبديل في صورة لا تعهدونها. قال الحسن : نجعلكم قردةً وخنازير ، يعني : إنَّا نقدر على الأمرين جميعاً ، أي : خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم فكيف نعجز عن إعادتكم. و {أمثال} إمّا جمع " مِثْل " بالسكون – وهو التبديل بالذات ، أو : " مَثَل " بالفتح ، وهو التبديل في الصفات ، أي : على أن نُبدّل ونُغيّر صفاتكم التي أنتم عليها ، وننشِئَكم في صفات لا

تعلمونها. {ولقد علمتم النشأةَ الأولى} أي : فطرة آدم عليه السلام : أو : خلقتهم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة... الخ ، {فلولا تَذَكَّرُون} فهلاَّ تذكرون أنْ مَن قدر عليها قدر على النشأة الأخرى. ولمّا ذكّرهم بنعمة الإيجاد ، ذكّرهم بنعمة الإمداد ، فقال : {أفرأيتم ما تحرثون} أي : ما تبذرون حبه وتقلِبون الأرض عليه ، {أأنتم تزرعونه} أن : تُنبتونه وتُخرجونه من الأرض نباتاً {أم نحن الزارعون} المُنبِتون له ؟ وفي الحديث : " لا يقل أحدكم ، زرعت ، وليقل : حرثت " {لو نشاء لجعلناه حُطاماً} هشيماً منكسِراً قبل إدراكه ، {فَظَلْتم} بسبب ذلك {تَفَكَّهُون} تتعجَّبُون من سوء حاله إثر ما شهدتموه على أحسن ما يكون ، أو : تندمون على تعبكم فيه وإنفاقكم عليه ، أو : على ما اقترفتم من المعاصي التي أُصبتم لذلك من أجلها ، و " تفكه " من أفعال الإزالة ، كتحرّج ، وتأثّم ، أي : أزال الفُكَاهة ، وهي المسرة ، فتحصل الندامة ، {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ} أي : قائلين : إنّا لملزمون غرامةَ ما أنفقنا فيها ، أو : لمهلَكون لِهلاك قوتنا ، من : الغرام ، وهو الهلاك ، {بل نحن محرومون} حُرمنا ما رزقنا بشؤم تفريطنا ، فالمحروم هو الممنوع الرزق. قال ابن عباس : " هو المحارَف " الذي انحرف عنه رزقه.

٢٩٧

{أفرأيتم الماءَ الذي تشربون} أي : الماء العذب الصالح للشرب ، {أأنتم أنزلتموه من المُزنِ} السحاب الأبيض ، وهو أعذب ماءٍ ، أو مطلق السحاب ، واحدها " مزنة " ، {أم نحن المنزلون} بقدرتنا ، فأسكناه في الأرض ، ثم أخرجناه عيوناً وأنهاراً ؟ {لو نشاء جعلناه أُجَاجاً} أي : ملحاً ، أو مُرّاً لا يُقْدَر على شربه ، {فلولا} فهلاَّ {تشكرون} تحضيض على شكر الكل ، وحذف اللام هنا مع إثباتها في الشرطية الأولى ؛ لأنّ هذه اللام تُفيد معنى التأكيد ، فأُدخلت في آية المطعوم دون المشروب ؛ للدلالة على أن أمر المطعوم متقدم على أمر المشروب ، وأنْ الوعيد بفقده أشد وأصعب ، مِن قِبَل أنّ المشروب إنما يُحتاج إليه تبعاً للمطعوم ، ولهذا قُدِّمت آية المطعوم على آية المشروب ، وقيل غير ذلك في حكمة إدخالها.

}

(٢٩٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

أفرأيتم النارَ التي تُورون} أي : تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، والعرب كانت تقدح بعودين ، تحك أحدهما على الآخر ، ويُسمون الأعلى : الزند ، والسفلى : الزندة ، شبّهوهما بالفحل والطروقة. {أأنتم أنشأتم شجرتَهَا} التي بها الزناد ، وهي المرْخ والعَفَار ، {أم نحن المنشئون} الخالقون لها ابتداءً بقدرتنا ؟ والتعبير عن خلقها بالنشأ ، المنبئ عن بديع الصنع ، المُعْرِب عن كمال القدرة والحكمة ؛ لِما

فيه من الغرابة الفارقة بينهما وبين سائر الأشجار ، التي لا تخلو عن النار ، حتى قيل : في كل شجر نار واستمجد المرخ والعَفَار ، كما أنّ التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله : {ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً ءَاخَرَ} [المؤمنون : ١٤] كذلك.

ثم بيَّن منافعها ، فقال : {نحن جعلناها تذكرةً} تذكيراً لنار جهنم ، لينظروا إليها ، ويذكروا ما وُعدوا به من نار جهنم ، أو : تذكرة وأنموذجاً ، لما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " نارُكم هذه التي يُوقدها بنو آدم هي جزءٌ من سبعين جزءاً من حَرِّ جهنم " وقيل : تبصرة في أمر البعث ؛ فإنه ليس أبدع من إخراج النار من الشيء الرطب ، {ومتاعاً للمُقْوين} منفعة للمقوين المسافرين الذي ينزلون القِواء ، وهو القفر. وفي القاموس : القِيُّ : فقر الأرض ، كالقِواء – بالكسر والمد : القفر. هـ.

وتخصيصهم بذلك ؛ لأنهم أحوج إليها ؛ فإنّ المقيمين والنازلين بقرب منازلهم ليسوا بمضطرين إلى الاقتداح بالزناد ، أو : للذين خلت بطونهم ومزاودهم من الطعام ، من قولهم : أَقْوت الدار : إذا خلت من ساكنها. والأول أحسن.

بدأ أولاً بنعمة الإيجاد ، ثم بإمداد الطعام ، ثم بالشراب ، وما يُعجن به من الطعام ، ثم بما يطبخ به ؛ فلا يؤكل الطعام إلاّ بعد هذه الثلاث ، ولا يستغني عنه الجسد ما دام حيّاً في حكم العادة.

٢٩٨

ولمَّا ذكر دلائل توحيده وقدرته ، أمر بتنزيهه عمَّا لا يليق بحاله ؛ لأنّ العقل إذا أدرك الصانع سما إلى درك كنهه ، فربما يقع في التشبيه أو التجسيم أو التعطيل ، فقال : {فَسَبِّح باسم ربك} أي : فنزّه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، فأراد بالاسم المسمى ، والباء صلة ، أي : نزِّه ربك {العظيم} أو : نزّه ربك ملتبساً بذكر اسمه. والعظيم : صفة للرب ، أو للاسم ، لأن المراد به المسمى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : أفرأيتم أيها المشايخ ما تُمْنون من نُطف الإرادة في قلوب المريدين ، أأنتم تخلقونه في قلوبهم حتى تنبت فيها بذرة الإرادة ، وتهيج شجرة المحبة ، فتُثمر بالمعرفة ، أم نحن الخالقون ؟ نحن قدّرنا بينكم الموت ، فمنكم مَن يموت الموت الحسي أو المعنوي قبل الوصول ، ومنكم مَن يموت بعد الوصول ، والموت المعنوي : هو الرجوع عن السير ، ولا يكون إلاَّ قبل الوصول ، وما نحن بمسبوقين على أن نُبدل أمثالكم ، ونُغيّر صفاتكم ، فإنّ القلوب بيد الله ، وننشئكم فيما لا تعلمون من الجهل والبُعد. ولقد علمتم النشأة الأولى ، التي كنتم عليها حال الغفلة والبطالة قبل ملاقاة الرجال ، أفلا تذكرون فتشكرون على نعمة اليقظة والمعرفة.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

أفرأيتم ما تحرثون من الأعمال والأحوال والمجاهدات والرياضات ، أأنتم تزرعونه ، أي : تُنبتونه حتى يُقبل منكم ، وتجنون ثماره ، أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لأبطلناه ورددناه فنجعله هباءً منثوراً ، فظلتم تندمون على ما فات منكم من المشاق ، حيث لم تجنوا ثمرتها ، تقولون : إنّا لمغرمون ، حيث افتقرنا ودفعنا أموالنا في حال الجذبة الأولى ، بل نحن محرمون من ثمار مجاهدتنا وطاعتنا ، أفرأيتم الماء الذي تشربون ، وهو ماء الحياة الذي تحيا به القلوب ، تشربونه بوسائط المشايخ ، يزقّه الشيخُ لروح المريد ، كما يزق الطيرُ أفراخه ، وبذلك تحيا روحه ، فتغيب عن عوالم حسها ، أأنتم أنزلتموه من سحاب الهداية والعناية ، أم نحن المنزِلون ؟ لو نشاء جعلناه أُجاجاً فَتَمجه الروحُ بعد شربها ، أو تمتنع من شربه ، فالأول للداخلين إذا لم تسعفهم رياح المقادير ، فتنكسر سفينة سيرهم بعد الركوب ، والثاني للطالبين المحرومين من أرزاق المعرفة. فلولا تشكرون هذه النعم ، حيث وفقكم لشرب الخمر ، ودمتم حتى سكرتم وصحوتم ، وحييت بها أرواحكم وأشباحكم. أفرأيتم النار نار الشهوة التي تُورون ؛ تقدحونها في نفوسكم ، أأنتم أنشأتم شجرتها ، وهي النفس الطبيعية ، أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ، أي : إيقاظاً توقظ صاحبها ليتلجئ إلى مولاه ، وفي الحِكَم : " وحرَّك عليك النفس ليُديم إقبالك عليه " : وجعلناها متاعاً للسائرين ؛ إذ بجهادها يتحقق سيرهم ، وبتصفيتها يتحقق كمالهم ، وبفنائها يتحقق وصولهم ، وكان شيخ شيخنا حين يشتكي له أحد له بنفسه ، يقول : أما أنا فجزاها علي خيراً ، ما ربحت إلاّ منها. وقال القشيري : {أفرأيتم النار...} الخ ، يشير إلى نار المحبة المشتعلة الموقدة ،

٢٩٩

بمقدح الطلب في حراقة قلب المحب الصادق في سلوكه وشجرتها هي العناية الإلهية ، يدل على هذا قول العارف أبي الحسن المنصور – قدّس الله سره – حين سُئل عن حقيقة المحبة ، فقال : هي العناية الإلهية السرميدة ، لولاها ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، فنحن جلعناها تذكرة لأرباب النفوس البشرية ، ليهدتوا بها إلى سلوك طريق الحق ، ومتاعاً للمُوقين ، أي غذاء أرواح المحبين ، الطاوين أياماً وليالي من الطعام والشراب ، كا رُوي عن سهل التستري : أنه كان يطوي ثلاثين يوماً ، وعن أبي عقيل المغربي : أنه ما أكل ستين سنة وهو مجاور بمكة ، وعن كثيرين من السالكين المرتاضين. هـ.

وقوله تعالى : {فسبِّح باسم ربك العظيم} قال الورتجبي : أَمَرَه أن ينزهه لا بنفسه بل بربه ، ثم قال : والاسم والمسمى واحد ، أي : قدسني بي فإني أعظم من أن تُقدسني بنفسك ، أو بشيء دوني ، ألا ترى إشارة قوله : {العظيم} أي : عظم جلاله أن يبلغ إلى أن تمدحه الخليقة ، وأن تصِفة البرية. هـ.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٢٩٦

قلت : " فلا " : صلة ، كقوله : {فَلاَ وَرَبِّكَ...} [النساء : ٦٥]. ومَن قرأ باللام فهي لام الابتداء ، دخلت على مبتدأ محذوف ، أي : فلأنا أُقسم ، ولا يصح أن تكون للقسم ؛ لأنها لا بد أن تقرن بنون التوكيد.

يقول الحق جلّ جلاله : {فلا أُقِسِمُ بمواقعِ النجومِ} بمساقطها ومغاربها. وقرأ الأخَوان " بموقع " على الإفراد ، وتخصيصها بالقَسَم لِمَا في غروبها من زوال أثرها ، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير ، أو : لأنّ ذلك وقت قيام المجتهدين والمبتهلين إليه تعالى ، وأوان نزول الرحمة والرضوان عليها ، واستعظم ذلك بقوله : {وإنه لقَسَم لو تعلمون عظيمٌ} وهو اعتراض في اعتراض ، لأنه اعتراض بين القسم والمقسَم عليه بقوله : {إنه لقرآن كريمٌ} أي : حسن مرضيّ ، أو نفّاع جمّ المنافع ؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في صلاح المعاش والمعاد ، أو : كريم على الله تعالى ، واعترض بين الموصوف وصفته بـ {لو تعلمون} وجواب " لو " متروك ، أريد به نفي علمهم ، أو : محذوف ، ثقةً ، والتقدير : وإنه لقسم لو تعلمون ذلك ، لكن لا تعلمون كُنه ذلك ، أو : لو تعلمون ذلك لعظمتموه ، أو : لعملتم بموجبه ، {في كتابٍ مكنون} مَصون من غير المقربين من

٣٠٠

الملائكة ، لا يطلع عليه مَن سواهم ، وهو اللوح المحفوظ.

{لا يَمسُّه إلاَّ المُطَهَّرون} أي : الملائكة المنزّهون عن الكدرات الجسمانية ، وأوضار الذنوب. هذا إن جعلته صفة لكتاب مكنون ، وهو اللوح ، وإن جعلته صفة للقرآن ؛ فالمعنى : لا ينبغي أن يمسّه إلاَّ مَن هو على الطهارة مِن الناس ، والمراد : المكتوب منه. قال ابن جزي : فإن قلنا إنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة ، فالمطهَّرون يُراد به الملائكة ؛ لأنهم مُطهَّرون من الذنوب والعيوب ، وإن قلنا أنَّ الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الناس ؛ فيحتمل أن يريد بالمطهرين : المسلمين ؛ لأنهم مُطَهرون من الكفر ، أو يريد : المطهرين من الحدث الأكبر ، وهو الجنابة والحيض ، فالطهارة على هذا : الاغتسال. أو : المطهرين من الحدث الأصغر ، فالطهارة على هذا : الوضوء ، ويحتمل أن يكون قوله : {لا يمسُّه} خبراً أو نهياً ، على أنه قد أنكر بعضهم أن يكون نهياً ، وقال : لو كان نهياً لكان بفتح السين. والتحقيق : أن النهي يصح مع ضم السين ؛ لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزوماً واتصل به ضمير المفرد المذكر ضُم عند التقاء الساكنين ، اتباعاً لحركة الضمير ، وإذا جعلته خبر ؛ فيحتمل أن يُراد به مجرد الإخبار ، أو : يكون خبراً بمعنى النهي ، وإذا كان لمجرد الإخبار ، فالمعنى : لا ينبغي أن يمسه إلاَّ المطهرون ، أي : هذا حقه ، وإن وقع خلاف ذلك.

واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مَسّ المصحف على حسب الاحتمالات في الآية ، فأجمعوا على أنه لا يمسه كافر ، واختلفوا فيما سواه على أقوال ؛ فقال بعضهم : لا يجوز أن يمسه الجُنب ولا الحائض ولا المحدِث الحدثَ الأصغر ، وهذا قول مالك وأصحابه ، ومَنعوا أيضاً أن يحمله بعلاقة أو وسادة ، وحجتهم : الآية ، على أن يُراد بالمطهرين الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر ، وقد احتج مالك في الموطأ بالآية ، ومن حجتهم أيضاً : كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عَمرو بن حزم ألاَّ يمسَّ القرآن إلا طاهرٌ. القول الثاني : أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدِث حدثاً أصغر ، وهو مذهب أحمد بن حنبل والظاهرية ، وحملوا " المطهرين " على أنهم المسلمون أو الملائكة. والقول الثالث : أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر ، وحمل صاحب هذا القول " المطهرين " على أن يُراد من الحدث : الأكبر ، ورخَّص مالك في مسِّه على غير وضوء لمُعلِّم الصبيان ؛ لأجل المشقة.

واختلفوا في قراءة الجنب للقرآن ، فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقاً ، وأجازه الظاهرية مطلقاً ، وأجاز مالك قراءة الآيات اليسيرة ، أي : لتعوُّذ ونحوه. واختلفوا في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظاهر قلب ، فعن مالك روايتان ، وفرّق بعضهم بين الكثير

واليسير. هـ. قلت : المشهور في الحائض والنفساء جواز القراءة مطلقاً. وقال الكواشي عن ابن عطاء : لا يفهم إشارات القراءة إلاَّ مَن طَهَّر سره من الأكوان. هـ. وفي آخر البخاري ؛ " لا يمسه " : لا يجد طعمه ونَفْعَه إلاَّ مَن آمن بالقرآن ، ولا يحمله بحقه إلاَّ المؤمنُ لقوله : {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ} [الجمعة : ٥]. هـ.

{تنزيلٌ من رب العالمين} : صفة رابعة للقرآن ، أي : نزل من رب العالمين ، وُصف بالمصدر ؛ لأنه نزل منجّماً من بين سائر الكتب ، فكأنه في نفسه تنزيل ، {أفبهذا الحديثِ} أي : القرآن {أنتم مُدْهِنون} متهاونون به ، كمَن يُدهن في بعض الأمر ، أي : يلين جانبه ، فلا يتصلّب فيه تهاوناً به. قال ابن عطية : قال ابن عباس : المداهنة هي المهاودة فيما لا يحل ، والمداراة : المهادوة فيما يحل. هـ. {وتجعلون رزقَكم أنكم تُكذِّبون} أي : وتجعلون شكر رزقكم التكذيب ، أي : وضعتم التكذيب موضع الشكر. وفي قراءة عليّ رضي الله عنه ، وهي مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : {وتجعلون شكركم أنكم تكذِّبون} أي : وتجعلون شكركم لنعمة القرآن التكذيب. وقيل : نزلت في الأنواء ونسبة الأمطار إليها ، أي : وتجعلون شكر ما رزقكم الله من الغيث أنكم تكذّبون كونَه من الله ، حيث تنسبونه إلى النجوم ، وتقولون : مُطرنا بنوء كذا ، والمنهي إنما هو اعتقاد التأثير للنجوم ، لا من بابا العلامة وقيل : مطلقاً ، سدّاً للذريعة ، وهو مقتضى كلام ابن رشد ، وعزاه لسحنون. والمسألة خلافية ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " إذا ذُكرت النجوم فأمْسِكوا " ، ومنهم مَن فصّل في المسألة ، فقال : يجوز إضافة الأفعال السيئة إليها لقوله صلى الله عليه وسلم : " تعوّذوا بالله من شر هذا ، فإنه الغاسق

إذا وقب " وأشار إلى القمر. وأما الحسنة فالشكر يقتضي إضافتها إلى الله ، وكذا الأدب. والله تعالى أعلم.

(٣٠٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٠

الإشارة : مواقع النجوم هي أسرار العارفين ؛ لأنه يغرق في بحارها كل ما سوى الله ، وتغيب فيها نجوم العلم العقلي والنقلي ، وأقمار التوحيد البرهاني ؛ لأنه إذا أشرقت في قلوبهم شمس العرفان ، لم يبقَ لنور النجوم والقمر أثر ، وقد قلت في قصيدتي العينية :

تبدّت لنا شمسُ النهارِ وأشرقتْ

فلم يَبق ضوءُ النجمِ والشمسُ طالعُ

قال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن الفاسي : كنتُ أعرف أربعة عشر علماً ، فلما تعلمتُ علم الحقيقة شرطت ذلك كله. هـ. يعني : وقع الاستغناء عنها ، فالكنز الذي ظفر به من العلم بالله ، على نعت العيان ، فلم يبقَ للروح التفات إلى شيء قط. " ماذا فقد من وجدك " ؟ وليس المراد أنها ذهبت معرفتها عنه ، بل لو رجع إليها لوجدها تشحرت واتسعت أمدادها ، ولكن ظفر بعلم يُعد الاشتغال بغيره بطالة ، كما قال الغزالي لابن العربي

٣٠٢

المعافري : كنتَ الصاحِبَ في زمن البطالة ، يعني : قبل ملاقاته بالشيخ. وإنما كان القسم به عظيماً ؛ لأنه ليس عند الله أعظم من قلوب الواصلين وأسرار العارفين ، لأنها وسعت الرب تعالى علماً وتجلياً ، " لم يسعني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ". فالقَسم عظيم ، والمُقسَم به أعظم ، والمُقسَم عليه أعظم ، وهو القرآن الكريم ، {لا يسمّه إلاّ المطهرون} قال الجنيد : لا يمسّه إلاّ العارفون بالله ، المطهرون سرهم عما سوى الله. هـ. أي : لا يمس أبكار حقائقه ودقائق إشارته إلاّ القلوب المطهَرة من الأكدار والأغيار ، وهي قلوب العارفين : {تنزيل من رب العالمين} على سيد المرسلين ، ثم غرفت أسرارَه قلوبُ خلفائه العارفين. أفبهذا الحديث أنتم مدهنون. قال القشيري : أي : أنتم تتهاونون في قبول مثل هذا الكلام الحق ، وتعجبون من مثل هذه الحقيقيات والتدقيقات. هـ. والعتاب لمَن يتهاون بعلم الإشارة ويُنكرها. ويتنكّب مطالعتها. وتجعلون شكر رزقكم إياها – حيث استخرجها بواسطة قلوب العارفين – التكذيب بها والإنكار على أربابها.

(٣٠٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٠

يقول الحق جلّ جلاله لمَّا وبَّخهم على تكذيبهم بالقرآن الناطق بقوله : {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ} [الواقعة : ٥٧] ، ثم أوقفهم على أنهم تحت قهر ملكوته ، من حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معاشهم ، عجزهم بقهرية الموت ، فقال : {فلولا} أي : هلاَّ {إذا بلغتْ} الروح عند الموت {الحلقومَ} وهو ممرّ الطعام والشراب ، وتداعت للخروج {وأنتم حينئذٍ} أيها الحاضرون حول صاحبها {تنظرون} إلى ما هو فيه من الغمرات ، {ونحن أقربُ إليه} علماً وقدرة وإحاطة {منكم} حيث لا تعرفون من حاله إلاَّ ما تُشاهدون من أثر الشدة ، من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا على دفع أدنى شيء منها ، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله ، {ولكن لا تُبصرون} لا تدركون ذلك لجهلكم بشؤوننا ، {فلولا إن كنتم غير مَدِينينَ} غير مربوبين مقهورين ، من : دان السطلان رعيته : إذا ساسهم واستعبدهم ، والمحضَض عليه قوله : {ترجعونها}

٣٠٣

تردون الروح إلى الجسد بعد بلوغ الحلقوم {إن كنتم صادقين} أنكم غير مربوبين مقهورين.

وترتيب الآية : فلولا إذا بلغت الروحُ الحلقومَ ، وأنتم تنظرون إليه ، يُعالج سكرات الموت ، ترجعونها إلى الجسد إن كنتم غير مربوبين ، ف " لولا " الثانية مكررة للأولى ؛ للتأكيد ، والمعنى : إنكم في عموم جحودكم إن أنزلت عليكم كتاباً قلتم : سحرٌ وافتراءٌ ، وإن أرسلتُ إليكم رسولاً صادقاً قلتم : ساحرٌ كذابٌ ، وإن رزقتكم مطراً يُحييكم قلتم : صدق نوء كذا ، على مذهب التعطيل ، فما لكم لا ترجعون الروح إلى البدن إذا بلغ الحلقوم ، إن كنتم صادقين في تعطيلكم وكفركم بالمُحيي المييت ، المبدئ المعيد ، وأنكم غير مربوبين مقهورين ؟ !.

(٣٠٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

ثم ذكر أحوال الأرواح عبد الموت في البرزخ ، فقال : {فأمّا إن كان} المتوفى {من المقرَّبين} من السابقين ، من الأزواج الثلاثة المذكورة أول السورة ، عبّر عنهم هنا بأجلّ أوصافهم ، وهو شدة القرب ، بعد أن عبّر عنهم أولاً بالسبق ، فالسابقون هم المقربون ، وهم العارفون بالله معرفة العيان ، أهل الفناء في الذات ، لقوله صلى الله عليه وسلم : " سبق المُفَرِّدون " ، قيل : ومَن المُفَرِّدون يا رسول الله ؟ قال : " المسْتَهترون بذكر الله " الحديث. فالسابقون هم المولعون بذكر الله ، حتى امتزج مع لحمهم ودمهم ، فحصل لهم القرب من الحق.

{فَرَوْحٌ} أي : فلهم روح ، أي : راحة للروح لأرواحهم من هموم الدنيا وغمومها ، ومن ضيق عالم

الأشباح إلى خالص عالم الأرواح ، مع أن هذا حاصل لهم قبل الموت ، لكن يتسع ميدانه بعد الموت ، أو : رحمة تخصهم ، أو : نسيم يهب عليهم. وفي القاموس : الرَّوح – بالفتح : الراحة والرحمة ونعيم الريح. هـ. وقرئ بالضم ، وهي مروية عنه صلى الله عليه وسلم ، أي : الحياة والبقاء ، أو : فله حياة طيبة دائمة لا موت فيها {وريحانٌ} أي : رزق ، بلغة حِمْير ، والمراد : رزق أرواحهم من العلوم والأسرار ، أو : أشباحهم ، فإنّ أرواحهم تتطور على شكر صاحبها ، فتأكل من ثمار الجنة ، وتشرب من أنهارها. كما في حديث الشهداء ، والصديقون أعظم منهم ، أو : جنة ، أو : هو الريحان الذي يُشمّ. قال أبو العالية : " لا يُفارق أحدٌ من المقربين الدنيا حتى يؤتى ببعض من ريحان الجنة فيشمه ، فتفيض روحه " ، {وجنةُ نعيم} تتنعّم فيها روحه في عالم البرزخ ، ثم جسمه وروحه بعد البعث ، وهذا يقتضي أنّ الأرواح تدخل الجنة قبل البعث ، وهو خاص بالشهداء والصدِّيقين.

{وأمّا إِن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك من أصحاب اليمين} أي : فسلام لك

٣٠٤

يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين ، أي : يسلّمون عليك ؛ فإنّ الروح إذا سُئلت في القبر عُرج بها إلى أرواح أهلها ، فيتلقونه ويُسلّمون عليه ، ويهنُّونه بالخروج من سجن الدنيا ، أو : سلامة لك يا محمد من أصحاب اليمين ، فلا ترى فيهم إلاَّ السلامة.

{وأمّا إِن كان من المكذّبين الضالين} هم الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة ، وهم الذين قبل لهم : {ثم إنكم إيها الضالون المكذِّبون}... الخ ، {فَنُزُلٌ من حَميم} أي : فله نُزل من حميم يشربه ، {وتَصْلِيةُ جحيمِ} إدخال في النار ، ومقاساة ألوانِ عذابها. وهذا يدل على أنّ الكافر بمجرد موته يدخل النار. وقيل : معنى ذلك : ما يجده في القبر من سموم النار ودخانها. ويحتمل : أن الآية لا تختص بعالم البرزخ ، بل تعم البرزخ وما بعده.

(٣٠٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

وقد تكلم الناسُ عن الأرواح في عالم البرزخ ، وحاصل ما ظهر لنا من الأحاديث والأخبار : أنّ أرواح الصدّيقين ، وهم المقربون ، تتشكل على صورة أجسامهم ، وتذهب حيث شاءت في الجنان وغيرها. وأرواح الشهداء تدخل في حواصل طيور خُضر ، تسرح في الجنة حيث شاءت ، لمّا كانت أرواحهم في الدنيا مسجونة في هيكل ذاتهم ، سُجنت في حواصل الطيور ، بخلاف العارفين لّمَا سرحت أفكارهم في الملكوت والجبروت ؛ أُطلقت أرواحهم بعد الموت ، وأرواح الصالحين الأبرار وعامة المؤمنين ، ممن لم ينفذ فيه الوعيد ؛ متفرقة في البرزخ ، فمنهم في ظل شجرة المنتهَى ، ومنهم في السموات ،

على قدر سعيهم في الدنيا. وكل صنف يُجمع مع صنفه جماعةً ، فالعلماء مع صنفهم ، والقراء كذلك ، والصالحون كذلك ، والأولياء كذلك ، والمنهمكون في الدنيا إذا سلموا من العذاب تكون أرواحهم كالنائم المستغرق ، لا يشعر بمرور الأيام ، حتى يستيقظ بنفخة البعث ، وأما مَن نفذ فيهم الوعيد ، فهم يُعذبون بأنواع من العذاب ، وتذكَّر حديث البخاري في الرؤيا التي رآها صلى الله عليه وسلم في شأن الزناة وأكل الربا ، وغيرهم. وفي ابن حجر : أن أرواح المؤمنين في عليين ، وأرواح الكافر في سجين ، ولكل روح بجسدها اتصال معنوي ، لا يُشبه الاتصال في الحيلة الدنيا ، بل أشبه شيء به حال النائم ، وإن كان هو أشد من حال النائم اتصالاً قال : وبهذا يُجمع بين ما ورد أن مقرها في عليين أو سجين ، وبين ما نقل ابن عبد البر عن الجمهور : أنها عند أَفْنية قبورها. قال : ومع ذلك فهي مأذون لها في التصرُّف ، وتأوي إلى محلها من عليين أو سجين ، وإذا نقل الميت من قبر إلى قبر ، فالاتصال المذكور متصل ، وكذا إذا تفرقت الأجزاء. هـ.

وفي الأصل الرابع والخمسين من نوادر الأصول : إذا قَدِمَ المؤمنُ على ربه لقاه رَوحاً وريحاناً وبشرى على ألسنة الرسل ، وهو قوله : {إِنَّ الَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةُ} [فصلت : ٣٠] ، ثم يأمر له في قبره بكسوة من فِراش ودِثار ورياحين ، وهو قوله : {وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ} {الروم : ٤٤] ، ويُنور له

٣٠٥

في مضجعه ، ويُؤنسه بملائكته الكرام ، إلى أن يلقاه عرصة القيامة ، فيبعثه إلى الموطن الذي هيأ له نزلاً. هـ. وقال في الأصل السبعين : إنّ الشهداء يُعجّل لهم تعالى اللقاء ، ويحييهم قبل نفخة الصور ، ويكلمهم كِفاحاً ، كما لأهل الجنة ، وليس لمَن دونهم من الأموات هذه الدرجة إلاّ للصدّيقين ، فهم أجدر بذلك ؛ لبذلهم نفوسهم لله تعالى مدة أعمارهم ، والشهداء بذلوها في طاعة الله ساعة ، فظهر أن للشهيد حياة خاصة على مَن دونه ، وأحرى منه الصدّيق. هـ.

(٣٠٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

وبالجملة : فالأرواح منها في البرزخ تجول وتُبصر أحوال أهل الدنيا ، ومنها تحت العرش ، ومنها طيّارة في الجنان وإلى حيث شاءت ، على أقدارهم من السعي إلى الله أيام الحياة ، ومنها ما تسرح وتتردد إلى جثتها تزورها ، ومنها ما يلقى أرواح المقبوضين. وعن سَلمان : إنّ الأرواح المؤمنين – أي : الكُمل – تذهب في برازخ من الأرض حيث شاءت ، بين السماء والأرض ، حتى يردها الله إلى جسدها ، فإذا ترددت هذه الأرواح علمت بأحوال الأحياء ، وإذا ورد عليهم من الأحياء ميت ، التقُّوا وتساءلوا عن

الأخبار. هـ. قلت : وهذه أرواح العارفين دون غيرهم. والله تعالى أعلم. وفي بعض الأثر : إذا مات العارف قبل لروحه : جُل حيث شئتِ.

{إِنَّ هذا} أي : الذي ذكر في السورة الكريمة {لهو حقُّ اليقين} أي : الحق الثابت من اليقين ، أو : حق الخبر اليقين ، {فسبِّح باسم ربك العظيم} الفاء لترتيب التسبيح ، أو الأمر به على ما قبلها ، فإنّ حقيّة ما فصل في تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل ؛ من الأمور التي من جملتها الإشراك والتكذيب بآياته الناطقة بالحق.

الإشارة : فأمّا إن كان من المقربين ؛ فرَوْح الوصال ، وريحان الجمال ، ومِنّة الكمال ، أو : فرَوْح الفضاء ، وريحان العطاء ، وجنة البقاء ، أو : فروح الفناء ، وريحان البقاء ، وجنة الترقي أبداً سرمداً ، أو : فرَوْح الأنس لقلبه ، وريحان القدس لروحه ، وجنة الفردوس لنفسه ، {وأمّا إن كان مِن أصحاب اليمين فسلامٌ لك} أي : فسلام عليك يا محمد {من أَصحاب اليمين} فهم يسلمون عليك ، ويشتاقون إلى لقائك ، ويرتاحون للقدوم عليك وصحبتك. والحاصل : أنَّ المقرَّب راحته ونعيمه في وصاله بربه ، وصاحب اليمين اشتياقه لرسوله ، وراحته ونعيمه في حصبته وجواره ، فالمُقرَّب فانٍ في ذات الحق ، وصاحب اليمين فانٍ في رسوله صلى الله عليه وسلم سيد الخلق ، فأهل الفناء في الذات هم المقربون ، وأهل الفناء في النبي صلى الله عليه وسلم هم أصحاب اليمين ، فحاصل الآية : {فأمّا إن كان مِن المقربين} فهو لي ، وأُجازيه برَوْح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين فمُسلم لك ، وهو من أصحاب اليمين ، هذا حاصل ما حرره شيخ شيوخنا الفاسي في حاشيته.

وفي الإحياء ما حاصله : أنَّ المقرَّب له الوصال إلى سعادة الملك ، وصاحب اليمين

له النجاة ، وهو سالك ، والمقرَّب واصل ، والمعرِض عن الله له الجحيم. والخبر عن ذلك كله حق يقين عند العارف بالله ؛ لأنه أدرك ذلك كله مشاهدةً. وفي القوت بعد كلام : وأيضاً للمقربين من كل هولٍ رَوح به لشهادتهم القريب ، وفي كل كربٍ ريحان لقرب الحبيب ، كما لأهل اليمين من كل ذلك سلامة. هـ.

(٣٠٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

قال النسفي : رُوي أنَّ عثمان بن عفان رضي الله عنه دخل على ابن مسعود رضي الله عنه في مرض موته ، فقال : ما تشتكي ؟ فقال : ذنوبي ، فقال : ما تشتهي ؟ فقال : رحمة ربي – وفي رواية : ما يقضي ربي – فقال : أفلا تدعوا الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضني ، فقال : ألا نأمر لك بعطاء ؟ فقال : لا

حاجة لي فيه ، قال : ندفعه إلى بناتك ، قال : لا حاجة لهن فيه ، قد أمرتهنّ بأن يقرأن سورة الواقعة ، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " مَن قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تُصبه فاقة أبداً " وليس في هذه السور الثلاث ذكر لفظ " الله " (اقتربت ، والرحمن ، والواقعة). هـ. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلّى الله على سيدنا محمد وصحبه وسلّم.

٣٠٧

(٣٠٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٣

سورة الحديد

(٣١٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٧

قلت : وقعت مادة التسبيح في القرآن بلفظ الماضي والمضارع والأمر والمصدر ؛ استيفاء لهذه المادة ، فقال هنا : {سَبَّحَ} وفي الجمعة : {يُسَبِّحُ} [الجمعة : ١] و {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى} [الأعلى : ١] و {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى} [الإسراء : ١]. وهذا الفعل قد عُدّي باللام تارة ، وبنفسه أخرى في قوله : {وَسَبِّحُوهُ} [الأحزاب : ٤٢] ، وأصله : التعدي بنفسه ؛ لأنّ معنى سبَّحته : بعّدته من السوء ، من : سَبَح : إذا ذهب وبَعُد ، فاللام إما أن تكون مثل اللام في : نصحته ونصحت له ، وإما أن يراد بـ " سبَّح لله " : اكتسب التسبيح لأجل الله ولوجهه خالصاً. قاله النسفي.

يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله} أي : نَزَّه اللّهَ عما لا يليق بجلاله ، اعتقاداً ، أو قولاً وعملاً ، مَن استقر {في السماوات والأرض} مِن الملائكة والجن والإنس

٣٠٨

والجمادات ، بلسان الحال والمقال ، فإنَّ كل فرد من أفراد الموجودات يدلّ بإمكانه وحدوثه على الصانع القديم ، الواجب الوجود ، المتصف بالكمال ، المنزَّه عن النقائص ، وهو المراد بقوله تعالى : {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ} [الإسراء : ٤٤] قيل : إنما استغنى عن إعادة الموصل في خصوص هذه السورة لتكرر ذكر الأرض هنا في أربعة مواضع. هـ. {وهو العزيزُ} المنتقِم ممن لم يُسبِّح له عناداً ، {الحكيمُ} في مجازاة مَن سبَّح له انقياداً.

{وله مُلك السماواتِ والأرض} أي : التصرُّف الكلي فيهما وفيما فيهما من الموجودات ، مِن نعت

الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات. قال الورتجبي : ذكر الله سبحانه ملكه على قدر أفهام الخليقة ، وإلاّ فأين السموات والأرض من ملكه ، والسموات والأرضون في ميادين مملكته أقل من خردلة! لمّا علم عجز خلقه عن إدراك ما فوق رؤيتهم ، ذكر أنَّ مُلك السموات والأرض مِلكُ قدرته الواسعة ، التي إذا أراد الله إيجاد شيء يقول كن فيكون بقدرته ، وليس لقدرته نهاية ، ولا لإرادته منتهى. هـ. {يُحيي ويميت} استئناف مُبيِّن لبعض أحكام المُلك ، أي : هو يُحيي الموتى ويُميت الأحياء ، {وهو على كل شيءٍ} من الأشياء ، التي من جملتها الإحياء والإماتة {قدير} لا يعجزه شيء.

}

(٣١١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

وهو الأولُ} القديم قبل كل شيء ، {والآخرُ} الذي يَبقى بعد فناء كل شيء ، {والظاهرُ} الذي ظهر بكل شيء ، {والباطنُ} الذي اختفى بعد ظهوره في كل شيء ، وقد جاء في الحديث : " اللهم أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، فليس دونك شيء " قال الطيبي : فالمعنيّ بالظاهر على التفسير النبوي : الغالب الذي يَغلب ولا يُغلب ، فيتصرف في المكونات على سبيل الغلبة والاستيلاء ؛ إذ ليس فوقه أحدٌ يمنعه ، وبالباطن ألاّ ملجأ ولا منجا دونه ، يُنجي ملتجئاً له. هـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقه إن شاء الله. {وهو بكل شيءٍ عليم} لا يعزب عن علمه شيء من الظاهر والخفيِّ. {هو الذي خلق السماوات والأرضَ في ستة أيام} من أيام الدنيا ، ولو أراد أن يخلقها في طرفة عين لفعل ، ولكن جعل الست أصلاً ليكون عليها المدار ، وتعليماً للتأني ، {ثم استوى} أي : استولى {على العرش} حتى صار العرش وما احتوى عليه غيباً في عظمة أسرار ذاته ، {يعلم ما يَلِجُ في الأرض} ما يدخل فيها ، من البذر ، والقطر ، والكنوز ، والأمطار ، {وما يعرجُ فيها} من الملائكة والأموات والأعمال ، {وهو معكم أينما كنتم} بالعلم والقدرة والإحاطة الذاتية ، وما ادعاه ابنُ عطية من الإجماع أنه بالعلم ، فإن كان مراده من أهل الظاهر فمسلّم ، وأمّا أهل الباطن فمجمِعون على خلافه ، انظر الإشارة.

٣٠٩

{والله بما تعملون بصير} فيُجازي كلاً بعمله.

{له مُلك السماوات والأرضِ} تكرير للتأكيد ، وتمهيد لقوله : {وإلى الله تُرجع الأمورُ} أي : إليه وحده لا إلى غيره استقلالاً واشتراكاً ترجع جميع الأمور ، {يُولج الليلَ في النهار} يُدخل الليل في النهار ، بأن ينقص من الليل ويزيد في النهار ، {ويُولج النهارَ في الليل} بأن ينقص من النهار ويزيد الليل ، {وهو

عليم بذات الصدور} أي : بمكنونها اللازمة لها من الهواجس والخواطر ، بيان لإحاطة علمه تعالى بما يضمرونه من نياتهم وخواطرهم ، بعد بيان إحاطته بأعمالهم التي يظهرونها على جوارحهم ، أو بحقائق الصدور من صلاحها وفسادها ، كَنّى بها عن القلوب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : التسبيح مأخوذ من السبْح ، وهو العوم ، فأفكار العارفين تعوم في قلزوم بحر الذات وتيار الصفات ، وترجع إلى ساحل البر لتقوم بوظائف العبودية والعبادات ، وقد سبَح في بحر الذات وغرق فيه أهلُ السموات والأرض ، شعروا أم لم يشعروا ، بل كل الكائنات غريقة في بحر الذات ، ممحوة بأحديتها. قال القشيري : تنزيهاً لله تعالى من حيث الاسم الجامع لجميع الأسماء والصفات الجلالية والجمالية ما في السموات الذات من الأسماء الذاتية ، المتجلية في المظاهر الكلية ، وما في أرض الصفات من الأسماء الصفاتية ، المتجلية في المظاهر الجزئية. اعلم أن فَلَك الذات سماء الصفات ، وفلك الصفات أرض الذات ، وكذلك فلك الصفات سماء الأسماء ، وفلك الأسماء أرض الصفات ، وهذه السموات والأرضون كلها مظاهر اسم الله الأعظم ، وهو المسبَّح – بالفتح – في مقام التفصيل ، والمسبِّح – بالكسر – في مقام الجمع ، كما ذكرنا. هـ.

(٣١٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

قلت : ومعنى قوله : " فلك الذات سماء الصفات "... الخ ، أنَّ أسرار الذات اللطيفة الأصلية سقف لأنوار الصفات ، المتجلّي بها ، وأنوار الصفات ، أرض لتلك الأسرار ، وكذلك أنوار الصفات سقف لأرض الأسماء ، والأسماء أرض لسماء الصفات ، وبقي عليه أن يقول : وفلك الأسماء سماء للأثر ، والأثر أرض لسماء الأسماء ، فكل مقام سماء لما تحته ، وأرض لما فوقه ، فالأثار أرض لسماء الأسماء ، والأسماء أرض للصفات ، والصفات أرض للذات ، دلّ بوجود آثاره على وجود أسمائه ، وبوجود أسمائه على وجود صفاته ، وبوجود صفاته على وجود ذاته ، وهذا مقام الترقي ، ومقام التدلي بالعكس ، انظر الحِكَم ، وهو العزيز أن يُدرك كنه ربوبيته ، الحكيم في اختفائه بعد ظهوره. له ملك سموات الأرواح وأرض الأشباح ، أو : ملك سموات أفلاك الذات والصفات والأسماء ، وفلك أرضها ، على ما تقدّم. يُحيي قلوب أوليائه بمعرفته ، ويُميت قلوب أعدائه بالجهل به ، أو يُحيي القلوب بالعلم به ، ويُميت النفوس بالفناء عنها ، وهو على كل شيء قدير من الأحياء والإماتة وغيرهما. هو الأول بلا بداية والآخر بل نهاية ، وهو الظاهر ، فلا ظاهر معه ، وهو الباطن في حال ظهوره. أو : هو الظاهر بتجلياته ، والباطن

بما نشر عليها من رداء كبريائه ، أو : الظاهر بقدرته ، والباطن بحكمته ، أو : الظاهر بالتعريف ، والباطن باعتبار التكييف. والحاصل : أنه ظاهر في بطونه ، باطن في ظهوره ، ما ظهر به هو الذي بطن فيه ، وما بطن فيه هو الذي ظهر به ، اسمه الظاهر يقتضي بطون الأشياء واستهلاكها وتلاشيها ؛ إذ لا ظاهر معه ، واسمه الباطن يقتضي ظهور حسها ، ليكون باطناً فيها. وفي الحِكَم قال : " أظهر كل شيء بأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر ". ولا يفهم هذا إلاّ أهل الأذواق.

قال القشيري : هو الأول في عين آخريته ، والآخر في عين أوليته ، والظاهر في عين باطنيته ، والباطن في عين ظاهريته ، من حيثية واحدة ، واعتبار واحد ، في آنٍ واحد ؛ لأنها ذاته المطلقة عن هذه الاعتبارات المختلفة ، والحيثيات المتنافرة ؛ لإحاطته بالكل ، واستغنائه عن الكل. قيل لأبي سعيد الخراز : بِمَ عرفت الله ؟ قال : بجمعه بين الأضداد ، ثم تلا هذه الآية : {هو الأول والآخر...} الخ ، ولا يتصور الجمع بين الأضداد إلاَّ مِن حيثية واحدة ، واعتبار واحد ، في آنٍ واحد. هـ.

{هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام} قال القشيري : يُشير إلى مراتب الصفات الستة ، وهي : الحياة ، والعلم ، والقدرة ، والإرادة ، والسمع ، والبصر ، أي : هو الذي تجلّى للأشياء كلها بذاته الموصوفة بالصفاة بالصفات الستة. انظر بقيته فيه. وتقدم الكلام على الاستواء في سورة الأعراف والسجدة. يعلم ما يلج في أرض البشرية من المساوئ ، وما يخرج منها بالتخلية والمجاهدة ، وما ينزل من سماء الغيوب على القلوب المطهرة ، من العلوم والأسرار ، وما يعرج فيها من حلاوة الشهود ، وهو معكم أينما كنتم بذاته وصفاته ، على ما يليق بجلال قدسه وكمال كبريائه ؛ إذ الصفة لا تُفارق الموصوف فإذا كانت المعية بالعلم لَزِمَ أن تكون بالذات ، فافهم ، وسلِّم إن لم تذق.

(٣١٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

حدثني شيخي ، الفقيه المحرر " الجنوي " : أنَّ علماء مصر اجتمعوا للمناظرة في صفة المعية ، فانفصل مجلسهم على أنها بالذات ، على ما يليق به. وسمعتُه أيضاً يقول : إنَّ الفقيه العلامة " سيدي أحمد بن مبارك " لقي الرجل الصالح سيدي " أحمد الصقلي " ، فقال له : كيف تعتقد : {وهو معكم أين ما كنتم} ؟ فقال : بالذات ، فقال له : أشهد أنك من العارفين. هـ. قلت : فبحر الذات متصل ، لا يتصور فيه انفصال ، ولا يخلو منه مكان ولا زمان ، كان ولا زمان ولا مكان ، وهو الآن على ما عليه كان.

وقال الورتجبي : للعارفين في هذا مقامان : مقام عين الجمع ، ومقام إفراد القديم من الحدوث. فمِن حيث الوحدة والقِدم تتصاغر الأكوان في عزة الرحمن ، وسطوات عظمته ،

٣١١

حتى لا يبقى أثرها. ثم قال : ومِن حيث الجمع باشر نورُ الصفة نورَ العقل ، ونورُ الصفة قائم بالذات ، فيتجلّى بنوره لفعله من ذاته وصفاته ، ثم يتجلّى من الفعل ، فترى جميعَ الوجوه مرآةَ وجوده ، وهو ظاهر لكل شيء ، من كل شيء للعموم بالفعل ، وللخصوص بالاسم والنعت ، ولخصوص الخصوص بالصفة ، وللقائمين بمشاهدة ذاته بالذات ، فهو تعالى منزّه عن البينونة والحلول والافتراق والاجتماع ، وإنما هو ذوق العشق ، ولا يعلم تأويله إلاّ العاشقون. هـ. وحاصل كلامه : أنك إن نظرت للوحدة لم يبقَ مَن تحصل معه المعية ؛ إذ لا شيء معه ، وإن نظرت من حيث الجمع والفرق أثبتَ الفرق في عين الجمع فتحصل المعية منه له جمعاً ، ومنه لأثره فرقاً ، ولا فرق حقيقة ، فافهم ، ولا يفهم هذا إلاّ أهل العشق الكامل ، وهم أهل الفناء ، كما قال ابن الفارض :

فلم تَهْوَني ما لم تكن فيَّ فانياً
ولم تَفْنَ ما لم تجْتَل فيك صورتي

(٣١٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٠٨

يقول الحق جلّ جلاله : {آمِنوا بالله ورسوله} أي : دُوموا على إيمانكم ، إن كان خطاباً للمؤمنين ، فيكون توطئة لدعائهم إلى ما بعده من الإنفاق وغيره ؛ لأنهم أهل لهذه الرُتب الرفيعة ، أو : أَحْدِثوا الإيمان ، إن كان خطاباً للكفار ، {وأَنفِقوا} أي : تصدّقوا ، فيشمل الزكاة وغيرها ، {مما جعلكم مستخلفين فيه} أي : جعلكم خلفاء في التصرُّف فيه من غير أن تملكوه حقيقةً ، وما أنتم فيه إلاّ بمنزلة الوكلاء والنُواب ، فأنفِقوا منها في حقوق الله تعالى ، وَلْيَهُنْ عليكم الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل الإنفاق من مال غيره إذا أَذِنَ له ، أو : جعلكم مستخلفين ممن كان قبلكم فيما كان في أيديهم بتوريثكم إياه ، وسينقله منكم إلى غيركم ، فاعتبِروا بحالهم ولا تبخلوا به ، {فالذين آمنوا} بالله ورسوله {منكم وأنفَقوا لهم أجرٌ كبير} لا يُقادر قدره.

٣١٢

{وما لكم لا تؤمنون بالله} هو حال ، أي : أيّ شيء حصل لكم غير مؤمنين ، وهو توبيخ على ترك الإيمان حسبما أُمروا به ، بإنكار أن يكون لهم عذر مّا في الجملة ، {والرسولُ يدعوكم} ويُنبهكم عيله ، ويُقيم لكم الحجج على ذلك ، {لتؤمنوا بربكم وقد أخذ} قبل ذلك عليكم ميثاقه في عالم الذر ، على الإقرار بالربوبية ، والتصديق بالداعي ، بعد أن رَكّب فيكم العقول ، فلم يبق لكم عذر في ترك الإيمان ، أو : أخذ ميثاقه بنصب الأدلة والتمكين من النظر ، فانظروا واعتبروا وآمنوا ، {إِن كنتم

مؤمنين} بأخذ هذا الميثاق ، أو : بموجبٍ ما ، فإنَّ هذا موجب لا موجب وراءه.
}

(٣١٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٢
هو الذي يُنَزِّلُ على عبده} محمد صلى الله عليه وسلم {آيات بيناتٍ} واضحاتٍ ، يعني القرآن ، {ليُخرجَكم} أي : الله تعالى ، أو العبد {من الظلمات} أي : من ظلمات الكفر والمعاصي والغفلة ، إلى نور الإيمان والتوبة واليقظة ، {وإنَّ الله بكم لرؤوف رحيم} حيث يهديكم إلى سعادة الدارين ، بإرسال الرسول ، وتنزيل الآيات ، بعد نصب الحُجج العقلية.
ثم وبَّخهم على ترك الإنفاق ، بعد توبيخهم على ترك الإيمان ، على ترتيب قوله : {آمِنوا} و {إنفِقوا} فقال : {وما لكم ألاَّ تُنفقوا في سبيل الله} أي : أيّ شيء حصل لكم في ألاّ تنفقوا فيما هو قُربة إلى الله تعالى ، وهو له حقيقة ، وإنما أنتم خلفاؤه في صرفه إلى ما عيّنه من المصارف ؟ {ولله ميراثُ السماوات والأرض} يرث كل شيء فيهما ، لا يبقى لأحد شيء من ذلك ، وإذا كان كذلك فأيّ عذر لكم في ترك إنفاقه {في سبيل الله} والله مُهلككم ، فوارث أموالكم ؟ فتقديمها لله أولى ، وهي أبلغ آية في الحث على الصدقة. وإظهار اسم الجليل في موضع الإضمار في " لله " لزيادة التقرير ، وتربية المهابة.
ثم بيّن التفاوت بين المنفِقين منهم باعتبار الزمان ، فقال : {لا يستوي منكم مَن أنفق مِن قبل الفتح وقاتلَ} مع مَن أنفق بعد الفتح وقاتل ، حذفه لدلالة ما بعده عليه من قوله : {أولئك أعظم درجة... } الخ ، والمراد : فتح مكة ، أي : لا يستوي مَن أنفق قبل عز الإسلام وظهوره ، مع مَن أنفق بعد لك ، {أولئك} الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا ، وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم : " لو أنفق أحدكم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ ، ولا نِصفه " ، فهم {أعظمُ درجةً من الذين أنفقوا من بعدُ وقاتلَوا} لأنّ مَن أنفق وقت الحاجة والاضطرار ، أعظم ممن أنفق في حال السعة والبسط ، {وكُلاًّ} أي : كل واحد من الفريقين {وَعَدَ اللّهُ الحسنى} وهي الجنة مع تفاوت الدرجات. وقرأ الشامي بالرفع ، مبتدأ ، أي : وعده الله الحسنى ، {والله بما تعملون خبير} فيُجازيكم على قدر أعمالكم.
{من ذا الذي يُقْرِضُ اللّهَ قرضاً حسناً} هو ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق في
٣١٣
سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين ، أي : مَن ذا الذي يُنفق ماله في

سبيل الله رجاء أن يعوضه مثل ذلك وأكثر ، فإنه كمن يُقرضه. وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحري أكرم المال ، وأفضل الجهات ، {فيُضاعِفه له} أي : يعطيه أجره على إنفاقه مضاعفاً أضعافاً كثيرة من فضله ، {وله أجرٌ كريمٌ} وذلك الأجر المضموم إليه الأَضعاف كريمٌ في نفسه ، حقيقٌ بأن يُتنافس فيه وإن لم يُضاعف ، فكيف وقد ضُوعف أضعافاً كثيرة! ومن نصب فعلى جواب الاستفهام.

(٣١٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٢

الإشارة : أَمَرَ الحقُّ تعالى مشايخَ التربية ، والعلماءَ الأتقيا ، أن يؤمنوا إيمان شهود وعيان ، أو إيمان تحقيق وبرهان ، فالأول للأولياء ، والثاني للعلماء ، ثم قال : {وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه} من العلوم الوهبية ، أو الرسمية ، فالذين آمنوا منكم كما تقدّم ، مما عندهم سعة العلوم الوهبية ، أو مِن ضيق العلوم الرسمية ، لهم أجر كبير : سكنى الحضرة ، في مقعد صدق ، أو بُحْبُوحة الجنة في نعيم الأشباح. وما لكم لا تؤمنون بالله ، أي : تُجددوا إيمانكم كل ساعة ، بفكرة الاستبصار والاعتبار ، والرسولُ يدعوكم لتُجددوا إيمانكم ، وقد أخذ ميثاقكم في عالم الذر ، ثم جدّده ببعث الرسل وخلفائهم من شيوخ التربية ، الداعين إلى الله ، إن كنتم مؤمنين بهذا الميثاق. هو الذي يُنزِّل على عبده آيات بينات ، وهو القرآن ، يَنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ليُخرجكم من الظلمات إلى النور ، من ظلمة المعاصي إلى نور التوبة والاستقامة ، ومن ظلمة الغفلة إلى نور اليقظة ، ومن ظلمة الهوى والحظوظ إلى نور الزهد والعِفة ، ومن ظلمة الحس إلى نور المعنى ، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم بالله.

وما لكم ألاَّ تنفقوا مُهجكم وأرواحكم في سبيل الله ، ببذلها في مرضاة الله ، ولله ميراث السموات والأرض ، فيرثكم بأشباحكم وأرواحكم ، فمَن بذلها عوّضه دوام الشهود ، ومَن بخل بها عقبه حسرة الحجاب ، لا يستوي منكم مَن أنفق نفسه وقاتلها قبل ظهور الطريق ، مع مَن أنفق وجاهد بعد ظهورها ، فالسابقون لم يجدوا أعواناً ، والمتأخرون وجدوا أعواناً ، وكُلاًّ وعد الله الحسنى الجنة الحسية ، وزاد السابقين الجنة المعنوية ، جنةَ المعارف. والله بما تعملون خبير ، لا يخفى عليه مَن تقدم ممن تأخر.

{من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً} ، قال القشيري : هو أن يُقرض وينقطع عن قلبه حُبّ الدارين ، ففي الخبر : " خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً ". هـ. فيضاعفه له بالترقي إلى ما لا نهاية له ، وله أجر كريم ، وهو مقعد صدق عند مليك مقتدر.

٣١٤

(٣١٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٢

يقول الحق جلّ جلاله : واذكر {يومَ ترى} أو : لهم أجر كبير {يومَ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نُورُهم} وهو نور الإيمان في الدنيا ، يكون هناك حسيّاً يسعى {بين أيديهم وبأَيمانهم} وقيل : هو القرآن ، وعن ابن مسعود رضي الله عنه : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم مَن يؤتى نوره كالنخلة ، ومنهك كالرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَنْ نوره على إبهام رجله ، يطفأ تارة ويلمع تارة.

قلت : ومنهم مَن نُوره كالقمر ليلة البدر ، ومنهم مَن نوره كالشمس الضاحية ، يُضيء خمسمائة عام ، كما في أحاديث أخرى ، وذلك على قدر إيمانهم وعرفانهم. قال الحسن : يستضيئون به على الصراط ، وهم متفاوتون في السرعة ، قال أبو نصر الهمداني : أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سبعة أنواع : الصدِّيقون ، والعلماء ، والبُدلاء ، والشهداء ، والحُجاج ، والمطيعون ، والعاصون ، فالصدِّيقون يمرُّون كالبرق ، والعلماء ، أي : العاملون ، كالريح العاصف ، والبدلاء كالطير في ساعة ، والشهداء كالجواد المسرع ، يمرُّون في نصف يوم ، والحجاج يمرُّون يومٍ كامل ، والمطيعون في شهر ، والعاصون يضعون أقدامهم على الصراط ، وأوزارهم على ظهرهم ، فيعثرون ، فتقصد جهنم أن تحرقهم ، فترى نور الإيمان في قلوبهم ، فتقول : جز يا مؤمن ، فإنَّ نورك قد أطفا لهبي. هـ. قلت : الصدِّيقون على قسمين ، أما أهل الاقتداء ، الدالُّون على الله ، المسلِّكون ، فتقرب الغُرف لهم ، فيركبونها ، ويمرُّون ، وأما الأفراد فيطيرون كالبرق. والله تعالى أعلم.

(٣١٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

وقال مقاتل : يكون هذا النور لهم دليلاً إلى الجنة ، وتخصيص الجهتين لأنّ السعداء يُؤتون صحائف أعمالهم من هاتين الجهتين {من بين أيديهم وعن إيمانهم} كما أنَّ الأشقياء يؤتون صحائفهم من شمائلهم ووراء ظهورهم ، فجَعَل النور في الجهتين إشعاراً لهم بأنهم بحسناتهم وبصحائفهم البيض أفلحوا.

وتقول لهم الملائكة : {بُشراكم اليومَ جناتٌ} أي : دخول جنات ؛ لأنّ البشارة تقع بالإجداث دون الجُثث ، {تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم}. {يومَ} بدل من " يوم ترى " {يقول المنافقون والمنافقاتُ للذين آمنوا انُظرونا} أي :

٣١٥

انتظرونا ؛ لأنه يُسرَع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف ، ويبقى المنافقون في ظلمة ، فيقولون للمؤمنين :

قفوا في سيركم لنستضيء بنوركم. وقرأ حمزة : " أَنظِرونا " ، من الإنظار ، وهو التأخير ، أي : أَمهِلوا علينا. وقال الفراء : تقول العرب : أنظرني ، أي : انتظرني ، فتتفق القراءتان. وقيل : من النظر ، أي : التفتوا إلينا وأَبْصِرونا {نَقتبس مِن نوركم} لأنَّ نورهم بين أيديهم ، فيُقال طرداً لهم وتهكُّماً بهم من جهة المؤمنين أو الملائكة : {ارجعوا وراءكم} أي : إلى الموقف ، إلى حيث أُعطينا هذا النور {فالتمِسوا نوراً} فإنّا هناك اقتبسناه ، أو : التفتوا وراءكم ، فيلتفتون فيُحال بينهم ، {فضُرِبَ} حينئذ {بينهم} بين الفريقين {بسُورٍ} بحائطٍ حائل بين شق الجنة وشق النار ، {له باب} يلي المنافقين ، ليروا ما فيه من المؤمنون من الأنوار والرحمة ، فيزدادون حسرة ، {باطِنُه} أي : باطن ذلك السور ، وهو الجهة التي تلي المؤمنين {فيه الرحمةُ وظاهرهُ} الذي يلي المنافقين {مِن قِبَلِه العذابُ} أي : العذاب حاصل من قِبَلِه. فالعذاب : مبتدأ ، و {مِن قِبَلِه} : خبر ، أي : ظاهر السور تليه جهنم أو الظلمة ، فيقابله العذاب ، فهم بين النار والسور.

{يُنادونهم} أي : ينادي المنافقون المؤمنين : {ألم نكن معكم} في الدنيا ؟ يريدون موافقتهم لهم في الظاهر ، {قالوا} أي : المؤمنون : {بلى} كنتم معنا في الظاهر {ولكنكم فتنتم أنفسَكم} أي : محنتموها وأهلكتموها بالنفاق والكفر ، {وتربصتم} بالمؤمنين الدوائر ، {وارتبتم} في أمر الدين {وغرتكم الأمانيُّ} الفارغة ، التي من جملتها أطماعكم في انتكاس الإسلام ، أو : طول الأمل وامتداد الأعمار {حتى جاء أمرُ الله} ؛ الموت ، {وغرَّكم بالله} الكريم {الغَرُورُ} أي : الشيطان بأنَّ الله غفور كريم لا يعذبكم ، أو : بأنه لا بعث ولا حساب.

}

(٣١٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

فاليومَ لا يُؤخذ منكم فديةٌ} فداء {ولا من الذين كفروا} جهراً ، {مأواكم النارُ} أي : مرجعكم ، لا تبرحون عنها أبداً {هي مولاكم} أي : المتصرفة فيكم تصرُّف المولى في ملكه ، أو : هي أولى بكم ، وحقيقة مكانكم الذي يقال فيه هو أولى بكم ، أو : ناصركم ، على طريق :

تحيةٌ بينهم ضَرْبٌ وجِيعُ

فيكون تهكُّماً بهم ، {وبئس المصيرُ} أي : النار.

الإشارة : يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ، الكاملين في الإيمان ، الطالبين الوصول ،

٣١٦

يسعى نورُهم ، وهو نور التوجُّه بين أيديهم وبأيمانهم ، فيهتدون إلى أنوار المواجهة ، وهي المشاهدة ،

فيقال لهم : بُشراكم اليوم جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم. قال القشيري : قوله تعالى : {يسعى نورهم...} الخ ؛ كما أنَّ لهم في العرصة هذا النور ؛ فاليومَ لهم نورٌ في قلوبهم وبواطنهم ، يمشون في نورهم ، ويهتدون به في جميع أحوالهم ، قال صلى الله عليه وسلم : {المؤمن ينظر بنور الله} ، وقال تعالى : {فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ} [الزمر : ٢٢]. وربما سقط ذلك النورُ على مَنْ يَقْربُ إليهم ، وربما يقع من ذلك على القلوب ، فلا محالة لأوليائه هذه الخصوصية. هـ. قال الورتجبي : ونورُ الحق الذي ألبس العارف تخضع له الأكوان ومَن فيها ، ومثله لسهل. فانظره مسْتوفٍ.

يوم يقول المنافقون والمنافقات ، وهم الذين اعتنوا بتزيين الظواهر ، وغفلوا عن البواطن ، فصارت خراباً من النور ، يقولون في الدنيا : انظُرونا والتفتوا إلينا ، نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم ، إلى دنياكم وحظوظكم ، فاتلمسوا نوراً ، تهكُّماً بهم ، فضُرب بينهم بسورٍ معنوي ، وهو خرق العوائد ، وتخريب الظواهر ؛ إذ لا يقدرون على ارتكابه ، له باب ليدخل معهم مَن أراد نورهم ، باطن ذلك السور فيه الرحمة ، وهي الراحة ، والطمأنينة ، والبسط ، وبهجة المعارف ، وظاهره الذي يلي العامة من قِبَلِه العذاب ، وهو ما هم فيه من الحرص ، والتعب ، والجزع ، والهلع ، والقبض. ينادونهم : ألم نكن معكم في عالم الحس ؟ وهو عالم الأشباح ، قالوا : بلى ، ولكنكم لم ترتقوا إلى عالم المعاني ، وهو عالم الأرواح ، الذي هو محل الراحة والهنا والسرور ، بل فَتنتم أنفسكم بأشغال الدنيا ، واشتغلتم بطلب حظوظها وجاهها ، ورئاستها وطيب مأكلها ، ومشربها وملبسها ، وتربصتم بأهل التوجه الدوائر ، أو الرجوع إلى ما أنتم فيه ، وارتبتم في وجود خصوصية التربية ، وغَرَّتكم الأماني : المطامع الكاذبة ، وأنكم تنالون الخصوصية بغير صحبة ولا مجاهدة ، وغرّكم طولُ الأمل والتسويف ، عن التوبة والتوجُّه ، وغرّك بحلمه الغرور ، فزيَّن لكم القعود والتخلُّف عن مقامات الرجال ، فاليوم ، أي : حين ظهرت مقامات الرجال في الدنيا والآخرة ، لا يؤخذ منكم فدية في التخلُّص من غم الحجاب ، ولا من الذين كفروا ، مأواكم نار القطيعة ، هي مولاكم ومنسحبة عليكم ، وبئس المصير.

(٣٢٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٥

٣١٧

قلت : {ألم يأن} : مجزوم بحذف الياء ، من : أَنَى يأني ، كمَضَى يمضي : إذا حان وقرب. و {أن تخشع} : فاعل. و {لا يكونوا} : عطف على " تخشع " ، وقرأ رويس عن يعقوب بالخطاب ، فيكون التفاتاً ؛ للاعتناء بالتحذير ، أو نهياً.

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم يَأْنِ} ألم يحضر ، أو يقرب {للذين آمنوا أن تخشع قُلوبُهم لذكر الله} أو : ألم يجيء وقت خشوع قلوب المؤمنين لذكر الله تعالى ، وتطمئن به ، ويسارعون إلى طاعته ، بالامثال لأوامره والاجتناب لنواهيه. قيل : كانوا مجدبين بمكة ، فلما هاجروا وأصابوا الرزق والنعمة ، ففتروا عما كانوا عليه ، فنزلت. وبه تعلم أنَّ الشدة هي عين الرخاء ، وأنَّ الجلال هو الجمال ، وأين هو حبيبك ثَمَّ هو عدوك. وعن ابن مسعود رضي الله عنه : ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربعُ سنين. وعن ابن عباس رضي الله عنه : استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وعن أبي بكر رضي الله عنه : إنَّ هذه الآية قُرئت بين يديه ، وعنده قوم من أهل اليمامة ، فبكوا بكاءً شديداً ، فنظر إليهم فقال : " هكذا كنا حتى قست قلوبنا ". قلت : مراده بالقسوة : التصلُّب والتثبُّت للورادات ، وذلك أنَّ القلب في البدايات يكون رطباً مغلوباً للأحوال والواردات ، يتأثر بأدنى شيء ، فإذا استمر مع الأنوار والواردات ؛ استأنس بها وتصلّب واشتد ، فلا تؤثر فيه الواردات ، فيكون مالكاً للأحوال ، لا مملوكاً ، وهذا أمر ذَوقْي ، يرتفع البكاء عن العارفين ، ويظهر على الصالحين والطالبين. وهذه الآية أيضاً كانت سبب توبة الفُضيل ، كان صاعداً لجارية ، فسمع قارئاً يقرأها ، فقال : قد آن الخشوع والرجوع ، فتاب.

والمراد بذكر الله ذكر اسمه تعالى على أي لفظ كان ، كقوله : {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ...} [الأنفال : ٢] الآية ، أو : القرآن ، فيكون قوله : {وما نَزَلَ من الحق} عطف تفسير ، أو لتغاير العنوانين ، فإنه ذِكْرٌ وموعظة ، كما أنه حقٌّ نازل من السماء. والمراد بالخشوع : الإنابة والخضوع ، ومتابعة الأمر والنهي. {ولا يكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبلُ} أي : اليهود والنصارى ، {فطال عليهم الأمدُ} الزمن بينهم وبين أنبيائهم ، {فقست قلوبُهم} باتباع الشهوات ، وذلك أنَّ بني إسرائيل كان الحقُّ يحول بينهم وبين شهواتهم ، وإذا سمِعوا التوراة خشعوا له ، ورقَّت قلوبهم ، فلما طال عليهم الزمان غلب عليهم الجفاء والقسوة ، واختلفوا.

(٣٢١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

قال ابن مسعود : إن بني إسرائيل لمّا طال عليهم الأمد قست قلوبُهم ، فاخترعوا كتاباً

٣١٨

من عند أنفسهم ، استحلته أنفُسِهم ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثيرٍ من شهواتهم ، حتى نبذوا كتابَ الله وراء ظهورهم ، كأنهم لا يعلمون ، ثم قالوا : اعْرِضوا هذا الكتاب على بني إسرائيل ، فإن تابعوكم

فاتركوهم ، وإلاَّ فاقتلوهم. ثم اتفقوا أن يرسلوه إلى عالمٍ من علمائهم ، [وقالوا] : إن هو تابعنا لم يخالفنا أحد ، وإلاَّ قتلتموه ، فلا يختلف علينا بعده أحد ، فأرسلوا إليه ، فكتب كتاب الله في ورقة ، وجعلها في قرن ، وعلقها في عنقه ، ثم لبس عليه ثيابه ، وأتاهم ، فعرضوا عليه كتابهم ، وقالوا : أتؤمن بهذا ؟ فأومئ إلى صدره ، وقال : آمنتُ بهذا – يعني المعلَّق على صدره – فافترقت بنو إسرائيل على بضع وسبعين ملة. هـ.

قال تعالى : {وكثيرُ منهم فاسقون} خارجون عن دينهم ، رافضون لما في الكتابين ، أي : وقليل منهم مؤمنون ، فنهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مثلهم. وقال ابن عطية : الإشارة بقوله : {أوتوا الكتاب} إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى عليه السلام ، ولذلك قال : {من قبل} ، وإنما شبّه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي ، وقوله : {فطال عليهم الأمدُ} قيل : أمد الحياة ، وقيل : أمد انتظار القيامة. هـ. وقال مقاتل : {الأمد} هنا : الأمل ، أي : لما طالت آمالهم لا جرم قست قلوبهم. هـ. قيل : إن الصحابة ملُّوا ملالة ، فقالوا : حدِّثنا ، فنزل : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ} [يوسف : ٣] ، وبعد مدة قالوا : لو ذَكَّرتَنا ، فنزلت هذه السورة.

وهذه الآية {اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرضَ بعد موتها} قيل : هذا تمثيل لأثر الذكر في القلوب ، وأنه يُحييها كما يُحيي الغيثُ الأرض ، وفيه إرشاد إلى أنَّ طريق زوال القسوة ليس إلاَّ الالتجاء إلى الله ، ونفى الحول والقوة ؛ لأنه تعالى القادر وحده على ذلك ، كما أنه وحده يُحيي الأرض ، {قد بيّنا لكم الآيات} التي من جملتها هذه الآية ، {لعلكم تعقلون} كي تعقلوا ما فيها ، وتعملوا بموجبها ، فتفوزوا بسعادة الدارين. والله تعالى أعلم.

الإشارة : خشوع القلب لذكر الله هو ذهوله وغيبته عند سطوع أنوار المذكور ، فيغيب الذاكر في المذكور ، وهو الفناء ، والخشوع لسماع ما نزل من الحق : أن يسمعه من الحق ، لا من الخلق ، وهو أقصى درجات المقربين. ثم نهى تعالى الخواص أن يتشبّهوا بأهل العلوم الرسمية اللسانية ؛ لأنه طال بهم الأمل ، وتنافسوا في الرئاسة ، وتهالكوا في الحظوظ العاجلة ، حتى قست قلوبهم ، وخرجوا عن الإرادة بالكلية ، قال القشيري : وقسوة القلب إنما تحصل من اتباع الشهوة ؛ فإن الشهوة والصفوة لا يجتمعان ، وموجِبُ القسوة : انحرافُ القلب عن مراقبة الربِّ ، ويقال : موجب القسوة أوله خطرة ، فإنْ لم تتدارَكْ صارت فكرة ، وإن لم تتدارَكْ صارت عزيمة ، فإن لم تتدارَكْ صارت مخالفة ، فإن لم تتلافَ صارت قسوةً ، وبعد ذلك طبع ودين. هـ. وحينئذ لا ينفع الوعظ والتذكير ، كما قال :

إذا قسا القلبُ لم تنفعه موعظةٌ
كالأرض إن سبختْ لم ينفع المطرُ

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

اعلموا أن الله يُحيي أرض القلوب بالعلم والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والجهل ، قد بيَّنَّا الآيات لمَن يتدبّر ويعقل.

(٣٢٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣١٧

قلت : {المصدقين} مَن قرأ بالتشديد فيهما فاسم فاعل ، من : تصدّق ، أدغمت التاء في الصاد ، ومَن قرأ بتخفيف الصاد فاسم فاعل صدّق. و {أقرضوا} : عطف على الصلة ، أي : إن الذين تصدّقوا وأقرضوا.

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ المصدِّقين والمصدِّقات} أي : المتصدقين بأموالهم والمتصدقات أو : المصدقين بالله ورسوله والمصدقات ، {وأقرضوا اللّهَ قرضاً حسناً} وهو أن تتصدّق من كسبٍ طيبٍ ، بقلب طيب ، {يُضاعف لهم} بأضعاف كثيرة إلى سبعمائة ، {ولهم أجرٌ كريمٌ} الجنة وما فيها.

وقد ورد في الصدقات أحاديث ، منها : أنها تدفع سبعين باباً من السوء ، وتزيد البركة في العمر. رُوي أن شابّاً وشابة دخلا على سليمان عليه السلام فعقد لهما النكاح ، وخرجا من عنده مسرورين ، وحضر ملك الموت ، فقال : لا تعجب من سرورهما ، فقد أُمرت أن أقبض روح هذا الشاب بعد خمسة أيام ، فجعل سليمانُ يراعي حالَ الشاب ، حتى ذهبت ستة أيام ، ثم خمسة أشهر ، فعجب من ذلك ، فدخل عليه ملك الموت ، فسأله عن ذلك ، فقال : إني أُمرت أن أقبض روحه كما ذكرتُ لك ، فلما خرج من عندك لقيه سائل ، فدفع له درهماً ، فدعا له بالبقاء ، فأُمرت بتأخير الأمر عنه ببركة صدقته. هـ. وانظر عند قوله : {يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَآءُ} [الرعد : ٣٨] ، ومثله قضية الرجل الذي آذى جيرانَه ، فدعا موسى عليه السلام عليه ، ثم تصدَّق صبيحة اليوم برغيف ، فنزل الثعبان ، فلقيته الصدقة فسقط ميتاً على حزمة حطبه.

{والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون} المبالغون في التصديق ، أو الصدق ، وهو أولى ؛ لأنّ وزن المبالغة لا يساغ من غير الثلاثي في الأكثر إلا نادراً ،

٣٢٠

كمسّيك من أمسك. {و} هم أيضاً {الشهداءُ عند ربهم} وظاهره : أن كل مَن آمن بالله ورسله ينال درجة الصدّيقين ، الذين درجتهم دون درجة الأنبياء ، وفوق درجة الخواص ، وأنَّ كل مَن آمن ينال درجة الشهداء ، وليس كذلك ، فينبغي حمل قوله : {آمَنوا} على خصوص إيمان وكماله ، وهم الذين

لم يشكّوا في الرسل حين أخبَروهم ، ولم يتوقفوا ساعة ، أي : سبقوا إلى الإيمان ، واستشهدوا في سبيل الله. وسيأتي في الإشارة حقيقة الصدّيق. وقيل : كل مَن آمن بالله ورسله مطلق الإيمان فهو صدّيق وشهيد ، أي : ملحق بهما ، وإن لم يتساووا في النعيم ، كقوله : {وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ...} [النساء : ٦٩].

(٣٢٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

والحاصل على هذه العبارة : الترغيب في الإيمان والحث عليه ، وهو وارد في كلام العرب في مبالغة التشبيه ، تقول : فلان هو حاتم بعينه ، إذا شابهه في الجود ، ويؤيد هذا حديث البراء بن عازب : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " مؤمنو أمتي شهداء " قال مجاهد : (كل مؤمن صدّيق وشهيد) ، أي : على ما تقدّم ، وإنما خصّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكرَ الشهداء السبعة تشريفاً على رتب الشهداء غيرهم ، ألا ترى أنَّ المقتول في سبيل الله مخصوص أيضاً بتشريف ينفرد به ، وقال بعضهم : معنى الشهداء هنا : أنهم يشهدون على الأمم. قال ابن عباس ومسروق والضحاك : الكلام تام في قوله : " الصدّيقون " ، وقوله : " الشهداء " استئناف كلام ، أي : والشهداء حاضرون عند ربهم ، أو : والشهداء {لهم أجرهم ونورهم} عند ربهم ، قال أبو حيان : والظاهر : أن " الشهداء " مبتدأ ، خبره ما بعده. هـ.

قلت : الظاهر : أنَّ الآية متصلة ، فكل مؤمن حقيقي صدّيق وشهيد ، أي : يلحق بهم ، وقوله : {لهم أجرهم ونورهم} أي : لهم أجر الصدّيقين ونورهم ، على التشبيه ، ولا يبلغ المشبَّه درجة المشبَّه به. وإذا قيّدنا الإيمان بالسبق ، فالمعنى لهم أجرهم كامل ونورهم تام ، ويؤيد عدم التقييد : ذكر ضده عقبه ، كما هو عادة التنزيل ، بقوله : {والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم}.

الإشارة : إنَّ المصدّقين والمصدّقات ، وهم الذين بذلوا مهجهم وأرواحهم في مرضاة الله – ومَن كان في الله تلفه كان على الله خَلَفَه – وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، أي : قطعوا قلوبهم عن محبة ما سواه ، وحصروه في حضرة الله ، يُضاعف لهم أنوارهم وأسرارهم ،

٣٢١

ولهم أجر كريم ، شهود الذات الأقدس ، وهؤلاء هم الصدِّيقون المشار إليهم بقوله : {والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون} فهذا الإيمان عند الصوفية مقيد ، قال الورتجبي : هم الذين شاهدوا الله بالله بنعت المعرفة والمحبة ، وتبعوا رسولَه بنعت المحبة والمعرفة بشرفه وفضله ، والانقياد بين يدي أمره ونهيه ، فأولئك هم الصدّيقون ؛ لأنهم معادن الإخلاص واليقين ، وتصديق الله في قوله بعد أن

شاهدوه مشاهدة الصديقية ، التي لا اضطراب فيها من جهة معارضة النفس والشيطان ، وهم شهداء الله المقتولون بسيوف محبته ، مطروحون في بحر وصلته ، يَحْيون بجماله ، يَشهدون على وجودهم بفنائه في الله ، وبفناء الكون في عظمة الله ، وهم قوم يستشرفون على هموم الخلائق بنور الله ، يشهدون لهم وعليهم ؛ لِصدق الفراسة ؛ لأنهم أمناء الله ، خصَّهم الله بالصديقية والسعادة والولاية والخلافة.هـ.

(٣٢٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

وقال القشيري : الصدّيق مَن استوى ظاهرُه وباطنُه ، ويقال : هو الذي يحمل الأمرَ على الأشَق ، لا يَنْزلُ إلى الرُّخَصِ ، ولا يجنح إلى التأويلات ، والشهداء : الذين يشهدون بقلوبهم مواطن الوصلة ، ويعتكفون بأسرارهم في أوطان القُربة ، ونُورهم : ما كحل الحق به بصائرهم من أنوار التوحيد. هـ.

(٣٢٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٠

يقول الحق جلّ جلاله : {اعْلَموا أنما الحياةُ الدنيا لَعِبٌ} كلعب الصبيان ، {وَلَهوٌ} كلهو الفتيان ، {وزِينَةٌ} كزينة النسوان ، {وتفاخر بينكم} كتفاخر الأقران ، {وتكاثرٌ} كتكاثر الدهقان – أي الفلاحين – {في الأموال والأولاد} أي : مباهاة بهما. والتكاثر : الاستكثار ، والحاصل : أنها من محقرات الأمور التي لا يركن إليها العقلاء ، فضلاً عن الاطمئنان بها ، وأنها مع ذلك سريعة الزوال ، وشيكة الاضمحلال ، ولذلك قال : {كَمَثَل غيثٍ أعجَبَ الكفَّارَ} أي : الحُرّاث ، من : كَفَرَ الحبَ : ستره ، ويقال : كفرت الغمامُ النجومَ : سترتها ، أي : أعجب الزراع {نباتُه} أي : النبات الحاصل منه ، {ثم يَهيجُ} أي : يجف بعد خضرته ونضارته ، {فتراه مُصْفراً} بعد ما رأيته ناضراً مونِعاً ، وإنما لم يقل : ثم تراه ؛ إيذاناً بأنّ اصفراره مقارن لجفافه. {ثم يكون حُطاماً} متفتتاً متكسراً ، شبَّه حالَ الدنيا وسرعة تقضّيها مع قلة جدواها بنباتٍ أنبته الغيث ، فاستوى وقوي ، وأعجب به حُرّاثه ، أو :

٣٢٢

الكفار الجاحدون لنعمة الله تعالى فيما رزقهم من الغيث والنبات ، فبعث عليه العاهة ، فهاج ، واصفرّ وصار حطاماً.

وهذا المثل هو لمَن اشتغل بالدنيا ، والجري عليها ، وأمّا ما كان منها في طاعة الله ، أو في الضرورات التي تُقيم الأولاد ، وتُعين الطاعات ، فلا يدخل في هذا المثل ، وهذا مثال للإنسان ينشأ شابّاً قويّاً ،

حَسن المنظر والهيئة ، ثم يأخذ في النقص والهرم ، ثم يموت ، ويضمحل أمره ، وتصير الأموال لغيره. قال القشيري : الدنيا حقيرة ، وأحقرُ منها قَدْراً : طالبُها ، وأقلُّ منها خَطَراً : المُزاحِم فيها ، فما هي إلاّ جيفة ، وطلاب الجيفةِ ليس لهم خطر ، وأخسُّهم مَن يبخل بها. وهذه الدنيا المذمومة هي ما شَغَل العبد عن الآخرة ، فكل ما شغله عن الآخرة فهي الدنيا. هـ.

}

(٣٢٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢

وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ} لمَن أعرض عن الله ، {ومغفرةٌ من الله ورضوانٌ} لمَن أقبل على الله ، وزهد فيما سواه. والحاصل : أنّ الدنيا ليست إلاَّ محقراتٍ من الأمور ، وهي اللعب ، واللهو ، والزينة ، والتفاخر ، والتكاثر ، وأمّا الآخرة ؛ فما هي إلا أمورٌ عِظام ، وهي العذاب الشديد ، والمغفرة ، والرضوان من الله الحميد. والكاف في "كَمَثَلِ " في محل رفع ، خبر بعد خبر ، {وما الحياةُ الدنيا إلا متاعُ الغُرور} لمَن ركن إليها ، واعتمد عليها ، ومتاع الغرور : هو الذي يظهر ما حسن منه ، ويبطن ما قبح ، يفعله مَن يغر الناس ويغشهم ، وكذلك الدنيا تُظهر لطلابها حلاوةً ووَلُوعاً ، وتزداد عليهم شيئاً فشيئاً ، فينهمكون في حلاوة شهواتها وبهجتها ، ويغفلون عن الاستعداد ، والعمر يفنى من يدهم في البطالة ، فهي تغرهم وتخدعهم حتى تسوقهم إلى الموت مفلسين. قال ذو النون : يا معشر المريدين ؛ لا تطلبوا الدنيا ، وإن طلبتموها فلا تحبوها ، فإنّ الزاد منها ، والمَقيل في غيرها.

ولمَّا حقَّر الدنيا ، وصغّ أمرها ، وعظّم أمر الآخرة ، حَثَّ عبادَه على المسارعة إلى نيل ما وَعَد من ذلك ، وهي المغفرة والرضوان ، فقال : {سابِقوا} بالأعمال الصالحة {إلى مغفرة من ربكم} أو : سارِعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار ، {وجنةٍ عرضها كعرض السماء والأرض} أي : كعرض سبع سموات ، وسبع أرضين ، إذا مدت إحداها حَذْو الأخرى ، وذَكَر العرض دون الطول ؛ لأنّ كل ما له عرض وطول فعَرضه أقلّ من طوله ، فإذا وصف عَرضه بالبسط عُرف أن طوله أبسط ، وهذا تقريب لأفهام العرب ، وإلاَّ فالجنة أعظم من ذلك مراراً ، كيف لا والمؤمن الواحد يُعطي قدر الدنيا عشر مرات! {أُعِدَّتْ} تلك الجنة {للذين آمنوا بالله ورسله} وهو دليل أنها مخلوقة ، {ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء} وهم المؤمنون ، وفيه دليل أنه " لا يدخل الجنة أحدٌ بعمله " كما في

٣٢٣

الحديث : {والله ذو الفضل العظيم} وبذلك يؤتي من شاء ذلك الفضل ، الذي لا غاية وراءه.

الإشارة : قد شبّه بعضُ الحكماء الدنيا بسبعة أشياء ، شبّهها بالماء المالح ، يغرق ولا يروي ، ويضر ولا

ينفع ، وشبهها بظل الغمام ، يغر ويخذل ، وشببها بالبرق الخاطف في سرعة الذهاب والإضرار ، وبسحاب الصيف ، يضر ولا ينفع ، وبزهر الربيع ، يغر بزهرته ، ثم يصفر فتراه هَشيماً ، بأحلام النائم ، يرى السرورَ في منامه ، فإذا استيقظ لم يجد في يديه شيئاً إلاّ الحسرة ، وبالعسل المشوب بالسم الرعاف ، يغر ويقتل. هـ. قال حفيده : فتأملت هذه الحروف سبعين سنة ، ثم زِدتُ فيها حرفاً واحداً فشبهتها بالغول التي تهلك مَن أجابها ، وتترك مَن أعرض عنها. هـ. وفي كتاب قطب العارفين ، لسيدي عبد الرحمن اللجائي ، قال : فأول درجة الذاهبين إلى الله تعالى : بغض الدنيا ، التي هي ظلمة القلوب ، وحجاب لوائح الغيوب ، والحاجزة بين المحب والمحبوب ، فبقدر رفضها يستعد للسفر ، ويصح للقلوب النظر ، فإن كانت الدنيا من قلب العبد مرفوضة ، حتى لا تعدل عنده جناح بعوضة ، فقد وضع قدمه في أول درجة من درجات المريدين ، فينظر العبد بعد ذلك ما قدّمت دنياه ، ويقبل على أخراه. هـ.

(٣٢٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢

وذكر القشيري في إشارة الآية : أنها إشارة إلى أطوار النفس والقلب والروح والسر ، فقال بعد كلام : وأيضاً يُشير إلى تعب صِبا النفس الأمّارة بملاعب المخالفات الشرعية ، والموافقات الطبيعية ، وإلى لهو شاب القلب بالصفات القلبية ، مثل الزهد ، والورع ، والتوكُّل والتقيُّيد بها ، وإلى زينة كهل السر بالأحوال السرية ، والمنازلات الغيبية ، مثل الكشوفات والمشاهدات والمعاينات ، وإلى تفاخر شيخ الروح بإنبات التجليات والتنزلات ، وإلى تكاثر سر السر بالفناء عن ناسوتيته ، والبقاء بلاهوتيته الجامع. هـ. إلاّ أنه قدّم السر على الروح ، والمعهود العكس ، فانظره.

قوله : {سابِقوا...} الآية ، فيه إغراء على النهوض إلى الله ، وسرعة السير إلى الحق تعالى ، التنافس في السبق ، كما قال الشاعر :

السباقَ السباقَ قولاً وفعلاً

حَذَّر النفسَ حسرةَ المسبوق

حُكي عن أبي خالد القيرواني ، وكان من العُبّاد ، المجتهدين : أنه رأى خيلاً يسابقَ بها ، فتقدمها فَرَسان ، ثم تقدم أحدهما الآخر ، ثم جدّ الثاني حتى سبق الأول ، فتخلّل أبو خالد ، حتى وصلَ إلى الفرس السابق ، فجعل يُقبّله ، ويقول : بارك الله فيك ، صبرت فظفرت ، ثم سقط مغشيّاً. هـ. قال الورتجبي : دعا المريدين إلى مغفرته بنعت الإسراع ، يعني في قوله : {سارِعوا} ودعا المشتاقين إلى جماله بنعت الاشتياق ، وقد دخل الكل في مظنة الخطاب ؛ لأنّ الكل قد وقعوا في بحار الذنوب ،

حين لم يعرفوه حقّ معرفته ، فدعاهم إلى التطهير برحمته من الغرور بأنهم عرفوه. هـ. أي : دعاهم إلى التطهير من

٣٢٤

الاغترار بمعرفته ، وهي لم تحصل. والله تعالى أعلم.

(٣٢٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٢

قلت : {في الأرض} : نعت لمصيبة ، أي : كائنة في الأرض ، و(في كتاب) : حال.

يقول الحق جلّ جلاله : {ما أصاب من مصيبةٍ في الأرض} من الجدب وآفات الزروع والفواكه ، {ولا في أنفُسِكُم} من الأمراض والأوصاب وموت الأولاد {إلاَّ} مكتوب {في كتابٍ} اللوح {من قبل أن نبرأها} أي : مِن قبل أن تخلق الأنفس أو المصائب ، {إنّ ذلك على الله يسير} أي : إن إثباتها في اللوح سهل على قدرته كلحظة ، وكما كُتبت المصائب ، كُتبت المسرات والمواهب ، وقد يدلّ عليها قوله تعالى : {لِكَيْلا تأسَوا} أي : أخبرناكم بذلك لِكيلا تحزنوا {على ما فاتكم} من الدنيا حزناً يقنطكم ، {ولا تفرحوا} فرح المختال الفخور {بما آتاكم} من الدنيا وسعتها ، ومن العافية وصحتها ، فإنَّ مَنْ عَلِمَ أنَّ الكل مقدر ، يفوت ما قدر فواته ، ويأتي ما قدّر إتيانه ، لا محالة ، لا يعظم جزعه على ما فات ، ولا فرحه بما هو آت ، ومع هذا كل ما ينزل بالنفس من المصائب زيادة في درجاته ، وتطهير من سيئاته ، ففي صحيح مسلم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما يُصيب المسلم من وَصَبٍ ، ولا نَصَب ، ولا سقم ، ولا حَزَنٍ ، حتى الهمَ يَهُمُّه ، إلاَّ كفّر به من سيئاته " وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : " عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن : إن قضى له بالسراء رضي وكان خيراً ، وإن قضى له بالضراء ورضي كان خيراً له " ، وقال أيضاً : " ما من مسلم يُشاكُ بشوكةٍ فما فوقها ، إلاَّ كُتبتْ له درجةٌ ، ومُحيتْ عنه بها خَطيئةٌ ". وليس أحد إلاَّ وهو يفرح بمنفعةٍ تُصيبه ، ويحزن عند مضرةٍ تنزل به ، لأنه طبع بشري ، ولذلك كان عمر رضي الله عنه إذا أوتي بغنيمة أو خير يقول : (اللهم إنا لا نستيطع إلاَّ أن نفرح بما آتيتنا) ، ولكن ينبغي أن يكون الفرح شكراً ، والحزن صبراً ، وإنما يُذم مِن الحزن الجزع المنافي للصبر ، ومن الفرح الأشر المُطغي المُلهي عن الشكر ، والمؤدّي إلى الفخر ، {واللّهُ لا يُحب كلَّ مختال فخور} فإنَّ مَن فرح بحظوظ الدنيا ،

٣٢٥

وعظمت في نفسه ، اختال وافتخر بها ، لا محالة. وفي تخصيص التنزيل الذم بالفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسى.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٥

ثم أبدل من "كل مختال " تفسيراً له فقال : {الذين يبخلون ويأمرون الناسَ بالبخل} أي : لا يُحب الذين يفرحون الفرحَ المُطغي إذا رُزقوا مالاً أو حظّاً من الدنيا ، فلأجل فرحهم به عزّ في نفوسهم ، فبخلوا به ، وأَمروا غيرهم بإمساكه ، ويحضُّونهم على البخل والادخار ، {ومَن يتولَ} يُعرض عن الإنفاق ، أو عن أوامر الله تعالى ونواهيه ، ولم ينتهِ عما نهى عنه من الأسى على الفائت ، والفرح بالآتي ، {فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميدُ} أي : غني عنه وعن أنفاقه ، محمودٌ في ذاته ، لا يضره إعراضُ مَن أعرض عن شكره ، بالتقرُّب إليه بشيء من نعمه. وفيه تهديد وإشعار بأنَّ الأمر بالإنفاق إنما هلو لمصحلة المنفق فقط. وقرأ المدنيان وابن عامر بغير " هو " الذي يفيد الحصر ، اكتفاء عنها بتعريف الجُزأين ، مع تأكيد " إنّ " ، وقرأ الباقون بزيادتها ؛ للتنصيص على الحصر والتأكيد ، وهو ضمير فصل عن البصريين ، أي : الفرق ؛ لأنه يفرق بين الخبر والصفة ، وعماد عند الكوفيين ، ورابطة عند المنطقيين.

الإشارة : ما أصاب من مصيبة في أرض البشرية ، من غلبة الطبع ، والميل إلى الحظوظ النفسانية ، ولا في أنفسكم ؛ ولا في باطن أنفسكم ، مما يُصيب القلبَ من الأمراض ، كالعجب والرياء والكبر والحسد ، وغيرها ، وما يُصيب الروح من الوقوف مع المقامات ، أو الكرامات ، أو الكشوفات ، إلاَّ في كتاب سابق ، وهو العلم القديم ، والقضاء المحتوم ، فمَن وافقته رياح القضاء نهض رغماً عن أنفه ، ومَن انتكبته نكس على عقبيه ، أو وقف عن سيره ، فالرجوع إلى الله واجب في الحالتين ، عبودية وأدباً ، فعلنا ذلك لكيلا تأسَوا على ما فاتكم. فمَن تحقّق بالعبودية لا يفوته شيء ، ولا تفرحوا بما آتاكم مما شأنه يزول. قال القشيري : هذه صفة المتحررين من رِقِّ النفس ، وقيمة الرجال إنما تتبين بتغيُّرهم ، فمَن لم يتغير بما يَرِدُ عليه مما لا يريده من جفاءٍ أو مكروهٍ أو محبةٍ فهو كامل ، ومَن لم يتغير بالمضار ، ولا يَسُرُّه الوجد ، كما لا يُحْزِنْه العَدَم ، فهو سَيِّد وقته. هـ. قلت : وهذه كانت سيرة الصحابة رضي الله عنهم كما قال كعب بن زهير في وصفهم :

لا يَفرحونَ إذا نالت رِماحُهُمُ
قَوْماً وليسوا مجازيعاً إذا نِيلوا

ثم قال : ويُقال : إذا أردْتَ أن تعرفَ الرجلَ فاطلبْه عند الموارد ، والتغيراتُ من علامات بقاء النفْس بأيّ وجهٍ كان. هـ. وقال الورتجبي عن الواسطي : العارف مستهلك في كُنه المعروف ، فإذا حصل بمقام المعرفة لا يبقى عليه قصد فرح ولا أسى ، قال الله تعالى : {لِكَيلا تأسوا...} الآية. هـ. قلت : وإليه أشار في الحِكَم بقوله : " ما تجده

القلوب من الأحزان فلِما منعت من الشهود والعيان " ، وقال ابن الفارض ، في شان الخمرة إذا دخلت القلب :

(٣٣١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٥

وإن خطرتْ يوماً على خاطر امرىءٍ

أقامتْ به الأفراحُ وارتحلَ الهمّ

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : " يا داود ، قُل للصدِّيقين : بي فليفرحوا ، وبذكري فليتنعموا " واحتجّ الغزالي بهذه الآية على أن الرزق لا يزيد بالطلب ، ولا ينقص بتركه ، ولو كان يزيد بالطلب وينقص بالترك لكان للأسى والفرح موضع ، إذ هو قصَّر وتوانى حتى فاته ، وشمَّر وجدّ حتى حصَّله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم للسائل : " ما لك ، لو لم تأتها لأتتك " ، ثم أورد كون الثواب والعقاب مكتوبيْن ، ويزيد بالطلب وينقص بتركه ، ثم فرّق بأنّ المكتوب قسمان : قسم مكتوب مطلقاً ، من غير شرط وتعليقٍ بفعل العبد ، وهو الأرزاق والآجال ، وقسم معلّق بفعل العبد ، وهو الثواب والعقاب. هـ.

قلت : في تفريقه نظر ، والحق : التفصيل في النظر ، فمَن نظر لعالم الحكمة ، وهو عالم التشريع ، وجدهما معاً مقيدين بفعل العبد ، أمّا الرزق الحسي فيأتي بسبب الفعل ، إن توجه للأسباب ونقص من التقوى ، وبغير سبب إن تجرّد من الأسباب ، وحصل مقام التقوى ؛ لقوله تعالى : {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً...} [الطلاق : ٢] الآية ، فالمُتَّقِي المنقطع إلى الله ناب اللّهُ عنه في الفعل ، ومَن نظر لعالم القدرة ، وهو عالم الحقيقة ، وجد الفعل كله من الله بلا واسطة {لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون} وكذلك أمر الرزق المعنوي ، وهو الطاعة واليقين ، التي يتربت عليهما الثواب والعقاب ، فمَن نظر لعالَم الحكمة وجده مقيداً بسبب العبد واجتهاده ، وبها جاءت الشريعة ، ومَن نظر لعالَم القدرة امتحى العبد ووجوده ، فضلاً عن فعله وتسبُّبه ، فتأمّله.

قوله تعالى : {والله لا يُحب كل مختال فخور} قال القشيري : لأنّ الاختيال من بقاء النفس ، والفخر رؤية خطر ما به يفتخر. هـ. {الذين يبخلون} بما عندهم من الأرزاق الحسية والمعنوية ، والبخل بها علامة الفرح بها ، والوقوف معها ، وأمّا مَن وصل إلى شهود مُعطيهما ومُجريها فلا يبخل بشيء ؛ لغناه بالله عن كل شيء ، ومَن يتولّ عن هذا كله ، فإنَّ الله الغني عنه وعن جميع الخلق ، المحمود قبل وجود الخلق. والله تعالى أعلم.

(٣٣٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٥

يقول الحق جلّ جلاله : {لقد أرسلنا رسلنا} من البشر {بالبينات} الحُجج والمعجزات ، أو : لقد أرسلنا الملائكة إلى الإنبياء ، والأنبياء إلى الأمم ، ويؤيده قوله تعالى : {وأنزلنا معهم الكتابَ} أي : جنس الكتاب الشامل للكل ؛ لأنّ الكتاب من شأنه أن ينزل مع الملائكة ، ويُجاب : بأن التقدير : وأنزلنا عليه الكتاب مصحوباً معهم لا تُفارقهم أحكامه ، {و} أنزلنا {الميزانَ} أي : الشرع ؛ لأنه عِيار الأحكام الصحيحة والفاسدة ، {ليقوم الناسُ بالقسط} أي : العدل ، وقيل المراد : الميزان الحسي. رُوي أن جبريل عليه السلام نزل بالميزان ، فدفعه إلى نوح عليه السلام ، وقال : " مُرْ قومَك يَزِنوا به ". {وأنزلنا الحديدَ} قال ابن عباس : " نزل آدم من الجنة ومعه آلة الحدادين ، خمسة أشياء : السندان ، والكَلْبتانِ ، والمِيقَعَةُ ، والمِطرقة ، والإبرة ". أو : {أنزلنا الحديد} أخرجناه من المعادن ، والمعادن تتكون من الماء النازل في الأرض ، فينعقد في عروق المعادن ، وقيل : المراد به السلاح.

وحاصل مضمن الآية : أرسلنا الرسلَ وأنزلنا الكتابَ ، فمَن تبع طوعاً نجا ، ومَن أعرض فقد أنزلنا الحديد يُحارب به حتى يستقيم كرهاً. {فيه بأس شديد} أي : قوة وشدة يتمنّع بها ويحارب ، {ومنافعُ للناس} يستعملونه في أدواتهم ، فلا تجد صنعة تستغني عن الحديد ، {وليعلم اللّهُ} علم ظهور {مَن ينصُرُه ورسُلَه} باستعمال السيوف والرماح وسائر السلاح في مجاهدة أعداء الدين ، {بالغيبِ} غائباً عنهم في مقام الإيمان بالغيب ، {إِنَّ الله قويٌّ عزيزٌ} فيدفع بقوته مَن يُعرض عن ملته ، وينصر بعزته مَن ينصر دينه ، فيقوى جأشه على الثبوت في مداحض الحرب.

(٣٣٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

قال النسفي : والمناسبة بين هذه الأشياء الثلاثة : أنّ الكتاب قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يُبين سبيل المراشد والعهود ، ويتضمن جوامع الأحكام والحدود ، ويأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن البغي والطغيان ، والاجتناب عن الظلم إنما يقع بآلة بها يقع التعامل ، ويحصل بها التساوي والتعادل ، وهي الميزان. ومن المعلوم : أنَّ الكتاب الجامع للأوامر الإلهية ، والآلة الموضوعة للتعامل بالتسوية ، إنما يُحافظ العوامّ على اتباعها

٣٢٨

بالسيف ، الذي هو حجة الله على مَن جحد وعَنَد ، ونزع من صفقة الجماعة اليد ، وهو الحديد ، الذي وصف بالبأس الشديد. هـ.

{ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم} خُصّا بالذكر لأنهما أبوان للأنبياء عليهم السلام {وجعلنا في ذريتهما}

أولادهما {النبوةَ} الوحي {والكتابَ} جنس الكتاب. وعن ابن عباس : " الخطّ بالقلم ". يقال : كتب كتاباً وكتابة. {فمنهم} من الذرية ، أو : مِن المرسَل إليهم ، المدلول عليه من الإرسال ، {مُهتدٍ} إلى الحق ، {وكثيرٌ منهم فاسقون} خارجون عن الطريق المستقيم ، والعدول عن سبيل المقابلة للمبالغة في الذم ، والإيذان بكثرة الضلاّل والفسّاق.

{ثم قَفَّينا على آثارهم} أي : نوح وإبراهيم ، ومَن مضى من الأنبياء ، أو : مَن عاصروهم من الرسل ، {برسلنا وقَفَّينا بعيسى ابن مريم} أي : أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم. والتقفية : من القفا ، كأنّ كل واحد جاء في قفا صاحبه من ورائه ، {وآتيناه} أي : عيسى {الإنجيلَ} وفيه لغتان كسر الهمزة وفتحه ، وهو عجمي لا يلزم فيه أبنية العرب ، {وجعلنا في قلوب الذين ابتَعوه} وهم النصارى {رأفةً} مودةً ولياناً ، {ورحمةً} تعطُّفاً على إخوانهم ، وهذا ظاهر في النصارى دون اليهود ، فأتباع عيسى أولاً كانوا الحواريين ، وطائفة من اليهود ، وكفرت به الطائفة الباقية ، فالنصارى أشياع الحواريين ، فما زالت الرحمة فيهم ، وأما اليهود فقلوبهم أقسى من الحجر. {ورهبانيةً ابتدعوها} من باب الاشتغال ، أي : وابتدعوا رهبانية ابتدعوها من عند أنفسهم. أو : معطوفة على ما قبلها ، أي : وجعلنا في قلوبهم رهبانيةً مبتدَعةً مِن عندهم ، أي : وقفيناهم للتراحم بينهم ولابتداع الرهابنية واستحداثها ، وهي : المبالغة في الرهبة بالعبادة ، والانقطاع عن الناس ، وهي منسوبة إلى الرَهْبان ، وهو الخائف ، فعلان من : رَهَبَ ، كخشيان ، من خشي. وقرئ بضم الراء ، نسبة إلى الرُّهْبان جمع راهب ، كراكب وركبان. وسبب ابتداعهم إياها : أنَّ الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى عليه السلام ، فقاتلوهم ثلاث مرات ، فقُتل المؤمنون حتى لم يبقَ منهم إلاَّ القليل ، فخافوا أن يفتونهم في دينهم ، فاختاروا الرهبانية في قُلَل الجبال ، فارين بدينهم ، مختلِّصين أنفسهم. انظر الثعلبي فقد نقله حديثاً.

}

(٣٣٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

ما كتبناها عليهم} أي : لم نفرضها عليهم ، ولكن نذروها على أنفسهم. ما فعلوا ذلك {إلاَّ ابتغاءَ رِضْوانِ الله} عليهم ، قيل : الاستثناء منقطع ، أي : ما كتبناها عليهم لكن فعلوها ابتغاء رضوان الله ، وقيل : متصل من أعم الأحوال ، أي : ما كتبناها عليهم في حال من الأحوال إلاّ ابتغاء الرضوان ، {فما رَعَوْها حقَّ رعايتها} كما يجب على الناذر رعاية نذره ؛ لأنه عهد مع الله ، لا يحلّ نكثه ، وقيل : في حق مَن أدرك البعثة فلم يؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم أي : فما رَعَوا تلك الرهبانية حقها ، حيث لم

يؤمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويؤيده قوله تعالى : {فآتينا الذين آمنوا منهم} إيماناً صحيحاً ، وهو الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم {أجرَهم} ما

٣٢٩

يخصهم من الأجر ، {وكثيرٌ منهم فاسقون} خارجون عن حد الاتباع ، كافرون بالله ورسوله.

الإشارة : كل زمان يبعث اللّهُ رُسلاً يدعون إلى الله ، وهم الأولياء العارفون ، خلفاء الرسل ، بالبينات الواضحة على ولايتهم ، لمَن سبقت له العناية ، وأنزلنا معهم الكتاب ، أي : الواردات الإلهية ، والميزان ، وهو إلهام اصطلاح التربية المناسبة لذلك الزمان ، فيزن بها أحوالَ المريدين ، ويعطي كل واحد ما يناسبه من الأوراد ، والأعمال ، والأحوال ، ليقوم الناس في أنفسهم بالقسط ، من غير إفراط ولا تفريط ، وأنزلنا الحديد ، إشارة إلى الجذب ، الذي في قلوب العارفين ، فيه بأس شديد ، يذهب العقول ، ومنافع للناس ، لأنه هو النور الذي يمشي به الوليّ في الناس ، إذ بذلك الجذب يجذب قلوبَ المريدين ، ومَن لم يكن له ذلك الجذب ، فلا يصلح للتربية ؛ لأنه ظاهري محض ، ولا بُد لهذا الجذب أن يصحبه سلوك في الظاهر ، وإلاَّ فلا يصلح أيضاً للتربية كالمصطلمين. خصّ هذا النور بأوليائه لِيعلم مَن ينصُر دينَه وسنةَ رسوله منهم ، بالغيب ، أي : مع غيب المشيئة عنهم ، فهم يجتهدون في نصر الدين ، وينظرون ما يفعل الله ، وما سبق به القدر ، وأمّا أمر الربوبية فهم في مقام العيان منها ، إنَّ الله قوي ، يُقوي قلوب المتوجهين ، عزيز يُعز من يجتهد في نصر الدين.

ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم ، خصّ هذين الرسولين ؛ لأنّ نوحاً عليه السلام كان في غاية القوة والشدة ، وإبراهيم كان في غاية الليونة ، وهكذا أولياء كل زمان ، بعضهم يميل للقوة جدّاً ، وبعضهم يميل للرطوبة ، فإذا أراد الله أن يُظهر طريقةً أ مِلةً جعل فيها هذين الضدين ، من الأولياء مَنْ يميل لليونة ومَنْ يميل للقوة ، ليعتدل الأمر في الوجود ، فإن انفرد صاحبُ القوة احترق الوجود ، أو غرق ، كما جرى في زمان نوح عليه السلام ، حين انفرد بالقوة ، وإن انفرد صاحب الليونة وقعت برودة في الدين ، كما وقع في زمن إبراهيم عليه السلام إذ لم تكن أمته كثيرة ، ولمّا اجتمعا في زمان موسى كثرت أتباعه ؛ لأنَّ موسى عليه السلام كان قوياً ، وهارون كان ليناً ، فكثرت أتباعه. وعظمت هذه المة المحمدية لدوام اجتماعهما في أمته ، فكان عليه الصلاة والسلام سهلاً ليناً ، وكان في مقابلته عمر من وزرائه قوياً صلباً في دين الله ، ثم استخلف أبو بكر على قدم الرسول صلى الله عليه وسلم فقابله عمر رضي الله عنه ، فلما استخلف عمر ولان ؛ قابله عليّ رضي الله عنه ، وهكذا كل طائفة كثرت أتباعها تجد فيها هذين الضدين. سبحان المدبِّر الحكيم ، الجامع للأضداد.

(٣٣٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

وقوله تعالى : {وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفةً ورحمةً} هي صفة المريدين المتوجهين ، ورهبانيةُ هذه الأمة : المساجد والزوايا ، كما في الحديث. وليس من شأن

٣٣٠

العارفين الانفراد في الجبال والفيافي ، إنما شأنهم خلط الناس وإرشادهم. قال الورتجبي : وصف الله تعالى هنا أهل السنة وأهل البدعة ، أهل السنة : أهل الرحمة والرأفة ، وأهل البدعة : أهل الرهبانية المبتدعة من أنفسهم. وصف الله قلوب المتمسكين بسنّة الأنبياء بالمودة والشفقة في دينه ومتابعة رسله ، فتلك المودة من مودة الله إياهم ، وتلك الرحمة من رحمة الله عليهم ، حيث اختارهم في الأزل ؛ لأنهم خلفاء الأنبياء ، وقادة الأمة ، ووصف المتكلفين الذي ابتدعوا رهبانية من أنفسهم ، مثل ترك أكل اللحم ، والجلوس في الزوايا للأربعين ، عن الإتيان إلى الجمعة والجماعات ، لأجل قبول العامة ، فإنهم ليسوا على الطريق المستقيم ، بل هم يتبعون شياطينهم ، الذي غوتهم في دينهم ، بل زيّنوا في قلوبهم المحالات والمزخافات ، وما كتبنا عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، ورضوان الله هو في الشريعة والطريقة الأحمدية صلى الله عليه وسلم. هـ. وقوله : " الأربعين " كان العبّاد ينذرون خُلوة أربعين يوماً ، فيتخلّفون عن الجمعة والجماعة ، والأمر كما قيل : إذا ثبت عدالة المرء فليترك وما فعل ، فهو أسلم. والله تعالى أعلم.

(٣٣٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٢٧

يقول الحق جلّ جلاله : {يأيها الذين آمنوا} بالرسل المتقدمة {اتقوا اللهَ} أي : خافوه {وآمِنوا برسوله} محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، المذكور في كتابكم ، {يُؤتِكم كِفْلَين} نصيبين {من رحمته} لإيمانكم بالرسول صلى الله عليه وسلم وبمَن قبله ، لكن لا بمعنى أن شريعتهم باقية بعد البعثة ، بل على أنها كانت حقاً قبل النسخ ، وإنما أعطى مَن آمن بنبينا كفلين مع بطلان شريعته ، لصعوبة الخروج عن الإلف والعادة ، {ويجعل لكم نوراً تمشون به} يوم القيامة ، كما سبق للمؤمنين في قوله : {يَسْعَى نُورُهُم...} [الحديد : ١٢] الخ ، {ويغفرْ لكم} ما أسلفتم من الكفر والمعاصي ، {واللهُ غفور رحيم} ويؤيد هذا التأويل وأنَّ الخطاب لأهل الكتاب : قوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي... " الحديث. وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أي : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله فيما نهاكم عنه ، ودُوموا على إيمانكم ، يؤتكم كفلين...الخ ، ويؤيد هذا حديث الصحيحين : " مَثَلُ أهل الكتاب قبلنا كمثل رجل استأجر أُجراء يعملون إلى الليل على قيراط قيراط ،

فعملت اليهود

٣٣١

إلى نصف النهار ، ثم عجزوا ، ثم عملت النصارى إلى العصر ، فعجزوا ، ثم عملتم إلى الليل ، فاستوفيتم أجر الفريقين ، فقيل : ما شأن هؤلاء أقل عملاً وأعظم أجراً ؟ فقال : هي ظلمتكم من حقكم شيئاً ؟ قالوا : لا ، قال : ذلك فضلي أوتيه مَن أشاء ". قيل : لمّا نزل قوله : {أولئك يُؤتون أجرهم مرتين بما صبروا} افتخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فنزل. {يا أيها الذين آمنوا...} الخ. ولمّا نزلت هذه الآية الكريمة في هذا الوعد الكريم للمؤمنين حسدتهم اليهود ، فأنزل الله : {لئلا يعلم أهل الكتاب ألاَّ يقدرون على شيء...} الخ ، أي : إنما خصصت المسلمين بذلك ليعلم أهل الكتاب أنه ، أي : الأمر والشأن لا يملكون فضل الله ، ولا يدخل تحت قدرتهم ، فـ " إن " مخففة ، واسمها : ضمير الشأن ، و(لا) مزيدة ، أي : ليعلم أهل الكتاب أنه لا يقدرون {على شيءٍ من فضل الله} ولا يملكونه ، حتى يخصوا به مَن شاؤوا ، {و} ليعلموا أيضاً {أنَّ الفضلَ بيد الله} في ملكه وتصرفه ، {يُؤتيه من يشاء} من عباده {واللّهُ ذو الفضل العظيم} لا نهاية لفضله. وعلى أنَّ الخطاب لأهل الكتاب يكون قوله : {لئلا يعلم أهل الكتاب} أي : مَن لم يؤمن منهم ، فيكون راجعاً لمضمون الجملة الطلبية ، المتضمنة لمعنى الشرط ، أي : {يا أيها الذين آمنوا} بموسى وعيسى {اتقوا الله وآمنوا برسوله} فإن فعلتم ذلك {يُؤتكم كفلين من رحمته...} الخ ، وإنما جَعلتُ هذا لمَن آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا به أنهم لا يملكون من فضل الله شيئاً ، وأنَّ الفضل بيد الله... الخ.

(٣٣٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣١

الإشارة : تنسحب هذه الآية من طريق الإشارة على مَن كانت في أسلافه خصوصية ولاية ، أو صلاح ، أو شرف علم أو رئاسة مَّا ، ثم ظهرت التربية الحقيقية في غير أسلافه ، فإن حطّ رأسه وصَدّق بالخصوصية لغيره أعطي أجره مرتين ، وعظم قدره في مقام الولاية ، وإنما كانت تنتقل دولة الولاية ؛ ليعلم أهلُ الخصوصية المتقدمة أنّ الفضل بيد الله ، يُؤتيه مَن يشاء ، والله ذو الفضل العظيم. والله الموفق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلّى الله على سيدنا محمد ، وآله وصحبه ، وسلّم.

٣٣٢

(٣٣٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣١

سورة المجادلة

(٣٣٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢

يقول الحق جلّ جلاله : {قد سَمِعَ اللّهُ قولَ التي تُجادِلُك} وهي خولة ، {في زوجها} أوس ، أي : تُراجعك الكلام في شانه ، وفيما صدر منه صدر منه في حقها مِن الظِّهار ، أو تسألك وتستفيتك. وقال الكواشي : " قد سمع " أي : عَلِمَ وأجاب قولها ، أي : دعاءها. وفي " قد " هنا معنى التوقُّ ؛ لأنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرأة كانا يتوقعان أن يُنزل اللّهُ في مجادلتهما ما يفرج الله به عنهما. هـ. وقال الفخر : هذه الواقعة تدل على أنّ مَن انقطع رجاؤه من الخلق ، ولم يبقَ له في مُهمه أحدٌ إلاَّ الخالق ، كفاه الله ذلك المُهم. وقال القشيري : لمّا صدقت في شكواها إلى الله ، وأيِسَتْ مِن كشف ضُرِّها من غير الله ، أنزل الله

٣٣٣

في شأنها : {قد سمع الله...} ويقال : صارت قصتها فرجةً ورحمةً للمؤمنين إلى يوم القيامة ، في قضية الظهار ، ليعلم العالمون أنه لا يخسر على الله أحد. هـ.

ولمّا نزلت السورة بإثر الشكوى ، قالت عائشة رضي الله عنها : " ما أسمع الله " تعجُّباً من سرعة نزولها.

{وتشتكي إلى اللهِ} أي : تتضرع إليه ، وتُظهر ما بها من الكرب ، {واللهُ يسمع تحاوركما} مراجعتكما الكلام ، من : حاور إذا رجع. وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع ، حسب استمرار التحاور وتجدُّده ، وفي نظمها في سلك الخطاب تشريفٌ لها. والجملة استئناف ، جار مجرى التعليل لِمَا قبله ، فإنّ إلحافَها في المسألة ، ومبالغتها في التضرُّع إلى الله تعالى ، ومدافعته صلى الله عليه وسلم إياها ، منبئٌ عن التوقف وترقُّب الوحي ، وعلمه تعالى بحالهما من دواعي الإجابة ، أي : قد سمع قول المرأة وأجاب طلبتها ؛ لأنه يسمع تحاوركما. وقيل : هو حال ، وهو بعيد. {إنَّ الله سميع بصير} تعليل لِما قبله ، أي : مُبالغ في العلم بالمسموعات والمبصرات ، ومِن قضيته : أن يسمع تحاوركما ، ويرى ما يقارنه من الهيئات ، التي مِن جملتها : رفع رأسها إلى السماء ، وإثارة التضرُّع ، وإظهار الاسم الجليل في الموضعين لتربية المهابة ، وتعليل الحكم بوصف الألوهية ، وتأكيد الجملتين.

الإشارة : قد سمع الله قولَ الروح ، التي تُجادل في شأن القلب ؛ لأنه مقرها ومسكنها ، إن صلح

صلحت ، وإن فسد بحب الدنيا ومتابعة الهوى ، فسدت ، فهي تُجادل رسولَ الإلهام وتشتكي إلى الله من القلب الفاسد ، والله يسمع تحاورهما وتضرعَها إن صدقت في طلب الحق ، فيُجيب دعاءها ، ويُقيض لها طبيباً يُعالجه ، حتى ترجع لأصلها منه ، إنّ الله سميعٌ بصير.

(٣٤٠/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٣

يقول الحق جلّ جلاله : {وَالَّذِينَ يَظَّهَّرُونَ} وأصله : يتظهرون ، فأدمغت التاء في الظاء ، وقرأ عاصم : بضم الياء وتخفيف الظاء ، مضارع ظاهر ؛ لأنّ كل واحد يباعد

٣٣٢

صاحبه ، وقرأ ابن عامر والأخوان وأبو جعفر وخلف بفتح الياء وشد الظاء بالمد ، مضارع " تظاهر " ، والحاصل في فعل الظهار ثلاث لغات : ظاهر وتظاهر وتظهر ، مأخذة من الظهر ؛ لأنه يُشَبِّه امرأته بظهر أُمه ، ولا مفهوم للظهر ، بل كل جزء منها مثل الظهر. وفي قوله : {منكم} توبيخ للعرب ، لأنه كان من أيْمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم ، {مِن نسائهم} من زوجاتهم ، {ما هن أمهاتِهم} : خبر الموصول ، أي : ليسوا بأمهاتهم حقيقة ، فهو كذب محض ، {إِنْ أمهاتُهم} حقيقة {إِلاّ اللائي وَلَدنَهُمْ} مِن بطونهن ، فلا تشبّه بهن في الحرمة إلاّ مَن ألحقها الشرع بهن من المرضعات وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فيدخلن بذلك في حكم الأمهات ، وأما الزوجات فأبعد شيء من الأمومة. {وزُوراً} كذباً باطلاً ، منحرفاً عن الحق ، {وإنّ الله لعفوٌّ غفور} لما سلف منهم.

ثم ذَكَر الحُكم بعد بيان إنكاره ، فقال : {والذين يَظَّهرون مِن نسائهم ثم يعودون لِما قالوا} أي : والذين يقولون ذلك القول المُنكَر ، ثم يعودون إلى ما قالوا بالتدارك والتلافي ورفع التضرُّر ، أو : لِنقيض ما قالوا : قال ابن جزي : في معنى العود ستة أقوال : الأول : إيقاع الظِّهار في الإسلام ، فالمعنى أنهم كانوا يُظاهرون في الجاهلية ، فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عود إليه ، هذا قول ابن قتيبة ، فتجب الكفارة عنده بنفس الظَّهار ، بخلاف أقوال غيره ، فإنَّ الكفارة لا تجب إلاّ بالظهار والعود معاً. القول الثاني : إنّ العود هو وطء الزوجة ، رُوي ذلك عن مالك ، فلا تجب الكفارة على هذا حتى يطأ ، فإذا وطئها وجبت عليه الكفارة ، أمسك الزوجةَ أو طلّقها ، أو ماتت. الثالث : إنَّ العَوْد هو العزم على الوطء ، ورُوي هذا أيضاً عن مالك ، فإذا عزم على الوطء وجبت الكفارة ، أمسك ، أو طلَّق ، أو ماتت. الرابع : إن العود هو العزم على الوطء والإمساك ، وهذا أصح الروايات عن مالك. الخامس : إنه العزم على الإمساك خاصة ، وهذا مذهب الشافعي ، فإذا ظاهر ولم يُطَلِّقها بعد الظَّهار لزمته الكفارة. السادس : إنه تكرار الظهار مرة أخرى ، وهذا مذهب الظاهرية ، وهو ضعيف ، لأنهم لا يرون

الظَّهار موجباً حكماً في أول مرة ، وإنما يُوجبه في الثانية ، وإنما نزلت فيما ظاهر أول مرة ، فذلك يرد عليهم ، ويختلف معنى " لِما قالوه " باختلاف هذه الأقوال ، فالمعنى : يعودون للوطء الذي حرَّموه ، أو للعزم عليه ، أو للإمساك الذي تركوه ، أو للعزم عليه. هـ.

}

(٣٤١/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢

فتحريرُ رقبةٍ} أي : فتداركه ، أو فعليه ، أو فالواجب تحرير رقبة. واشترط مالك والشافعي أن تكون مؤمنة ، حملاً للمُطْلَق على المقيد ؛ لأنه قيّدها في القتل بالإيمان ، والفاء للسببية ، ومِن فوائدها : الدلالة على تكرُّر وجوب التحرير بتكرُّر الظهار. {مِن قبل أن يتماسا} أي : المظاهِر والمظاهَر منها ، ومذهب مالك والجمهور : أن المسّ هنا يُراد به الوطء ، وما دونه من اللمس والقُبلة ، فلا يجوز للمظاهِر أن يفعل شيئاً من ذلك حتى

٣٣٥

يُكفِّر ، فإن فعل شيئاً من ذلك تاب ولا يعود. وقال الحسن والثوري : أراد الوطء خاصة ، فأباحا ما دونه من قبل الكفارة. {ذلكم} الحُكم {تُوعظون به} لأنَّ الحُكم بالكفارة دليل على ارتكاب الجناية ، فيجب أن تتعظوا بهذا الحُكم حتى لا تعودوا إلى الظهار ، وتخافوا عقابَ الله عليه ، {واللهُ بما تعملون خبيرٌ} مُطَّلِع على ما ظهر مِن أعمالكم ، التي مِن جملتها الظاهر.

{فمن لم يجد} الرقبة {فصيامُ شهرين} أي : فعليه صيام شهرين {مُتتابعين مِن قبل أن يتماسا} فإنْ أفسده باختياره من أوله باتفاق ، وإن أفسده بعذر ، كمرض أو نسيان ، فقال مالك : يبني على ما كان معه ، في رواية عنه ، وقال أبو حنيفة : يبتدئ ، ورُوي القولان عن الشافعي. {فمَن لا يستطعْ} الصيام {فإطعام ستين مسكيناً} بمُدّ هشام على مذهب مالك. واختلف في قدره ، فقيل : إنه مدان غير ثلث بمُد النبي صلى الله عليه وسلم وقيل : إنه مُد وثلث ، وقيل : إنه مُدان ، وبه قال أبو حنيفة ، وقال الشافعي وابن القصار : يُطعم مُدّاً بمُد النبي صلى الله عليه وسلم لكل مسكين ، ولا يجزئه إلاّ كمالُ الستين ، فإنْ أطعم مسكيناً واحداً ستين يوماً لم يجزه عند مالك والشافعي ، خلافاً لأبي حنيفة ، وكذلك إن أطعم ثلاثين مرتين ، والطعام يكون من غالب قوت البلد.

وذكر الحق جلّ جلاله : {من قبل أن يتماسا} في العتق والصوم ، ولم يذكره في الإطعام ، فاختلف العلماءُ في ذلك ، فَحَمل مالك الإطعامَ على ما قبله ، ورأى أنه لا يكون إلاّ قبل المسيس ، وجعل ذلك مِن المُطْلَق الذي يُحمل على المقَيد. وقال ابو حنيفة : يجوز للمظاهِر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ

قبل الكفارة ؛ لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبل المسيس ، وقال الشافعي : يجب تقديمه على المسيس ، لكن لا يستانف إن مسّ في حال الإطعام. وجعل الأطعام. وجعل الحق جلّ جلاله كفارة الظهار مُرتّبة ، فلا ينتقل عن الأول حتى يعجز عنه ، ومثلها كفارة القتل والتمتُّع ، وقد نظم بعضهم أنواع الكفارات ، ما فيه الترتيب وما فيه التخيير ، فقال :

(٣٤٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢

خيِّرْ بصوم ثم صيد وأذى

وقل لكل خصلةٍ يا حبذا

ورتّب الظهار والتمتعا

والقتل ثم في اليمين اجتمعا

{ذلك لتؤمنوا} الإشارة إلى ما مرّ من البيان والتعليم للأحكام ، ومحله رفع أو نصب ، أي : ذلك واقع ، أو فصّلنا ذلك لتؤمنوا {بالله ورسولِه} وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم ، وترفُضوا ما كنتم عليه في جاهليتكم ، {وتلك} أي : الأحكام التي وصفنا في الظِهار والكفارة ، {حدودُ الله} التي لا يجوز تعدّيها ، {وللكافرين} أي : الذين لا يعملون بها {عذابٌ أليم} عبّر عنه بالكفر تغليظاً على طريق : {وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران : ٩٧].

٣٣٦

الإشارة : الذين يباعدون من أنفسهم ، فيُحرِّمون عليها التمتُّع بما أحلّ الله من الطيبات ، تضييقاً وتشديداً عليها ، مفْرطين في ذلك ، محتجين لذلك بأنهم كانوا في بطن الشهوات ، فقد ملكتهم ملك الأم لولدها ، قال تعالى : " ما هن أمهاتِهم إنْ أُمهاتهم إلاّ اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً " حيث حرّموا ما أحلّ الله ، والمراد بذلك الإفراط المؤدي إلى التلف. قال القشيري : لأنّ النفس مطية الروح ، فلا تسلك طريق السير إلاّ بها ، وهي مددها ومعونتها ، كما قال عليه السلام : " إنّ لنفسك عليك حقاً " فلا بد للروح من مسامحة النفس ومداراتها في بضع الأوقات ، لتميل النفس إلى تصرفها وحكمها فيها ، وإلاّ ضعفت وكَلَّت عن موافقتها ، فتنقطع الروح عن السلوك إلى الله.هـ.

قلت : وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " لا يكن أحدكم كالمنبت ، لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " {وإن الله لعفو غفور} لمَن وقع له شيء من هذا ورجع.

والذين يُظاهرون من نسائهم ، يُباعدون من أنفسهم ، ثم يعودون إلى الترفُّق بها والاستمتاع بما أحلّ الله لها ، فكفارته تحرير رقبةً مِن ملك الشهوة ، فلا يتناول شيئاً من المباحات الطيبة ، إلاّ بنية التقرُّب إلى

الله والشكر ، لا بنية مجرد الاستمتاع ، ولا يتناول من الشهوات التي شرهت إليها النفس ، وحرصت على تحصيلها قبل حصولها ، شيئاً قط ، فإن لم يقدر عليها على هذا النمط ، فعليه صيام شهرين أو أكثر ، مجاهدةً ورياضةً ، حتى تقف على حد الضرورة ، فإن لم يتسطع فإطعام ستين مسكيناً أو أكثر ، بكل ما يدخل عليه من الحظوظ. وقال القشيري : وإن لم يقدر على تحرير رقبته على هذا الارتباط ؛ فيجب على الروح أن تصوم شهرين متتابين ، يعني يمسك نفسَه عن الالتفات إلى الكونين على الدوام والاستمرار ، من غير تخلُّل التفات ، وإن لم يتمكن مِن قطع هذا الالتفات ، لبقية من بقايا أنانيته ، فيجب عليه إطعام ستين مسكيناً من مساكين القوى الروحانية ، المستهلك لسلطنة النفس وصفاتها ، ليقيمهم على التخلُّق بالأخلاق الإلهية ، والتحقق بالصفات الروحانية ، هـ. ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله الإيمان الكامل ، وتلك حدود الله لا يجوز تعدِّيها بالأهوية والبدع ، وللكافرين لهذه الحِكم عذاب البُعد ونار القطيعة ، المؤلم للروح والقلب ، بغم الحجاب وسوء الحساب.

(٣٤٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٢

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنَّ الذين يُحادون اللّهَ ورسولَه} أي : يُعادونهما ويُشاقونهما ؛ فإنَّ كُلاً من المتعادين في عدوةٍ وشِقٍّ غير الآخر ، وكذلك يكون كُلُّ واحدٍ منهما في حدّ غير حدّ الآخر ، غير أنَّ لذكر المُحادَّة هنا لمّا ذكر حدود الله مِن حسن الموقع ما لا غاية وراءه. ثم أخبر عنهم فقال : {كُبِتُوا} أي : أُخذوا وأُهلكوا ، أو : لُعنوا {كما كُبِتَ الذين من قبلهم} من كُفار الأمم الماضية المعادين للرسل عليهم السلام. وقال القشيري : يُحادّون : يُخالفون أمر الله ، ويتركون طاعة رسول الله ، أذِلُّوا وأُخْزوا كما أُذِلَّ مَنْ قبلهم من الكفار والعصاة. نزلت في المستهزئين يوم ا لخندق ، إذ الله أجرى سُنته بالانتقام من أهل الإجرام ، ومَن ضيَّعَ لرسول الله سُنةً واحدة في دينه ببدعة انخرط في سلك هذا الخزي ، ووقع في هذا الذُّل. هـ. وقال ابن عطية : الآية نزلت في المنافقين واليهود ، وكانوا يتربصون بالرسول والمؤمنين الدوائر ، ويتمنون فيهم المكروه ، ويتناجون بذلك. هـ.

{وقد أنزلنا آياتٍ بيناتٍ} : حال من ضمير " كُبتوا " أي : كُبتوا بمحادتهم ، والحال أنَّا قد أنزلنا آيات واضحات فيمن حاد الله ورسولَه ، ممن قبلهم من الأمم وفيما فعلنا بهم ، أو : آيات على صدق الرسول وصحة ما جاء به ، {وللكافرين} بهذه الآيات ، أو : بكل ما يجب الإيمان به ، فيدخل فيه تلك الآيات دخولاً أوليّاً ، {عذابٌ مهين} يذهب بعزِّهم وكِبْرهم.

واذكر {يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً} أو : لهم ذلك العذاب {يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً} أي : لا يترك أحداً منهم ، أو مجتمعين في حال واحد وصعيدٍ واحد ، {فيُنَبئهم بما عمِلوا} من القبائح ، تخجيلاً لهم ، وتشهيراً

لحالهم ، وتشديداً لعذابهم ، فيتمنون حينئذ المسارعة إلى النار ، لِما يلحقهم من الخزي على رؤوس الأشهاد ، {أحصاه اللهُ} أحاط به عدداً ، لم يفته منه شيء ، والجملة استئناف بياني ، كأنه قيل : كيف ينبئهم بما عملوا ، وهي أعراض مُنقضية متلاشية ، فقيل : {أحصاه اللهُ ونَسَوه} أي : قد نسوه لأنهم تهاونوا به حين ارتكبوه وإنما تحفظ معظّمات الأمور. وهو حال أيضاً. {واللهُ على كل شيءٍ شهيدٌ} لا يغيب عنه شيء. والجملة اعتراض تذييلي ، مقرِّرة لإحصائه تعالى.

(٣٤٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

ثم استشهد على شمول شهادته تعالى ، فقال : {ألم تَرَ أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض} فهو كقوله تعالى : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ} [البقرة : ٢٥٨] ، {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ} [الشعراء : ٢٢٥] أي : ألم تعلم علماً مزاحماً

٣٣٨

للمشاهدة أنَّ الله يعلم ما استقر في السماوات وما في الأرض من الموجودات ، {ما يكونُ من نجْوَى ثلاثةٍ} : استئناف مُقَرِّر لِما قبله مِن سعة علمه تعالى ، ومُبَيّن لكيفيته ، و " كان " تامة ، أي : ما يقع من تناجي ثلاثة نفر في مساررتهم {إلاَّ هو} أي : الله تعالى {رابعُهم} أي : جاعلهم أربعة من حيث إنه تعالى يُشاركهم في الاطلاع عليها ، {ولا خمسةٍ} أي : ولا نجوى خمسة {إلاّ هو سادسُهم ولا أدنَى} ولا أقل {من ذلك ولا أكثرَ إلاّ هو معهم} يعلم ما يتناجون به ، فلا يخفى عليهم ما هم فيه. وتخصيص العددين إما لخصوص الواقعة ، فإنّ الآية نزلت في المنافقين ، وكانوا يتناجون مغايظةً للمؤمنين على هذين العددين ، وقيل : المعنى : ما يتناجى منهم ثلاثة ولا خمسة ولا أدنى من عددهم ولا أكثر ، إلا والله معهم ، يسمع ما يقولون ، ولأنّ أهل التناجي في العادة طائفة من أهل الرأي والتجارب ، وأول عَدَدهم الاثنان فصاعداً ، إلى خمسة ، إلى ستة ، إلى ما اقتضته الحال ، فذكر عزَ وجل الثلاثة والخمسة ، وقال : {ولا أدنى من ذلك} فدلّ على الاثنين والأربعة ، وقال : {ولا أكثرَ} فدلّ على ما فوق هذا العدد. قاله النسفي.

{ثم يُنبِّئُهم} يُخبرهم {بما عَمِلوا} تفضيحاً وإظهاراً لِما يوجب عذابهم. {إنّ الله بكل شيء عليم} لأنَّ نسبة ذاته المقتضية للعلم إلى الكل سواء ، فلا يخلو منه زمان ولا مكان.

الإشارة : في الحديث : " مَن عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب " فمَن حادّ أولياءَ الله فقد حادّ الله ورسولَه ، فيُكبت كما كُبِتَ مَن قبله ممن اشتغل بإذايتهم ، وقد أنزلنا آيات واضحات على ثبوت الولاية في كل زمان ، قال تعالى : {مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا} [البقرة : ١٠٦] ،

وللكافرين الجاحدين لخصوصيتهم عذاب مهين ، وهو البُعد والطرد وغم الحجاب وسوء الحساب. يوم يبعثهم الله جميعاً ، أي : أهل الإنكار ، فيُنبئهم بما عملوا من الانتقاد والإذاية ، أحصاه اللّهُ ونسوه ، لأنهم يعتقدون أنهم في ذلك على صواب ؛ لجهلهم المُرَكَّب ، فإذا تناجوا في شأنهم بما يسؤوهم فيقال في حقهم : {ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلاّ هو رابعهم...} الآية. قال القشيري : {إنّ الذين يُحادون الله ورسولَه} ، يعني : يُحادون مظاهر الله ، وهم الأولياء المحققون ، العارفون القائمون بأسرار الحقائق ، ومظاهر رسول الله ، وهم العلماء العاملون ، القائمون بأحكام الشرائع ، كُبتوا : أُفحموا بالحُجج وإظهار البراهين من الكرامات الظاهرة ، وخرق العادات الباهرة ، أو نشر العلوم الشريعة ، ونشر الأحكام الفرعية ، وقد أنزلنا بصحة ولايتهم ، وقوة وراثتهم ، علامات ظاهرة ، ودلالات زاهرة ، من المشاهدات والمعاينات ، أو الحجج القاطعة

٣٣٩

والبراهين الساطعة ، ومن ستر أنوار ولايتهم ، وآثارَ وراثتهم ، بساتر إنكاره ، فله عذاب القطيعة والفضيحة مع إهانة من غير إبانة هـ. ببعض البيان.

(٣٤٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

قال الورتجبي : قوله تعالى : {إلا هو معهم} المعية بالعلم عموم ، وبالقرب خصوص ، والقرب بالعلم عموم ، وبظهور التجلِّي خصوص ، وذلك دنو {دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى} ، فإذا ارتفع الأين والبين والمكان والجهات ، واتصل أنوارُ كشوف الذات والصفات بالعارف ، فذلك حقيقة المعية ، إذ هو سبحانه مُنزّه عن الانفصال والاتصال بالحدث. ولو ترى أهل النجوى ، الذين مجالستهم لله وفي الله ، لترَى من وجوههم أنوار المعية ، أين أنت من العلم الظاهر ، الذي يدل على الرسوم. ألم تعلم أنَّ علمه تعالى أزلي ، وبالعلم يتجلّى للمعلومات ، فالصفات شاملة على الأفعال ، ظاهرة من مشاهد الملعومات ، فإذا كان الذرات لا تخلو من قرب الصفات ، كيف تخلو عن قرب الذات الأرواحُ العالية المقدّسة العاشقة المستغرقة في بحر وُجوده ، لا تظن في حقي أني جاهل بأنّ القديم لا يكون محل للحوادث ، فإنه حديث المُحدَثين ، أعبرْ من هذا البحر حتى لا تجد الحدثان ولا الإنسان في مشاهدة الرحمان هـ.

قلت : وحاصل كلامه : أنَّ المعيّة بالعلم تستلزم المعية بالذات ، إذا الصفة لا تفارق الموصوف ، وإنَّ بحر الذات اللطيف محيط بالكثيف منه من غير انفصال ، وأما كون القديم لا يكون محل الحوادث فصحيح ، لكن الحوادث عندنا فانية متلاشية ، إذ ما ثَمَّ إلا تلوينات الخمرة الأزلية ، وقد قال الجنيد :

" إذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم " ، فاعبُرْ عن عالَم الحس إلى بحر المعاني ، حتى لا تجد إلاَّ القديم الأزلي ، فافهم وسلِّم.

إن لم ترَ الهلالَ فسَلِّم

لأناس رأوه بالأبصار

(٣٤٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٣٧

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَ إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لنما نُهوا عنه} نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنين ، يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فعادوا لمثل فعلهم. والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم. والهمزة للتعجيب مِن حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على تكرير عودهم وتجدُّده ، واستحضار صورته العجيبة. وفي السِّيَر : أنه أمر بإخراجهم من المسجد ،

٣٤٠

فأُخرجوا مجرورين ، كما في الاكتفاء. {ويتناجون بالإثم والعُدوان} أي : بما هو إثم في نفسه وعدوان للمؤمنين ، {ومعصيتِ الرسول} أي : وتواصٍ بمعصية الرسول. وذكره صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهيْن إليه عليه السّلام لزيادة تشنُّعهم واستعظام معصيتهم ، {وإذا جاؤوا حَيَّوكَ} أي : سلَّموا عليك {بما لم يُحَيِّك به اللهُ} بما لا يُسلم عليك الله تعالى ، فكانوا يقولون في تحيتهم : السام عليك يا محمد. والسام : الموت ، والله تعالى يقول في سلامه على رسوله : {وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى} [النمل : ٢٩] {وَسَلاَمٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} [الصفات : ١٨١]. {ويقولون في أنفسِهم} أي : فيما بينهم ، أو في ضمائرهم ، {لولا يُعذبُنا اللّهُ بما نقول} هلاّ يُعذبنا الله بذلك ، فلو كان نبيّاً لعاقبنا بالهلاك ، قال تعالى : {حَسْبُهم} عذاباً {جهنمُ يصلونها} يدخلونها فيحترقون فيها ، {فبئس المصيرُ} المرجع جهنم.

الإشارة : ألم ترَ إلى الذين نُهوا عن الوقوع في أهل الخصوصية ، والتناجي بما يسؤوهم ثم يعودون لما نُهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ، وما فيه فساد البين وتشتيت القلوب ، ومعصية الرسول بمخالفة سنته ، وإذا جاؤوك أيها العارف ، الخليفة للرسول ، حيَّوك بما لم يُحيك به الله ، أي : خاطبوك بما لم يأمر الله أن تُخاطَب به من التعظيم ، ويقولون في أنفسهم ، لولا يُعذبنا الله بن نفعل من تصغيرهم ، حسبهم نار القطيعة والبُعد ، مُخلّدون فيها ، فبئس المصير.

(٣٤٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٠

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم} في أنديتكم وفي خلواتكم {فلا تتناجَوا بالإثم والعدوانِ ومعصيتِ الرسول} كفعل هؤلاء المنافقين ، {وتناجَوا بالبِرِّ والتقوى} أي : بما تضمن خير المؤمنين ، والاتقاء عن معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو : بأداء الفرائض وترك المعاصي ، {واتقوا اللهّ الذي إليه تحشرون} فيُجازيكم بما تتناجون به من خير أو شر ، {إنما النجوى} المعهودة التي هي التناجي بالإثم والعدوان ، {من الشيطان} لا من غيره ، فإنه المزيِّن لها والحامل عليها {لِيَحْزُنَ} بها {الذين آمنوا} بتوهيمه أنها في نكبةٍ أصابتهم ، أو أصابت إخوانهم ، او في الاشتغال بثلْمهم وتنقيصهم. ولهذا نهى الشارع أن يتناجى اثنان دون الثالث ، لئلا يتوهم أنهم يتكلمون فهي. قال تعالى {وليس بضارَّهم} أن يتناجى اثنان دون الثالث ، لئلا يتوهم أنهم يتكلمون فهي. قال تعالى {وليس بضارِّهم} أي : وليس الشيطان أو الحزن بضارهم {شيئاً} من الأشياء ، أو شيئاً من الضرر {إلاّ بإذن الله} بمشيئته ، {وعلى الله فلتوكل المؤمنون} فلا تُبالوا بنجواهم ، فإنَّ الله تعالى يعصمهم

٣٤١

من شره وضرره ، فيلكلوا أمرَهم إلى الله ، ويتعوّذوا من شر الشيطان ، فإنَّ كيده ضعيف.

قال القشيري : إنما قَبُحَ التناجي منهم ، وعَظُمَ خطره ؛ لأنه تضمَّن فسادَ ذات البيْن ، وخيرُ الأمور ما عاد بإصلاح ذات البيْن ، وبعكسه يكون الأمر بالضد ، يعني : فيعظم خطر التناجي بالبر والتقوى ، وبما يقرب إلى الله. ثم قال : إذا كانت المشاهدة غالبةً ، والقلوب حاضرةً ، والتوكل صحيحاً ، والنظرُ في موضعه صائباً ، فلا تأثير لهذه الحالات ، أي : لحزن الشيطان وتوهيمه وإضراره ، وإنما هذا للضعفاء. هـ.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم مع قلوبكم وأسراركم فلا تتناجوا بالإثم ، وهو تدبير أمر الدنيا وشؤونها ، بل غيبوا عنها يأتيكم نصيبكم منها ، مع الفوز بالحضور مع الله ، ولا تتناجوا بالعدوان ، وهو شغل القلب بأمر الخلق ، دفعاً وجلباً ، ضرّاً ونفعاً ، إذ ليس بيدهم شيء ، ومعصية الرسول ، وهو إضمار ترك السُنة ، أو مخالفة أمر المشايخ ، وتَناجَوا بالبر ، وهو الفكرة في عظمة الله ، والتقوى ، وهو الغيبة عما سوى الله بِحَصر القلب عن الخروج من الحضرة ، واتقوا الله بترك ما سواه ، الذي إليه تُحشرون فيُدخلكم في مقعد صدق عند مليك مقتدر. إنما النجوى ، أي : الفكرة في الدنيا ، من الشيطان ؛ لأنّ له بيتاً في القلب لجهة الشمال ، إذا ذكر الله انخنس ، وإذا غفل القلب وسوس بهموم الدنيا ، ليَحْزُن الذين آمنوا ؛ ليكدر عليهم وقتهم ، وليس بضارِّهم شيئاً إذا قَوِيَ نور الإيمان إلاّ بإذن الله ومشيئته ، فلا تسليط له من نفسه. وليس بضارِّهم شيئاً إذا قَوِيَ نور الإيمان إلاّ بإذن الله ومشيئته ، فلا تسليط له من نفسه. وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، فإذا صحّ توكلهم حَفِظَهم منه ، لقوله تعالى :

{إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} [النحل : ٩٩] ، وقد تقدّم عن القشيري : أنّ الأقوياء لا يلحقهم شيء من حزنه وإضراره. وبالله التوفيق.

(٣٤٨/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤١

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذينَ آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجلس} [المجادلة : ١١] أي : توسَعوا فيه ، وقيل : " في المجلس " متعلق بقيل ، أي : إذا قيل لكم في المجلس تفسّحوا فافسحوا ، والمراد : مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانوا يتضامُّون فيه تنافساً فيه صلى الله عليه وسلم وحرصاً على استماع كلامه. وقرأ عاصم " مجالس " أي : في مجالس الرسول التي تجلسونها. وقيل : المراد : مجالس القتال ، وهي مراكز الغزاة ، كقوله تعالى : {مَقَاعِدَ

٣٤٢

لِلْقِتَالِ} [آل عمران : ١٢١] قيل : كان الرجل يأتي الصف ، فيقول : تفَفسَّحوا ، فيأبَوا ، لحرصهم. والأول أنسب بذكر النجوى أولاً وثانياً. فإن امتثلتم وتفسحتم {يَفْسَحِ اللهُ لكم} في كل ما تريدون التفسُّح فيه ، من الرزق ، والدار ، والصدر ، والقبر ، والجنة ، والعلم ، والمعرفة. {وإذا قيل انشُزُوا} أي : ارتفعوا من مجلسه ، وانهضوا للصلاة ، أو الجهاد ، أو غيرهما من أعمال البر ، أو : انشزوا للتوسعة في المجلس على المقبِلين ، {فانشُزُوا} أي : فانهضوا ولا تُبطِئوا ، وقيل : كانوا يُطيلون الجلوس معه صلى الله عليه وسلم وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام ، فأُمروا بالقيام وعدم التثقيل. وفي مضارع " نشز " لغتان الضم والكسر ، والأمر تابع له.

{يَرْفَعِ اللّهُ الذين آمنوا منكم} بامتثال أوامره وأَمْرِ رسوله ، بالنصر وحسن الذكر في الدنيا ، والإيواء إلى غرف الجنان في الآخرة. {و} يرفع {الذين أُوتوا العلمَ} خصوصاً {درجاتٍ} عالية ، بما جمعوا من أثريْ العلم والعمل ، فإنّ العلم مع علو رتبته يزيد مع العمل رفعةً لا يُدرك شأوها ، بخلاف العلم العاري عن العمل ، وإن كان له شرف في الجملة ، ولذلك يُقتدى بالعالِم في أفعاله فقط. وفي هذه الدرجات قولان ، أحدهما : في الدنيا ، في الرتبة والشرف والتعظيم ، والآخر : في الآخرة ، وهو أرجح. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : " يرفع العالم فوق المؤمن سبعمائة درجة ، بين كل درجة كما بين السماء والأرض " ، ومثل هذا لا يُقال بالرأي. وتقدير الآية : يرفع الله الذي آمنوا منكم درجةً ، والذين أُوتوا العلم درجات ، وقيل : " درجات " يرجع لهما معاً ، وتفضيل أهل العلم يؤخذ من خارج.

(٣٤٩/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، أنه كان إذا قرأها قال : " يا أيها الناي افهموا هذه الآية ، ولترغبكم في العلم ". وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدرعلى سائر الكواكب " ، وعنه صلى الله عليه وسلم : " عبادة العالم يوماً واحداً تعدل عبادة العابد أربعين سنة " يعني الجاهل ، وعنه صلى الله عليه وسلم : " يشفعُ يومَ القيامة ثلاثةٌ : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء " ، فأَعْظِم بمرتبةٍ هي واسطة بين النبوة والشهادة ، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويشمل الحديث العلماء بالله وبأحكام الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : خُيّر سليمان عليه السلام بين العلم والمال والمُلك ، فاختارا العلم ، فأعطى المالَ والمُلكَ معه. وقال صلى الله عليه وسلم : " أوحى اللّهُ إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني عليم ، أُحب كل عليم

٣٤٣

" وعن بعض الحكماء : ليت شعري أيّ شيءٍ أدرك مَن فاته العلم ؟ وأيّ شيءٍ فات مَن أدرك العلم ؟ والعلوم أنواع ، وشرفها باعتبار المعلوم ، فأفضل العلوم : العلم بالذات العلية ، على نعت الكشف والعيان ، ثم العلم بالصفات والأسماء ، ثم العلم بالأحكام ، ثم العلم بالآلات الموصلة إليه.

{واللّهُ بما تعملون خبير} تهديد لمَن لم يمتثل الأمر. والله تعالى أعلم.

الإشارة : ما قيل في مجلس العِلم يُقال في مجلس الوعظ ، بل هو عينه ؛ لأنه العلم النافع ، فإذا قَدِمَ واحدٌ من الفقراء أو غيرهم لمجلس الشيخ ، فوجد فُرجة جلس فيها ، وإلاّ جلس خلف الحلقة ، ولو مع النعال ، فلا يُزاحم ولا يُقم أحداً ليجلس ، إلاّ أن يأمره الشيخ بالتقدُّم لمنفعة فيه في إعانة الشيخ ، فليتقدّم برفق ولطافة وأدب. وإذا قيل لأهل المجلس : تفسَّحوا فليتفسَّحوا ، يفسح الله لهم في العلم والعرفان ، والأخلاق والوجدان ، والمقامات ، وسائر ما يطلب التوسُّع فيه. وإذا قيل : انشُزُوا لصلاة أو خدمة أو ملاقاة ، فانشُزُوا ، يرفع الله الذين آمنوا منكم ، وليس فيهم أهلية لصريح المعرفة درجةً عن العامة ، حيث صَحِبُوا العارفين للتبرُّك والحُرمة. ويرفع الذين أُتوا العلم بالذات ، على سبيل الكشف والعيان ، درجات ، سبعمائة درجة ، على العالم صاحب الدليل والبرهان ، فيرفع العالِم فوق الجاهل سبعمائة درجة ، ويرفع العارف فوق العالِم سبعمائة. فالناس أربع طبقات : الطبعة العيا الأولياء والعارفون بالله ، ثم العلماء ، ثم الصالحون ، ثم عامة المؤمنين. والمراد بالأولياء مَن منَّ اللّهُ عليه بملاقاة شيخ التربية ، حتى دخل مقام الفناء والبقاء ، زاح عنه حجاب الكائنات ، وأفضى إلى شهود المكوِّن ، فهؤلاء هم المقرَّبون الصدِّيقون ، والمراد بالعلماء العاملون المخلِصون.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

قال في " لطائف المنن " : وحيثما وقع العِلم في كتاب الله عزّ وجل ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما المراد به النافع ، المخمِد للهوى ، القامع للنفس ، الذي تكتنفه الخشية ، وتكون معه الإنابة ، قال الله تعالى : {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُاْ} [فاطر : ٢٨] ، فلم يجعل عِلم مَن لم يخشَ من العلماء علماً ، فشاهد العلم الذي هو مطلوب الله : الخشية ، وشاهد الخشية : موافقة الأمر ، وأمّا عِلم مَن يكوم معه الرغبة في الدنيا ، والتملُّق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع والإدخار ، والمباهاة والاستكثار ، وطول الأمل ونسيان الآخرة ، فما أبعد مَن هذا وصفه من أن يكون من ورثة الأنبياء عليهم السلام ، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلاّ بالصفة التي كان بها عند الموروث ، ومثَلُ من هذه الأوصاف وصفُه كمَثَل الشمعة تُشيء على غيرها وهي تحرق نفسها ، جعل الله عِلمَ مَن هذا وصفه حجة عليه ، وسبباً في تكثير العقوبة لديه ، ولا يغرنك أن يكون به انتفاع للبادي والحاضر ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله يؤيدُ هذا الدين بالرجل الفاجر " ، ومثَلُ مَن

٣٤٤

تعلّم العلم لاكتساب الدنيا ، وتحصيل الرفعة بها ، كمثل مَن رفع العذرة بملعقة من ياقوت ، فما أشرف الوسيلة ، وما أخس المتوسل إليه! ومثَلُ مَن قطع الأوقات في طلب العلم ، فمكث أربعين سنة يتعلّم العلم ولا يعمل به ، كمثل مَن قعد هذه المدة يتطهّر ويُجدد الطهارة ، ولم يُصلِّ صلاةً واحدة ، إذ مقصود العلم العمل ، كما أنَّ المقصود بالطهارة وجود الصلاة ، ولقد سأل رجلٌ الحسنَ البصري عن مسألة ، فأفتاه فيها ، فقال الرجل للحسن : قد خالفك الفقهاءُ ، فزجره الحسن ، وقال : ويحك ، وهل رأيت فقيهاً ، إنما الفقيه مَن فقه عن الله أمْرَه ونهيه. وسمعتُ شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول : الفقيه مَن انفقأ الحجاب عن عينيْ قلبه ، فشاهد ملكوت ربه. انتهى كلامه.

فالعلماء المخلِصون الذين عرفوا الله من طريق البرهان ، تلي درجتهم درجةَ الأولياء الذين هم أهل الشهود والعيان ، ثم الصالحون الأبرار ، ثم عامة المؤمنين ، ومَن قال خلاف هذا فهو جاهل بمرتبة الولاية ، قال صلى الله عليه وسلم : " عامة أهل الجنة البُله " وعِلِّيُون لذوي الألباب ، وذووا الألباب هم أهل البصائر ، الذين فتح الله بصيرتَهم ، وتطهّرت سريرتهم بالمجاهدة والرياضة ، حتى شاهدوا الحق وعرفوه ، وقال تعالى : {فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَائِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَائِكَ هُمْ أُوْلُو الأَلْبَابِ} [الزمر : ١٧ ، ١٨] ، وراجع ما تقدّم في تفسيرها ، وكل مَن كان محجوباً عن الله ، يتسدل بغيره عليه ، فهو من البُله ، إلاّ أنّ صاحب الاستدلال أربع من المقلِّد ، أي : سَلِمَ من الوسواس ، وإلاّ فالمقلِّد أحسن منه.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

ولمّا تكلم في الإحياء على درجات التوحيد ، قال : " والدرجة العليا في ذلك للأنبياء ، ثم للأوياء العارفين ، ثم للعلماء الراسخين ، ثم الصالحين " ، فقدَّم الأولياء على العلماء. وقال الأستاذ القشيري في أول رسالته : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضَّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه. هـ. سُئل ابن رشد – رحمه الله – عن قول الغزالي والقشيري بتفضيل الأولياء على العلماء ، فقال : أمّا تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الله ؛ فقول الأستاذ أبي حامد متفق عليه ، ولا يشك عاقل أنّ العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال أفضل من العارفين بالأحكام ، بل العارفون بالله أفضل من أهل الأصول والفروع ؛ لأنّ العلم يشرف بشرف المعلوم. ثم أطال الكلام في الاستدلال على ذلك ، فانظر. ذكره في المعيار.

وقال بعضهم في تفضيل العارف على العالِم : إنّ العارف فوق ما يقول ، والعالِم دون ما يقول ، يعني : أن العارف إذا تكلم في مقام من مقامات اليقين ، كان قَدَمُه فوق ما

٣٤٥

وصف ، لأنه يسلكه دوماً ثم يصفه ، والعالم إنما يصفه بالنعت ، وأيضاً : العالِم يدلك على العمل ، والعارف يُخرجك عن شهود العمل ، العالِم يحملك حِمل التكليف ، والعارف يروحك بشهود التعريف ، العالِم يَدُلك على علم الرسوم ، والعارف يُعرّفك بذات الحي القيوم ، العالِمَ يَدُلك على الأسباب ، والعارف يدلك على مُسبِّب الأسباب ، العالِم يَدُلك على شهود الوسائط ، والعارف يَدُلك على محرك الوسائط ، العالِم يُحذّرك من الوقوف مع الأغيار ، والعارف يُحذّرك من الوقوف مع الأنوار ، ويزج بك في حضرة الأسرار ، العالِم يُحذّرك من الشرك الجلي ، والعارف يُخلِّصك من الشرك الخفي ، إلى غير من الفروقات بين العارف والعالم. ومن اصطلاحات الصوفية ، أنَّ العالِم بالأحكام يسمى عالماً ، والعالِم بالذات عياناً وكشفاً يسمى عارفاً ، كما في القوت. وبالله التوفيق.

(٣٥٢/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٢

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسولَ} أي : إذا أردتم مناجاته في بعض شؤونكم المهمة ، {فقدِّموا بين يدي نجواكم} أي : قبل نجواكم {صدقة} وهي استعارة ممن له يدان ، كقول عمر رضي الله عنه : " من أفضل ما أوتيت العرب الشِعر ، يقدّمه الرجل أما حاجته ، فيستمطر به الكريم ، ويستنزل به اللئيم " يريد : قبل حاجته. وفي هذا الأمر تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وانتفاع الفقراء ، والزجر عن الإفراط في مناجاته وسؤاله عليه الصلاة والسلام ، والتمييز بين المخلِص

والمنافق ، وبين مُحب الآخرة ومُحب الدنيا ، وهل الأمر للندب ، أو للوجوب لكنه نسخ بقوله : {أأشفقتم..} الخ ؟ وعن عليّ رضي الله عنه : " إنَّ في كتاب الله آية ما عمل بها أحدٌ غيري ، كان لي دينار فصرّفته فكنت إذا ناجيته صلى الله عليه وسلم تصدّقت به ". وقال أيضاً : " أنا كنت سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين " ، قال رضي الله عنه : فَهِم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أنّ هذه العبادة قد شقّت على الناس ، فقال : " يا عليّ كم ترى حدّ هذه الصدقة ؟ أتراه ديناراً ؟ " قلت : لا ، قال : " فنصف دينار " ؟ قلت : لا ، قال : " فكم " ؟ قلت : حبة من شعير ، قال : " إنك لزهيد " فأنزل الله الرخصة ". قال الفخر : قوله صلى الله عليه وسلم لعليّ : " إنك لزهيد " معناه : إنك قليل المال ،

٣٤٦

فقدّرتَ على حسب حالك. وفي رواية : " شعيرة من ذهب " ، فقال : إنك لزهيد " ، أي : مُصغِّر مقلِّل للدنيا. قاله في القوت.

{ذلك} التقديم للصدقة {خير لكم} في دينكم {وأطهرُ} لنفوسكم من رذيلة البُخل ، ولأنَّ الصدقة طُهرة. {فإن لم تجدوا} ما تتصدقون به {فإنَّ الله غفور رحيم} في ترخيص المناجاة من غير صدقة. قيل : كان ذلك عشر ليال ، ثم نُسِخَ ، وقيل : ما كان إلاَّ ساعة من نهار. وعن عليّ – كرّم الله وجهه – أنه قال : سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن عشر مسائل ، فأجابني عنها ، ثم نزل نسخ الصدقة ، قلت : يا رسول الله ؛ ما الوفاء ؟ قال : " التوحيد وشهادة أن لا إله إلاّ الله " قلت : وما الفساد ؟ قال : " الكفر والشرك بالله " قلت : وما الحق ؟ قال : " الإسلام ، والقرآن والولاية إذا انتهات إليك " قلت : وما الحيلة ؟ قال : " ترك الحيلة " ، قلت : وما عَلَيَّ ؟ قال : " طاعة الله وطاعة رسوله " ، قلت : وكيف أدعو الله تعالى ؟ قال : " بالصدق واليقين " قلت : وماذا سأل الله ؟ قال : " العافية " قلت : وما أصنع لنجاة نفسي ؟ قال : " كلْ حلالاً ، وقل صدقاً " قلت : وما السرور ؟ قال : " الجنة " قلت : وما الراحة ؟ قال : " لقاء الله " فلما فرغت منها نزل نسخ الصدقة.

}

(٣٥٣/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٦

أأشفقتم أن تُقَدِّموا بين يَدَيْ نجواكم صدقاتٍ} أي : أَخِفْتُم الفقرَ مِن تقديم الصدقات ، أو : أَخِفْتُم من هذا الأمر لِما فيه من الإنفاق الذي تكرهه النفوس ، {فإذ لم تفعلوا} ما أُمرتم به وشقّ عليكم ، {وتاب اللهُ عليكم} أي : خفّف عنكم ، وأزال عنكم المؤاخذة بترك تقديم الصدقة على المناجاة ، كما أزال

المؤاخذة بالذنب عن التائب عنه ، {فأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاة} أي : فإذا فرَّطتم فيما أُمرتم به من تقديم الصدقات ، فتداركوه بالمثابرة على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، {وأطيعوا اللهَ ورسولَه} في سائر الأوامر ، فإنَّ القيام بها كالجابر لِما وقع في ذلك من التفريط ، {واللهُ خبير بما تعملون} ظاهراً وباطناً ، وهو وعدٌ ووعيد.

الإشارة : إذا أردتم مناجاة المشايخ في زيارتكم ، فقدِّموا بين يدي نجواكم صدقة ، تُدفع للشيخ ، أو لأهل داره ، فإنها مفتاح لفيض المواهب ، مثالها كالدلو ، لا يمكن رفع الماء إلاَّ به ، ذلك خير لكم ، وأطهر لقلوبكم من رذيلة من البخل ، فإن لم تجدوا شيئاً فإن الله غفور رحيم. أأشفقتم أن تُقدِّموا بين يدي نجواكم صدقات ؛ لِثَقَلِ ذلك على النفس ؟ فإذ لم تفعلوا وزُرتم بلا صدقة ، وقد تاب الله عليكم من هذا التفريط ، فأقيموا صلاة القلوب ، وهو التعظيم ، ودوام العكوف في حضرة علاّم الغيوب ، وآتوا زكاة أبدانكم ، بإجهادها في خدمة المشايخ والإخوان ، وأطيعوا الله ورسوله وخلفاءه فيما يأمرونكم به وينهونكم عنه ، {والله خبير بما تعملون}.

٣٤٧

(٣٥٤/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٦

يقول الحق جلّ جلاله : {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِين تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم} وهم اليهود ، لقوله : {مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ} [المائدة : ٦٠]. والغضب في حقه تعالى : إرادة الانتقام. كان المنافقون يتولّون اليهود ، وينقلون إليهم أسرار المؤمنين ، ففضحهم الله. ثم قال تعالى : {ما هم منكم} يا معشر المسلمين {ولا منهم} أي : من اليهود ، بل كانوا {مُّذبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لآَ إِلَى هَؤُلآَءِ إِلَى هَؤُلآَءِ} [النساء : ١٤٣]. {ويحلفون على الكذب} أي : يقولون : والله إنّ لمسلمون لا منافقون ، {وهم يعلمون} أنهم كاذبون منافقون ، {أعدَّ اللهُ لهم عذاباً شديداً} نوعاً من العذاب متفاقماً ، {إنهم ساء ما كانوا يعملون} فيما مضى من الزمان ، كانوا مُصرِّين على سوء العمل ، وتمرّنوا عليه ، أو : هي حكاية ما يقال لهم في الآخرة.

{اتخَذُوا أيمانهم} الكاذبة {جُنَّةً} وقايةً دون أموالهم ودمائهم ، {فصَدُّوا} الناسَ في خلال أمنهم وسلامتهم ، أو : فصدُّوا بأنفسهم {عن سبيل الله} عن طاعته والإيمان به ، {فلهم عذابٌ مُهين} يُهينهم ويُخزيهم ، وأعدّ لهم العذاب المخزي لكفرهم وصدهم ، كقوله : {الَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ} [النحل : ٨٨]. {لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله} من عذاب الله {شيئاً} قليلاً من الإغناء ، أي : ما يخافون عليه من الأموال والأولاد فيحلفون لأجله ، لا ينفعهم

عند الله. رُوي أنَّ رجلاً منهم قال : لنُنصرنّ يوم القيامة بأموالنا وأنفسنا وأولادنا. فنزلت. {أولئك} الموصوفون بما ذكر من القبائح {أصحابُ النار} ملازموها {هم فيها خالدون}.
}

(٣٥٥/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٨
يومَ يبعثهم اللهُ جميعاً فيحلِفون له} أي : لله تعالى في الآخرة أنهم كانوا مُخلِصين غير منافقين ، {كما يحلفون لكم} في الدنيا على ذلك ، {ويَحْسَبون أنهم} في الدنيا {على شيءٍ} من النفع ، أو : يحسبون في الآخرة أنهم على شيءٍ من النفع ، مِن جلب منفعة أو دفع مضرة ، كما كانوا في الدنيا ، حيث كانوا يدفعون بها عن أزواجهم وأموالهم ، {ألا إنهم هم الكاذبون} البالغون في الكذب إلى غايةٍ لا مطمح وراءها ، حيث تجاسروا على الكذب بين يدي علاّم الغيوب.
{استحوذَ عليهم الشيطانُ} استولى عليهم ومَلَكَهم ، {فأنساهم ذكرَ الله} بحيث لم
٣٤٨
يذكروه بقلوبهم ولا بألسنتهم ، {أولئك حزبُ الشيطان} أي : جنوده وأتباعه ، {ألا إنّ حزبَ الشيطان هم الخاسرون} أي : الموصوفون بالخسران الذي لا غاية وراءه ، حيث فوّتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، وأخذوا بدله العذاب الأليم ، وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق ، وإظهار الشيطان معاً في موضع الإضمارِ ، وتوسيط ضمير الفصل ، من فنون التأكيد ما لا يخفى.
الإشارة : منافقون الصوفية هم الذين يُقرُّون أهلَ الظاهر وينصرونهم ، ويُنكرون على أهل الباطن ، فإذا لقوهم أظهروا لهم المودّة والوفاق ، وادَّعوا أنهم منهم ، فهم مذبذبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ليسوا من أهل الظاهر المحض ، ولا من أهل الباطن ، لعدم تحققهم به ، تجر الآية ذيلَها عليهم. والعذاب المعدّ لهم غم الحجاب ، وتخلُّفهم عن درجات المقربين. قوله تعالى : {اتخذوا أَيمانهم جُنة} قال القشيري : مَن استتر بحُجة طاعته لأجل دنياه ؛ انكشف لسهام التقدير من حيث لا يشعر ، ثم لا دينُه يبقى ، ولا دنياه تَسْلَم. قال تعالى : {لن تُغني عنهم أموالُهم ولا أولادهم من الله شيئاً} الآية. هـ. يوم يبعثهم الله جميعاً فيتحاشون إلى المقربين ، ويحلفون بلسان حالهم : أنهم كانوا منهم ، كما يحلفون اليوم ، ويظنون أنهم من أهل الباطن ، ويحسبون أنهم على شيء ، فيبدوا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وذلك لعدم صُحبتهم للعارفين المخلِصين ، حصل لهم الغلظ ، فوقفوا مع حُسبانهم الضال ، ولو دامت صُحبتُهم لأهل التوحيد الخاص لتنبّهوا لغلطهم. استحوذ عليهم الشيطانُ ، فزيّن لهم الوقوفَ مع ما هم فيه ، فأنساهم ذكرَ العيان ، فكانوا من حزب الشيطان في الجملة ،

بالنسبة إلى مَن فوقهم. قال شاة الكرماني : علامة استحواذ الشيطان على العبد : أن يشغله بعمارة ظاهره ، من المأكل والملبس ، ويشغل قلبه عن التفكُّر في آلاء الله ونعمائه ، والقيام بشكرها ، ويشغل لسانه عن ذكر ربه ، بالكذب والغيبة والبهتان ، ويشغل قلبه عن التفكُّر والمراقبة بتدبير الدنيا وجمعها. هـ.

(٣٥٦/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٨

يقول الحق جلّ جلاله : {إِنّ الذين يُحادون اللهَ ورسولَه} أي : يخالفونهما ، ويجعلون بينهم وبينهما حدّاً ، وهم حزب الشيطان المتقدم ، {أولئك في} جملة {الأذَلِّينَ} لا ترى أحداً أذلّ منهم من الأولين والآخرين ؛ لأنّ ذِلة أحد المتخاصمين على قدر عزة الآخر ، وحيث كانت عزة الله غير متناهية كانت ذلة مَن يُحاده كذلك. {كتب اللهُ} في اللوح وقضاه ، وحيث جرى مجرى القسم أجيب بما يُجاب به ، فقال : {لأغْلِبنَّ أنا ورسلي} بالحجة والسيف ، أو بأحدهما ، وهو تعليل لِما قبله من كون مَن حاد الله في

٣٤٩

الأَذلِّين. {إِنَّ الله قويٌّ} على نُصرة أوليائه ، {عزيزٌ} لا يمتنع عليه ما يريد.

الإشارة : كل مَن يُعادي أهلَ الله مخذول ، عاقبته الذل في الدنيا والآخرة ، {كتب الله لأغْلِبَنَّ أنا ورسلي} وخلفاؤهم من أولئك ، {وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ} [الحج : ٤٠] ، إلاَّ مَن تعدّى منهم طورَه ، كمَن تعرّض للظهور ، وهو من أهل الباطن ، فإنَّ القدرة تخدمه وتؤدبه ؛ لأنّ الباطن لا ينقلب ظاهراً ، ولا عكسه. والله تعالى أعلم.

٣٥٠

(٣٥٧/٧)

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٣٤٩

(٣٥٨/٧)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣

سورة الحشر

يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض} أي : نزّهه أهلُ السماوات السبع ، وأهلُ الأرضين السبع. وكرر الموصول هنا لزيادة التقرير ، والتنبيه على استقلال كل مِن الفريقين بالتسبيح. قال الكواشي : فيه إيماء إلى قدرة الله تعالى ، وأنه أهل لأن يُسبَّح لمنِّه على المؤمنين بنصرهم على أعدائهم ، {وهو العزيزُ الحكيم} ، قال ابن عطية : صفتان مناسبتان لِمَا يأتي بعدُ ، من قصة العدو الذي أخرجهم مِن ديارهم. هـ.

رُويَ أنَّ هذه السورة بأسرها نزلت في بني النضير ، وهو رهط من اليهود ، من ذرية هارون عليه السلام ، نزلوا المدينة في فتن بني إسرائيل لبعثته صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هم بقية الحبْرِين اللذين كانا مع تُبع ، فنزلا المدينة انتظاراً له صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين قَدِمَ المدينة صالحهم على ألاّ يكونوا عليه ولا له ، فلما ظَهَرَ يوم بدر ، قالوا : هو النبيّ الذي نعْتُه في التوراة : لا تُردُّ له رايةٌ ، فلما كان يوم أُحُد ما كان ، ارتابوا ونكثوا ، فخرج

٣

كعبُ بن الأشرف في أربعين راكباً ، فحالف أبا سفيان عند الكعبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر عليه السلام محمدَ بن مسلمة الأنصاري في فتية ، فقتل كعباً غيلة ، وكان أخاه من الرضاعة ، وقد كان عليه السلام اطلع منهم على خائنةٍ ونقض عهدٍ ، حين أتاهم ومعه أبو بكر وعمر وعليّ ، ليستعينهم في دية الرجلين اللذَين قتلهما عَمرو بنُ أمية الضمري ، غلطاً ، فأجابوه على ذلك ، وأجلسوه تحت الحِصن ، وأمروا رجلاً منهم أن يطرح على النبي صلى الله عليه وسلم رَحىً ، فنزل جبريلُ فأخذ بيده وأقامه ، فرجع إلى المدينة ، وأمر المسلمين بالخروج إلى بني النضير ، وهم بقريةٍ يقال لها : زهرة ، فأمرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالخروج من المدينة ، فاستمهلوه عشرة أيام ليتجهزوا للخروج ، فدسّ إليهم عبدُ الله بن أُبي وأصحابهُمن المنافقين : لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، لا نخذلكم ، ولئن خرجتم لَنَخْرُجنَّ معكم ، فحصّنوا أسوارَهم ، فحاصرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخلهم ، فلما قذف اللهُ في قلوبهم الرعب ، وأيسوا من نصر المنافقين ، طلبوا الصُلح ، فأبى عليهم إلاّ الجلاء ، على أن يَحْمِل كلُّ ثلاثة أبياتٍ على بعيرٍ ما شاؤوا من متاعهم ، وللنبي صلى الله عليه وسلم ما بقي ، فخرجوا إلى الشام ، وإلى أذرعات وأريحا ، إلاّ بيتين ؛ آل أبي الحقيق ، وآل حُيَي بن أخطب ، فإنهم لحقوا بخيبر ، ولحقت طائفة بالحيرة ، وذلك قوله تعالى :

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣

هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب مِن ديارهم} بالمدينة ، أي : هو الذي تولّى إخراجهم ، لا بسبب فيه لأحد غيره. واللام في قوله : {لأول الحشر} متعلق بأخْرَج ، وهو اللام في قوله : {قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي} [الفجر : ٢٤] أي : أخرجهم عند أول الحشر ، وكونه أول الحشر ؛ لأنّ هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكانوا مِن سبط لم يُصبهم جلاء قط ، وهم أول مَن أُخرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب إلى الشام ، وآخر حشرهم : إجلاء عُمر إياهم من خيبر إلى الشام ، أو : آخر حشرهم : حشر يوم القيامة ، قال ابن عباس رضي الله عنه : " مَن شك أنَّ المحشر بالشام فليقرأ هذه الآية " فهم الحشر الأول ، وسائر الناس الحشر الثاني. وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا خرجوا : " امضوا ، فإنكم أول الحشر ونحن على الأثر " {ما ظننتم أن يخرجوا} ، لشدة بأسهم ، ومَنعَتهم ، ووثاقه حصونهم ، وكثرة عَددهم وعُدتهم ، {وظنوا أنهم مانعتهم حُصُونُهم من الله} أي : ظنوا أنّ حصونهم تمنعهم من بأس الله. والفريق بين هذا التركيب والنظم الذي جاء عليه التنزيل : أنّ في تقديم الخبر على المبتدأ دليلاً على فرط وُثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم ، وفي مصير ضميرهم اسماً لـ " أن " ، وإسناد الجملة إليه ، دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا يُبالَى معها

٤

بأحد يتعرض لهم ، أو يطمع في مغازيهم ، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم. {فأتاهم اللهُ} أي : أمره وعقابه {من حيث لم يحتسبوا} ؛ من حيث لم يظنوا ، ولم يخطر ببالهم ، حتى قُتل " كعب " رئيسهم على يد أخيه رضاعاً.

{وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعْبَ} ؛ الخوف والجزع ، {يُخْربون بيوتَهم بأيديهم وأيدي المؤمنين} ، فكانوا يُخربون بواطنَها ، والمسلمون ظواهرَها ، لِمَا أراد الله مِن استئصال شأفتهم ، وألاَّ تبقى لهم بالمدينة دار ، ولا منهم دَيَّار. والذي دعاهم إلى التخريب حاجتهم إلى الخشب والحجارة ، ليسدُّوا بها أفواه الأزقَّة ولئلا يبقى بعد جلائهم مساكن للمسلمين ، وأن ينقلوا معهم ما كان في أبنيتهم من جيّد الخشب والساج ، وأمّا المؤمنون فدعاهم إلى التخريب إزالة مُتحصّنهم ، وأن تتسع لهم مجال الحرب. ومعنى تخريبهم إياها بأيدي المؤمنين : أنهم لما عرّضوهم بنكث العهد لذلك ، وكان السبب فيه ؛ فكأنهم أمروهم به ، وكلّفوهم إياه. {فاعتبِروا يا أُولي الأبصارِ} أي : فاتعِظوا بما جرى عليهم من الأمور الهائلة على وجهٍ لا تهتدي إليه الأفكار ، أو : فتأملوا فيما نزل بهؤلاء ، والسبب الذي استحقوا به ذلك ، فاحذروا أن تفعلوا مثَل فعلهم ، فتُعاقَبوا مثل عقوبتهم. قال البيضاوي : اتعِظوا بحالهم ، فلا تغدروا ، ولا تعتمدوا على غير الله. هـ. وهذا دليل على جواز القياس.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣

ولولا أن كتب اللهُ عليهم الجلاء} ؛ الخروج من الوطن ، على ذلك الوجه الفظيع {لعذَّبهم في الدنيا} بالقتل والسبي ، كما فعل ببني قريظة ، {ولهم في الآخرة عذابُ النار} الذي لا أشد منه ، {ذلك بأنهم} أي : إنما أصابهم ذلك بسبب أنهم {شاقُّوا اللهَ} ؛ خالَفوه {ورسوله} وفعلوا ما فعلوا ، مما حكي عنهم من القبائح ، {ومَن يُشاقِّ اللهَ} ، وقرئ : " يشاقِق " على الأصل. والاقتصار على مشاققته لتضمنها مشاققته عليه السلام ، وليوافق قوله تعالى : {فإنَّ الله شديدُ العقاب} ، والجملة : إما نفس الجزاء على حذف العائد ، أي : شديد العقاب له ، أو : تعليل للجزاء المحذوف ، أي : يُعاقبه لأنّ الله شديد العقاب.

الإشارة : " سبِّح لله " نزَّه الله تعالى مَن وجود الغيرية والإثنينية ما في سموات الأرواح من علوم الأحدية ، ونزّهه ما في أرض النفوس والعقول من البراهين القطعية عن الشبيه والنظير. والعارف الكامل هو الذي يجمع بين التنزيه والتشبيه في ذات واحدة ، في دفعة واحدة ، فالتنزيه من حيث ذات المعاني ، والتشبيه من حيث الأواني ، أو التنزيه من حيث الجمع ، والتشبيه من حيث الفرق ، أو التنزيه من حيث اسمه الباطن ، والتشبيه من حيث اسمه الظاهر. وانظر القشيري في مختصر الإشارات ، ولعل هذا المنزع هو الذي رام الجيلاني ، حيث قال في عينيته :

وإياكَ والتنزيهَ فهو مُقيّدٌ

وإياك والتشبيهَ فهو مُخَادِعُ

٥

أي : لا تقف مع واحدٍ منهما ، فأطلق عنان المعاني في كل ما ترى ، ولا تشبه المعاني بشيء ، إذ ليس مثلها ولا معها فإياك أن تنزّه المعاني عن شيء ، فتقيّد عن الشهود فيه ، وإياك أن تشبهها بشيء ؛ إذ ليس مثلها شيء في الوجود. والله تعالى أعلم. ولا يعلم هذا إلا أهل الذوق الكبير.

ثم قال تعالى : {هو الذي أخرج} الخواطر الردية ، والخبائث اليهودية ، من ديار القلوب ، عند أول حشرها إلى الحضرة ، ما ظننتم أن يخرجوا ، لتمكنها من النفس ، وتمرُّنها معها ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونُهم من الله ، حيث تحصّنوا بتمكن العوائد ورسوخها في النفس ، ومخالطة الأحباب والعشائر ، والرئاسة والجاه والمال ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسِبوا ، حيث قيَّض لها شيخاً عارفاً ، وقذف في القلب خوفاً مزعجاً ، أو شوقاً مقلقاً ، وقذف في قلوبهم الرعب ، فخرجت تلك الخبائث قهراً ، يُخربون بيوتهم ، أي : بيوت ظواهرهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، أي : بإعانة المشايخ والإخوان ، فطهَّروا بواطنهم من الخبائث ، وخرّبوا ظواهرهم من زينة الحس ، فحينئذ تعمّرت بواطنُهم بأسرار العلوم

والمعارف ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ، وافعلوا مثل فعلهم ، ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء من القلوب ؛ لعذّبهم في الدنيا بالحرص والجزع والطمع ، ولهم في الآخرة عذاب نار القطيعة ، بعد إسدال الحجاب في الدنيا ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ؛ إذ كل مخالفة إنما هي من النفس وجنودها في عالم الحكمة.

(٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣

{ما قطعتم من لِّينَةٍ} ، قال القشيري : هو نوع من النخل ما عَدا العجوة والبَرْنِيّ ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعها من مال بني النضير ، فقطع بعضها ، فقالت اليهود : أي فائدة في هذا ؟ فبقي المسلمون في الجواب ، فأنزل الله هذه الآية. هـ. وأصلها : لونة ، من الألوان ، فقلبت ياء ، وقيل : اللينة : النخلة الكريمة ، كأنهم اشتقوها من اللين ، أي : أيّ شيء قطعتم من لِينة {أو تركتموها قائمةً على أصولها} من غير أن تتعرضوا لها بشيء {فبإذن الله} ؛ فقطعها وتركها بإذن الله ، {وليُخزي الفاسقين} أي : وليذل اليهود ويغيظهم أذِنَ في قطعها وقلعها وفي تركها ، وأمر المؤمنين أن يحتكموا في أموالهم كيف شاؤوا. واستُدل به على جواز هدم ديار الكفرة ، وقطع أشجارهم ، وحرق زروعهم ، إذا لم يُرج وكان فيه إنكاء للعدو. وتخصيص اللينة بالقطع ليكون غيظهم أشد.

الإشارة : قَطْعُ شجرة حب الدنيا من القلب واجب على المريد في بدايته ، ولو أدّى إلى إفساد المال لإصلاح قلبه ، ارتكاباً لأخف الضررين ، ومنه : قضية الشبلي في إحراق

٦

ثوب وقلنسوته ، في حكاية التلميذ ، فإذا تمكن من المعرفة خُيِّر ، وله يقال : {ما قطعتم من لينة أو تركتموها...} الآية. وقال القشيري بعد تفسير الظاهر : وفيه دليل على أن الشرع غير مُعَلل ، فإذا جاء الأمر الشرعي بَطَلَ طلب التعليل ، وسكتَت الألسن عن المطالبة بـ " لِمَ " وخُطورُ الاعتراض والاستقباحِ بالبال خروج عن حدّ العرفان ، والشيوخ قالوا : مَن قال لأستاذه : " لِمَ " لا يفلح ، وكل مريدٍ يكون لأمثال هذه الخواطر جولان في قلبه لا يجيءُ منه شيء ، ومَن لم يتجرّد قلبُه عن طلب الإعلال ، ولم يباشِرْ حُسْنَ الرضا بكل ما يجري ، واستحسانَ ، كل ما يبدو من الغيب من الله سرّه وقلبَه فليس من الله في شيء. هـ. ومثله قول الحِكَم : " ما ترك مِن الجهل شيئاً مَن أراد أن يظهر في الوقت غير ما أظهره الله فيه ".

(٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦

قلت : جملة {وما أفاء} : شرطية معطوفة على مثلها ، وهو : {ما قطعتم..} الآية ، وكلتاهما إخبار وإعلام ، أي : اعلموا أن ذلك القطع والترك كان بإذن الله ، وذلك الفيء كان بتسليط الله لا بسعيكم ، لكنه لم يُعلم منه كيفية القسمة ، فبيّنها بعدُ بقوله : {وما أفاء الله على رسوله...} الخ ، وقيل : غير ذلك على ما سيأتي.

يقول الحق جلّ جلاله : {وما أفاء الله على رسوله منهم} أي : ما أعاده الله من مالهم ، وفيه إشعار بأنه كان حقيقاً بأن يكون له صلى الله عليه وسلم ، وإنما وقع في أيديهم بغير حق ، فردّه الله تعالى إلى مستحقه ، لأنه تعالى خلق الناس لعبادته ، وخَلَقَ ما خَلَقَ ليتوسَلوا به إلى طاعته ، فهو جديرٌ بأن يكون للمؤمنين. {فما أوجفتمْ عليه} أي : فما أجريتم على تحصيله وتغنيمه ، من : الوجيف ، وهو : سرعة السير ، و " مِن " في قوله : {مِن خَيْلَ ولا رِكابٍ} زائدة لتأكيد النفي ، أي : فما أجريتم على تحصيله خيلاً ولا ركاباً ، وهو ما يركب من الإبل خاصة ، كما أنَّ الراكب عندهم راكبها لا غير ، وأمّا راكب الفرس فإنما يُسمونه فارساً ، ولا واحد لها من لفظها ، وإنما الواحد منها : راحلة. والمعنى : ما قطعتم لها شقةً بعيدة ، ولا لقيتم مشقة شديدة ، وذلك لأن قُراهم كانت على ميلين من المدينة ، فمشوا إليها مشياً ، وما كان فيهم إلاَّ النبي صلى الله عليه وسلم فَفَتَحَها صُلحاً ، كأنه قيل : ما أفاء الله على رسوله فما حصَّلتموه بكد اليمين ولا بعرق الجبين ، {ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رسلَه على مَن

٧

يشاء} أي : ولكن جرت سنّة الله أن يُسلّط رسلَه على مَن يشاء من أعدائهم ، وقد سلّط رسولَه صلى الله عليه وسلم تسليطاً غير معتاد ، من غير أن تقتحموا الخطوب ، وتُقاسموا شدائد الحروب ، فلا حقّ لكم في أموالهم. {واللهُ على كل شيء قدير} يفعل ما يشاء ، تارة على الوجوه المعهودة ، وأخرى على غيرها.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧

ثم بيّن قسمة الفيء ، فقال : {ما أفاء اللهُ على رسوله من أهل القُرى} ، فلم يدخل العاطف ؛ لأنَّ الجملة بيان للأولى ، وقيل : الأولى نزلت في أموال بني النضير ، وقد جعلها الله لرسوله خاصة ، فقسمها على المهاجرين ، ولم يُعط الأنصارَ منها ، إلاّ لثلاثة ، لفقرهم ، أبو دُجانة ، وسهل بن حنيف ، والحارث بن الصمة ، والثانية : نزلت في كل قريةٍ فُتحت عنوة ، وهو الظاهر ، فقال في بيان مصرف الفيء : {فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل}. واختلف في قسمته ، فقيل :

يُسدس لظاهر الآية ، ويُصرف سهم الله إلى عمارة الكعبة وسائر المساجد ، وقيل : يُخمس ، وذكر الله للتعظيم ، ويُصرف سهم الرسول للإمام على قولٍ ، وإلى العساكر والثغور على قولٍ ، وإلى مصالح المسلمين على قولٍ. وقد تقدّم في سورة الأنفال تحقيقه. وإنما بيّنا قسمته ، {كي لا يكون دُولَة} أي : كي لا يكون الفيء الذي حقه أن يكون للفقراء يعيشون به {دُولة بين الأغنياء منكم} أي : يتداوله الأغنياء بينهم ، ويختصُّون به. والدولة : ما يدول للإنسان ، أي : ما يدور له من الغنى والجدّ والغلبة وغيرها ، وقيل : الدولة – بالفتح – من المُلك ، وبالضم من المِلك – بالكسر–.

{وما آتاكم الرسولُ} أي : ما أعطاكموه من الفيء أو من الأمر ، {فَخُذوه} فاقبلوه ، أو : افعلوه ، فإنه واجب ، {وما نهاكم عنه} أي : عن أخذه ، أو عن تعاطيه {فانتهوا} عنه ، ولا تطلبوه ، أو : لا تفعلوه ، لَمَّا خصّ عليه السلام المهاجرين بفيء بني النضير وما حولها من القرى ، قالت الأنصار : لنا معهم سهم ، فنزلت {واتقوا الله} في مخالفته عليه السلام ، {إنَّ الله شديدُ العقاب} لمَن خالف رسولَه صلى الله عليه وسلم ، والأحسن : أن يكون عاماً في كل ما جاء به الرسول ، والفيء داخل في العموم.

الإشارة : العلم على قسمين ؛ علم وهبي إلهي ، يفيض على رسول القلب ، بمحض الفضل والجود ، وهو ما يختص بأسرار الربوبية فهذا يختص به صاحبه ، ولا يبذله لغيره إلاّ مَن بذل نفسه له ، وإليه تُشير الآية الأولى. وعلم كسبي ، يُكتسب بالجد والتشمير في تعلُّمه وأخذه ، فهذا يجب بذله لعامة الناس وخاصتهم ، وإليه تشير الآية الثانية. وإنما اختص علم السر بأهله كي لا يكون دُولة بين الأغنياء من أهل الظاهر ، فيُبتذل ويُشتهر ، وهو فساد نظام العالم. وقوله تعالى : {وما آتاكم الرسولُ فخُذوه} قال القشيري : هذا

٨

أصل في وجوب متابعة الرسول ، ولزوم طريقته وسنته ، على ما في العلم تفصيله. والواجبُ على العبد عَرْضُ ما وقع له من الخواطر ، ويُكاشَفُ به من الأحوالِ ، على العلم ، فما لم يقبله الكتاب والسنّة فهو ضلال. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧

قلت : " للفقراء " يتعلق بمحذوف ، أي : يعطي ، أو : اعْجَبوا ، على أنه استئناف ، وقيل : بدل من " ذي القربى ". و " وتبوؤوا الدارَ والإيمان " أي : وأَلِفوا الإيمان ، ولا يصح العطف ؛ لئلا يلزم أنّ الإيمان متبوأ ، وإنما يُتبوأ المنزل ؛ إذ التبوء : التهيؤ ، يقال : بوأت له منزلاً ، أي : هيأته له ، وفي إعراب الحوفي في سورة آل عمران : يقال تبوأ فلان الدار إذا لزمها. هـ. فعلى هذا يصح العطف ، ولا

يحتاج إلى تقدير عاملٍ آخر. قال ابن هشام : ولا يجوز كون الإيمان مفعولاً معه ؛ لعدم الفائدة في تقييد الأنصار المعطوفين على المهاجرين بمصاحبة الإيمان ، إذ هو أمر معلوم. هـ. وانظر ابن جزي ، فإنه هو الوجه المستحسن عنده في توجيه الآية ، والمعنى : أنهم جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين ؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان ، لا بنزول الدار ، قال : فيكون الإيمان على هذا مفعولاً معه ، وأصله لابن عطية ، وبهذا الاقتراح يصح معنى قوله : {مِن قبلهم} فتأمله. انظر الحاشية.

يقول الحق جلّ جلاله : {للفقراءِ} أي : يعطى الفيء للفقراء {المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالِهم} حيث اضطرهم كفارُ مكة إلى الخروج من مكة ، وكانوا مائة رجل. وفيه دليل على أنّ الكفار يملكون ما استولوا عليه من أموال المسلمين ؛ لأنّ الله تعالى سمّاهم فقراء ، مع أنهم كانت لهم ديار وأموال بمكة ، فخرجوا {يبتغون فضلاً من الله ورضواناً} أي : طالبين منه تعالى رزقاً في الدنيا ، ورضا في الآخرة ، أو : يطلبون الجنة ورضوان الله أو : زيادة في الإيمان والرضوان ، {وينصرون اللهَ ورسولَه} أي : ناوين نصرة دين الله وإعانة رسوله ، {أولئك} الموصوفون بما فصّل من الصفات الحميدة {هُم الصادقون} ؛ الراسخون في الصدق ، حيث ظهر ذلك عليهم ؛ بما فعلوا من مفارقة الأوطان والأهل والولدان.

٩

{والذين تبوؤوا الدارَ والإيمانَ} ، هذا استئناف مسوق لمدح الأنصار بخصال حميدة ، من جملتها : محبتهم للمهاجرين ، ورضاهم باختصاصهم بالفيء أكمل رضا ، أي : اتخذوا المدينة والإيمان مباءة وسكناً وتمكّنوا فيهما أشد تمكين ، {مِن قبلهم} أي : من قبل هجرة المهاجرين ، أو تبوؤوا الدار ولزموا الإيمان ، ولزومه : إخلاصه وظهور شعائره وأحكامه ، ولا ريب في تقدُّم الأنصار في ذلك على المهاجرين ؛ لأنّ المهاجرين لم يتأتَّ لهم أظهاره قبل الهجرة ، فتقدمهم في إظهاره فقط ، لا في إخلاصه ؛ إذ لا يتصور تقدمهم عليهم في ذلك.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩

يُحبون مَنْ هاجر إليهم} حتى شاطروهم أموالهم ، وأنزلوهم منازلهم ، ونزل مَن كانت له امرأتان عن إحداهما ليتزوجها المهاجري ، ومحبتهم للمهاجرين من حيث هجرتهم لنصرة الدين لشدة محبتهم للإيمان ، {ولا يجدون في صُدورهم} ؛ في نفوسهم {حاجةً} أي : شيئاً محتاجاً إليه ، يقال : خذ منه حاجتك ، أي : ما تحتاج إليه ، يعني : أنّ نفوسهم لم تتبع ما أوتوا من الفيء ، ولم تطمح إلى شيء منه

تحتاج إليه ، وقيل : حاجة : حسداً أو كزازة ، مما أُعطي المهاجرون من الفيء ، حيث خصّهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم به. {ويُؤثرون على أنفسهم} أي : يُقدمون المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش ، {ولو كان بهم خصاصةٌ} أي : حاجة وخلّة ، وأصلها : خُصاص البيت ، أي : فروجه. والجملة : حال ، أي : يُؤثرون في حال خصاصتهم. قال ابن عباس : لما ظفر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بأموال بني النضير ، قال للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم وديياركم ، وشاركتموهم في هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ، ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم لهم من ديارنا وأموالنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نُشاركهم فيها ، فنزلت.

وهذا صريح في أنَّ قوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدار} استئناف غير معطوف على الفقراء المهاجرين ، نعم يجوز عطفه عليهم باعتبار شركة الأنصار للمهاجرين في الصدق ، دون الفيء ، فيكون قوله تعالى : {يُحبون} وما عطف عليه استئنافاً مقرراً لصدقهم ، أو حال. قاله أبو السعود.

قلت : إذا جعلنا قولَه تعالى : {ما أفاء اللهُ على رسوله مِن أهل القُرى} استئنافاً غير مُبيّنٍ لِما قبله ، بل في كل فيء يأتي بعد بني النضير ، صحّ عطف الأنصار على فقراء المهاجرين في كل شيء ، وكذا قوله : {والذين جاؤوا مِن بعدهم} عطف عليهم ، فيكون المعنى : يقسم الفيء للفقراء المهاجرين ، وللذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم ، وللذين جاؤوا مِن بعدهم. ويؤيد هذا ما رُوي أنّ عمر رضي الله عنه لمّا قرأ هذه الآية إلى آخرها قال : هذه الآية استوعبت المسلمين ، ما على وجه الأرض مسلم إلاَّ وله في هذا الفيء حق ، إلا ما ملكت أيْمَانهم. هـ.

وقيل : نزلت في ضيفٍ نزل بالنبي صلى الله عليه وسلم فلم يجد عنده شيئاً ، فقال صلى الله عليه وسلم : " مَن يُضيف

١٠

هذا ؟ " فقال : رجلٌ من الأنصار – قيل : أبو طلحة ، أنا يا رسول الله ، فلم يجد من الطعام إلاّ ما يكفي الصبية ، فقال لامرأته : نوّمي الصبيان ، وأطفِئي السراج ، وقرّبي الطعام ، فنظهر للضيف أنَّا نأكل معه ، ونمضغ ألسنتنا ليأكل ، فأكل الضيف وحده ، فلما أصبح قال صلى الله عليه وسلم للرجل : " إنَّ الله ضحك مِن فعلكما " عن أنس : أُهدي لبعضهم رأس مشويّ ، وهو مجهود ، فَوَجَّهه إلى جارِه ، وجارُه وَجَّهَه إلى جارِه ، فتداولته تسعةُ أنْفُس ، حتى عاد إلى الأول.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩

ومَن يُوق شُحَّ نفسه} أي : مَن يقيه الله شحَّ نفسه حتى يغالبها فيما يغلب عليها ، مِن حب المال وبُغضَ الإنفاق ، {فأولئك هم المفلحون} ؛ الفائزون بكل مطلوب ، والناجون من كل مرهوب. والشح – بالضم والكسر – : اللُّؤم ، وأن تكون نفس الرجل كزّةً حريصة على المنع. وإضافته إلى النفس لأنه غريزة فيها ، وأما البخل فهم المنع نفسه ، وقيل : الشُح : أكل مال أخيك ظلماً ، والبخل : منع مالك ، وقيل : الشُح : منع ما عندك والطمع في غيرك ، والبُخل : منع مالك من غير طمع ، فالشُح أقبح من البخل. والجملة : اعتراض وارد لمدح الأنصار بالسخاء ، بعد مدحهم بالإيثار. وجميع الإشارة باعتبار " مَن " لأنها واقعة على الجمع.

ثم ذكر التابعين ، فقال : {والذين جاؤوا مِن بعدهم} هم التابعون بإحسان إلى يوم القيامة ، وقيل : هم الذين هاجروا بعدما قوي الإسلام ، {يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} ، وصفوهم بذلك اعترافاً بفضلهم ، وعن عائشة رضي الله عنها : " أُمِرُوا بأن يستغفروا لهم ، فسبُّوهم " {ولا تجعل في قلوبنا غِلاًّ} أي : حقداً وعداوة {للذين آمنوا} على الإطلاق ، {ربنا إنك رؤوف رحيم} ؛ مبالغ في الرأفة والرحمة ، فأنت حقيق بأن تجيب دعاءنا برأفتك ورحمتك.

الإشارة : الذين يستحقون المواهب ، والفيض الإلهي والاصطفاء ، ثلاث أصناف ، الأول : الفقراء الذين هاجروا أوطانهم ، وتركوا ديارهم وعشائرهم ؛ طلباً لصلاح قلوبهم وأسرارهم ، والثاني : القوم الذين نزلوا بهم إذا آووهم وآثروهم بأموالهم وأنفسهم ، الثالث : مَن جاء بعدهم طلباً لذلك ، على الوصف الذي ذكره الحق {يقولون ربنا اغفر لنا...} الخ. قال الورتجبي : قوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدارَ والإيمان...} الخ ، أثنى الله سبحانه على الفقراء ، ووصَفَهم بأحسن الوصف ، إذ كانوا صادقين في فقرهم ، ثم أثنى على الأغنياء لِصدقهم في غناهم ، ووصَفَهم بالإيمان والمعرفة بالله من قبلهم ولزومهم مواضع قربه ، وخفضِهم جناحهم لإخوانهم من الفقراء ، ومحبتهم ، وتقديسهم من الحسد والشح والبُغض وحب الدنيا ، ثم وَصَفَهم بالسخاء والإيثار ، فلم يبقَ في قلوبهم من حب

١١

الدنيا وجاهها ذرة. ومَنْ سجيتُه مقدسة مِن حرص نفسه أفلح وظفر برؤية ربه. هـ. قلت : كأنه يشير إلى أنَّ قوله تعالى : {للفقراء المهاجرين} هم أهل السير من المريدين ، وقوله تعالى : {والذين تبوؤوا الدار...} هو الواصلون العارفون ، أي : تبوؤوا دارَ المعرفة ، حيث سكنوها ، ورسخوا فيها ، وأَلِفوا الإيمان وذاقوا حلاوته.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩

وقوله تعالى : {ويُؤثرون على أنفسهم...} الخ ، بعد أن وَصَفَهم بقطع الطمع والحرص ، والزهد فيما لم يملكوا بقوله : {ولا يجدون في صدورهم حاجة} وَصَفَهم بالإيثار فيما ملكوا ، وبذلك يتم تحقيق خروج الدنيا من قلوبهم ، بحيث لا يتعلق القلب بما فات منها ، ولا يُمسك ما وجد منها ، بل يُؤثر به مع الحاجة إليه ، فالآية تشير إلى سلامة الصدور ، وسخاوة الأنفس ، وهذا كان وصف الصحابة – رضي الله عنهم – وبهذين الخصلتين فاقوا جميعَ الناس ، وهي أخلاق الصوفية – رضي الله عنهم – قال الشيخ أبو يزيد : ما غلبني أحد غير شاب من بَلْخ ، قَدِمَ حاجًّا ، فقال : يا أبا يزيد ، ما الزهد عندكم ؟ فقلت : إذا وجدنا أكلنا ، وإذا فقدنا صبرنا ، فقال : هكذا عندنا الكلاب ببلخ ، فقلت : وما الزهد عندكم ؟ فقال : إذا وجدنا آثرنا ، وإذا فقدنا شكرنا. هـ. وسُئل ذو النون : ما حد الزاهد المشروح صدره ؟ فقال : ثلاثة ؛ تفريق المجموع ، وترك طلب المفقود ، والإيثار عند القوت. هـ.

(١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩

يقول الحق جلّ جلاله : {ألم تَرَ إلى الذين نافقوا} أي : ألم ترَ يا محمد ، أو : يا مَن يسمع ، إلى عبد الله بن أُبيّ وأشياعه ؟ حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين ، من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة ، بعد حكاية محاسن أقوال المؤمنين ، وأحوالهم الحميدة ، على اختلاف طبقاتهم. وقوله تعالى : {يقولون} استئناف لبيان المتعجب منه ، وصيغة المضارع للدلالة على استمرار قولهم ، أو : لاستحضار صورته. واللام في قوله : {لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب} للتبليغ ، والمراد بالأخوة : أخوة الكفر ، واللام في قوله : {لئن أُخرجتم} موطئة للقسم ، و {لَنَخرُجَنَّ} جوابه ، أي : والله لئن أُخرجتم من دياركم

١٢

{لَنَخْرُجَنَّ معكم} ، رُوي أن ابن أُبي وأصحابه دسُّوا إلى بني النضير ، حين حاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم : لا تخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوكم فنحن معكم ، لا نخذلكم ، ولئن أُخرجتم لنخرُجن معكم ، {ولا نُطيعُ فيكم} ؛ في قتالكم {أحداً أبداً} ، يعني رسول الله والمسلمين ، أو : لا نُطيع في خذلانكم وإخلاف ما وعدناكم من النصرة أحداً ، وإن طال الزمان ، {وإن قُوتلتم لننصرنكم} ، قال تعالى في تكذيبهم : {واللهُ يشهد إنهم لكاذبون} في مواعدهم المؤكدة بأيمانهم الفاجرة.

{لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قُوتلوا لا ينصرونهم} ، وكان الأمر كذلك ، فلم يقدر أحد أن يرفع رأسه لنصرتهم ، ففيه معجزة واضحة ، {ولئن نصروهم} على الفرض والتقدير ، {ليُوَلُّنَّ الأدبارَ} فراراً

{ثم لا يُنصرون} أبداً ، إما المنافقون أو اليهود ، أي : لا تكون لهم شوكة أبداً. وإنما قال : {ولئن نصروهم} بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ، أي : على الفرض والتقدير كقوله : {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر : ٦٥] ، والحق تعالى كما يعلم ما يكون ، يعلم ما لا يكون أن لو كان كيف يكون.
}

(١٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢

لأنتم أشدُّ رهبةً} أي : أشد مرهوبية ، مصدر : رُهِبَ ، المبني للمفعول ، أي : أنتم أشد خوفاً {في صُدورهم من الله} دلالة على نفاقهم ، يعني : إنهم يُظهرون لكم في العلانية خوفَ الله ، وأنتم أهيب في صدورهم من الله ، {ذلك} أي : ما ذكر من كون رهبتهم منكم أشد من رهبة الله {بأنهم قوم لا يفقهون} شيئاً حتى يعلموا عظمة الله تعالى ، فيخشوه حق خشيته.

{لا يُقاتلونكم} أي : اليهود والمنافقون ، أي : لا يقدرون على قتالكم {جميعاً} ؛ مجتمعين متفقين في موطن من المواطن ، {إلاّ في قُرىً محصنةٍ} ، بالدُّروب والخنادق ، {أو مِن وراء جُدُر} دون أن يصحروا ويبارزوكم ؛ لفرط رهبتهم. وقرأ المكي : " جدار " بالإفراد. {بأسُهم بينهم شديدٌ} ، بيان لِما ذكر من أنَّ رهبتهم ليس لضعفهم وجُبنهم في أنفسهم ، فإنّ بأسهم بالنسبة إلى أقرانهم شديد ، وإنما ضعفُهم وجبنهُم بالنسبة إليكم ، بما قذف الله تعالى في قلوبهم من الرعب.

{تَحْسَبُهم} أي : المنافقين واليهود {جميعاً} أي : مجتمعين ذوي أُلفة واتحاد ، {وقلوبُهم شَتَّى} ؛ متفرقة لا أُلفة بينها. قال ابن عطية : وهذه حالة الجماعة المتخاذلة. هـ. يعني : أنّ بينهم إحناً وعداوات ، فلا يتعاضدون حقَّ التناصر ولا ينصرون أبداً. قال القشيري : اجتماع النفوس مع تنافر القلوب أصلِ كل فساد ، وموجب كل تخاذل ، واتفاق القلوب ، والاشتراك في الهمّة ، والتساوي في القصد ، يُوجب كلَّ ظفرٍ وسعادة. هـ. وما وصف به الحق تعالى المنافقين واليهود كله تجسير للمؤمنين ، وتشجيع لقلوبهم على قتالهم. {ذلك} التفرُّق {بأنهم قوم لا يعقلون} شيئاً ، حتى يعرفوا الحق ويتبعوه ، وتطئمن به قلوبهم ، وتتحد كلمتهم ، ويَرمُوا عن قوس واحدة ، لكن لّمَّا جهلوا الحق

١٣

تشتتت طُرُقهم ، وتشتتت القلوب حسب تشتُّت الطُرق ، وأما ما قيل من أنّ المعنى : لا يعقلون أنّ تشتيت القلوب مما يُوهن قلوبهم ، فبعيد.

الإشارة : إذا حاصر المريدُ قريةَ القلب ليُخرج منها الأوصاف المذمومة لتتهيأ لسكنى سلطان المعرفة ، تقول الحظوظ والأهوية المنافقة للنفس ، وأوصافها اليهودية : لا تخرجوا ، فنحن نُعاونكم ، وفي

نصرتكم ، لئن أُخرجتم لنخرجنَّ معكم ، ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً ، وإن قوتلتم بالمجاهدة والرياضة ؛ لننصرنكم بالتخاذل والتثُّبط ، والله يشهد أنهم لكاذبون ؛ إذ لا قدرة لشيء إلاّ بإذن الله. {لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم...} الآية. لا يقاتلونكم جميعاً ، أي : لا يجتمع جند الهوى النفس على قتالكم ، إلاّ في قلوب غافلة ، شديدة العلائق والمساوىء محصنة من دخول النور بأسوار الشواغل والعلائق ، أو : تُوَسْوِس من وراء جُدُر الإيمان ، وأما القلوب الفارغة من الشواغل ، المطهرة من المساوئ ، فإنما يقاتلها البعض الباقي فيها. بأسهم بينهم شديد ، أي : الحرب بينهم سجال ، إذا غلب جند النفس استولت ظلماتها على الروح ، وإذا غلب جند القلب والروح استولى النورُ على ظلمة النفس ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، أي : تظنون أنَّ مهاوي الهوى ومهاوي النفس واحدة ، وقلوبهم شتى ، فالأهواء مختلفة ، والحظوظ متفاوتة ، والمساوىء متفرقة ، فلكل شخص حظ ، ولكل نفس هوى غير ما يشتهي الآخر ، وذلك بأنهم قوم لا يعقلون ، ولو عقلوا لاتفقت أهواؤهم في محبة الله ورسوله ، قال صلى الله عليه وسلم : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تابعاً لما جئتُ به ".

(١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٢

يقول الحق جلّ جلاله : مَثَلهم ، أي : مثل اليهود في حلول البأس بهم {كَمَثَلِ الذين مِن قبلهم} وهم أهل بدر {قريبًا} أي : استقر مِن قبلهم زمنًا قريبًا ، فكانت غزوة بني النضير على رأس ستة أشهر من بدر ، كما صدر به البخاري عن الزهري. ثم قال : وجعله ابن إسحاق بعد بئر معونة وأُحد. هـ. قلت : وهو الموافق لِما تقدم في صدر السورة ، وهو المشهور ، {ذاقوا وبالَ أمرِهم} أي : ذاقوا سوء عاقبة أمرهم وعداوتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القتل في الدنيا ، {ولهم} مع ذلك في الآخرة {عذابٌ أليمٌ}.

ومَثَل المنافقين {كَمَثَلِ الشيطانِ إذ قال للإنسان اكْفُرْ فلما كفر قال إني بريء منك

١٤

إني أخاف اللهَ ربَّ العالمين} أي : مثل المنافقين في أغوائهم اليهود على القتال ، ووعدهم إياهم النصر ، ثم مشاركتهم لهم وخذلانهم كمثل الشيطان إذ استغوى الإنسان بكيده ، ثم تبرّأ منه في العاقبة. وقيل : المراد : استغواؤه قريشًا يوم بدر ، وقوله : {لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ} [الأنفال : ٤٨] إلى قوله : {إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ} [الأنفال : ٤٨]. قال أبو السعود : وقد أجمل في النظم الكريم ، حيث أسند كُلاًّ من الخبرين إلى المقدّر المضاف إلى ضمير الفريقين من غير تعيين ما أسند إليه بخصوصه ، ثقةً بأنّ السامع يَرُد كُلاًّ مِن المثالين إلى ما يُماثله ، كأنه قيل : مَثَل اليهود في حلول

العذاب ، كمَثَل الذين من قبلهم... الخ ، ومثل المنافقين في إغرائهم إياهم على القتال حسبما تقدّم عنهم كمثل الشيطان...الخ. هـ. {فكان عَاقِبتهما} أي : عاقبة الإنسان الكافر والشيطان ، {أنهما في النار خالِدَيْن فيها} ، فـ " عاقبتهما " : خبر كان ، و " أنهما " اسمها ، و " خالِدَين " : حال. {وذلك جزاءُ الظالمين} أي : الخلود في النار جزاء كل ظالم. وذكر الثعلبي هنا قصة برصيصا الراهب الطويلة ، فانظرها فيه ، ففيها عبرة ، وقيل : فيه نزلت الآية.

(١٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤

الإشارة : مثل الأوصاف المذمومة حيث ترد عليها أنوار الشهود ؛ كمثل كفار قريش حين استولت عليها الأنصار والمهاجرون ، وأمدّهم الله بملائكة السماء ، فهزموهم وقتلوهم ، ودفنوهم في القليب ، ومثل النفوس الأمّارة وجنودها ، كمثل الشيطان يوسوس بالمعاصي ، ثم يرجع ، فكان عاقبتهما إذا أطاعه الإنسان أنهما في النار القطيعة خالدَين فيها ، وذلك جزاء الظالمين لنفوسهم ، حيث حرموها الوصول. والله تعالى أعلم.

(١٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٤

يقول الحقّ جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} في كل ما تأتون وتذرون ، {ولتنظرْ نَفْس ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ} أي : أيّ شيء قدمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة. سمّاه باليوم الذي يلي يومك تقريبًا له ، أو عبّر عن الآخرة بالغد ، كأنّ الدنيا والآخرة نهاران يوم وغد ، وتنكيره لتفخيمه وتهويله ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لغاية عِظمه. وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدّمنا ، خسرنا ما خلفنا. {واتقوا اللهَ} ، كرر تأكيدًا للأمر بالتقوى ، أو الأول في أداء الواجبات ، كما يشعر به ما بعده من الأمر بالعمل ، وهذا في ترك المعاصي ، كما يؤذن به الوعيد في قوله : {إِنَّ الله خبير بما تعملون} أي : من المعاصي.

{ولا تكونوا كالذين نَسُوا اللهَ} أي : نسوا حقوقه تعالى أو : تركوا ذكره ، {فأنساهم أنفسهم} ؛

١٥

فأهملهم ولم يذكرهم بتوفيقٍ ولا هداية ، أو : جعلهم ناسين لها حتى لم يسمعوا ما ينفعها ، ولم يفعلوا ما يخلصها ، أو : أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم ، {أولئك هم الفاسقون} ؛ الكاملون

في الفسق.

{لا يستوي أصحابُ النار} الذي نسوا الله فاستحقُّوا الخلود في النار {وأصحابُ الجنة} الذين اتقوا الله ، فاستحقُّوا الخلود في الجنة ، {أصحابُ الجنة هم الفائزون} ، وهذا تنبيه وإيقاظ وإيذان بأن غفلتهم وقلة فكرهم في العاقبة ، وتهالكهم ، على إيثار العاجلة واتباع الشهوات ، كأنهم لايعرفون الفرق بين الجنة والنار ، والبَوْن العظيم بين أصحابها ، وأنَّ الفوز العظيم لأصحاب الجنة ، والعذاب الأليم لأصحاب النار ، فمِن حقهم أن يعلموا وينتبهوا له ، كما تقول لمَن يعق أباه : هو أبوك ، تجعله بمنزلة مَن لا يعرفه ؛ لتنبهه بذلك على حق الأبوة الذي يقتضي البر والتعطُّف. واستدل بالآية على أنّ المسلم لا يُقتل بالكافر ، وأنَّ الكفار لا يملكون أموال المسلمين ، ورُدَّ بأنَّ عدم الاستواء إنما هو في الأحوال الأخروية ، لا الدنيوية. والله تعالى أعلم.

(١٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥

الإشارة : {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله} ، أن تشهدوا معه سواه {ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ} من المعرفة ، فإنّ الشهود يوم القيامة على قدر المعرفة هنا ، " واتقوا الله " فلا تؤثروا عليه سواه ، {ولا تكونوا كالذين نسوا الله} أي : ذكره والتوجه إليه ، " فأنساهم أنفسهم " أي : غيّبهم عن إصلاحها وعلاجها ، حتى ماتت في أودية الخواطر والشكوك ، " أولئك هم الفاسقون " الخارجون عن الحضرة المقدسة. " لا يستوي أصحاب النار " أي : نار القطيعة والحجاب " وأصحاب الجنة " أي : جنة المعارف ، " أصحاب الجنة هم الفائزون " بكل مطلوب ، الناجون من كل مرهوب.

(١٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٥

يقول الحقّ جلّ جلاله : {لو أنزلنا هذا القرآن} العظيم الشأن ، المنطوي على فنون القوارع ، {على جبلٍ} من الجبال ، مع كونه علَماً في القسوة وعدم التأثير بما يُصادمه ، {لَرَأيته خاشعًا} ؛ خاضعًا متصدِّعًا متشققًا {من خشية الله} أي : من شأن القرآن وعظمته أنه لو جُعل في الجبل تمييز ، ونزل عليه ، لخضع وتطأطأ وتشقق من خشية الله ، وهذا تمثيل وتخييل لعلو شأن القرآن ، وقوة تأثير ما فيه من المواعظ ، كما ينطق به قوله تعالى : {وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون} ، وهي إشارة إلى هذا المثل ، وإلى أمثاله في مواضع من التنزيل. والمراد : توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة

القرآن ، وتدبُّر قوارعه وزواجره.
الإشارة : قال ابن عطاء : أشار إلى فضله على أوليائه وأهل معرفته ، أنَّ شيئًا من الأشياء لا يقوم لصفاته ، ولا يبقى مع تجلِّيه ، إلاّ مَن قوّاه الله على ذلك ، وهو قلوب العارفين. هـ. قلت : وهذا في تجلِّي الصفات ، فما بالك بتجلِّي الذات ؟ ! فلا يطيقه إلاّ قلوب الراسخين المقربين ، وقال العارف الورتجبي : لو كانت الجبالُ مقامَ الإنسان في الخطاب لتدكدكت الجبال ، وتذرّرت ، وانفلتت الصخور الصم ، وانهدمت الشامخات العاليات ، في سطوات أنواره ، وهجوم سنا أقداره ، وذلك بأنها عرفت حقيقةً ، وأقرت بالعجز عن حمل هذا الخطاب العظيم حيث قال سبحانه : {فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب : ٧٢]. قلت : وكأنه يُشير إلى أن تجلي صفة كلامه من جملة الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها ، وهذه الأمانة هي تجلِّي الذات وتجلِّي الصفات ، فلم يطق حملها إلاَّ الإنسان الكامل ، وهو العارف الحقيقي ، أما عن تجلِّي الذات فقد أشفقت مِن حمله السمواتُ والأرضُ والجبالُ ، حسبما تقدّم. أما تجلِّي الصفات ؛ فذكر هنا أنه لو تجلّت للجبل لخضع وتشقّق ولم يطق حملها ، فلو زالت حُجب الغفلة عن القلوب لذابت من هيبة تجلِّي صفة كلامه وخطابه تعالى ، إلاَّ أنَّ الله تعالى قَوَّى قلوب أوليائه حتى أطاقوا شهود ذاته ، وسماع خطابه ، بعد انقشاع الحُجب عن قلوبهم. ثم قال الورتجبي : ولا تخض يا أخي في بحر كلام المتكلمين أنَّ الجبال ليس لها عقل ، فإنَّ هناك أرواحًا وعقولاً لا يعلمها إلا الله {يَآجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ} [سبأ : ١٠] ولو لا هناك ما يقبل الخطاب لما خاطبها ، فإنَّ ببعض الخطاب ومباشرة الأمر تهبط من خشية الله ، قال الله تعالى : {وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [البقرة : ٧٤] والخشية : مكان العلم بالله وبخطابه. هـ. قلت : أسرار المعاني القائمة بالأواني سارية في الجمادات وغيرها ، فهي عاقلة عالمة في باطن الأمر.
والله تعالى أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٦
يقول الحق جلّ جلاله : {هو اللهُ الذي لا إله إلاّ هو} وحده {عَالِمُ الغيبِ والشهادة} أي : ما غاب عن الحس من الأسرار القديمة ، وما حضر له من الأجرام الحسية. قال الورتجبي : أي : عالم بالمعلومات الغيبية قبل وجودها ، وبعد وجودها ، لا يزيد علمه بالغيب علمه بالعلانية ، لا علمه بالعلانية علمه بالغيب. هـ. وتقديم الغيب على

الشهادة لتقدُّمه في الوجود ، وتعلُّق العلم القديم به ، أو : المراد بالغيب : المعدوم ، وبالشهادة : الموجود ، أو السر والعلانية ، {هو الرحمنُ الرحيم} أي : الرحمن بجلائل النِعم ، والرحيم بدقائقها ، أو : الرحمن بنعمة الإيجاد ، والرحيم بنعمة الإمداد.

{هو اللهُ الذي لا إله إلاّ هو} ، كرر لإبراز الاعتناء بأمر التوحيد ، {الملكُ} ؛ المتصرف بالإطلاق ، الذي لا يزول مُلكه أبدًا ، {القدوسُ} ؛ البليغ في النزاهة عما لا يليق به. وقُرىء بالفتح ، وهي لغة فيه ، {السلام} ذو السلامة من كل نقص ، أو : الذي يَسلم الخلق من ظلمه ، أو : ذو السلام على أوليائه يوم القيامة ، {المؤمنُ} ؛ واهب الأمْن ، أو : المؤمن مِن عذابه مَن أطاعه ، أو المصدِّق لعباده إذا وحّدوه ، أو : المصدِّق للرسل بالمعجزات ، {المهيمِنُ} ؛ الرقيب الحافظ لكل شيء مُفَيْعِل ، من : الأمن ، بقلب همزته هاء ، {العزيزُ} ، الغالب الذي لا يُغلب ، {الجبَّارُ} الذي جَبَرَ خلقه على ما أراد ، أو : جبر أحوالهم ، أي : أصلحها ، {المتكبّر} الذي تكبّر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصًا ، أو : البليغ الكبرياء والعظمة. {سبحان الله عما يشركون} ، نزَّه ذاته عما يصفه به المشركون إثر تعداد صفاته التي لا يمكن أن يُشارَك في شيءٍ منها أصلاً.

{هو اللهُ الخالقُ} ؛ المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته ، {البارىء} ؛ الموجد لها بريةً من التفاوت ؛ وقيل : المميِز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة ، {المُصَوِّر} ؛ الموجد لصورها وكيفيتها كما أراد. قال الغزالي : الخالق من حيث إنه مُقدِّر ، البارىء من حيث إنه مُوجد ، المصوِّر ، مِن حيث أنه مُصَوِّر صور المخترعات أحسن ترتيب ، ومُزيّنها أحسن تزيين. هـ. قلت : وحاصل كلامه : أن الخالق يرجع للإرادة ، والبارىء للقدرة ، والمُصَوِّر للحكمة ، والأحسن : أن يُقال : إنّ الخالق : المخترع للأشياء من غير أصل ، البارىء : المهيىء كلَّ ممكن لقبول صورته ، فهو من معنى الإرادة ؛ إذ متعلّقه التخصيص ، المُصَوِّر : المُعطي كل مخلوق ما هيىء له من صورة وجوده بحكمته ، فهو معاني اسمه " الحكيم ".

}

(٢٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧

له الأسماءُ الحسنى} لدلالتها على المعاني الحسنة ، وتقدم عدها في آخر الإسراء. {يُسبح له ما في السمواتِ والإرض} ؛ ينطق بتنزيهه عن جميع النقائص تنزيهًا ظاهرًا ، {وهو العزيزُ} لا يُغلب ، {الحكيمُ} الذي لايمكن الاعتراض عليه في شيء من تقديراته. ختم السورة بما بدأ به من التسبيح. عن

أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : سألت حبيبي رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن اسم الله الأعظم ؟ فقال : " عليك بآخر الحشر ، فأَكْثِر قراءته " ، فأعدتُ عليه ، فأعاد عليّ فأعدت عليه ، فأعاد عليّ ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " مَن قال حين يُصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السيمع

١٨

العليم ، من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكّلَ اللهُ سبعين ألف ملك يُصلُّون عليه حتى يُمسي ، فإذا مات في ذلك اليوم مات شهيدًا ، ومَن قالها حين يُمسي كان بتلك المنزلة " رواه الترمذي. وأسند ابن جزي حديثًا إلى عبد الله بن مسعود : أنه قال : قرأتُ على النبي صلى الله عليه وسلم فلما انتهيت إلى آخر الحشر ، قال : " ضع يدك على رأسك " قلت : ولِمَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : " أقرأني جبريلُ القرآنَ ، فلما انتهيت إلى آخر الحشر ، قال : ضع يدك على رأسك يا محمد ، قلت : ولمَ ذاك ؟ قال : إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه ، فلما انتهى إلى آخر الحشر ، أمر الملائكة أن تضع يدها على رؤوسها ، فقالت : يا ربنا ولِمَ ذلك ؟ قال : لأنه شفاء من كل داء إلا السام " وسمعتُ من شيخنا الفقيه الجنوي أنه حديث ضعيب ، يعمل به الإنسان وحده ، فإذا كان مع الناس تركه ، لئلا تعتقد العامة أنه مندوب أو واجب. هـ.

الإشارة : قد ذكرنا في تفسير الفاتحة الكبير كيفية التعلُّق والتخلُّق والتحقُّق بهذه الأسماء. وقال الورتجبي : بيّن بقوله : " الأسماء " أنَّ لذاته النعوت والأسامي القديمة المقدسة عن الإشراك والإدراك ، فلما ظهر بهذه الأوصاف أظهر أنوار صفاته في الآيات ، وألبس أرواح نوره الأرواح والأشباح والأعصار والأدهار والشواهد والحوادث ، فسبّحه الكلُّ بألسنة نورية غيبية صفاتية ، لقوله : {يُسبح له...} الآية ، قلت : أرواح نوره هي أسرار ذاته اللطيفة السارية في الأشباح والأرواح والجمادات وجميع الموجودات ، التي بها قامت. قال : ثم بيّن أنه منزّه بتنزيهه عن تنزيههم وإدراكهم وعلمهم بقوله : {وهو العزيز الحكيم} العزيز عن الإدراك ، الحكيم في إنشاء الأقدار. تعالى الله عما أشار إليه الواصف الحدثاني واللسان الإنساني. هـ.

١٩

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٧

سورة الممتحنة

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٩

يقول الحقّ جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوَّكم أولياء} أي : أصدقاء ، نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أنه لمّا تجهز رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لغزوة الفتح ، كتب إلى أهل مكة ، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يُرديكم ، فخُذوا حِذركم. وفي رواية : كتب : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يسير إليكم بجيشٍ كالليل ، يسيل كالسيل ، فالحذرَ الحذرَ ، وأرسله مع " ساره " مولاة بني المطلب ، وقيل : كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعيط ، فنزل جبريلُ عليه السلام بالخبر ، فبعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عليًّا وعمّاراً ، وطلحة ، والزبير ، والمقداد ، وأبا مرثد ، وقال : " انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإنّ بها ظعينة ، معها كتاب إلى أهل مكة ، فخذوه منها ، وخلُّوها ، فإن أبتْ فاضربوا عنقها " فأدركوها ثمة ، فجحدت ، فسلّ عليٌّ سيفه ، فأخرجته من عِقاصِها. زاد النسفي : أنه عليه السلام أمَّن يوم الفتح جميعَ الناس إلاّ أربعة ، هي أحدهم ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً ، وقال : " ما حملك على

٢٠

هذا " ؟ فقال : يا رسول الله! ما كفرتُ منذ أسلمتُ ، ولا غششتُ منذ نصحتُ ، ولكني كنتُ امرءاً مُلْصَقًا في قريش ، ليس لي فيهم مَن يحمي أهلي ، فأردتُ أن أتخذ عندهم يداً ، وعملتُ أن كتابي لا يُغني شيئاً ، فصدّقه صلى الله عليه وسلم ، وقَبِلَ عُذره ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه سلم : " وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم " ففاضت عينا عمر رضي الله عنه ، أي : من بكاء الفرح. والعَدُو : فَعُول ، من : عدا ، ولكونه على زنة المصدر أوقع على الجمع إيقاعه على الواحد. وفي الآية دليل على أنّ الكبيرة لا تسلب الإيمان.

(٢٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠

وقوله : {تُلْقُونَ إِليهم بالمودةِ} : حال ، أي : لا تتخذوهم أولياء مُلقين إليهم ، أو : استئناف ، أو : صفة لأولياء ، أي : توصلون إليهم المودة ، على أن الباء زائدة ، كقوله : {وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة : ١٩٥] ، أو : تُلقون إليهم أخبارَ النبي صلى الله عليه وسلم بسبب المودة التي بينكم وبينهم ، فتكون أصلية. {وقد كفروا بما جاءكم من الحق} : حال من فاعل " تتخذوا " أو " تُلقون " ، أي : لا تتولوهم ، أو : لا تودوهم وهذه حالتهم يكفرون {بما جاءكم من الحق} ؛ الإسلام ، أو : القرآن ، جعلوا ما هو سبب الإيمان سبب الكفر. {يُخرجون الرسولَ وإِياكم} من مكة ،

وهواستئناف مُبيَّن لكفرهم وعتوهم ، أو حال من "كفروا ". وصيغة المضارع لاستحضار الصورة. وقوله : {أن تؤمنوا بالله ربِّكم} تعليل للإخراج ، أي : يُخرجونكم لإيمانكم ، {إن كنتم خرجتمْ جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي} ، هو متعلق بـ " لاتتخذوا " كأنه قيل : لا تودُّوا أعدائي إن كنتم أوليائي.

{تُسِرُّون إليهم بالمودةِ} أي : تُفضون إليهم بمودتكم سرًّا ، أو تُسِرُّون إليهم أسرارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بسبب المودة ، وهو استئناف وارد على نهج العتاب والتوبيخ. {وأنا أعلمُ} أي : والحال أني أعلم منكم {بما أخفيتم وما أعلنتم} ومُطلِع رسولي على ما تُسِرُّون ، فإني طائل لكم في الإسرار ، وقيل : الباء زائدة ، و " أعلم " مضارع و " ما " موصولة ، أو مصدرية. {ومَن يَفْعله منكم} أي : الاتخاذ {فقد ضَلَّ سواء السبيل} ؛ فقد أخطأ طريق الحق والصواب.

{إن يَثْقفوكم} أي : يظفروا بكم {يكونوا لكم أعداءً} أي : يُظهروا ما في قلوبهم من العداوة ، ويُرتبوا عليها أحكامها ، {ويبسُطُوا إليكم أيديَهم وألسنتهم بالسوء} ؛ بما يسوؤكم من القتل والأسر. {ووَدُّوا لو تكفرون} أي : تمنُّوا ارتدادكم. وصيغة الماضي لتحقُّق ودادهم قبل أن يثقفوكم.

{لن تنفَعَكُم أرحامُكُم} ؛ قراباتكم {ولا أولادُكم} الذين تُوالون المشركين لأجلهم ، وتتقرّبون إليهم محاماةً عليهم ، {يومَ القِيامة يَفْصِلُ بينكم} وبين أقاربكم

٢١

وأولادكم ، بما اعتراكم من أهوال ذلك اليوم ، حسبما نطق به قوله تعالى : {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ...} [عبس : ٣٤-٣٦] الآيات ، ويحتمل أن يكون ظرفًا لـ " تنفعكم " ، أي : لا تنفعكم أقاربكم يوم القيامة ، ثم استأنف بقوله : {يفصل بينكم} لبيان عدم نفعهم. وهنا قراءات بيّنّاها في غير هذا. {والله بما تعملون بصير} فيجازيكم على أعمالكم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠

الإشارة : أعدى الأعادي إليك نفسك ، فهي عدوة لله ولرسوله ولأوليائه ؛ لأنها أمّارة بالسوء ، ويُضاف إليها جنودها ، فيقال {يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء} ، من النفس وجنودها ، تُلقون إليهم بالمودّة والموافقة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق من طريق المجاهدة ، يُخرجون الرسول : الوارد الحقيقي ، أو الإيمان العياني ، من قلوبكم ، ويُخرجونكم من الحضرة كراهةَ أن تُؤمنوا بالله ربكم إيماناً حقيقيًّا ، إن كنتم خرجتم عن هواكم جهادًا في سبيلي ، وابتغاء مرضاتي ومعرفتي ، تُسِرُّون إليه بالمودة والموافقة ، وأنا أعلم بما أخفيتم من الميل إلى حظوظها ، وما أعلنتم ، ومَن يفعله ـ أي : الميل عن طريق المجاهدة ـ فقد ضلّ سواء السبيل ؛ طريق الوصول ، فقد قيل : " مَن رأيته يتبع الرُخص

والشهوات ، فاعلم أنه لا يأتي منه شيء ". لن تنفعكم أقاربكم ولا حظوظكم ، بدلاً من الله شيئًا " ماذا وجَدَ من فقدك " ، فالحظوظ الفانية تفنى وتبقى الحسرة والندامة. يوم القيامة يفصلُ بينكم وبينها ؛ لفنائها ، أو بينكم وبين ما تشتهون من دوام النظرة ، والله بما تعملون بصير ، فيُجازي على قدر الكدّ والتعب.

(٢٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٠

يقول الحق جلّ جلاله : {قد كانت لكم أُسوةٌ} أي : قدوة {حسنةٌ} أو : خصلة حميدة ، حقيقة بأن يُرتقى بها ويُقتدى ، كائنة {في إبراهيمَ والذين معه} من أصحابه المؤمنين ، أو : الأنبياء المعاصرين له ، وقريبًا من عصره ، ورجّحه الطبري وغيره ؛ لأنه لم يروا لإبراهيم أتباع مؤمنون وقت مكافحته نمرودًا. وقد قال لسارة ، حين رحل بها إلى الشام : " ليس على وجه الأرض مَن يعبد الله غيري وغيرك ". {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ} ، جمْع بريء ، كظريف وظرفاء ، أي : نتبرأ منكم {ومما تعبدون من دون الله} من الأصنام ، {كَفَرنا بكم} أي : بدينكم ، أو : معبودكم ، أو : بكم وبأصنامكم ، فلا نعتد ٢٢

بشأنكم وبآلهتكم ، {وبدا بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبداً} أي : هذا دأبنا أبداً {حتى تُؤمنوا بالله وَحْدَه} وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتنقلب العداوة حينئذ ولاية ، والبغضاء محبة.

وحاصل الآية : أنّ الحق تعالى يقول : إن كانت عداوة الكفار لكم إنما هي لأجل إيمانكم بالحق ، فعادوهم أنتم ، وكافحوهم بالعداوة ، وأَظْهِروا البغضاء لهم والمقت ، وصَرِّحوا أنّ سبب العداوة ليس إلاّ كفركم بالله ، وما دام هذا السبب قائمًا كانت العداوة ، حتى إن أزلتموه انقلبت العداوةُ مولاةً ، وأنتم مقتدون في ذلك بالخليل عليه السلام وسائر الأنبياء ، حيث كافحوا الكفارَ بالعداوة ، وتوكّلوا على الله. قال ابن عطية : هذه الأسوة مقيّدة بالتبرِّي من المشركين وإشراكهم ، وهو مطرد في كل ملة ، وفي نبينا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة على الإطلاق ، في العقائد وفي أحكام الشرع. هـ.

(٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢

فلكم أسوة فيمن تقدّم. {إِلاَّ قولَ إبراهيمَ لأبيه لأَستغفرنَّ لك} ، وذلك لموعدةٍ وعدها إياه ، أي : اقتدوا به في كل شيء ، ولا تقتدوا به في استغفاره لأبيه الكافر. واستغفاره عليه السلام لأبيه الكافر

جائز عقلاً وشرعاً قبل النهي ، لوقوعه قبل تبيُّن أنه من أصحاب الجحيم ، لكنه ليس مما ينبغي أن يُؤتسى به أصلاً. {وما أَمْلِكُ لك من الله من شيءٍ} أي : من هداية ومغفرة وتوفيق. وهذه الجملة من تمام قول المستثنى ، كأنه قال : أستغفرُ لك وما في طاقتي إلاّ الاستغفار ، إظهاراً للعجز وتفويضاً للأمر. {ربنا عليك توكلنا وإليك أَنَبْنا} أي : أَقبلنا ، {وإليك المصيرُ} ؛ المرجع ، وهو من تمام ما نقل عن إبراهيم عليه السلام ومَن معه مِن الأسوة الحسنة ، وهو راجع لِما قبل الاستثناء ، قالوه بعد المهاجرة ونشر البغضاء ، التجاء إلى الله تعالى في جميع أمورهم ، لا سيما في موافقة الكفرة ، وكفاية شرورهم ، وقيل : معناه : قولوا ، فيكون أبتداء كلام خطاباً لهذه الأمة ، وضعّفه أبو السعود. وتقديم المعمول لقصر التوكُّل والإنابة والمصير عليه تعالى.

{ربنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا} بأن تُسلطهم علينا ، فيفتنونا بعذاب لا نُطيقه ، {واغفر لنا} ما فرط منا ، {ربنا إنك أنت العزيزُ} الذي لا يذلّ مَن التجأ إليه ، ولا يخيب رجاء مَن توكل عليه ، {الحكيمُ} الذي لا يفعل إلاَّ ما فيه حكمة بالغة. وتكرير النداء للمبالغة في التضرُّع والالتجاء.

{لقد كان لكم فيهم} ؛ في إبراهيم ومَن معه {أُسوةٌ حسنةٌ} ، تكرير للمبالغة في الحث على الاقتداء به ، ولذلك صدّره بالقسم. وقوله : {لمَن كان يرجو اللهَ واليومَ الآخر} بدل من " لكم " ، وحكمته : الإيذان بأن مَن يؤمن بالله واليوم الآخر لا يترك الاقتداء بهم ، وأنّ تركه مخلّ بالإيمان بهما ، كما ينبىء عنه قوله تعالى : {ومَن يتولَّ فإنَّ اللهَ هو الغنيُّ الحميدُ} ، فإنه إنما يُوعَد بأمثاله الكفرة ، أي : هو الغني عن الخلق ، الحميد المستحق للحمد وحده.

٢٣

الإشارة : ينبغي للمريد أن يكون إبراهيميًّا ، يتبرأ من كل ما يشغله عن الله ، أيًّا مَن كان ، ويظهر العداوة والبغضاء لكل مَن يقطعه عن مولاه ، حتى يوافقه على طريقه وسيرته ، إلاّ على وجه النصيحة والدعاء إلى الله ، إن كان أهلاً لذلك ، فيُذكِّر مَن خالفه في طريقه ، فإن أيس منه استغفر له ، ودعا له بالهداية ، مُقرًّا بالعجز عن هدايته وتوفيقه ، ثم يلتجىء إلى مولاه في جميع أموره ، ويتحصّن بالله من فتنة أهل الظلم والغفلة. والله غالب على أمره.

(٢٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢

يقول الحق جلّ جلاله : {عسى اللهُ أن يجعلَ بينكم وبين الذين عادَيْتم منهم} ؛ من أقاربكم المشركين ، {مودةً} بأن يُوافقوكم في الدين. وَعَدهم بذلك لما رأى منهم من التصلُّب في الدين ، والتشديد في معاداة أقربائهم ، تطييباً لقلوبهم ، ولقد أنجز وَعْدَه الكريم ، فأسْلَم كثير منهم يوم فتح مكة ، فتصافوا ،

وتوادوا ، وصاروا أولياء وإخواناً ، وخالَطوهم وناكَحوهم. و " عسى " من الله واجبة الوقوع. {واللهُ قديرٌ} أي : مبالغ في القدرة على تغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة ، {واللهُ غفور رحيم} ، فيغفر لمَن أسلم من المؤمنين ويرحمهم ، أو : غفور لما فَرَط منكم من مولاتهم قبلُ ، وما بقي في قلوبكم من ميل الطبع إلى الرحم بعدُ ، رحيم لمَن لم تبقَ فيه بقية.

الإشارة : عسى الله أن يجعل بينكم وبين نفوسكم ، التي عاديتموها وخالفتموها ، وقطعتم مواد هواها ، مودةً ، حين تتهذّب وتتأدّب وترتاض بالمجاهدة ، فالواجب حينئذ البرور بها ، والإحسان إليها ، لأنها انقلبت روحانية ، تصطاد بها العلوم اللدنية ، والمعارف الربانية ، وفيها يقول شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه :

سايس من النفس جهدك

صبّح ومس عليها

لعلها تدخل في يدك

تعود تصطاد بها

فالآية تسلية وترجية لأهل المجاهدة من السائرين دون الواصلين ؛ فإنّ المجاهدة لا تكون إلاّ قبل المشاهدة ، أو : تكون تسلية لهم عند مقاطعة أقاربهم وعشائرهم ، حين فرُّوا عنهم لله ، بأن يهديهم الله ، حتى يوافقوهم على طريقهم. وبالله التوفيق.

(٢٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٣

يقول الحق جلّ جلاله : {لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تَبروهم} أي : لا ينهاكم عن البر بهؤلاء ، فـ " أن تبروهم " : بدل من الموصول ، {وتُقْسِطوا إِليهم} أي : تقضوا إليهم بالقسط ، أي : بالعدل ، ولا تظلموهم ، وإذا نهى عن الظلم في حق المشرك ، فكيف في حق المسلم ؟ {إِن اللهَ يُحب المُقسِطين} ؛ الحاكمين بالعدل ، رُوِي أن " قُتَيلةَ بنت عبد العزى " قَدِمَتْ مشركة على بنتها " أسماء بنت أبي بكر " رضي الله عنه ، بهدايا ، فلم تقبلها ، ولم تأذن لها بالدخول فنزلت ، وأمرها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن تقبل منها ، وتُكرمها ، وتُحسن إليها. وقيل : المراد بهم خزاعة ، وكانوا صالحوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألاّ يقاتلوه ، ولا يُعينوا عليه. قال المحلي : وهذا قبل الأمر بجهادهم. ومثله لابن عطية ، فإنه نقل الخلاف ، ثم قال : وعلى أنها في الكفار فالآية منسوخة بالقتال. هـ.

قال الكواشي : نزلت رخصة في صلة الذين لم يُعادوا المؤمنين ولم يُقاتلوهم. ثم قال : وفي هذه الآية

دلالة على جواز صلة الكفار ، الذين لم ينصبوا لحرب المسلمين ، وبِرهم ، وإن انقطعت الموالاة بينهم. هـ. قال القشيري : مَن كان فيهم حُسن خُلق ، أو للمسلمين منهم رِفْق ، أُمروا بالملاينة معهم ، شاهد هذه الجملة : " إنَّ الله يُحب الرِّفق في الأمر كله ". هـ. المحشي. وهذا : فيما لا ضرر فيه للمسلمين ، وفي المدارك : حكى الدارقطني أنَّ عبدَ وزيرِ المعتضد دخل على القاضي إسماعيل ، وكان نصرانيّاً ، فقام له ورحّب به ، فرأى إنكار مَن عنده ، فقال : علمت إنكاركم ، وقد قال تعالى : {لا ينهاكم الله...} الآية ، وهذا رجل يقضي حوائج المسلمين ، وهو سفير بيننا وبين المعتضد ، وهذا مَن البر ، فسكت الجماعةُ عند ذلك. هـ. قال البرزلي : ولعله رأى ذلك ضرورة ، وتأنّس بظاهر الآية ، وخاف مِن أذاه إن لم يفعل ذلك. هـ.

(٢٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤

وفي حديث الجامع : " بُعثتُ بمداراة الناس " ، قيل : والفرق بينها وبين المداهنة : أنَّ المداهنة : إظهار الرضا بفعل الفاسق من غير إنكار عليه ، والمداراة : هي الرفق في تعليم الجاهل ، والملاطفة في نهي الفاسق عن فعله ، وقد قال تعالى : {فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا} [طه : ٤٤] ، وقيل : المداهنة : ترك الدين بالدنيا ، والمداراة : بيع الدنيا بحفظ الدين.

وقد عَدّ السهروردي في " الآداب " مِن رُخص الصوفية : التكلُّف مع أبناء الدنيا

٢٥

والرؤساء والسلاطين ، والقيام لهم ، وحسن الإقبال عليهم ، والأدب في ذلك : إلاّ يكون طمعاً في دنياهم ، ولا اتخاذ جاه عندهم كان صلى الله عليه وسلم يدخل عليه سادات قريش فيُكرمهم ، ويُجلهم ، ويُحسن مجالستهم ، وقال : " إذا أتاكم كريم قوم فأكرِموه " هـ. وانظر الأصل الرابع والثمانين في إنزال الناس منازلهم ، فقد ذكر فيه : أن العاقل عن الله يُعاشر الناس على ما دبَّر الله لهم ، فالغَنِيّ قد أكرمه الله كرامةَ ابتلاء ، كما ذكر في تنزيله ، فإذا لم تُنزله المنزلةَ التي أنزله الله فيها ، فاستهنت به ، وحقّرته من غير جرم استحق بذلك الجفاء ، فقد تركتَ موافقة الله في تدبيره ، وأفسدت عليه دينه وأثمتَه ، وكذلك معاملة الملوك والوُلاة على هذا السبيل ، فإذا عاملت الملوك والسلاطين بمعاملة الرعية ، فقد استخففت بحق السلطان ، وكيف يجوز أن تستخف بحقه ، والسلطان ظل الله في الأرض ؟ به تسكن النفوس ، وتجمع الأمور ، والناظر إلى ظل الله عليهم في الشغل عن الالتفات إلى أعمالهم.

ثم ذكر أنّ ضد ما ذكر مِن ضعف المعرفة واليقين ، وعدم التخلُّص من النفس ، فلم تكن لقوتهم مطالعة ما ذكر ، فخافوا على نفوسهم من مخالطتهم أن يجدوا حلاوة بِرهم ، فتخلط قلوبُهم بقلوبهم ،

فجانبوهم ، والآخرون نظروا إليهم بغير الجمع ، فشغلوا بما ألبسَهم مِن ظله عن جميع ما هم فيه ، فلم يضرهم اختلاطهم بهم. وبهذه القوة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقون الأمراء ، الذين قد ظهر جَوْرهم ، ويقبلون جوائزهم ، فكان ابن دينار ومحمد بن واسع ، ومَن قبلهم ، والحسن البصري ، يلقون الأمراء ويَقبلُون منهم ، فكانوا يلقونهم بما ذكر من رؤية ظل الله عليهم ، ويُظهرون العطف عليهم والنصيحة لهم.

ثم وَجَّه حديثَ ابن عباس : " ملعون مَن أكرم بالغنى وأهان بالفقر " فإنَّ معناه : مَن عظَّم الدنيا وعظَّم أهلها ، فأمّا مَن دقت الدنيا في عينه ، يرى أهلَها مُبْتَلون بها ، بما تقتضيه من القيام بالشكر ، ثم غرقه في حِسَابه ، فيرحمه كما يرحم الذي ذهب به السيل ، ويكرمه ، ويبره بما عَوّده الله ، وأبقاه على دينه ، لئلا يَفسد ، فذلك فعل الأنبياء والأولياء ، وبذلك وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه " فهو إنما يُكرم لله ويهين لله ، لا للدنيا ، ومن فعل ذلك للدنيا كان ملعونًا ، ثم ذكر حديث : " مَن أُعطي حظه من الرفق أُعطي حظَّه من خير الدنيا والآخرة ، من حُرمه حُرم كذلك " ، ثم ذكر قصة نسْطُور

٢٦

صاحب ابن مريم عليه السلام ورفقه وتلطُّفه مع ذلك الملك الذي سجن صاحبيْه ، حتى استخلصهما منه برفق ، وأعلم الملكَ وجميعَ الناس في قضية عجيبة ، فعليك بها.

}

(٣٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤

إنما ينهاكم اللهُ عن} موالاة {الذي قاتلوكم في الدين وأَخْرَجوكم من دياركم} ، وهم عتاة أهل مكة ، {وظاهَرُوا} أي : عاوَنُوا {على إخراجكم} وهم سائر أهلها ، {أن تَوَلَّوْهم} : بدل اشتمال من الموصول ، والمعنى : لا ينهاكم عن مبرة مَن لم يتعرّض لكم ، إنما ينهاكم عمّن أذاكم {أن تَولَّوهُم ومَن يتولهمْ فأولئك هم الظالمون} حيث وضعوا التولي في غير موضعه. الإشارة : لا ينهاكم الله عن النفوس المطيعة ، التي لم تصدكم عن السير إلى الحضرة ، أن تبرُّوا بها ، وترفقوا بها ، إنما ينهاكم عن النفوس الفاجرة ، التي قاتلتكم ، وصدّتكم عن الحضرة ، وأخرجتكم عن دائرة الولاية ، باتباع هواها أن تولوها ، وتسعوا في حظوظها وهواها ، ومَن يتولها ، وبقي في رِقِّها ؛ فقد ظلم نفسه وبخسها ، حيث حرمها نعيمَ الحضرة. أو : لا ينهاكم الله عن بعض العامة ، التي لا مضرة فيهم ، أن تبرهم بالوعظ والتذكير ، وتُقسطوا إليهم بقول الإحسان ، إنما ينهاكم عن أهل الإنكار المخالفين لكم ، من الجبابرة الغافلين ،

والقراء المداهنين ، والعلماء المتجبرين ، والفقراء الجاهلين ، أن تولوهم ؛ فإنَّ مخالطتهم سم قاتل للمريد ، ومَن يتولهم لا يُفلح أبدًا.

(٣١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٤

قلت : {إذا جاءكم المؤمناتُ} إنما حُذفت تاء التأنيث للفصل بالمفعول ، ورُدّ بأنّ الحذف مع الفصل بغير " إلاّ " مرجوح ، والصواب : أنه على حذف الموصوف ، أي : النساء المؤمنات ، وهو اسم جمع ، يجوز في الأمران ، كقوله تعالى : {وَقَالَ نِسْوَةٌ...} [يوسف : ٣٠].

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمناتُ} أي : مُشْرِفات على الإيمان ونَطَقْن بالشهادة ، وإنما ظهر بعد الامتحان ، {مُهاجراتٍ} من بين الكفار ، {فامْتَحِنُوهن} ؛ فاختبروهن بما يغلب على ظنكم موافقة قلوبهن للسانهن. كان صلى الله عليه وسلم

٢٧

يستحلفهن : ما خرجن من بُغض زوْج ، ولا رغبة من أرض إلى أرض ، ولا التماسَ دُنيا ، ولا عشقًا لرجل منا بل حبًّا لله ورسوله. وقد كان صلى الله عليه وسلم صالح أهلَ مكة على أنَّ مَنْ أسلم منهم يَرُده إليهم ، فجاءت " سُبيْعَةُ بنت الحارث " مُسْلِمةً بعد الفراغ من الكتاب ، فقال زوجها : اردد عليّ امرأتي ، فنزلت ، فاستحلفها صلى الله عليه وسلم بما تقدّم ، فحلفت ، فلم يردها عليه ، وأعطى مهرها زوجَها ، فتزوجها عمرُ ، فكان صلى الله عليه وسلم يَرُد مَن جاء من الرجال ، ولا يَرُد النساء. وعن ابن عباس : امتحانها : أن تقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنّ محمدًا رسول الله.

{اللهُ أعلم بإيمانهن} ، لأنه المُطّلع على قلوبهن. وفيه إشارة إلى التخفيف في الامتحان ، وأنه ليس المطلوب غايته لتصلوا إلى العلم ، بل ما يحصل به الظن القوي ، وأما العلم فخاص بالله تعالى. {فإن عَلِمْتُموهن مؤمناتٍ} ، العلم الذي تبلغه طاقتكم ، وهو الظن القوي ، بظهور الأمارات. وتسمية الظن علمًا يُؤذن بأنَّ الظن الغالب ، وما يفضي إليه القياس ، جارٍ مجرى العلم ، وصاحبه غير داخل في قوله : {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء : ٣٦]. قاله النسفي. {فلا تَرْجِعُوهنَّ إلى الكفار} أي : إلى أزواجهن الكفرة ، {لا هُنَّ حِلٌّ لهم ، ولا هم يَحِلُّونَ لهن} ، تعليل للنهي ، أي : حيث خرجت مسلمة حَرُمت على المشرك. والتكرير إما لتأكيد الحرمة ، أو الأول : لبيان زوال النكاح الأول ، والثاني : لبيان امتناع النكاح الجديد ، ما دام مشركاً ، فإنْ أسلم في عِدتها كان أولى بها.

}

(٣٢/٨)

وآتوهم ما أنفقوا} أي : أعطوا أزواجَهن مثلَ ما دفعوا من المهور ، {ولا جُناحَ عليكم أن تَنكحوهن} ، فإنَّ إسلامهن حالَ بينهن وبين أزواجهن الكفار ، {إذا آتيتموهن أُجورهنَّ} ؛ مهورهن ؛ لأنّ المهر أجر البُضْع ، وبه احتجّ أبو حنيفة على ألاّ عِدَّة على المهاجِرة. قال الكواشي : أباح تعالى نكاحهن وإن كان لهن أزواج في دار الحرب ؛ لأنَّ الإسلام فرّق بينهن وبين أزواجهن بعد انقضاء العدة ، فإن أسلم الزوج قبل انقضاء العدة فهي امرأته عند مالك والشافعي وأحمد ، خلافاً لأبي حنيفة في غير الحامل. هـ. {ولا تُمسكوا بِعِصَم الكوافرِ} ، العصمة : ما يعتصم به من عقدٍ وسبب. والكوافر : جمع كافرة ، وهي التي بقيت في دار الحرب ، أو : لحقت بدار الحرب مرتدةً ، أي : لا يكن بينكم وبين النساء الكوافر عصمة ولا عُلقة زوجية. قال ابن عباس رضي الله عنه : مَن كانت له امراة كافرة بمكة فلا يعتَدنَّ بها من نسائه ؛ لأنَّ اختلاف الدارين قطع عصمتها منه. ولمّا نزلت الآية طلَّق عمرُ رضي الله عنه امرأتين كانتا له بمكة ، قُرَيْبَة بنت أبي أمية ، وأم كلثوم الخزاعية.

{واسألوا ما أنفقتم} من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ، أي : اطلبوه من الكفرة ، {وَلْيَسْألوا ما أنفقوا} من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوجها منا. {ذلكم حُكْمُ الله} أي : جميع ما ذكر في هذا الآية. وقوله : {يحكم بينكم} : كلام مستأنف أو : حال من " حُكم الله " على حذف الضمير ، أي : يحكمه الله ، وجعل الحُكْم حاكماً على

المبالغة وقال : " يحكم " مستقبلاً ، مع أن الحكم ماضٍ باعتبار ظهور متعلقة ، {والله عليم حكيمٌ} يشرع ما تقتضيه الحكمة البالغة.

رُوي أنه لمّا نزلت الآية أدّى المؤمنون ما أُمروا به من مهور المهاجرات إلى أزواجهن من المشركين ، وأبى المشركون أن يردُّوا شيئًا من مهور الكوافر إلى أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله تعالى : {وإن فاتكم} أي : سبقكم وانفلت منكم {شيءٌ من أزواجكم إلى الكفار} أي : أحَدٌ من أزواجكم ، وقرىء به. وإيقاع " شيء " موقعه للتحقير والتعميم ، {فعاقبتم} ، من المعاقبة ، لا من العقوبة ، أي : صرتم منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم ، وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم ، شبّه ما حكم به على المسلمين والكافرين ، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة ، وأداء هؤلاء مهور نساء هؤلاء أخرى ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب في الركوب وغيره. {فآتوا الذين ذهبتْ أزواجُهم} منكم إلى الكفار {مثلَ ما أنفقوا} ، تُعطوه من مهر المهاجرة التي تزوجتموها ، ولا تؤتوا زوجها الكافر شيئًا ، أي : ما كنتم تُعطونه للكفار من مهور أزواجهم المهاجرات أعطوه لمَن فاتت زوجته ولحقت بالكفار ، فأزال الله دفعها إليهم ، حين لم يرضوا بحُكمه ، على أنّ هذا حكم قد نُسخ. قال ابن عطية : وهذه الآية كلها قد

ارتفع حكمها. هـ. وذكر الكواشي الخلاف في النسخ وعدمه ، وأنَّ رد المال مستمر ، وذكر الخلاف في أنَّ الإنفاق كان على الوجوب أو الندب. هـ.

(٣٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧

وقيل : معنى " فعاقبتم " من العقوبة ، أي : فأصبتموهم في القتال ، حتى غنمتم ، فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ، ولحقْن بدار الحرب مهورَ زوجاتهم من هذه الغنيمة. قال ابن عباس : خمس نسوة رجعن عن الإسلام ، ولحقن بالمشركين ، من نساء المهاجرين : أم الحكم بنت أبي سفيان ، وكانت عند عياض بن شداد ، وفاطمة بنت أبي أمية ، أخت أم سلمة ، وكانت تحت عمر بن الخطاب ، وعزةُ بنت عبد العزى ، كانت تحت هشام بن العاص ، وأم كلثوم بنت جرول ، كانت تحت عمر أيضًا ، فأعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم مهور نسائهم من الغنيمة. هـ. {واتقوا اللهَ الذي أنتم به مؤمنون} أي : احذروا أن تتعدُّوا ما أُمرتم به ؛ فإن الإيمان يقتضي فعل ما أمر به صاحبه.

الإشارة : يا أيها الذين آمنوا إيمان الخصوص ، وهم المشايخ العارفون ؛ إذا جاءكم النفوس المؤمنه بطريقكم ، وأرادوا الانخراط في سلككم ، فامتحنونهن ، هل هي صادقة الطلب ، أو تريد حرفًا من حروف الهوى ، فإن علمتم صدقهن ، فلا تردجعوهن إلى أهل الغفلة ، سيما أهل الإنكار ؛ إذ لا يحل مخالطتهم في طريق الخصوص ، وآتوهم من العلوم والمعارف عِوض ما أنفقوا من أنفسهم وأموالهم ، ولاجناح عليكم أن تعقدوا عليهم عقدة الإرادة ، التي هي كعقدة النكاح إذا آتيتموهن أجورهن ، وهو أن تبذلوا لهم ما عندكم من

٢٩

السر ، قدر ما يطيقون ، ومن نقض العهد ورجع عن الإرادة فلا تُمسكوا بعصمته ، وأطلقوه مع نفسه ، فإن سألكم شيئًا مما كان بذل فسلوه عوض ما بذلتم له من العلم ، وإن رجع أحد منكم إلى أهل الإنكار ، ثم جاء أحد منهم إليكم فآتوه من العلم ما آتيتم مَن فرّ منكم ، واتقوا الله الذي توجهتم إليه ، فلا تُعطوا السر مَن لا يستحقه ، ولا تمنعوه من مستحقه. والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

(٣٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبي إذا جاءك المؤمناتُ} حال كونهن {يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ

بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُن} ، يريد : وأد البنات ، {وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ} ، كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هو ولدي منك. كنَّى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها كذباً ؛ لأنّ بطنها الذي تحمله فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلد منه بين الرِجلَين. {ولا يَعْصِينَكَ في معروفٍ} أي : فيما تأمرهن من معروف ، وتنهاهن عن منكر. والتعبير بالمعروف مع أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلاّ به ؛ للتنبيه على أنه لا تجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق. وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهن ؛ لكثرة وقوعها فيهن. {فبايعْهُنَّ} على ما ذكر وما لم يذكر ؛ لوضوح أمره ، {واسْتَغفِرْ لهنَّ اللهَ} فيما مضى ، {إِنَّ الله غفور رحيمٌ} أي : مبالغ في المغفرة والرحمة ، فيغفر لهن ويرحمهن إذا وَفَّيْن بما بايعن عليه.

رُوي : أنه صلى الله عليه وسلم لمّا فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال ، أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعُمرُ قاعد أسفل منه ، يُبايعهنّ عنه بأمره ، وهند بنت عتبة ـ امراة أبي سفيان ـ متقنّعه متنكّرة مع النساء ، خوفًا من النبي صلى الله عليه سلم أن يعرفها ، فقال صلى الله عليه وسلم : " أبايعكن على ألا تُشركن بالله شيئًا " فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا شيئًا ما رأيتك أخذته على الرجال ـ لأنه عليه السلام بايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط ـ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ولا تسرقن " فقالت هند : إنّ أبا سفيان رجل شحيح ، وإني أصَبتُ منم ماله هَنَاتٍ ، فقال أبو سفيان : هو لك حلال ، فقال : " ولا تزنين " فقالت هند : أَوَتزني الحُرّة ؟ فقال : " ولا تقتلن أولادكنّ " ، فقالت هند : رَبيناهم صغارًا وقتلتموهم كبارًا ، وكان ابنها قُتل يوم بدر ، فقال : " ولا تأتين ببهتان... " الخ ، فقالت هند : والله إنّ البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق! فقال : " ولا تعصين في معروف " فقالت : وما جلسنا في مجلسنا

٣٠

هذا وفي أنفسان أن نعصيك في شيء ، فأقرّ النسوةُ بما أخذ عليهن.

(٣٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠

وقالت أميمة : يا رسول الله ، صافحْنا ؟ فقال : " إني لا أُصافح النساء ، إنما قَوْلي لامرأة كقولي لمائة امرأة " ، قالت عائشة : ما مست يدُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يدَ امرأةٍ قط ، إنما بايعهن كلامًا ، وقيل : لفّ على يده ثوبًا ، وقيل : غمس يده في قدح ، فغمسْن أيديهن فيه. والله تعالى أعلم.

الإشارة : الشيخ في قومه كالنبي في أمته ، فيُقال له : إذا جاءك النفوسُ المؤمنةُ يُبايعنك على ألا ترى

مع الله شيئاً ، ولا تميل إلى الدنيا ، ولا إلى الهوى ، ولا تهمل ما تنتج أفكارُها من الواردات ، ولا تأتي ببهتان تفتريه ؛ بأن تنسب فعلاً إلى غير الله ، أو بأن تكذب في أحوالها وأقوالها ، ولا تعصي فيما تأمرها وتنهاها ، فإن جاءت على ما ذكر فبايعها واستغفِر لها الله فيما فرّطت فيه ، إنّ الله غفور رحيم.

٣١

(٣٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠

سورة الصف

(٣٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣١

يقول الحق جلّ جلاله : {سَبَّح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيزُ الحكيم}. ولمَّا قال بعضُ الصحابة : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لبذلنا في أموالنا ، فنزلت أية الجهاد ، فتباطأ بعضُهم ، فنزلت : {يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون}. وقيل : لمَّا أخبر الله بثواب شهداء بدر ، فقالوا : والله لئن شَهِدنا قتالاً لنُفْرِغَنَّ فيه وُسْعَنا ، ففرُّوا يوم أُحُد ، فنزلت. وقيل : نزلت فيمن يمدح كذباً ، حيث كان يقول : قتلتُ ، ولم يقتل ، وطعنتُ ، ولم يطعن ، وقيل : كان رجل قد آذى المسلمين يوم بدر ونكأ فيهم ، فقتله صُهيب ، وانتحل قتله آخر ، فنزلت في المنتحِل. أي : لأيّ شيء تقولونه من الخير والمعروف ، على أنّ مدار التوبيخ إنما هو عدم فعلهم ، وإنما وجّه إلى قولهم تنبيهاً على تضاعيف معصيتهم ، لبيان أنَّ المنكَر ليس ترك الخير الموعود فقط ، بل الوعد به أيضاً ، وقد كانوا يحسبونه معروفاً ، ولو قيل : لِمَ لا تفعلون ما تقولون ، لفُهم منه أنّ المنكَر إنما هو ترك المفعول. {كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} ، هو بيان لغاية قُبح ما فعلوا ، وفرط سماحته ، و " كَبُرَ " جارية مجرى نعم ، بزيادة معنى التعجُّب ، ومعنى التعجُّب : تعظيم الأمر في قلوب السامعين ؛ لأنّ التعجُّب لا يكون إلاّ مِن شيءٍ خارج عن نظائره ، وفي " كَبُرَ " ضمير مبهَم مفسَّر بالنكرة بعده ، و " أن تقولوا " هو المخصوص بالذم ، وقيل : قصد فيه التعجُّب من غير لفظه ، وأُسند إلى " إن تقولوا " ، ونصب " مقتاً " على تفسيره ، دلالةً على أنّ

٣٣

قولهم ما لا يفعلون مقتٌ خالص لا شوب فيه ، كأنه قيل : ما أكبر مقتاً قولهم بلا عمل.

ثم بيَّن ما هو مَرْضِي عنده ، بعد بيان ما هو ممقوت بقوله : {إِنَّ اللهَ يُحب الذين يُقاتِلون في سبيله} ، وهو المقصود بالذات من السورة ؛ وقوله : {صفًّا} أي : صافِّين أنفسهم ، أو مصفوفين ، مصدر وقع موقع الحال ، {كأنهم بُنيان مرصُوص} ؛ لاصق بعضه ببعض ، وقيل : أريد : استواء نيّاتهم في حرب عدوّهم ، حتى يكونوا في اجتماع الكلمة كالبنيان الذي رُصَّ بعضه إلى بعض ، وهو حالٌ أيضاً ، أي : مشبّهين بالبنيان الملاصق. قال ابن عرفة : التشبيه في الثبات وعدم الفرار كثبوت البناء ولزومه. هـ.

(٣٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣

الإشارة : {سَبَّحَ لله} ، قال الورتجبي : لمَّا عاينوا آيات الله طلبوا فيها مشاهدة الله ، فوجدوا في نفوسهم تأثير مباشرة نور قدرة الله ، فقدَّسُوه أنه باين بوجوده من الحدثان. هـ. قوله تعالى : {كَبُرَ مقتًا}... الخ ، قال القشيري : خُلفُ الوعد مع كلِّ أحدٍ قبيحٌ ، ومع الله أقبح ، ويُقال : إظهارُ التجلُّدِ من غير شهودِ مواضعَ الفقر إلى الحقِّ في كل نَفَسٍ يؤذِنُ بالبقاء مع ما حصل به الدعوى ، واللهُ يحب التبرِّي من الحول والقوة. ويقال : لم يتوعَّد على زَلَّةٍ بمثْلِ ما توعَّد على هذا ، بقوله : {كَبُرَ مقتًا عند الله}. هـ. ولذا فرّ كثير من العلماء عن الوعظ والتذكير ، وآثروا السكوت ، كما قال بعضهم :

لو كان ينفعني وعظي وعظتُكم

أنا الغريق فما خوفي مِن البلل

قال أبو زيد الثعالبي : وهذا إن وَجد مَن يكفيه ويقوم عنه في الوعظ ، وإلاّ فلا ينبغي السكوت. قال الباجي في سنن الصالحين ، عن الأصمعي : بلغني أنَّ بعض الحُكماء كان يقول : إني لأعظكم ، وإني لكبير الذنوب ، ولو أنَّ أحداً لا يعظ أخاه حتى يُحْكِم أمرَ نفسه لتُرك الأمر بالخير ، واقتُصر على الشر ، ولكن محادثة الإخوان حياة القلوب وجلاء النفوس ، وتذكير مِن النسيان. وقال أبو حازم : إني لأعظ الناسَ ، وما أنا بموضع الوعظ ، ولكن أُريد به نفسي. هـ. قلت : وكان شيخ شيوخنا سيدي على الجمل العمراني رضي الله عنه يقول حين يُذَكِّر : نحْن ما ننبَحُ إلاّ على نفوسنا. هـ.

ثم قال : وقال الحسن لِمطرف : عِظ أصحابك ، فقال : أخاف أنْ أقولَ ما لا أفعل ، فقال : يرحمك الله ، وأيّنا يفعل ما يقول ، ودّ الشيطانُ لو ظفر منكم بهذه ، فلم يأمر أحدٌ منكم بمعروف ولم ينهَ عن منكر. هـ. وفي حديث الجامع : " مُروا بالمعروف وإنْ لم تَفعلُوه ، وانْهَوْا عن المنكرِ وإن لم تَتجنبُوه " وقال الغزالي : مَن ترك العمل خوف الآفة والرياء ، فإنَّ ذلك منتهى بغية الشيطان منه ، إذ المراد منه ألاَّ يفوته الإخلاص ، ومهما ترك العمل فقد ضيَّع العمل والإخلاص. هـ. قلت : ولا شك أنَّ الوعظ مِن المخلصين وأهل

٣٤

القلوب ، أشد تأثيراً من غيرهم ، فإنَّ الكلامَ إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان حدّه الآذان ، وفي الحِكَم : " تسبق أنوارُ الحكماء أقوالَهم ، فحيث ما صار التنوير وصل التعبير ". فأهل النور تسري أنوارُهم في الجالسين قبل أن يتكلموا ، وربما انتفع الناسُ بصمتهم ، كما ينتفعون بكلامهم ، وأمّا أهل الظُلمة . وهو مَن في قلبه حُب الدنيا . فكلامهم قليل الجدوى ، تسبق ظلمةُ قلوبهم إلى قلوب السامعين ، فلا ينتفع إلاّ القليل.

(٣٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٣

يقول الحقّ جلّ جلاله : واذكر يا محمد لهؤلاء المعرضين عن الجهاد قول موسى لبنى إسرائيل ، حين ندبهم إلى قتل الجبابرة ، بقوله : {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ} [المائدة : ٢١] الآية ، فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد عِصيان ، حيث قالوا : {يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...} [المائدة : ٢٢] الآية ، إلى أن قالوا : {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ...} [المائدة : ٢٤] الآية. وآذوه عليه السلام كل الإذاية فقال : {يا قوم لِمَ تُؤذونني وقد تعلمون أني رسولُ الله إليكم} ، فالجملة : حال ، والحال أنكم تعلمون عِلماً قطعياً ، مستمراً ، بمشاهدة ما ترون من المعجزات الباهرة ، أني رسولُ الله إليكم ، لأُرشدكم إلى خير الدنيا والأخرة ، ومِن قضية عِلْمكم أن تُبالغوا في تعظيمي ، وتُسارعوا إلى طاعتي ، {فلما زاغوا} أي : أصرُّوا على الزيغ عن الحق الذي جاءهم به ، واستمروا عليه {أزاغ اللهُ قلوبَهم} ؛ صرفها عن قبول الحق ، والميل إلى الصواب ، لصرف اختيارهم نحو الغيّ والإضلال ، {واللهُ لا يهدي القوم الفاسقين} أي : لا يهدي القوم الخارجين عن الطاعة ومنهاج الحق ، المصرِّين على الغواية ، هدايةً موصّلَة إلى الطاعة وحسن الأدب ، والمراد بهم المذكورون خاصة ، والإظهار في موضع الإضمار لذمِّهم بالفسق وتعليل عدم الهداية ، أو جنس الفاسقين ، وهم داخلون في حكمهم دخولاً أوليًّا ، وأيًّا ما كان فوصفهم بالفسق نظر إلى ما في قوله تعالى : {فافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة : ٢٥] ، هذا الذي تقتضيه جزالة النظم الكريم ،

٣٥

ويرتضيه الذوق السليم. انظر أبا السعود.

}

(٤٠/٨)

وإذ قال عيسى ابنُ مريم يا بني إسرائيلَ} ، لم يقل : يا قوم ، كما قال موسى ، لأنه لا نسب له فيهم من جهة الأب ، حتى يكونوا مِن قومه : {إني رسولُ الله إليكم} ، كان رسولاً لهم ولمَن دخل معهم ، كالنصارى ، {مُصَدِّقًا لما بين يديَّ مِن التوراة} ، وهو من إحدى الدواعي إلى تصديقهم إياه ، {ومُبشِّرًا برسولٍ يأتي من بعدي} ، وهو من الدواعي أيضاً إلى تصديقه ؛ لأنَّ بشارته به عليه السلام واقعة في التوراة ، أي : أُرسلت إليكم في حال تصديقي للتوراة ، وفي حال بشارتي برسول يأتي من بعدي ، يعني : أنَّ ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه ، مَن تقدّم ومَن تأخّر ، وهذا الرسول {اسمُه أحمدُ} وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

قال القشيري : كل نبيٍّ بشّر قومَه بنبيِّنا صلى الله وعليه وسلم ، وأفرد اللهُ عيسى بالذِّكْرِ في هذا الموضع لأنه أخِرُ نبيٍّ قبل نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، فبيّن أنّ البشارة به عَمَّتْ جميعَ الأنبياء واحداً بعد واحدٍ حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام. هـ. قال الكواشي : و " أحمد " بناء مبالغة ، والمعنى : أنَّ الأنبياء كلهم حمّادون الله ، وهو أكثر حمداً مِن غيره ، وكلهم محمودون لِما فيهم جميل الأخلاق ، وهو أكثرهم خِلالاً حميدة. ثم قال : وعن كعب : قال الحواريون : يا روح الله ؛ هل بعدنا من أمة ؟ قال : نعم ، أمة أحمد ، حكماء ، علماء ، أبراراً ، أتقياء ، كأنهم من الفقه أنبياء ، يرضون من الله باليسير من الرزق ، ويرضى باليسير من العمل. هـ. وقال السهيلي : في اسمه " أحمد ومحمد " إشارة إلى كونه خاتماً ؛ لأنَّ الحمد مشروع عند انقضاء الأمور واختتامها وتمامها.هـ.

{فلما جاءَهم} أيك عيسى ، أو محمد . عليهما السلام . {بالبيناتِ} ؛ المعجزات الظاهرة ، {قالوا هذا سِحرٌ مبين} ؛ ظاهر سحريته ، وقرأ الإخوان " ساحر " وصف للرسول.

{ومَن أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ وهو يُدْعَى إلى الإسلام} أي : أيّ الناس أشد ظلماً ممن يُدْعى إلى سعادة الدارين ، فيضع موضع الإجابة الافتراءَ على الله عزّ وجل ، بقوله لكلامه الذي دعا عباده إلى الحق : هذا سحر ؟ أي : هو أظلم من كل ظالم ، {واللهُ لا يهدي القومَ الظالمين} أي : لا يُرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ؛ لعدم توجههم إليه. {يُريدون لِيُطفئوا نورَ الله بإفواههم} أي : دينه أو : كتابه ، أو حجته النيِّرة ، واللام مزيدة ، أي : يُريدون إطفاءَ نور الله ، أو للتعليل والمفعول محذوف ، أي : يريدون الكذب ليُطفئوا نورَ الله ، وهو تهكُّم بهم في إرادتهم إبطال الإسلام ، بقولهم في القرآن : هذا سحر ، مُثِّلت حالهم بحال مَن ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه ، {والله مُتِم نُوره} أي : مبلغه إلى غاية يُنشره في الآفاق ، ويُعليه على الأديان {ولو كَرِه الكافرون}.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥

هو الذي أرسل رسولَه بالهُدى} ؛ بالقرآن ، أو بالمعجزات ، أو بالهداية {ودين الحق} ؛ الملة الحنيفية {ليُظهره على الدين كلِّه} أي : ليعليه على جميع الأديان المخالفة

٣٦

له ، ولقد أنجز الله ـ عزّ وعلا ـ وعده ، حيث جعله بحيث لم يبقَ دين من الأديان إلاَّ وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. وعن مجاهد : إذا نزل عيسى لم يكن إلا دين الإسلام. هـ. {ولو كَرِه المشركون} ذلك ، قال الطيبي : قوله تعالى : {ومَن أظلم...} الخ ، حذَّر تعالى مما لقي قوم موسى من إزاغة القلوب ، والحرمان من التوفيق ، بسبب الأذى ، وما ارتكب قوم عيسى بعد مجيئه بالبينات من تكذيبه وقولهم فيه : " هذا سحر مبين " ، ألاَ ترى كيف جمع الكل في قوله : {ومن أظلم...} الآية ، قال : وقضية الدعوة إلى الإسلام توقير مَن يدعو إليه ، وإجابة دعوته. ثم قال : وأمّا قوله : {والله لا يهدي القوم الظالمين} هو تذييل لقوله : {ومَن أظلم ممن أفترى...} الآية ؛ لأنّ الظلم هو : وضع الشيء في غير محله ، وأيُّ ظلم أعظم من جعل إجابة الداعي إلى الله مفترياً ؟ ! والكفر : التغطية ومحاولة إطفاء النور إخفاء وتغطية ، ودين الحق هو التوحيد ، والشركُ يقابله ، ولذلك قال : {ولو كره المشركون}. هـ. الإشارة : سوء الأدب مع الأكابر ، وإذايتهم ، سبب كل طرد وبُعد ، وسبب كلّ ذُل وهوان ، وحسن الأدب معهم وتعظيمهم ، سبب كُلِّ تقريب واصطفاء ، وسبب كُلِّ عز ونصر ، ولذلك قال الصوفية : " اجعل عَمَلك مِلحًا ، وأدبك دقيقًا ". ألآ ترى بنى إسرائيل حين أساؤوا الأدب مع نبي الله موسى بقولهم : {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلآ...} [المائدة : ٢٤] الخ كيف أذلَّهم الله وأخزاهم إلى يوم القيامة ، وانظر أصحابَ نبينا صلى الله عليه وسلم حيث تأدّبوا غاية الأدب ، وقالوا يوم بدر : " لا نقول كما قالت بنو إسرائيل : اذهب أنت وربك ، ولكن اذهب أنت وربك ونحن معك ، والله لو خُضت بنا ضحضاح البحر لخضناه معك " كيف أعزَّهم الله ونصرهم على سائر الأديان ، ببركة حُسن أدبهم ـ رضي الله عنهم وأرضاهم.

(٤٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٥

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا هل أَدُلُّكُمْ على تجارةٍ تُنجِيكم من عذابٍ أليم} ، وكأنهم قالوا : وما هذه التجارة ، أو : ماذا نصنع ؟ فقال : {تؤمنون بالله ورسوله وتُجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفُسِكم} ، وهو خبر بمعنى الأمر ، أي :

٣٧

وجاهِدوا ، وجيء به بصيغة الخبر للإيذان بوجوب الامتثال ، فكأنه قد وقع ، فأخبر بوقوعه ، وقرىء " تؤمنوا " و " تجاهدوا " على إضمار لام الأمر. {ذلكم خير لكم} ، الإشارة إلى الإيمان والجهاد بقِسْميه ، أي : هو خير لكم من أموالكم وأنفسكم {إن كنتم تعلمون} أنه خير لكم ، وقد قلتم : لو نعلم أيّ الأعمال أحب إلى الله لسارعنا ، فهذا هو أحب الأعمال إلى الله ، أو : إن كنتم من أهل العلم ؛ فإنَّ الجهلة لا يعتد بأفعالهم.

{يَغفر لكم ذنوبكم} : جواب للأمر المدلول بلفظ الخبر ، على قول ، أو شرط مقدّر ، أي : إن تُؤمنوا وتُجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم {ويُدْخِلْكم جناتٍ تجري مِن تحتها الأنهارُ ومساكنَ طيبةً} ولا تطيب إلاّ بشهود الحبيب {في جناتِ عَدْن} أي : إقامة لا انتقال عنها. وجنة عدن هي مدينة الجنة ووسطها ، يسكنها الصالحون الأبرار من العلماء والشهداء ، وفوقها الفردوس ، هي مسكن الأنبياء والصدِّيقين من المقربين ، هذا هو المشهور ، كما في الصحيح ، {ذلك الفوزُ العظيمُ} أي : ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة الموصوفة بما ذكر من الأوصاف الجليلة هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

}

(٤٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧

وأُخرى} أي : ولكم إلى هذه النعمة العظيمة نعمةٌ أخرى عاجلة {تُحبونها} وترغبون فيها ، وفيه شيء من التوبيخ على محبة العاجل. ثم فسَّرها بقوله : {نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ} أي : عاجِل ، وهو فتح مكة ، والنصر على قريش ، أو فتح فارس والروم ، أو : هل أَدُلكم على تجارةٍ تُنجيكم ، وعلى تجارةٍ تُحبونها ، وهي نصر وفتح قريب ، {وبَشِّر المؤمنين} : عطف على " تؤمنوا " لأنه في معنى الأمر ، كأنه قيل لهم : آمنوا وجاهِدوا يُثبكم الله وينصركم ، وبشر أيها الرسول بذلك المؤمنين.

{يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصارَ الله} أي : أنصار دينه {كما قال عيسى ابنُ مريمَ للحواريين مَنْ أنصاري إلى الله} ؟ أي : مَن يكون مِن جندي ومختصاً بي ، متوجهاً إلى الله. ظاهره تشبيه كونهم أنصاراً بقول عيسى : {مَن أنصاري إلى الله} ولكنه محمول على المعنى ، أي : كونوا أنصارَ الله ، كما كان الحواريون أنصارَ عيسى ، حينما قال لهم : مَن أنصاري إلى الله ؟ {قال الحواريون نحن أنصارُ الله} أي : نحن الذين ينصرون دينه ، والحواريون : أصفياؤه ، وهم أول مَن آمن به من بني إسرائيل ، قاله ابن عباس ، وقيل : كانوا اثني عشر رجلاً. وحواري الرجل : صفوته وخاصته ، من الحَور ، وهو البياض الخالص ، وقيل : كانوا قصّارين يُحوِّرون الثياب ، أي : يُبيّضونها ، وقيل : إنما سُمُّوا حواريين لأنهم كانوا يُطهرون النفوس بإقامتهم الدين والعلم ، ولمَّا كفرت اليهود بعيسى عليه السلام ، وهَمُّوا بقتله ، فرَّ

مع الحواريين إلى النصارى بقرية يُقال لها : نصرى ، فنصوره ، فقاتل اليهودَ بهم مع الحواريين ، وهذا معنى قوله تعالى : {فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائفةٌ} به ، فقاتلوهم {فأيَّدنا الذين آمنوا} بعيسى عليه السلام {على عدوهم} أي : قوّيناهم {فأصبحوا ظاهِرين} ؛ غالبين عليهم.

٣٨

الإشارة : هل أّدلُكم على تجارةٍ ، وهي سلوك طريق التربية ، على أيدي الرجال ، تُنجيكم من عذاب أليم ، وهو غم الحجاب على الدوام ؛ تؤمنون بالله ورسوله أولاً ، وتجاهدون هواكم وسائرَ العلائق بأموالكم وأنفسكم ثانياً ، فالأموال تدفعونها لمن يدلكم على ربكم ، والأنفس تُقدمونها لمَن يُربيكم ، يَتحكم فيها بما يشاء {في سبيل الله} في الطريق الموصلة إلى حضرته ، {ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون} أي : إن كان لكم علم وعقل ، فهذا خير لكم ، يغفر لكم ذنوبكم ، أي : يُغطي مساوئكم ، فيُغطي وصفكم بصوفه ، ونعتكم بنعته ، فيُوصلكم بما منه إليكم ، لا بما منكم إليه ، ويُدخلكم جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم ، ومساكن طيبة ، هي السكنى والأطمئنان في مقامات اليقين ، مع شهود رب العالمين ، أو روح الرضا وريحان التسليم ، أو الإقامة في حضرة القدس ، مع التنزُّه في المقامات ، في جنات عدن ، وهي الرسوخ والإقامة في جنات المعارف ذلك الفوز العظيم.

}

(٤٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧

وأُخرى تحبونها} عاجلة ، {نصر من الله} : عِزٌّ دائم ، {وفتح قريب} هو دخول بلاد المعاني. وقال القشيري : الفتح القريب : الرؤية والزلفة ، ويقال : الشهود ، ويقال : الوجود أبد الأبد. هـ. {وبَشِّر} بأنهم ظافرون بهذا ، إن فعلوا ما أُمروا به. وقال الورتجبي : نصر الله : تأييده الأزلي ، الذي سبق للعارفين والموحِّدين ، والفتح القريب : كشف نقابه وفتح أبواب وِصاله ، بنصره ظهروا على نفوسهم ، فقهروها ، وبفتحه أبواب الغيب شاهَدوا كل مغيب مستور من أحكام الربوبية وأنوار الألوهية. هـ. وباقي الآية يُرغب في القيام في نصر الدين ، وإرشاد العباد إلى الله ، حتى تظهر أنوار الدين ، وتخمد ظلمة المعاصي والبِدَع من أقطار البلاد ، وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم.

٣٩

(٤٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٧

سورة الجمعة

(٤٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٩

يقول الحق جلّ جلاله : {يُسَبِّحُ لله ما في السموات وما في الأرض} ، وهذا التسبيح إمّا أن يكون : تسبيح خِلقة ، يعني : أنك إذا نظرت إلى شيء دلتك خِلقتُه على وحدانيته تعالى ، وتنزيهِه عما لا يليق به ، وإمّا أن يكون تسبيح معرفة ؛ بأن يخلق في كل شيء ما يعرفه به تعالى وينزّهه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : {وَإِن مِن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِحُ بحَمدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُون تَسْبِيحَهُمْ} [الإسراء : ٤٤] ، أو : تسبيح ضرورة ، بأن يُجري اللهُ التسبيحَ على كل جوهر ، من غير معرفةٍ له بذلك. قاله النسفي.

{الملكِ القُدُّسِ} أي : المنزَّه عما لا يليق به من الكمالات. ولا يُقال : المنزّه عن النقائص ؛ إذ لا يصح اتصافه بها حتى تُنفى عنه ، وربما يكون نقصاً في حقه ، كما يُقال : الملِك ليس بجزار. {العزيزِ الحكيمِ} ، وقرئت هذه الصفات الأربع بالرفع على المدح.

{هو الذي بَعَثَ في الأميين رسولاً منهم} أي : بعث رجلاً أُميًّا في قوم أميين ، وقيل : {منهم} : من أنفسهم ، يعلمون نَسَبه وأحواله وصِدْقَه. والأُمي : منسوب إلى أميّة العرب ؛ لأنهم لايقرؤون ولا يكتبون من بين الأمم. قيل. بُدئت الكتابة في العرب بالطائف ، وهم أخذوها من أهل الحيرة ، وأهل الحيرة من أهل الأنبار. {يتلو عليهم آياته} ؛

٤٠

القرآن {ويُزَكِّيهم} ؛ يطهرهم من الشرك وخبائث الجاهلية ، {ويُعَلّمهم الكتابَ} ؛ القرآن {والحكمةَ} ؛ السُنَّة ، أو الفقه في الدين ، أو إتقان العلم والعمل ، {وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين} ؛ كفر وجهالة. و " إن " مخففة ، أي : وإن الشأن كانوا في ضلال فظيع ، وهو بيان لشدة افتقارهم لمَن يرشدهم ، وإزاحة لِمَا عسى أن يتوهم مِن تعلُّمه صلى الله عليه وسلم مِن الغير ؛ إذ كلهم كانوا مغروقين في الجهل والضلال ، ليس فيهم مَن يعلم شيئاً.

{وآخرين منهم} : عطف على " الأميين " أي : بعث في الأميين ، الذين في عصره ، وفي آخرين من الأميين {لَمَّا يلحقوا بهم} أي : لم يلحقوا بهم بعدُ ، وسيلحقون ، وهم الذين يأتون بعد الصحابة إلى يوم القيامة ، وقيل : هم العجم ، أي : وآخرين من جنسهم ، وقيل : عطف على " يُعلّمهم " أي : يُعلّم أخرين منهم ، وعلى كلٍّ فدعوته صلى الله عليه وسلم عامة. {وهو العزيزُ الحكيم} ؛ المبالغ في العزة

والحكمة ، ولذلك مكَّن رجلاً أميًّا من ذلك الأمر العظيم ، واصطفاه من بين كافة البشر.
}

(٤٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠

ذلك} الذي امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر البشر {فضلُ الله} وإحسانه ، أو : ذلك التوفيق حتى يؤمنوا من فضل الله ، لا باستحقاق ، أو الاعتناء بالبعث وعدم الإهمال ، مع ما حصل منه من النتائج المذكورة ، فضل من الله ، وقطع الأسباب في الجملة في استحقاق الفضل ؛ إذ علقه بالمشيئة في قوله : {يؤتيه مَن يشاء} تفضُّلاً وعطية ، {والله ذو الفضل العظيم} الذي يُستحقر دونه نِعم الدنيا والآخرة. الإشارة : كل مَن لم يعرف الله معرفةَ العيان ، فهو من الأميين ، فكما مَنَّ الله تعالى على عباده ببعثه الرسول ، بعد أن كانوا في ضلالٍ مبين ، كذلك مَنَّ على أمته بعده ، فبَعَثَ مشايخَ التربية يتلو عليهم آياته الدالة على شهوده وظهوره ، ويزكيهم من الرذائل التي تحجبهم عن الله ، ويُعلّمهم أسرارَ الكتاب ، وأسرارَ الحكمة ، وهي الشريعة ، إذ لا يوقف على أسرارهما إلاّ بعد تطهير القلوب ، وتزكية النفوس ، وإن كانوا من قبل ملاقاة المشايخ لفي ضلال مبين ، حائدين عن طريق الشهود ، وبعث أيضاً في آخرين منهم من يُذكِّرهم ويُعرفهم بالله ، وهكذا لا ينقطع الداعي إلى يوم القيامة ، لكن لا يصل إليه إلاّ مَن أراد الله أن يوصله إليه ، ولذلك قال : {ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء...} الآية.

(٤٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٠

يقول الحقّ جلّ جلاله : {مَثَلُ} اليهود {الذين حُمِّلُوا التوراةَ} أي : كُلِّفوا علمها ، والعمل بما فيها ، {ثم لم يحملوها} ؛ لم يعملوا بما فيها ، فكأنهم لم يحملوها ، {كَمَثَلِ الحمارِ يحمل أسفاراً} جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير ، شَبّه اليهودَ بالحمار ، فإنهم حملة التوراة وقُرّاؤها وحُفّاظ ما فيها ، ثمّ لم يعملوا بها ، ولم ينتفعوا بآياتها ، وذلك : أنَّ فيها بعث رسولِ الله صلى الله عليه وسلم والبشارة به ، فلم يؤمنوا ، فهم أشبه شيء بحمار حمل كُتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يشمي بها ، ولا يدري منها إلاَّ ما يلحقه من الكدّ والتعب. وفي التلخيص : وَجْهُ الشَبَه : حرمان الانتفاع بأبلغ نافع ، مع تحمُّل التعب في استصحابه ، وكل مَن عَلِمَ ولم يعمل بعلمه فهذا مثلُه. قال الطيبي : لمّا تمسكت اليهود بقوله : " في الأميين " ؛ لأنه خاص بالعرب ، أتبعه بضرب المثل لمَن تمسّك بهذه الشبهة ، وترك الدلائل الواضحة

المسطورة بعموم البعثة ، وأنه كالحمار يحمل أسفاراً ، ولا يدري ما حمل ، ولا ما فيه. هـ. وجملة " يحمل " حال ، والعامل فيها ، معنى المثل ، أو : صفة للحمار ؛ إذ ليس المراد به معيناً ، فهو كقوله :

ولقد أَمُرُّ على اللئيم يَسُبُّني...

{بئس مثلُ القومِ الذين كذّبوا بآيات الله} أي : بئس مثلاً مثل القوم الذين كذّبوا ، أو بئس مثل القوم المكذِّبين مثلهم ، وهم اليهود الذين كذّبوا بآيات الله الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، {واللهُ لا يهدي القوم الظالمين} وقت اختيارهم الظلمَ ، أو : لا يهدي مَن سبق في علمه أنه يكون ظالماً ، أو الظالمين لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد.

}

(٤٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١

قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياءُ لله من دون الناس فتَمَنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين} ، كانوا يقولون : {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} [المائدة : ١٨] ، أي : إن كان قولكم حقًا ، وكنتم على ثقة ، فتمنُّوا على الله أن يُميتكم ويبعثكم سريعاً إلى دار كرامته ، التي أعدّها لأوليائه ، فإنّ الحبيب يُحب لقاء حبيبه ، وينتقل من دار الأكدار ، إلى دار السرور والهناء ، قال تعالى : {ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم} من الكفر والمعاصي الموجبة للنار. والباء متعلقة بما يدل عليه النفي ، أي : يأبون ذلك بسبب ما قدمت أيديهم ،

٤٢

{والله عليم بالظالمين} أي : بهم. وإيثار الإظهار في موضع الإضمار لذمهم والتسجيل عليهم بالظلم في كل ما يأتون وما يذرون من الأمور ، التي من جملتها ادعاء ما هم عنه بمعزل من ولاية الله.

ثم إنهم لم يجسر أحدٌ منهم أن يتمناها ، بل فرُّوا منها ، كما قال تعالى : {قل إنَّ الموت الذي تفرون منه} ولم تجسروا أن تتمنوه خيفة أن تؤخذوا بوبال كفركم ، {فإنه مُلاقيكم} لا محالة ، من خير صارف يلويه ، ولا عاطف يُثنيه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " لو تَمَنَّوه لماتوا من ساعتهم " ، وهذه إحدى المعجزات. ودخلت الباء في خبر " إن " مع أنه لا يجوز : إن زيداً فمنطلق ؛ لأنَّ " الذي " قد عُرف فيه معنى الشرط والجزاء ، كأنه قيل : إن فررتم من أي موت كان ؛ من قتال أو غيره ، فإنه ملاقيكم ، {ثم تُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة} الذي لاتخفى عليه خافية ، {فيُنبئكم بما كنتم تعملون} من الكفر والمعاصي ، بأن يجازيكم عليها. قال الكواشي : أكذب اللهُ اليهودَ في ثلاث ، افتخروا بأنهم أولياء الله فكذبهم بقوله : {فتَمنَّواالموتَ} وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ،

فشُبِّهوا بالحمار يحمل أسفاراً ، وبالسبت ، وأنه ليس للمسلمين مثله ، فجعل الله لهم الجمعة. هـ.
ولذلك ذكرها بإثر تكذيبهم.
الإشارة : مَثَلُ الذي يقرأ القرآن ويتلوه ولا يتدبّر معانيه ، أو يقرأ العلم ولا يعمل به ، كمثل الحمار..الخ. وعُروض الموت على النفس ، أو العمل أو الحال ، ميزان صحيح ، فكل حال وعمل ، أو شخص هزمه الموت فهو معلول ، وحب البقاء للترقِّي والتوسعة في المعرفة محمود ، وغيره مذموم ، وقد تقدّم في البقرة تفصيل ذلك ، فراجعه إن شئت.
وأمّا تمني الموت فقد نُهي عنه ، إلاّ لخوف الفتنة ، فقد قال ابن عباس لعمر رضي الله عنهما : ما لك تُكثر الدعاء بالموت ؟ وما الذي مَلِلت من العيش ؟ أما تُقوّم فاسداً وتعين صالحاً ؟ فقال عمر : يا بن عباس! كيف لا أتمنى الموت ، وأطلب القدوم على الله ، ولست أرى في الناس إلاّ فاتحاً فاه لِلعدة من الدنيا إمّا بحق لا يثق به ، أو بباطل لا يناله ، ولولا أن يسألني ربي عن الناس لفررت منهم ، وتصبح الأرض مني بلاقع. هـ.

(٥٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١
وقيل لسفيان الثوري : لِمَ تتمنَّ الموت ، وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنه ؟ فقال : إن سألني ربي عن ذلك أقول : لثقتي بك يا رب ، وخوفي من الناس ، ثم أنشد :
قد قلتُ لمّا مَدَحوا الحياة وأسرفوا
في الموت ألف فضيلة لا تُعرف
فيها أمان لقائه بلقائه
وفراق كل معاشرٍ لا يُنصِف
وقال طاوس : لا يحرز المرء إلاَّ حفرته ، وأنشدوا :
يبكي الرجالُ على الحياة وقد
أفنى دموعي شوقي إلى الأجل
٤٣
أموت من قبل أن يفر مني
دَهْري فإني منه على وجل

(٥١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤١

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة} ، والإمام على المنبر ، و " مِن " بيان لـ " إذا " أو تفسير لها ، وقيل : " مِن " بمعنى " في " كقوله : {مَاذَا خَلَقُواْ مِن ألأَرْضِ} [فاطر : ٤٠ و الأحقاف : ٤] أي : في الأرض. وإنما سُمي جُمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وقيل : أول مَن سمّاها جمعة : كعب بن لؤي ، وكان يُسمى العروبة ، وقيل : إنَّ الأنصار قالوا قبل الهجرة : لليهود يومٌ يجتمعون فيه في كل سبعة أيام ، وللنصارى مثل ذلك ، فهلُموا نجعل يوماً نجتمع فيه ، فنذكر الله نُصلّي ، فقالوا : يوم السبت لليهود ، ويوم الأحد للنصارى ، فاجعلوه يوم الجمعة ، فاجتمعوا إلى سعد بن زُرارة ، فصلَّى بهم ركعتين ، وذكَّرهم ، فسموه يومَ الجمعة ، لاجتماعهم فيه ، فأنزل الله آية الجمعة . أي : بعد ذلك . تقريراً لفعلهم ، فهي أول جمعة كانت في الإسلام. وأما أول جمعة جمعها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فهي لمَا قَدِم المدينةَ مهاجراً ، نزل قباء ، على بني عَمرو بن عوف ، وأقام بها يوم الاثنين والثلاثاء الأربعاء والخميس ، وأسّس مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة عامداً إلى المدينة ، فأدركته الصلاة في بني سالم بن عوف ، في بطن وادٍ لهم ، وقد بنوا هناك مسجداً ، فخطب ، وصلّى الجمعة فيه. انظر الثعلبي.

ويم الجمعة سيد الأيام ، وفي الحديث : " مَن مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، ووُقي فتنة القبر ". فإذا نُودي للصلاة {فاسْعَوا إلى ذكر الله} أي : امشوا واحضروا الخطبة والصلاة {وذَرُوا البيع} أي : اتركوا المعاملة كلها ، وإنما خص البيع ؛ لأنّ يوم الجمعة كان سوقًا يتكاثر فيه البيع والشراء عند الزوال ، فقيل لهم : بادِروا إلى تجارة الآخرة ، واتركوا تجارة الدنيا ، {واسْعَوا إلى ذكر الله} الذي لا شيء أنفع منه ، {ذلكم} أي : السعي إلى ذكر الله {خيرٌ لكم} من البيع والشراء {إن كنتم تعلمون} الخير والشر الحقيقيين ، أو : إن كنتم

٤٤

من أهل العلم.

}

(٥٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٤

فإذا قُضِيَتِ الصلاةُ} أي : أُدّيت وفرغ منها {فانتشِرُوا في الأرض} ، أمْرُ إباحة ، أي : اخرجوا لإقامة مصالحكم ، {وابتغوا من فضل الله} ؛ الرزق ، قال ابن عباس : " إنما هي عيادة المريض ، وحضور الجنائز ، وزيارة أخ في الله " ومثله في الحديث ، وعن الحسن : طلب العلم ، وقيل : صلاة التطوُّع.

{واذكروا اللهَ كثيراً} ، أي : ذكراً كثيراً ، أو زمناً كثيراً ، ولا تخصُّوا ذكره بالصلاة ، {لعلكم تُفلحون} أي : كي تفوزوا بخير الدارين.

{وإذا رأَوْا تجارةً أو لهواً انفَضُّوا إِليها} ، رُوي أنّ أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء شديد ، فقَدِم دِحْيَة بن خَليفةَ ، بتجارة من زيت الشام ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فقاموا إليها ؛ خشية أن يُسبقوا إليه ، فما بقي معه عليه السلام إلاّ ثمانية ، أو اثنا عشر ؛ العشرة المبشَّرون بالجنة ، وبلال وابن مسعود ، وقيل : أربعون ، وهذا مبنى الخلاف في عدد الجماعة التي تنعقد بهم وتجب عليهم ، فقال مالك : تنعقد باثني عشر غير الإمام ، وتجب على قرية يُمكنهم الإقامة والدفع عن أنفسهم في الغالب ، وقال الشافعي : أربعون رجلاً وقال أبو حنيفة : لا بد من المصر الجامع ، والسلطان القاهر ، وتصح الصلاة عنده بأربعة. ولمّا انفضُّوا قال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده لو قاموا جميعاً لأضرم الله عليهم الوادي ناراً " وفي مراسيل أبي داود : إنّ الخطبة كانت بعد الصلاة ، فتأوّلوا ـ رضي الله عنهم ـ أنهم قد قضوا ما عليهم ، فحولت الخطبة بعد ذلك قبل الصلاة. هـ.

وكانوا إذا أقبلت العير استقبلوها بالطبل والتصفيق ، وهو المراد باللهو. وتخصيص التجارة برجْع الضمير إليها ؛ لأنها المقصودة ، أو لأن الانفضاض إذا كان للتجارة مع الحاجة إليها مذموماً ، فما ظنك بالانفضاض إلى اللهو ، فهو مذموم في نفسه ، وقيل : التقدير : إذا رأوا تجارة انفضُّوا إليها ، أو لهواً انفضُّوا إليه ، فحذف الثاني لدلالة الأول عليه. وقال أبو حيان : وإنما قال : " إليها " ، ولم يقل : إليهما ، لأن العطف بـ " أو " لا يثنى فيه الضمير ، بل يفرد ، وقال الطيبي : الضمير راجع إلى اللهو ، باعتبار المعنى ، والسر فيه : أنَّ التجارة إذا شغلت المكلّف عن الذكر عُدت لهواً ، وتعد فضلاً إن لم تشغله ، كما ذكر قبل ذلك ، فراجعه.

{وتَركُوك قائمًا} على المنبر ، وفيه ندليل على طلب القيام في الخطبة إلاَّ لعذر. {قل ما عند الله} من الثواب {خير من اللهو ومن التجارة} فإنَّ في ذلك نفع محقق دائم ، بخلاف ما فيهما من النفع المتوهم. {واللهُ خيرُ الرازقين} فإليه اسعوا ، ومنه اطلبوا الرزق ، أي : لا يفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين.

٤٥

الإشارة : إذا نُودي لصلاة القلوب في مقام الجمع ، من ناحية الداعي إليها ، وهم المشايخ العارفون ، فاسعوا إلى ذكر الله ، ودُوموا عليه باللسان والقلب ، ثم بالقلب فقط ، ثم بالروح ، ثم بالسر ، فإنَّ الذكر منشور الولاية ، ولا بد منه في البداية والنهاية ، قال الورتجبي بعد كلام : الساعي إلى الذكر مقام المريدين ، والمحقق في المعرفة غلب عليه ذكر الله إياه بنعت تجلِّي نفسه لقلبه. هـ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٤

وذَرُوا البيع} أي : اتركوا كلَّ ما يشغل عن الله ، فلا تتجلى الحقائق إلاّ بعد ترك العلائق ، ذلكم ، أي : ترك كل شاغل ، خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون ، أي : إن كنتم من أهل العلم بالله فإذا قُضيت الصلاة فانتشروا في الأرض... الخ ، أي : إذا حصل لكم البقاء بعد الفناء ؛ فانتشِروا في أرض العبودية ، واتسعوا في ميادين البشرية ، بالاستمتاع بالشهوات المباحة بالإذن والتمكين ، والرسوخ في اليقين ، وابتغوا من فضل الله ، بالتجارات الرابحة ، وهي إرشاد العباد إلى الله ، {واذكروا الله كثيراً} أي : في كل شيء وعند كل شيء ، برؤية الحق في كل شيء ، وإليه تُشير وصيته صلى الله عليه وسلم لمُعاذ بقوله : " واذكر الله عند كل حَجر وشجر ". وقوله تعالى : {وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضُّوا إليها} ، قال القشيري : يشير إلى السالكين المحرومين من الجذبة . وهو السالك الأبتر . إذا رأوا تجارة ، أي : طاعة تُوجب ثواب الآخرة ، يقومون إليها ، ويَثبون عليها ، نظراً إلى ثواب الآخرة ، كما قال عليه السلام : " لا تكونوا كالأجير السوء ، إن أُعطي عمل ، وإن لم يُعطَ لم يعمل " ، أو لهواً أطرب النفس برؤية الطاعة واستِلْذَاذها بنظر الخلق إليها ، انفضُّوا إليها وتركوك . أيها السالك الحقيقي . قائماً بعبودية الحق ، ومشاهدة قيوميته ، قل : ما عند الله من المواهب العالية ، والعطايا السنية ، خيرٌ من لهو النفس برؤية الغير ، ومن التجارات بثواب الآخرة ، لقوله تعالى : {فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِهِ أَحَداً} [الكهف : ١١٠] أو : ما عند الله نَقْداً للعارفين من واردات القلوب ، وبواده الحقيقية ، خير مما يؤمل من الدنيا والآخرة للغافلين ، والله خير الرازقين ، لإعطائه رزق النفس ، وهو الطاعة على المنهاج والشرع ، ورزق القلب ، وهو الأعمال القلبية ، كالزهد والورع والرضا والتسليم والمراقبة ، والبسط والقبض ، والأُنس والهيبة ، ورزق الروح

بالتجليات والمشاهدات ، والمعاينات والتنزُّلات ، ورزق السر برفع رؤية الغير والغيرية ، ورزق الخفاء بالفناء في الله والبقاء به. هـ. قال الورتجبي : فيه تأديب المريدين حين اشتغلوا عن صحبة المشايخ ، بخلواتهم وعباداتهم ، لطلب الكرامة ، ولم يعلموا أنَّ ما يجدون في خلواتهم بالإضافة إلى ما يجدون في صحبة مشايخهم لَهْوٌ. هـ. وهو حق. وبالله التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد ، عين عيان التحقيق ، وعلى آله وصحبه وسلّم.

٤٦

يقول الحق جلّ جلاله : {إذا جاءك} أيها الرسول {المنافقون} أي : حضروا مجلسك ، {قالوا نشهدُ إنك لَرسولُ الله} ، أكدوا بإنَّ واللام ؛ للإيذان بأنَّ شهادتهم هذه صادرة عن صميم قلبهم ، وخلوص اعتقادهم ، ووفور رغبتهم ونشاطهم ، قال تعالى : {واللهُ يعلم إنك لَرسوله} حقيقةً ، كما يدل عليه ظاهر كلامهم. والجملة معترضة بين شهادتهم وتكذيبهم بقوله : {واللهُ يشهدُ إنَّ المنافقين لكاذبون} ، وحكمته : أنه لو لم يذكره لتوهم أنَّ قوله : {واللهُ يشهد إنَّ المنافقين لكاذبون} إبطال للرسالة ، فوسطه بين حكاية قول المنافقين وبين تكذيبهم ؛ ليزيل هذا الوهم ، ويُحقق الرسالة. وقوله : " لكاذبون " أي : في ادعائهم أنهم قالوا ذلك عن اعتقاد وصميم قلب ، كما يُشير إليه ظاهر قولهم. قال القشيري : كذَّبهم فيما قالوا : إنّا نشهد عن بصيرة ، ونعتقد تصديقك ، فلم يكذبهم في الشهادة ، ولكن كذَّبهم في قولهم : إنّا مخلصون مصدِّقون بك. هـ.

{اتخَذوا أيمانَهم} الفاجرة {جُنَّةً} ؛ وقاية عما يتوجه إليهم من المؤاخذة بالقتل والسبي ، وغير ذلك ، واتخاذها جُنَّةً عبارة عن إعدادهم وتهيئهم لها إلى وقت الحاجة ، ليحلفوا بها ، ويتخلّصوا عن المؤاخذة ، {فصَدُّوا} بأنفسهم {عن سبيل الله} وضلُّوا عن طريق الحق ، أو : فصّدُّوا مَن أراد الدخول في الإسلام بإلقاء الشُبه ، وصدُّوا مَن أراد الإنفاق في سبيل الله بالنهي عنه ، كما سيجيء عنهم ، ولا ريب أنّ هذا الصدّ منهم متقدم على حلفهم بالفعل ، ولذلك عبّر بالاتخاذ. {إنهم ساء ما كانوا يعملون} من النفاق

٤٧

والصدّ. وفي " ساء " معنى التعجب وتعظيم أمرهم للسامعين.

{ذلك} أي : ما تقدّم من قولهم ، الناعي عليهم بأنهم أسوأ الناس أعمالاً ، أو : ما وصف مِن حالهم في النفاق والكذب والاستتار بالأيمان الفاجرة. {بأنهم} ؛ بسبب أنهم {أمنوا} ؛ نطقوا بكلمة الشهادة ، كسائر مَن دخل في الإسلام {ثم كفروا} أي : ظهر كفرهم بما شُوهد منهم من شواهد الكفر ودلائله ، أو : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ونطقوا بالكفر عند شياطينهم ، {فطُبِعَ على قلوبهم} ؛ ختم عليها ، حتى لا يدخلها الإيمان ، جزاء على نفاقهم ، فتمرّنوا على الكفر ، واطمأنوا به ، {فهم لا يفقهون} شيئًا ، لا يعرفون حقيَّة الإيمان ولا حقيقته أصلاً.

(٥٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٧

الإشارة : قد يأتي إلى مشايخ التربية مَن يُنافقهم ، طمعًا في الدنيا ، فيقول : نشهد إنك لَمن العارفين ، أو مِن أهل التربية ، مثلاً ، فَتَجُر الآيةُ ذيلَها عليه ، وقد يكون مذبذباً ، تارة تلوح له أنوارُ الولاية ، وتارة تَستر عنه ، فيُصدّق ثم يرجع ، ثم يُطبع على قلبه. قال القشيري : {ذلك بأنهم آمنوا} : استضاؤوا بنور الإجابة ، فلم يَنْبَسِطْ عليهم شعاعُ نور السعادة ، فانطفأ نورُهم بقَهْرِ الحرمان ، وبَقوا في ظلمة القسمة السابقة بحكم الشقاوة. هـ. وهنا إشارة أخرى للقشيري ، وهو : إذا جاءك أيها الروح الصافية منافق الهوى والنفس الأمّارة ، قالوا : نشهد إنك لَرسول الله ، أي : كاملة صافية ، يُريدون بذلك توقفها عن الترقي باستحسان ما أدركت ، والوقوف معه ، والله يعلم إنك لَرسوله ، حين تصفى ، فتكون محل العِلم الرباني ، والوحي الإلهامي ، والله يشهد إنهم لكاذبون في ادعاء الشهادة بلا حقيقة ، اتخذوا أيمانهم جُنَّة ، لئلا تكرّ عليهم بأنوارها ، فتُخرجهم عن عوائدهم وشهواتهم ، فصُدُّوا عن سبيل الله ، حيث بقوا مع عوائدهم ، أو : فصدُّوا الروح إن صدقتهم وطاوعتهم ، ذلك بأنهم أمنوا ، حيث ترد عليهم أنوار الواردات ، ثم كفروا ؛ رجعوا إلى وطنهم ، من الحظوظ ، حيث تخمد أنوار الواردات عنهم ، فطُبع على قلوبهم ، حيث وقفوا مع عوائدهم فهم لا يفقهون : لا يعرفون سر إيجادهم ، ولا لماذا خُلقوا. هـ. بالمعنى.

(٥٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٧

يقول الحقّ جلّ جلاله : {وإِذا رأيتهم تُعْجِبُكَ أجسامُهم} لضخامتها ، ويروقك منظرُهم ؛ لصباحة وجوههم ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو : لكل سامع ، {وإِن يقولوا تسمعْ لِقَولهم} لفصاحتهم ، وذلاقة ألسنتهم ، وحلاوة كلامهم ، وكان ابن أُبي رجلاً جسيماً صبيحاً ، وقوم من المنافقين في مثل صفته ، فكانوا يحضرون مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة ، وفصاحة الألسن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم ومَن معه يُعجبون

٤٨

بهم ، ويسمعون إلى كلامهم. {كأنهم خُشُب مُسَنَّدةٌ} أي : هم كخشب مُسَنَّدة ، شُبِّهوا في جلوسهم في مجلس الرسول صلى الله عليهم وسلم مستندين فيها بخُشب منظومة ، مسندة إلى الحائط ، في كونهم أشباحاً خاليه من العلم والخير ؛ لأنّ الخشب إذا انتُفع بها كانت في سَقفٍ ، أو جدارٍ ، أو غير

ذلك من مظان الانتفاع ، وما دام متروكاً غير منتفع به ، أُسند إلى الحائط فشُبِّهوا به في عدم الانتفاع.
أو : لأنهم أشباح بلا أرواح ، وأجرام بلا أحلام. و " خُشُب " بضمتين ، جمع خَشبة ، كَثمرة وثُمُر ، ويسكن ، كبَدنة وبُدن.
{يحسبون كلَّ صيحةٍ} واقعة {عليهم} ، فـ " كل " : مفعول أول ، و " عليهم " : مفعول ثان ، أي : يظنون كلَّ صيحة واقعة عليهم لاستقرار الرعب في قلوبهم ، فإذا نادى منادٍ في العسكر ، أو انفلتت دابة ، أو نُشِدت ضالّة ؛ ظنوه إيقاعاً بهم. {هم العدوُّ} أي : الكاملون في العداوة ، الراسخون فيها ، فإنّ أعدى الأعادي المكاشِر ، الذي يُكاشر وتحت ضلوعه الداء. فالألف واللام للجنس ، أو : للعهد ، أي : العدو الذي يشهد لك ، ويعتقد خلاف ما يشهد ، {فاحْذرهم} ولا تغتر بحلاوة منطقهم ، {قاتلهم اللهُ} ، دعاء عليهم ، أو : تعليم للمؤمنين أن يدعوا عليهم ، {أنى يُؤفكون} أي : كيف يعدلون عن الحق بعد وضوحه ، تعجُّباً من جهلهم وضلالتهم.
الإشارة : لا عبرة بالأجسام العريضة ، ولا بالألسن الفصيحة ، إنما العبرة بالقلوب المطهرة ، والسرائر المنورة ، " إن الله لا ينظر إلى صوركم... " الحديث ، و " رُبَّ أشعثَ أغبر ، مدفوعٍ بالأبواب ، لو أقسمَ على الله لأبَرَّه في قسمه " قال القشيري : قوله تعالى : {وإذا رأيتهم..} الخ ، أي : هم أشباح وقوالب ، ليس وراءهم ألبابُ وحقائق ، والجوزُ الفارغ يؤنق ظاهره ، ولكن للعب الصبيان. هـ. وقال الشاعر :

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له
إذا لم يكن في فعله والخلائق

وقالت العامة : لا يتكلم إلاَّ الجوز الفارغ ، ذمًّا لشقشقة اللسان ، وفي الحديث أيضاً ذمهم والتحذير منهم. أما قوله صلى الله عليه وسلم : " التمسوا حوائجكم عن حِسَان الوُجُوه " فإنما المراد : ما يظهر على الوجه من البهجة والنور ، والخفة والملاحة ، مما خامر الباطن من بشاشة الإيمان ونور المعرفة. والله تعالى أعلم.
٤٩

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٨

يقول الحق جلّ جلاله : {وإذا قيل لهم} عند ظهور نفاقهم : {تعالَوا يستغفر لكم رسولُ الله لَووا رؤوسَهم} أي : عطفوا استكباراً. وقرأ غير نافع بالتشديد للمبالغة. {ورأيتهم يصُدُّون} أي : يُعرضون عن القائل ، أوعن الاستغفار ، {وهم مستكبرون} عن الاعتذار والاستغفار.

رُوي أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حين لقي بني المصطلق على المُرَيْسيع . وهوماءٌ لهم . وهزمهم ، وقتلهم ، ازدحم على الماء " جهجاه " أجير لعُمر . مع سِنانٍ . حليف لعبد الله بن أُبيّ المنافق . فصرخ جهجاه : يا للمهاجرين! وصرخ سنان : يا للأنصار! فأعان جَهْجَاهاً جُعال من فقراء المهاجرين ، ولطم سناناً ، فقال ابنُ أُبيّ : أُوَقد فعلوها ، وقال : وما صحبنا محمداً إلا لنُلطَم! وما مثلنا ومثلهم إلاَّ كما قائل القائل : سمِّن كلبك يَأكُلْكَ! والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ. ثم قال لقومه : كُفوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تُنفقوا على مَن عنده حتى ينفضُّوا ويتركوه ، فسمع ذلك زيدُ بن أرقم ، وكان حدثاً ، فقال : أنت . والله . الذليلُ ، المبَغَّضُ في قومك ، ومحمد على رأسه تاج المعراج ، في عزّ من الرحمن ، وقوةٍ من المسلمين ، فقال عبدالله : اسكت ، فإنما كنتُ ألعب ، فأخبر زيدٌ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنقَ المنافق! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " إذن تُرْعَدُ أنوفٌ كثيرة بيثرب " قال : فإن كرهت أن يقتله مُهاجريّ ، فمُر به أنصاريًّا ، فقال : " فكيف إذا تحدّث الناسُ أنّ محمداً يقتل أصحابه ؟ " فأرسل صلى الله عليه وسلم له ، فأتى ، فقال : " أنت صاحب الكلام الذي بلغني " ؟ فقال : والذي أنزل عليك الكتاب ما قلتُ شيئاً من ذلك ، وإنّ زيداً لكاذب ، وهو قوله : {اتخَذوا أَيمانهم جُنَّة} فقال الحاضرون : يا رسول الله! شيخُنا وكبيرُنا ، لا تُصدق عليه كلام غلام ، عسى أن يكون قد وَهم ، قال زيد : فوجدتُ في نفسي ، ولآمَنِي الناسُ ، فلزمتُ بيتي ، فلما نزلت الآية ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لزيد : " يا غلام إنَّ الله قد صَدَّقك وكذّب المنافقين " ، فلما بان كذب عبدالله ؛ قيل له : قد نزلت فيك آيٌ شِدادٌ ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه ، وقال : أمرتموني أن أومن

فآمنتُ ، وأمرتموني أن أزكي مَالي ، فزكّيتُ ، ما بقي لي إلاّ أن أسجد لمحمد ، فنزل : {وإذا قيل لهم تعالوا...} الآية ، وما بقي إلاّ أياماً حتى اشتكى ومات.

٥٠

قاله النسفي ، فانظره ، مع أنّ سورة براءة متأخرة عن هذه ، وفيها : {وَلاَ تُصَلِ عَلَى أَحَدٍ مّنْهُم...} [التوبة : ٨٤] التي نزلت فيه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٠

قالت تعالى : {سواءٌ عليهم أَسْتغفَرتَ لهم أم لم تستغفرْ لهم} ، أي : لا مساغ للنصح فيهم ، {لن يغفر اللهُ لهم} أي : ما داموا على النفاق. والمعنى : سواء عليهم الاستغفار وعدمه ؛ لأنهم لا يلتفتون إليه ، ولا يعتدون به ؛ لكفرهم ، أو لأنّ الله لا يغفر لهم أبداً ، {إِنَّ اللهَ لا يهدي القوم الفاسقين} ؛ لإصرارهم على الفسق ، ورسوخهم في الكفر والنفاق. والمراد : إما هم بأعيانهم ، والإظهار في موضع الإضمار لبيان غلوهم في الفسق ، أو : الجنس ، وهم داخلون في زمرتهم دخولاً أولياً.

{هم الذين يقولون} للأنصار : {لا تُنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضوا} ؛ يتفرقوا ، وهذه المقالة كانت السبب في استدعائه إلى الاستغفار ، كما تقدّم ، فحقها التقديم قبل قوله : {وإذا قيل لهم تعالوا} وإنما أُخرت ليتوجه العتاب إليه مرتين ، كما تقدّم في سورة البقرة.

ثم قال تعالى ، في الرد على الخبيث : {ولله خزائنُ السموات والأرض} ، فهو رد وإبطال لما زعموا من أنَّ عدم إنفاقهم يؤدي إلى انفضاض الفقراء من حوله صلى الله عليه وسلم ببيان أنَّ خزائن الأرزاق بيد الله تعالى خاصة ، يُعطي مَن يشاء ، ويمنع مَن يشاء ، فيرزق منها المهاجرين ، وإن أمسك أهلُ المدينة عنهم ، {ولكنَّ المنافقين لا يفقهون} ؛ ولكن عبد الله وأضرابه لايفقهون ذلك فيهتدون ، بما يُزيِّن لهم الشيطان.

{يقولون لئن رجعنا} من غزوة بني الصطلق {إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعَزُّ منها} يعني : نفسه ـ لعنه الله ـ {الأذلَّ} يعني : جانب المؤمنين ، وإسناد القول بذلك إلى المنافقين ؛ لرضاهم به ، فردّ تعالى عليهم ذلك بقوله : {ولله العِزَّةُ ولرسوله وللمؤمنين} أي : ولله الغلبة والعزّة ، ولِمن أعزّه من رسوله والمؤمنين ، لا لغيرهم ، كما أنَّ المَذلة والهوان للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين. وعن بعض الصالحات ، وكانت في هيئة رثّة من الفقر : ألستُ على الإسلام ، وهو العزّ الذي لا ذُلّ معه ، والغنى الذي لا فقر معه ؟ وعن الحسن بن عليّ رضي الله عنه : أنّ رجلاً قال له : إنَّ فيك تيهاً ؟ قال : ليس بتيه ، ولكنه عزّة ، وتلا هذه الآية. هـ.

{ولكنَّ المنافقينَ لا يعلمون} ذلك ؛ لفرط جهلهم وغرورهم ، فيهذون ما يهذون. رُوي أنَّ ولد عبدالله بن أُبيّ ، واسمه عبدالله ، وكان رجلاً صالحاً ، لَمَّا سمع الآية جاء إلى أبيه ، فقال له : أنت والله يا أبت الذليل ، ورسول الله العزيز ، ووقف على باب السكة التي يسلكها أبوه ، وجرّد السيف ، ومنعه الدخول ، وقال : والله لا دخلتَ منزلك إلاَّ أن يأذن في ذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله في أذل حال ، فبلغ ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فبعث إليه : " أن خَلِّه يمضي إلى منزله ، وجزاه خيراً " فقال : الآن فنعم. هـ.

٥١

الإشارة : مَن تكبّر عن حط رأسه للأكابر ففيه خصلة من النفاق ، والمراد بالأكابر : الأولياء العارفون بالله ، مَن تكبّر عنهم مات ، وفيه بقية مِن النفاق ، إذ لا يخلو منه إلاّ بالتطهير الكبير على أيدي

المشايخ ، وكذلك مَن منع الناس مِن الإنفاق على أهل النسبة ، كائناً ما كانوا ، فشُؤمه الحرمان من نسيم أهل الوصلة ، {وللّه خزائن السماوات والأرض} أي : خزائن الأرزاق الحسية والمعنوية ، فقد يُعطي أحدهما دون الآخر ، وقد يعطيهما معاً ، أو : يمنعهما معاً ، على حسب المشيئة ، قال رجل لحاتم الأصم : من أين تأكل ؟ فقال : {وللّه خزائن السماوات والأرض} وقال الجنيد : خزائن السماوات : الغيوب ، وخزائن الأرض : القلوب ، وهم علاّم الغيوب ، ومُقلِّب القلوب. وكان الشبلي يقرأ : {وللّه خزائن السماوات والأرض} ويقول : فأين تذهبون. هـ. أي : حين تهتمون بالرزق بعد هذه الآية.

}

(٦١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٠

ولله العزةُ ولرسوله وللمؤمنين} ، قال بعضهم : عزة الله : قهره ، وعزته لرسوله : إظهاره ، وعزتُه للمؤمنين : نصره إياهم على مَن آذاهم. وقيل : عزة الله : الولاية {هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ} [الكهف : ٤٤] ، وعزة الرسول : الكفاية والعناية ، وعزة المؤمنين : الرفعة والرعاية ، وقيل : عزة الله : الربوبية ، وعزة الرسول : النبوة ، وعزة المؤمنين : العبودية ، فإذا أردتَ أيها العبد أن تكون عزيزاً فارفع همتك عن الخلق ، وسُد باب الطمع ، وتحلَّ بحلية الورع. قال بعضهم : والله ما رأيتُ العزّ إلاَّ في رفع الهمة عن الخلق ، وقال آخر : ما قُذِّر لماضغيك أن يمضغاه فلا بدّ أن يمضغاه ، فامضغه . ويحك . بعز ، ولا تمضغه بذل. هـ.

(٦٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٠

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكُم} أي : لايشغلكم الاهتمام بتدبير أمورها ، والاعتناء بمصالِحها ، والتمتُّع بها ، {ولا أولادُكم} أي : سروركم بهم ، وشفقتكم عليهم ، والاستغراق في الأسباب ، للنفقة عليهم {عن ذكر الله} أي : عن الاشتغال بذكره عزّ وجل ، من الصلاة ، والذكر ، وسائر العبادات ، والمراد : نهيهم عن التلهي بها ، وتوجيه النهي لهم للمبالغة ، كقوله تعالى : {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَئَآنُ قَوْمٍ} [المائدة : ٢] ، {ومن يفعل ذلك} أي : التلهي بالدنيا عن الدين {فأولئك هم الخاسرون} ؛ الكاملون في الخسران ، حيث باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

{وأَنفِقوا مِن مَّا رزقناكم} أي : بعض ما رزقناكم ، تفضُّلاً ، من غير أن يكون
٥٢
حصوله من جهتكم ادخاراً للآخرة ، وهو عام في المفروض والمندوب ، {مِن قبل أن يأتي أحدَكُم الموتُ} بأن يُشاهد دلائله ، ويُعاين أمارته ومخايله. وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بما قدّم ، والتشويق لِما أخّر ، {فيقولَ} حين تَيَقُّنِه بحلوله : {لولا أخَّرتني} ؛ أمهلتني {إلى أجلٍ قريب} ؛ أمدٍ قصيرٍ ، {فأصَّدَّقَ} بالنصب ، جواب التمني ، {وأكن من الصالحين} بالجزم ، عطفاً على محل {فأصَّدق} أو : على توهُّم إسقاط الفاء ، كأنه قيل : إن أخرتني أصَّدَّق وأكن ، وقرأ أبو عمرو بالنصب عطفاً على اللفظ.
{ولن يُؤخر اللهُ نفساً} ؛ لن يمهلها {إذا جاء أجَلُهَا} ؛ آخر عُمْرِها المكتوب في اللوح. {واللهُ خبير بما تعملون} فيُجَازيكم عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شرًّا فشر ، فسارعوا إلى الخيرات ، واستعِدوا لما هو آت. قال ابن عباس : ما قصَّر أحد في الزكاة والحجِّ إلاَّ سأل الرجعة عند الموت. هـ. والظاهر : أنَّ كل مَن قصَّر في الاجتهاد ، وتعمير الأوقات ، كله يطلب الرجعة ، وكل مَن أدركته المنية قبل الوصول إلى الله مغبون ، ولذلك ذكر التغابن بعدها ، وفي الحديث : " ما مِن أحدٍ إلاَّ سيندم عند الموت ، إن كان عاصياً أن لو تاب ، وإن كان طائعاً أن لو زاد " أو كما قال صلى الله عليه وسلم. قال في غريب المنتقى : إنّ العبد يقول عند كشف الغطاء : يا ملك الموت أَخِّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي ، وأتوب وأتزوّد صالحاً لنفسي ، فيقول المَلك : فَنيت الأيامُ ، فلا يوم ، فيقول : أخَّرني ساعة ، فيقول : فَنِيَت الساعات فلا ساعة. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٢
قيل : لمَّا كانت سورة المنافقين رأس ثلاث وستين سورة ، أُشير فيها إلى وفاته صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : {ولن يُؤخر اللهُ نفساً إذا جاء أجلها} فإنه صلى الله عليه وسلم مات على رأس ثلاث وستين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقده صلى الله عليه وسلم. هـ.
الإشارة : قد نهى الله تعالى عن الاشتغال عن ذكره بالأموال والأولاد ، ويُقاس عليه سائر القواطع ، فلا عذر للعبد في تركه في وقت من الأوقات ، فما مِن وقت من الأوقات إلاَّ وله حق جديد ، وأمر أكيد ، لا يُقضى في غيره ، فحقوق الأوقات لا تقضى ، بخلاف الحقوق التي لها أوقات محدودة ، فإنها تُقضى في غيرها ، ولمّا كان الذِكر يُطهِّر القلب ، ويُخرج ما فيه من حب الدنيا وغيرها ، أمر بالإنفاق بعد الأمر به ؛ ليسهل الإنفاقَ على العبد. قال بعض الحكماء في مدح الذكر والترغيب فيه : الذكر

منشور الولاية ، ولا بُد منه في البداية والنهاية ، وهو يُثمر أحوالاً شريفة ، وماقامات عالية منيفة ، وعلوماً لطيفة ، ويحيي عوالم طالما كانت قَبْلُ مواتاً ، ويُلبِسُ النفسَ وجنودَها ذلة وسُبَاتاً ، ونظيره إذا وصل للقلب : كدخول الماء في الأسراب ، فإنه يُخرج ما فيها من الحشرات والدواب ، فكذلك الذكر ، إذا صدم القلب ، ودخل سُويداءه ، فإنه يُخلصه مِن مساكنة صلصال النفس ، ويُزيل

٥٣

عن ناظره الغشاوة واللبس ، ولهذا كان أفضل الأعمال ، وأزكى الأحوال ، وفُضّل على جهاد السيف والقتال. هـ. وأنفِقوا مما رزقناكم من العلوم والمعارف ، لمَن يطلبها وكان أهلاً لها ، بعد إنفاق ما عنده من الحس ، وإلاَّ فلا خير في فقير شحيح ، فإنه مِن أقبح كل قبيح. فانتهزوا الفرصة ، وبادِروا نفوذ الأجل ، فالترقي إنما تهو في هذه الدار. قال القشيري : لا تَغْتَرُّوا بسلامةِ أوقاتِكم ، وتَرَقَّبوا بغَتَات آجالكم ، وتأهَّبوا لِما بين أيديكم من الرحيل ، ولا تعرجوا في أوطان التسويف. هـ. وبالله التوفيق ، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ، وسلّم.

٥٤

(٦٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٢

سورة التغابن

(٦٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٤

يقول الحق جلّ جلاله : {يُسبِّح لله ما في السماوات وما في الأرض} أي : يُنزّهه سبحانه جميعُ ما فيهما من المخلوقات عما لا يليق بجناب كبريائه ، قال القشيري : المخلوقات بجملتها مُسَبِّحةٌ لله ، ولكن لا يَسْمَعُ تسبيحَها مَن فيه طَرَشُ النكرة. هـ. {له الملكُ وله الحمدُ} لا لغيره ؛ إذ هو المبدىء لكلّ شيء ، وهو القائم به ، والمهيمن عليه ، وهو المُولي لأصول النِعم وفروعها ، وأمّا ملك غيره فاسترعاء من جنابه ، وحمد غيره اعتداد بأنّ نعمة الله جرت على يديه. فتقديم الظرفين للاختصاص. {وهو على كل شيءٍ قديرٌ} ؛ لأنّ نسبة ذاته المقتضية للقدرة إلى كل سواء.

{هو الذي خَلَقَكُم} خلقاً بديعاً ، حائزاً لجميع الكمالات العلمية والعملية ، ومع ذلك {فمنكم كافرٌ} أي : فبعض منكم مختار للكفر كاسباً له ، على خلاف ما تستدعيه خِلقته ، {ومنكم مؤمن} مختار

للإيمان ، كاسباً له ، على حسب ما تقتضيه خِلقته ، وكان الواجب عليكم جميعاً أن تكونوا مختارين للإيمان ، شاكرين لنِعم الخلق والإيجاد ، وما يتفرّع عليهما من سائر النِعم ، فما فعلتُم ذلك مع تمام تمكُّنكم منه ، بل تشعّبتم شعباً ، وتفرقتم فِرَقاً. وتقديم الكفر لأنه الأغلب والأنسب للتوبيخ. قال القشيري : {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} أي : في سابق علمه سمَّاه كافراً ، لعلمه أنه يكفر ، وكذلك المؤمن. هـ.

٥٥

قال أبو السعود : حَمْله على ذلك مما لا يليق بالمقام ، فانظره. {واللهُ بما تعملون بصير} فيُجازيكم بذلك ، فاختاروا منه ما ينفعكم من الإيمان والطاعة ، وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان.

{خَلَقَ السماوات والأرضَ بالحق} ؛ بالحكمة البالغة ، المتضمنة للمصالح الدينية والدنيوية ، حيث جعلها مقرًّا للمكلّفين ليعملوا فيُجازيهم ، {وصوَّركم فأَحْسَن صُوَركم} حيث أنشأكم في أحسن تقويم ، وأودع فيكم من القُوى والمشاعر الظاهرة والباطنة ، ما نيط بها جميع الكمالات البارزة والكامنة ، وخصَّكم بخلاصة خَصائص مُبدعاته ، وجعلكم أنموذجَ جميع مخلوقاته ، فالكائنات كلها منطوية في هذه النشأة.

(٦٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٥

قال النسفي : أي : خلقكم أحسن الحيوان كلّه ، وأبهاه ، بدليل : أنّ الإنسان لا يتمنّى أن تكون صورته على خلاف ما يرى من سائر الصور ، ومِن حُسن صورته : أنه خلق منتصباً غير منكبٍّ ، ومَن كان دميماً ، مشوّه الصورة ، سمج الخلقة ، فلا سماجة ثمَّ ، ولكن الحسن على طبقات ، فلانحطاطها عمّا فوقها لا تستملح ، ولكنها غير خارجة عن حدّ الحُسن. وقال الحكماء : شيئان لا غاية لهما : الجمال والبيان. هـ. قلت : وما أشار إليه هو الذي نظمه الجيلاني في عينيته ، حيث قال :

وكُلُّ قبيحٍ إن نَسَبْتِ لحُسْنِه
أتتك معاني الحُسْنِ فيه تُسارِعُ
يُكَمِّل نُقصانَ القبيحِ جَمَالُه
فما ثَمَّ نُقصانٌ. ولا ثَمَّ بَاشِعُ

{وإليه المصيرُ} في النشأة الأخرى ، لا إلى غيره ، فأحسِنوا سرائركم ، باستعمال تلك القوى والمشاعر فيما خُلقن له.

{يعلمُ ما في السماوات والأرض ويعلم ما تُسِرُّون وما تُعلنون} أي : ما تُسرونه فيما بينكم ، وما تُظهرونه

من الأمور ، والتصريح به مع اندراجه فيما سبق قبله ؛ لأنه الذي يدور عليه الجزاء ، ففيه تأكيد للوعد والوعيد ، وتشديد لهما. وقوله تعالى : {واللهُ عليم بذاتِ الصُدور} : تذييل لِما قبله ، ومُقَرِّر له ، من شمول علمه تعالى لسِرِّهم وعلنهم ، أي : هو محيط بجميع المضمرات المستكنة في صدور الناس ، بحيث لا يُفارقها أصلاً ، فكيف يخفى عليه ما يُسرونه وما يُعلنونه ، فحق أن يُتقى ويُحذر. وإظهار الجلالة للإشعار بعلية الحكم ، وتأكيد استقلال الجملة. قيل : وتقدّم تقرير القدرة على تقرير العلم ؛ لأنّ دلالة المخلوقات على قدرته تعالى بالذات ، وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأوصاف ، وكل ما ذكره بعد قوله : {فمنكم كافر ومنكم مؤمن} في معنى الوعيد على الكفر ، وإنكار أن يُعصى الخالق ولا تُشكر نِعَمه.

قال الطيبي : الفاء في " فمنكم " تفصيلية ، والآية كلها واردة لبيان عظمة الله في مُلكِه وملكوته ، وذلك أنه تعالى لمّا أثبت لذاته الأقدس التنزيه ، وأنّ كل شيء ينزهه ويُقدّسه عما

٥٦

لا يَليق بجلاله ، ثم خصّ أنه لوصفه بالمالكية على الإطلاق ، وكل كمال وجمال ونعمةٍ وإفضال منه ، وهو خالق كل مهتدٍ وضال ، ونظم دليل الآفاق مع ليل الأنفس ، وبيّن أنَّ إليه المصير ، ختم ذلك بإثبات العلم الشامل للكليات والجزئيات ، وكرره تكريراً ، وأكّده توكيداً ، وكأنَّ ذكر العلم في قوله : {والله بما تعملون بصير} استطراد لذكر الخلق وتفصيله ، ولإثبات القضاء والقدر ، ولمّا فرغ من بيان العظمة جاء بالتهديد والوعيد ، وقال : {ألم يأتكم...} الآية. هـ.

(٦٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٥

الإشارة : هو الذي خلقكم ، فمنكم كافر بطريق الخصوص ، ومنكم مؤمن بها ، داخل فيها ، أي : فمنكم عام ومنكم خاص. قال القشيري : فمنكم كافرٌ ، أي : سائر للحق بالخلق ، ومنكم مؤمن ، أي : مُصدِّقٌ بظهور الحق في الخلق. ثم قسَّم الناسَ على ثلاثة : مَن لا يرى إلاّ الخلق ، وهم أهل الفرق ، ومَن لا يرى إلاّ الحق ، وهم أهل الجمع ، ومَن يرى الحق في الخلق ، والخلق في الحق ، لا يحجبه أحدُهما عن الآخر ، فهم أهل جمع الجمع.

خَلَقَ سماواتِ الأرواح ليُعرف بها ، وأرض الأشباح ليُعبد بها ، وهو الواحد الأحد ، وصوَّركم فأحسن صُوَرَكم ، حيث جعلها جامعة للعوالم العلوية والسفلية ؛ لأنَّ الله تعالى خلق آدم على صورته ، وذاته المقدسة جامعة لمظاهر الصفات والأسماء ، وتلك المظاهر كلها مجموعة في الصور الآدمية ، بخلاف سائر الكائنات ، فما في صورتها إلاَّ بعض الأسماء والصفات ، فتأمّله. وإليه المصير ، أي : وإلى ذاته

ترجع جميع الصور والأشكال ، فما خرج شيء عن إحاطة الذات والصفات ، يعلم ما تُسرُّون من العقائد الصحيحة ، وما تُعلنون من العبادات الخالصة ، أو : ما تُسرُّون من الكشوفات الذوقية ، وما تُعلنون من العبودية الاختيارية ، هذا في خاصة أهل الظاهر وأهل الباطن ، أو : ما تُسرُّون من العقائد الفاسدة ، وما تُعلنون من الأعمال الخبيثة ، أو : ما تُسرُّون من الاتحاد أو الحلول ، وما تعلنون من العمل والمعلول ، وهذا في طالحي الفريقين.

(٦٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٥

٥٧

يقول الحق جلّ جلاله : لكفار مكة {ألم يأتكم نبأُ الذين كفروا من قبلُ} ؟ كقوم نوح ، ومَن بعدهم من الأمم المُصرَّة على الكفر ، {فذاقوا وبالَ أمرهم} أي : شؤم كفرهم في الدنيا من الهلاك والاستئصال. والوبالُ : الثقل والشدة ، وأمرهم : كفرهم ، عبّر عنه بالأمر إيذاناً بأنه أمر هائلٌ ، وجناية عظيمة ، و " ذاقوا " عطف على " كفروا " أي : ألم يأتكم خبر الذين كفروا فذاقوا من غير مهلة ما يسْتتبعُهُ كفرهم في الدنيا ؟ {ولهم في الآخرة عذابٌ أليم} لا يُقادَر قدره.

{ذلك} أي : ما ذكر من العذاب الذي ذاقوه في الدنيا ، وما سيذوقونه في الآخرة {بأنه} ؛ بسبب أن الشأن {كانت تأتيهم رُسُلهم بالبينات} ؛ بالمعجزات الظاهرة ، {فقالوا أَبَشَرٌ يهدوننا} أي : قال كلُّ قوم من المذكورين في حق رسولهم الذي أتاهم بالمعجزات منكرين كون الرسول من البشر ، متعجبين من ذلك {أَبَشرٌ} مِن جنس البشر {يهدوننا} ، أنكروا رسالة البشر ، ولم ينكروا عبادةَ الحجر ، {فكفروا} بالرسل {وتَوَلَّوا} عن التدبُّر فيما أتوا به من البينات ، أو : عن الإيمان بهم ، {واستغنى اللهُ} أي : أظهر استغناءه عن إيمانهم وطاعتهم ، حيث أهلكهم وقطع دابرهم ، ولولا استغناؤه تعالى عنها ما فعل ذلك ، {والله غنيٌّ} عن العالمين ، فضلاً عن إيمانهم وطاعتهم ، {حميدٌ} يحمده كلُّ مخلوقٍ بلسان الحال والمقال ، أو : مستحق للحمد بذاته ، وإن لم يحمده حامد.

ثم ذكر كفرهم بالبعث ، فقال : {زَعَمَ الذين كفروا أن لن يُبعثوا} ، الزعم : ادّعاء العلم ، فيتعدّى إلى مفعولين ، سدّ مسدهما " أن " المخففة ، أي : أدّعى أهل مكة أنّ الشأن لن يُبعثوا بعد موتهم ، {قل بلى وربي لَتُبعثن} ، ردًّا لزعمهم وإبطالاً لِما نفوه مؤكَّداً بالقسم ، فإن قلْتَ : ما معنى اليمين على شيء أنكروه ؟ قلتُ : هو جائز ؛ لأنّ التهديد به أعظم موقعاً في القلب ، فكأنه قيل : ما تنكرونه والله إنه لواقع لا محالة ، {ثم لتُنبَّؤنَّ بما عَمِلتم} أي : لتُحاسبن وتُجزون بأعمالكم ، {وذلك} أي : ما ذكر من البعث والحساب {على الله يسيرٌ} هيّن ، لتحقق القدرة التامة ، وقبول المادة للإعادة.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٧

الإشارة : ألم يأتكم يا معشر المنكِرين على أولياء زمانكم ، خبر مَن أنكر قبلكم ، ذاقوا وبالَ أمرهم حيث ماتوا محجوبين عن شهوده ، مطرودين عن ساحة قربه ، ذاقوا وبال أمرهم في الدنيا ؛ الجزع والهلع وتسليط الخواطر والشكوك ، ولهم في الآخرة عذاب البُعد والحِجاب ، وسبب ذلك : إنكار الخصوصية عند بشر مثلهم ، فكفروا به ، وتولَّوا عنه ، والله غني عنهم ، وعن توجههم ، وعن جميع الخلق ، زعم الذين كفروا ؛ ستروا الحق بالخلق ، أي : احتجبوا بالخلق عن شهود الحق ، أن لن يُبعثوا على معتقدهم ، قل : بلى وربي لتُبعثن ، كما عشتم محجوبين عن رؤية الحق إلاّ نادراً ؛ لأنَّ العبد يموت على ما عاش ، ويُبعث على ما مات ، من معرفةٍ أو نكران ، ثم لتُحاسبن على أعمالكم ، لا يغادَر منها صغيرة ولا كبيرة ، بخلاف العارفين ، لا يُرفع لهم ميزان ، ولا يتوجه لهم حساب ، حيث

٥٨

فَنوا عن أنفسهم ، وبقوا بالله ، وهم من السبعين ألفاً. وبالله التوفيق.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٧

قلت : الفاء في قوله {فآمِنوا} فصيحة ، مفصحة عن شرط مقدّر ، أي : إذا كان الأمر كما ذكرنا من وقوع البعث لا محالة فآمِنوا وتأهّبوا له.

يقول الحق جلّ جلاله : {فآمِنوا بالله ورسوله} محمد صلى الله عليه وسلم ، {والنورِ الذي أنزلنا} وهو القرآن ، فإنه بيّن حقائق الأشياء ، فيهتَدي به كما يهتدى بالنور. والالتفات في " أنزلنا " لكمال العناية بالإنزال ، {والله بما تعملون} من الامتثال وعدمه {خبير} ، فيجازيكم عليه. وإظهار اسم الجليل لتربية المهابة ، وتأكيد استقلال الجملة.

واذكر {يومَ يجمعكم} أو : لَتنبؤنَّ ، أو خبير {يوم يجمعكم ليوم الجمع} وهو يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون للحساب والجزاء ، {ذلك يوم التغَابُنِ} ، مستعار من : تغابن القومُ في التجارة ، وهو أن يُغبن بعضُهم بعضاً ، لنزول السعداء منازلَ الأشقياء التي كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء لو كانوا أشقياء ، كما ورد في الحديث. وقد يتغابن الناسُ في ذلك اليوم بتفاوت الدرجات ، وذلك هو التغابن الحقيقي ، لا التغابن في أمور الدنيا ، {ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً نُكَفِّرْ} بنون العظمة لنافع والشامي ، وبياء الغيبة ، أي : يُكَفِّر الله {عنه سيئاتِه ونُدْخِلْه جنات} أو : يُدخله الله

{جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك} أي : ما ذكر من تكفير السيئات وإدخال الجنات {الفوزُ العظيم} الذي لا فوز وراءه ؛ لانطوائه على النجاة من أعظم الهلكات ، والظفر بأجل الطلبات.

{والذين كفروا وكَذَّبوا بآياتنا أولئك أصحابُ النار خالدين فيها وبئس المصير} ؛ المرجع ، كأنّ هاتين الآيتين الكريمتين بيان لكيفية التغابن. والله تعالى أعلم.

الإشارة : فأمِنوا بالله ورسوله إيمان العيان ، لا إيمان البرهان ، أي : قدِّموا إيمان البرهان ، ثم سيروا إلى مقام العيان ، وآمِنوا بالقرآن ، وصَفُّوا مرآة قلوبكم حتى تسمعوه منا بلا واسطة ، واذكروا يومَ يجمعكم ليوم الجمع الدائم لأهل الجمع في الدنيا ، ذلك يوم

٥٩

التغابن ، يغبن الذاكرون الغافلين ، والمجتهدون المقصّرين ، والعارفون بالله والمحجوبين عنه ، وهذا هو الغبن الكبير ، ومَن يُؤمن بالله ، ثم يَجْهد في شهود الله ، ويعمل عملاً صالحاً ، وهو العمل بالله ، نُكفِّر عنه سيئاته ، أي رؤية أعماله ووجوده ، أي : نُغَطِّي وصفَه بوصفي ، ونعتَه بنعتي ، ونُدخله جنات المعارف ، تجري من تحتها أنهار العلوم والحِكم ، وذلك هو الفوز العظيم ، أي : خَلْع الوجود المجازي عنه ، وإلباس الوجود الحقيقي هو الفوز العظيم. والذين كفروا بطريق الخصوص ، وكذَّبوا بآياتنا ، وهم العارفون الدالون على الله ، أولئك أصحاب النار ، أي : نار الحجاب وجحيم الاحتجاب ، خالدين فيها ، وبئس المصير الحجاب والاحتجاب.

(٧١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٥٩

يقول الحق جلّ جلاله : {ما أصاب من مُصيبةٍ} دنيوية أو أخروية {إلاّ بإذن الله} أي : بتقديره وإرادته ، كأنها بذاتها متوجهة إلى الإنسان ، متوقفة على إذنه تعالى ، {ومَن يُؤمن بالله} أي : يُصدِّق بأنّ المقادير كلها بيد الله {يَهْدِ قلبه} للرضا والتسليم ، أو الاسترجاع ، فيقول : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أو : يَهْدِ قلبه حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه ، وعن مجاهد : إن ابتلي صبر ، وإن أعطي شكر ، وإن ظُلم غفر. ونقل ابن عطية عن المفسرين : أنّ المراد : مَن اعترف بالقدر هانت عليه المصيبة ، وسلَّم لأمر الله تعالى. {واللهُ بكل شيءٍ عليمٌ} فيعلم ما في القلوب من برد الرضا أو حرارة التدبير.

{وأطيعوا اللهَ} فيما أمركم به ، ومن جملته : الرضا بقضائه عن المصائب ، {وأطيعوا الرسولَ} فيما سنَّ لكم من الأخلاق الطيبة ، وكرر الأمر للتأكيد والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية ، {فإن توليتم}

عن طاعتهما {فإنما على رسولنا البلاغُ المبين} ، وهو تعليل للجواب المحذوف ، أي : فإن تُعرضوا فلا بأس عليه ؛ إذ ما عليه إلاّ البلاغ ، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه. وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه صلى الله عليه وسلم والإشعار بأنّ مدار الحكم ، الذين هو وظيفته عليه السلام هو محض التبليغ ، ولتشنيع التولِّي عنه.

{اللهُ لا إله إلاّ هو} لا يستحق العبادة غيره ، فـ " الله " : مبتدأ ، و " لا إله إلا هو " : خبره ، {وعلى الله} دون غيره {فليتوكل المؤمنون} ، حَثّ رسولَه صلى الله عليه وسلم على التوكُّل عليه حتى ينصره الله ، وهي عامة لغيره ، وإظهار الجلالة في موضع الإضمار للإشعار بعليّة

٦٠

التوكُّل والأمر به ، فإنّ الألوهية مقتضية للتبتُّل إليه تعالى بالكلية ، وقطع التوكُّل عما سواه بالمرة.

الإشارة : ما من نَفَس تُبديه ، إلاَّ وله قَدَر فيك يُمضيه. ما أصاب من مصيبة قلبية أو نفسية ، ظاهرة أو باطنة ، إلاّ بإذن الله وقَدَرِه ، وكذلك ما أصاب من مسرةٍ أو زيادة إلاّ بإذنه تعالى. قال القشيري : أي : أيّ خصلة حَصَلَت فمن قِبَله ، خَلْقاً ، وبعلمه وإرادته حُكماً ، ومَن يؤمن بالله يهدِ قلبه ، حتى يهتدي إلى الله في السراء والضراء في الدنيا ، وفي الآخرة يهديه إلى الجنة ، وقيل : يهديه للأخلاق السنية ، وقيل : لاتباع السنّة ، واجتنابِ البدعة. هـ. وقال أبو بكر الورّاق : ومَن يؤمن بالله عند النعمة والرخاء فيعلم أنها من فضل الله يهدِ قلبه للشكر ، ومَن يؤمن بالله عن الشدة والبلاء ، فيعلم أنها من الله يَهْد قلبه للصبر والرضا. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٠

قال في الحاشية الفاسية : والظاهر والمتبادر : أنّ قوله : {ما أصاب...} الآية جمعٌ على الله ، ورَدٌّ من الأسباب ، والوقوف معها ، إلى الوقوف مع قضائه ، وإنما يجد ذلك المؤمن بالله ، وأمّا غيره فصَدْره ضَيق حرج عن قبول المعرفة ، ولذلك قال : {ومَن يؤمن بالله يَهْد قلبه} لمعرفته والأطمئنان به ، أي : ومَن لم يؤمن يَصْلى نار القطيعة والبُعد ، وحرارة التدبير ، ففيه ترغيب في الإيمان وتحذير من الكفر ، وأنّ الإيمان تعقبه جنة الرضا والتسليم ، عاجلاً ، والكفر بضد ذلك ، فبَعد أن ذكر الجزاء في الآخرة أشار إلى الجزاء المعجّل من اليقين والرضا للمؤمن ، وضده للكافر. والله أعلم. هـ.

وأطيعوا اللهَ في الفرائض ، والرسول في السنن ، وقد بقي بعد الرسول خلفاؤه ، يسنون السننَ الخاصة ، فمَن أعرض عنهم ، يقال له : {فإن توليتم...} الآية ، وتقدّم في آل عمران وغيرها الكلام على التوكُّل. وبالله التوفيق.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٠

٦١

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا إنّ مِن أزواجكم وأولادِكم عدواً لكم} يشغلونكم عن طاعة الله تعالى ، ويُخاصمونكم في أمور الدنيا ، أي : إنَّ من الأزواج أزواجاً يُعادين بعولتهنّ ويخاصمنَهم ، ومن الأولاد أولاداً يُعادون آباءهم ويعقّونهم ، {فاحذروهم} ؛ كونوا على حذر منهم إن شغلوكم عن الله ، فالضمير للعدو ، فإنه يُطلق على الجمع ، كقوله تعالى : {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي} [الشعراء : ٧٧] ، أو : للأزواج والأولاد جميعاً ، فالمأمور به على الأول : الحذر عن الكل ، وعلى الثاني : الحذر من البعض ، لأنّ منهم مَن ليس بعدو ، وإمّا الحذر عن عموم الفريقين ، لاشتمالهما على العدو. {وإن تَعفوا} عن ذنوبهم القابلة للعفو ، بأن تكون متعلقة بأمور الدنيا ، أو بأمور الدين لكن مع التوبة ، أو : تعفوا إذا اطّلعتم منهم على عداوة ، {وتصفحوا} ؛ تُعرضوا عن التوبيخ ، {وتغفروا} ؛ تستروا ذنوبهم ، {فإِنَّ الله غفور رحيم} يغفر لكم ذنوبكم ، ويعاملكم مثل ما عاملتم.

رُوي أنّ ناساً من أهل مكة أرادوا الهجرة ، فتعلّق بهم نساؤهم وأولادهم ، وقالوا : تنطلقون وتُضيعوننا ، فرقُّوا لهم ، ووقفوا ، فلما هاجروا بعد ذلك ، ورأوا الذين سبقوهم قد فَقِهُوا في الدين ، وحازوا رئاسةَ التقدُّم ، أرادوا أن يُعاقبوا أزواجهم وأولادهم ، فرغّبهم في العفو.

{إنما أموالُكم وأولادُكم فتنةٌ} ؛ بلاءٌ ومحنةٌ ، يوقعون في الإثم والعقوبة ، أو : امتحان واختبار ، يختبر بهما عبادَه ، هل يصدونهم عن الخير أم لا ، فيعرف القويّ في دينه من الضعيف. قال الحسن : أدخل " مِن " للتبعيض في الأزواج والأولاد ؛ لأنَّ كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر " مِن " في فتنة الأموال والأولاد ؛ لأنها لا تخلو من فتنة واشتغال قلب بها. كان لابن مسعود بَنون كالبُدور ، فقيل له . وهم بين يديه : أيسرُّونك ؟ فقال : لا ، إنما يسرُّني لو نفضت يدي من التراب عند دفنهم ، فنفوز بأجورهم ، قيل له : إنَّ لك الأجر في تربيتهم ، فقال : كل ما يشغل عن الله مشؤوم. هـ. من اللباب. وعن ابن مسعود : لا يقل أحدكم : اللهم اعصمني من الفتنة ؛ إذ لا يخلو منها أحد ، ولكن ليقل : اللهم إنني أعوذ بك من مضلاَّت الفتن. قال أبو بريدة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة ، فجاءه الحسن والحسين ، عليهما قميصان أحمران ، يجرانهما ، يعثران ، ويقومان ، فنزل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنبر ، حتى أخذهما ، ثم قرأ : {إنما أموالكم وأولادكم فتنة}...الآية ، ثم قال " إني رأيت هذين فلم أصبر " ثم أخذ في خطبته.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦١

واللهُ عنده أجرٌ عظيم} لمَن آثر محبةَ الله وطاعتَه على محبة الأموال والأولاد ،

٦٢

والسعي في تدبير مصالحهم ، وليس في الآية ترهيب من مخالطة الأزواج والأولاد ، إنما المراد النهي عن الاشتغال بهم عن ذكر الله وطاعته ، فإذا تيسّر ذلك معهم فالمخالطة أولى ، فَعَن أنس رضي الله عنه : قلت : يا رسول الله ؛ الجلوس مع العيال أحب إليك أم في المسجد ؟ قال : " جلوس ساعة مع العيال أحب إليَّ من الاعتكاف في مسجدي هذا ، ودرهم تُنفقه على العيال أفضل من أن تنفقه في سبيل الله " انظر السمرقندي.

{فاتقوا اللهَ ما استطعتم} أي : ابذلوا جهدكم وطاقتكم في تقواه ، قال ابن عطية : تقدّم الخلاف هل هذه الآية ناسخة لقوله تعالى : {اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران : ١٠٢] أو : مُبيّنة لها ، والمعنى : اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم ، وهذا هو الصحيح. هـ. {واسمَعُوا} ما تُوعظون به ، {وأطيعوا} فيما تُؤمرون به {وأَنفِقوا} مما رزقناكم في الوجوه التي أُمرتم ، فالإنفاق فيها خالصاً لوجهه {خيراً لأنفسِكم} أي : وائتوا خيراً لأنفسكم ، {ومَن يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون} الفائزون بكل خير.

{إِن تُقرضوا اللهَ} بصرف أموالكم إلى المصارف التي عيّنها {قرضاً حسناً} مقروناً بالإخلاص {يُضاعِفْهُ لكم} بالواحدة عشراً إلى سبعمائة أو أكثر ، {ويغفرْ لكم} ببركة الإنفاق ما فرط منكم ، {واللهُ شكورٌ} يُعطي الجزيل في مقابلة القليل ، {حليمٌ} لا يُعاجِل بالعقوبة ، {عالمُ الغيب والشهادة} لا تخفى عليه خافية ، {العزيزُ الحكيمُ} مبالغ في القدرة والحكمة. والله تعالى أعلم.

الإشارة : كل ما يشغلك عن السير إلى الحضرة ، أو عن الترقِّي في معاريج الوصلة ، فهو عدو لك ، فاحذره ، بالفرار من موافقته والوقوف معه ، فكن إبراهيميًّا ، حيث رمَى أهلَه وولَده في وادٍ غير ذي زرع ، وتركهم في كنف الله وحِفْظِه ، فانظر كيف حَفِظَهم غايةَ الحفظ ، وتولاهم غاية التولي ، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم من كل جانب ، وانصبّت عليهم الأرزاق من كل ناحية ، فهذه عادته تعالى مع أهل التوكُّل والانقطاع إليه. ومِن الأزواج والأولاد مَن يزيد بالرجل ويُعينه على ربه ، فهؤلاء ليسوا بأعداء. قال سهل : مَن دعاك مِن أهلك وولدك للميل للدنيا فهو عدو ، ومَن واخاك على القناعة والتوكُّل فليس بعدو. هـ. قال القشيري : إنَّ من أزواجكم : نفوسكم الأمَارة ، وأولادكم : صفاتها ومُناها وأخلاقها الشهوانية ، عدوًّا لكم ، يمنعكم عن الهجرة إلى مدينة القلب ، الذي هو بيت الرب ، فاحذروا متابعتَهم بالكلية ، وإن تعفوا عن هفواتكم الواقعة في بعض الأوقات ، لكونهم مطية لكم ، وتصفحوا عن التوبيخ

، وتغفروا : تستروا ظلمتهم بنور إيمانكم وشعاع قلوبكم ، فإنّ اللهَ غفور سائر لكم بستر لطفه ، رحيم بإفاضة رحمته عليكم. هـ. ببعض المعنى.

(٧٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦١

إنما أموالكم وأولادكم فتنة اختبار من الحق ، ليعلم مَن يقف معها ، أو ينفذ عنها ، فأهل العناية لم يشغلهم عن الله شيء ، فحين توجّهوا إليه كفاهم أمْرَهم ، أو : بالغيبة عنها

٦٣

بالخمرة القوية. قال القشيري : أموالكم : أعمالكم المشوبة ، وأولادكم : أخلاقكم المكدرة ، فكدورة الطبع فتنة توجب افتتانكم بالإعراض عن الحق ، والإقبال على الدنيا ، وحب الجاه عند الناس ، والتفاتهم إليكم بحسن الاعتقاد ، والله عنده أجر عظيم بالفناء عن الكل والبقاء بالحق. هـ.

{فاتقوا الله ما استطعتم} أي : غِيبوا عما سوى الله طاقة جهدكم ، وتقدّم أنَّ قوله تعالى : {اتَّقُواْ اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ} [آل عمران : ١٠٢] خطاب لأهل التجريد ، وهذا خطاب لأهل الأسباب ، والله تعالى أعلم. وقال ابن عطاء : الاستطاعة على الظواهر والأعمال ، وحق تقاته على القلوب والأحوال. هـ. أي : اتقوا الله حق تقاته بتوجيه القلوب إليه بلا التفات ، واتقوا الله ما استطعتم بعمل الجوارح قدر الطاقات. قال القشيري : ما أنتم في الجملة مستطيعين ، ويتوجه إليكم التكليف ، فاتقوا الله ، والتقوى عن شهود التقوى ، بعد ألاّ يكونَ تقصيرٌ في التقوى غايةُ التقوى. هـ. واسمعوا منا بلا واسطة ، وأطيعوا فيما نأمركم به مما يُقرب إلينا ، وننهاكم عنه مما يُبعد عنا. قال القشيري : أطيعوا بالنفس لأحكام الشريعة ، وبالقلب لآداب الطريقة ، وبالروح بطلوع الحقيقة. هـ. وأنفِقوا من أموالكم وعلومكم وأسراركم ، على الطالبين والسالكين والواصلين ، يكن خيراً لأنفسكم ، لأنّ الناس نفس واحدة ، فإنفاقك على غيرك إنفاق على نفسك ، لانتفاء الغيرية في الأحدية. ومن يُوق شُحَّ نفسه بإنفاقها في مرضاة الله ، بأن يُقدمها للمَتالف والمتاعب في طلب الوصول ، فأولئك هم المفلحون الظافرون بشهود الحق. قال القشيري : ومَن يُوق شُحَّ نفسه حتى يرتفع عن قلبه الأخطار ، ويتحرَّر من رِقِّ المكونات ، فأولئك هم المفلحون. هـ. وعن بعضهم : مَن أنفق بكُرهٍ فهو شح ، ومَن أَنفق بطوعٍ فهو الفرض ، ومَن عُوفي من بلاء الجمع والمنع ، والرغبة والحرص ، فقد دخل في ميدان الفلاح. هـ.

إن تُقرضوا الله بإعطاء وجودكم قرضاً حسناً ، من غير اعتبار الغرض والعوض ، بالفناء عن شهود القَرْض والحس ، يُضاعفه لكم بالوجود الحق ، المشتمل على جميع الموجودات الإضافية ، ويغفر لكم : يستر

عنكم مساوئكم وحسّ وجودكم قبل فنائكم في الله وبقائكم به. والله شكور يقبل مَن توجه إليه بلا شيء ، حليم يُغيّب العبد عن شهود مساوئه ، بإغراقه في إحسانه. عالم الغيب : بواطن الأرواح ، والشهادة : شهادة ظواهر الأشباح ، العزيز : المعزّ لأوليائه ومكل مَن انتسب إليه ، الحكيم في قسمه المراتب على حسب التوجُّه. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.

٦٤

(٧٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦١

سورة الطلاق

(٧٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٤

{يأيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ الْعِدَّةَ وَاتَّقُواْ اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُواْ ذَوَي عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ...}.

(٧٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبيُّ إذا طلقتم النساءَ} ، خصَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم بالنداء ، وعمَّ بالخطاب ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم إمام أمته وقدوتهم ، كما يُقال لرئيس القوم : يا فلان افعلوا كذا وكذا ؛ إظهاراً لتقدُّمه ، واعتباراً لترؤسه ، وأنه قدوة قومه ، فكان هو وحده في حكم كلّهم ، وسادًّا مسدَّ جميعهم. ومعنى " إذا طلقتم " : إذا أردتم تطليقهن ، كقوله : {إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ} [المائدة : ٦] ، تنزيلاً للمقبل على الشيء المشارِف له منزلةَ الشارع فيه ، كقوله صلى الله عليه وسلم : " مَن قتل قتيلاً فله سلبه " ، ومنه : كان الماشي إلى الصلاة والمنتظر لها في حكم المُصَلِّي.

{فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ} أي : مستقبلات لِعِدَّتهن ، شارعة فيها ، بمجرد الطلاق ، من غير أن تكون في

حيض أو نِفاس ، فإنَّ المرأة إذا طلقت في طُهر تعتد بذلك الطُهر من أقرائها ، فتخرج من العدّة برؤية الحيض الثالث ، بخلاف إذا طُلقت في غير طُهر ، فتنتظر الطُهر منه ، فلا تخرج إلاّ برؤية الحيض الرابع. والمراد أن يُطلِّق في طُهر لم يمس فيه ، وهذا هو طلاق السُنَّة. قال ابن جزي : واختلف في الطلاق : هل هو مباح أو مكروه ، وأمّا إن كان على غير وجه السُنة فهو ممنوع. هـ. وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

٦٥

" فطلِّقوهن في قُبل عِدّتهن ". قال ابن جزي : واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض ، هل هو معلَّل بتطويل العدة ، أو تعبُّد ، والصحيح : أنه معلَّل بذلك ، وينبني على هذا الخلاف فروع ، منها : هل يجوز إذا رضيت به المرأةُ أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها في الحيض وهي حامل أم لا ؟ ومنها : هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا ؟ فالتعليل بتطويل العدة يقتضي جواز هذه الفروع ، والتعبُّد يقتضي المنع ، ومَن طَلَّق في الحيض لزمه الطلاق ، ثم أُمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك ، ودون إجبار عند الشافعي حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء طلَّق وإن شاء أمسك ، حسبما ورد في حديث ابن عمر ، حيث طلّق امرأته ، فأمره صلى الله عليه وسلم برجعتها هـ.

{وأَحْصُوا العِدَّةَ} ؛ اضبطوها ، وأكمِلُوها ثلاثة أقراء كوامل ، لِما ينبني عليها من الأحكام ، كالرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك ، {واتقوا اللهَ ربكم} في تطويل العدة عليهن والإضرار بهن. وفي التعبير بعنوان الربوبية تأكيد لِما أمر ، ومبالغة في إيجاب الاتقاء.

}

(٧٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

لا تُخرجوهن من بيوتهن} ؛ من مساكنهن عند الفراق إلى أن تنقضي عدتهن ، وإضافتها إليهن مع أنها للأزواج لتأكيد النهي ببيان كمال استحقاقهن لسكانها ، كأنها أملاكهن. {ولا يَخْرُجْن} ولو بالإذن منكم ، فإنَّ الإذن في الخروج في حكم الإخراج ، وقيل : لا يخرجن باستبدادهن ، أمّا إذا اتفقا على الخروج جاز ، وهو خلاف مذهب مالك ، فلا يجوز لها في مذهبه المَبيت عن بيتها ، ولا أن تغيب عنه ، إلاّ لضرورة التصرُّف ، وذلك لحفظ النسب ، وصيانة المرأة ، فإن كان المسكن ملكًا للزوج ، أو مكتريً عنده لزمه إسكانها فيه ، وإن كان المسكن لها فعليه كِراؤه مدة العدة ، وإن كان قد استمتعته فيه مدة الزوجية ؛ ففي لزوم خِراج العدة له قولان في المذهب ، والصحيح لزومه ؛ لأنّ الاستمتاع قد انقطع بالطلاق.

{إلاَّ أن يأتين بفاحشةٍ مبيِّنة} ، قيل : الزنا ، فيخرجن لإقامة الحد ، قاله الليثي والثعلبي ، وقيل : سوء الكلام وإظهار الفحش مع الأصْهار ، فتخرج ويسقط حقها من السكنى ، وتلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب. قاله ابن عباس ، ويؤيده : قراءة أُبي : " إلاَّ أن يفحشن عليكم " ، وقيل : جميع المعاصي من القذف والسرقة وغير ذلك. قاله ابن عباس أيضاً. ومال إليه الطبري. وقيل : الخروج من بيتها خروجَ انتقال ، متى فعلت ذلك سقط حقها. قاله ابن الفرس ، وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في

٦٦

العدة ، وقيل : هو النشوز قبل الطلاق ، فإذا طلّقها بسبب نشوزها فلا سكنى على زوجها قاله قتادة. {وتلك حدودُ الله} أي : تلك الأحكام المذكورة هي حدود الله التي عيّنها لعباده ، {ومَن يَتَعَدَّ حدودَ الله} المذكورة ، بأن يُخلّ بشيء منها ، على أنَّ الإظهار في محل الإضمار لتهويل أمر التعدي ، والإشعار بعلة الحكم ، {فقد ظَلَمَ نفسه} ؛ أضرَّ بها ، إذ لعله يندم. والتفسير بتعريضها للعذاب يأباه قوله : {لا تدري لعل اللهَ يُحدِثُ بعد ذلك أمراً} فإنه استئناف مسوق لتعليل مضمون الشرطية ، وقد قالوا : إنَّ الأمر الذي يُحدثه اللهُ تعالى : هو أن ينقلب قلبه بُغضها إلى محبتها ، أو : من الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ويندم ، فلا بد أن يكون الظُلم عبارة عن ضرر دنيوي يلحقه بسبب تعدِّيه ، وهو الندم إن كان طلَّق ثلاثاً ، فيمنع من الرجعة ، أو : الحياء ، إن كان إخراجها من المسكن بلا سبب ، أو : فقد ظَلَمَ نفسَه بتعريضها للعذاب الشامل ؛ الدنيوي والأخروي ، حيث خالف ما أمره سيده. {لاتدري} أيها المخاطب {لعل اللهُ يُحِدثُ بعد ذلك أمراً} وهو الرجعة ، والمعنى : أحصوا العِدَّة وامتثلوا ما أُمرتم به ، لعل الله يُحدث الرجعة لنسائكم.

}

(٨٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

فإذا بَلَغْنَ أجلَهن} أي : قاربن آخر العِدَّة {فأمْسِكُوهنَّ} ؛ راجعوهن {بمعروفٍ} بحُسن معاشرة وإنفاقٍ لائق ، {أو فارِقوهنَّ بمعروفٍ} بإعطاء الصداق والإمتاع حين الطلاق ، والوفاء بالشروط. والمعنى : فأنتم بالخيار ؛ إن شئتم فالرجعة والإمساك بالمعروف ، وإن شئتم فترك الرجعة والمفارقة واتّقاء الضرر ، وهو أن يُراجعها في آخر عدتها ثم يُطلِّقها ، تطويلاً لعِدتها وتعذيباً لها ، {وأَشْهِدوا} عند الرجعة والمفارقة {ذَوَيْ عَدْلٍ منكم} من المسلمين ، وهذا الإشهاد مندوب على المشهور لئلا يقع بينهما التجاحد. وفي قوله : {ذوي عدل} دلالة على أنهم ذكور ، فلا تجوز شهادة النساء في النكاح ولا في

الطلاق عند الجمهور. {وأقيموا الشهادةَ للهِ} أيها الشهود عند الحاجة إليها ، خالصاً لوجهه تعالى. {ذلكم} إشارة إلى الحث على الإشهاد في الرجعة ، أو : إلى جميع ما ذكر ، {يُوعظ به مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر} إذ هو المنتفِع به ، والمقصود بتذكيره.

الإشارة : إذا طلقتم الدنيا وحظوظَ نفوسكم ؛ فليكن ذلك إلى أجل معلوم ، وهو الرسوخ والتمكين بعد الوصول ، وأَحْصُوا العدّة : اضبطوا أيام سيركم لئلا تضيع في البطالة أو الفضول ، واتقوا ما سوى ربكم أن تلتفتوا إليه ، لا تُخرجوا نفوسكم من أشباحها بشِدة مجاهدتها ، فإنها مَغرفة السر ، ومطيّة السير ، نَبَرُّ بها فيما تقوم بها من مآكل وملبس ونُخالف هواها ، ولا يَخرجن ، إي : ولا تتركوها أن تخرج من عش التربية قبل الترشيد ، إلاّ أن تطغى وتفحش ، فبالِغ في مجاهدتها بما يقارب موتها ، وتلك حدود الله التي حَدّها للسائر ، ومَن يتعدَّ شيئاً منها فقد ظلم نفسه ، إمّا بتفريط أو إفراط ، فصاحب التفريط لا يصل ، وصاحب الإفراط لا يدوم ، لا تدري أيها السائر لعل اللهَ يُحدث بعد ذلك انقياداً

٦٧

وتسهيلاً ، فإذا بلغ أجل الوصول ، وحل التمكين ، فلا ميزان على النفس ، إن شاء أمسك عليها إبقاء ، وإن شاء غاب عنهما فناء ، وأشهِدوا ذَوَيْ عدل منكم ، وهم أهل الفن ، فلا يخرج مِن ربقة المجاهدة وعش الإرادة ، حتى يشهد له الشيخ أو أهل الفن. والله تعالى أعلم.

ثم حَضَّ على التقوى التي هي مجمع الخير ، فقال :

{... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً}.

(٨١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {ومَن يَتَّقِ اللهَ} بأن طلَّق للسُنَّة ، ولم يُضار بالمعتدّة ، ولم يُخرجها من مسكنها ، واحتاط في الإشهاد ، وغير ذلك ، {يجعل له مخرجاً} مما عسى يقع في شأن الأزواج من الغموم والمضائق ، ويُفرِّج عنه ما يعتريه من الكروب. رُوي عن ابن عباس أنه قال لمَن طَلَّق ثلاثاً : " إنك لم تتق الله ، فبانت منك امرأتك ". والمختار : أنَّ الآية عامة ، أي : ومَن يتق الله في أقواله وأفعاله وأحواله يجعل له مخرجاً من كرب الدنيا والأخرة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأها ، فقال : " مخرجاً من شُبهات الدنيا ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة " ، قال ابن جزي : وهذا ـ أي العموم ـ أرجح من خمسة أوجه ، الأول : حمل اللفظ على عمومه ، فيدخل فيه الطلاق وغيره. والثاني : رُوي : أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي ، وذلك أنه أُسر ولده ، وضُيِّق عليه رزقه ، فشكا ذلك

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره بالتقوى ، وقال له : " أَكْثِرْ من : لاحَول ولا قوة إلاّ بالله " فلم يلبث إلاَّ يسيراً ، وانطلق ولده ، ووسع عليه زرقه. والثالث : أنه رُوي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني لأَعْلمُ آية لو أخذ الناسُ بها لكفتهُم {ومَن يتق الله يجعل له مخرجاً} " فما زال يكررها ، انظر بقيته.

{ويَرْزُقه من حيثُ لا يحتسب} أي : من وجوه لاتخطر بباله ولا بحسبه ، {ومَن يتوكل على الله} أي : يكل أمرَه إليه من غير تعلُّق بغير ، ولا تدبير نفس ، {فهو حَسْبُه} ؛ كافيه في جميع أموره ، {إِنَّ اللهَ بالغُ أَمْرِه} ، بالإضافة في قراءة حفص ، أي : منفذاً أمره ، وبالتنوين والنصب عند غيره ، أي : مبلغ ما يريد ، لا يفوته مُراد ، ولا يعجزه مطلوب. {قد جعل اللهُ لكل شيءٍ قَدْراً} ؛ تقديراً ، أو توقيتاً ، أو مقداراً معلوماً ووقتاً محدوداً ، لا يتقدمه ولا يتأخر عنه ، وهذا حث على التوكل وترغيب فيه ، لأنَّ العبد إذا عَلِمَ أنَّ الأمور

كلها بيد الله ، من الرزق وغيره وأنَّ لها وقتاً محدوداً لا يُجاوزه ، توكل عليه ، وانجمع بكليته عليه ، ولم يبقَ له إلاّ التسليم للقدَر السابق. قال ابن عطية : في الآية حض على التوكل ، أي : لا بد من نفوذ أمر الله تعالى ، توكلتَ أيها المرء أم لم تتوكل ، فإنْ توكلتَ على الله كفاك ، وتعجّلت الراحة والبركة ، وإن لم تتوكل وَكَلَك إلى جحدك وتسخُّطك ، وأمره نافذ في الوجهين. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

الإشارة : ومَن يتق الله التقوى الكاملة ، يجعل له من كمل مُشْكل وشُبهة ومتشابه مَخرجاً ، فيَنحلّ له كل ما أشكل على الناس في أمر الدين والدنيا ، ويرزقه من العلوم والأسرار والمعارف ، ما لا يخطر على بال ، من حيث لا يحتسب ، من غير تعلُّم ولا مدارسة ، وقال القشيري : إذا صَدَقَ العبدُ في تقواه أخرجه من أشغاله ، كالشعرة من العجين ، لا يتعلق بها شيء ، يضرب على المتقِي سرادقات عنايته ، ويُدخله في كنف الإيواء ويصرف الأشغال ، عن قلبه ، ويُخرجه عن تدبيره ، ويُجرده عن كل شغل ، ويكفيه كل أمر ، وينقله إلى شهود قضاء تقديره. هـ.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في هذه التقوى : أن تكون ظاهرة وباطنة ، ظاهرة من المعاصي ، وباطنة من المساوىء والدعاوى ، أمّا مَن طهَّر ظاهره من المعاصي ، وسَدّ الأُفق بالدعاوى وإضافة التدبير والاختيار لنفسه ، فلا يقوم خيره بِشَرِّه ، أي : فلا يدخل في الآية. ثم قال : إلاّ مَن وَطَّن نفسه على الأرياح إلى أيّ وجهة تقلب ، أي : دار مع رياح الأقدار حيث دارت ، ولم يسكن إلى شيء

، وكان ممن قال اللهُ فيه : {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} [السجدة : ١٦] ، أتراه منع جنوبَهم من مضاجع النوم ، وترك قلوبهم مضجعة وساكنة لغيره ، بل رفع قلوبهم عن كل شيء ، ولا يضاجِعُون أسرارهم شيئاً ، فافهم هذا المعنى ، تتجافى جُنوبهم عن مضاجعة الاختيار ومنازعة الأقدار ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ، فالخوف قَطَعَهم عن غيره ، وبالشوق إليه أطمعهم فيه ، ومما رزقناهنم ينفقون. هـ. مختصراً.

وقوله تعالى : {ويَرْزُقه من حيثُ لا يحتسبُ} قال في الحاشية الفاسية : أي : يرزقه المقدَّر في الأزل من حيث لا مشقة عليه في وصوله إليه ، فيأكل ويلبس من غير انتظار ، ولا استشراف نفس ، ولا تعب ، فيخرج له من الغيب بالبديهة ما يكفيه عن السؤال ، ومَن عَرَف اللهَ عَرَفه بكمال قدرته وإحاطة علمه بكل ذرة ، فيلقي زمام الاختيار إليه ، فيكفيه كل مؤنه في الدنيا والآخرة ، وهو السميع العليم ، وقد قال سهل : التقوى : التبري من الحول والقوة. هـ.

وقوله تعالى : {ومَن يتوكل على الله فهو حَسْبه} قال القشيري : فالله حاسبه ، أي : كافيه. {إِنَّ اللهَ بالغُ أَمْرِه} ، إذا سَبَقَ له شيءٌ من التقدير ، فلا محالةَ يكون ، وفي التوكل لا يتغير المقدور ولا يتأخر ، ولكنَّ المتوكل تكون ثقته بقلبه ، غير كارهٍ لما يرد عليه ، وهذا

٦٩

من أجَلِّ النعم. ثم قال في موضع آخر : التوكل : شهود نَفْسِك خارجاً من المِنَّة ، جارياً عليك أحكام التقدير من غير تدبيرٍ منك ولا اطلاع لك على حُكمه ، فسبيلُ العبد : الخمودُ والرضا دونَ استعلام الأمر. وفي الخبر : " أعوذ بالله من علم لا ينفع " ومن جملته : أن يكون قد وقع لك شُغْلٌ ، واستقبلك مُهِمٌ ، وقد اشتبه عليك وجهُ التدبير فيه ، وتكون مُطالباً بالسُكون ، فيطلبك العلم ، وتتمنى أن تعرف متى يصلح هذا الأمر ، وبأي سببٍ ؟ وعلى أي وجهٍ ؟ وعلى يد مَن ؟ فهذا كله تخليطٌ ، وغير مُسلَّم شيءٌ من ذلك للأكابر ، وهو مِن العلم الذي يجب التعوُّذ منه ، فيجب عليك السكون والرضا ، فإذا جاء وقتُ الكَشْف ، فسترى صورة الحال وتعرفه ، وربما ينظر العبدُ في هذه الحالة تعريفاً في المنام ، أوينظر في فال من الجامع . اي : ككتاب وشَبهه . أو يرجو بيان حاله ، بأن يجري على لسان مستنطق في الوقت ، كلُّ هذا تركُ للأدب ، واللهُ لا يَرْضى بذلك من أوليائه ، بل الواجبُ السكون. هـ.

(٨٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

وقال في القوت : والحسب إلى الحسيب يجعلُه ما شاء كيف شاء ، فقد قيل : {فهو حَسْبُه} أي : التوكل حَسْبُه من سائر المقامات ، ثم قال معرباً باللطافة ، مسلياً للجماعة : {إِنَّ الله بالغ أمره} أي :

منفذ حكمه فيمن توكل ، ومَن لا يتوكل ، إلاَّ أنّ مَن توكّل عليه يكون الله ـ عزّ وجل ـ حَسبه ، أي : يكفيه أيضاً مُهِم الدنيا والآخرة ، ولا يزيد مَن لم يتوكل عليه جناح بعوضة في قسْمه ، كما لا ينقص عليه ذرة من رزقه ، لكن يزيد مَن توكل عليه هُدىً إلى هداه ، ويرفعه مقاماً في اليقين قدر تقواه ، ويُعزّه بعزّه ، وينقص مَن لم يتوكل عليه من اليقين ، ويزيده من التعب والهم ، ويُشتت قلبَه ، ويشغل فكرَه ، فالمتوكل عليه يُجب له تكفير السيئات ، ويُلقي عليه رضاه ومحبته في المقامات ، أمّا الكفاية فقد ضَمِنها تعالى لِمن صدق في توكله عليه ، والوقاية قد وهبها لمَن أحسن تفويضه إليه ، إلاّ أنّ الاختيار وعلم الاستتار إليه في الكفاية والوقاية ، يجعل ذلك ما يشاء كيف شاء ، وأين شاء ، من أمور الدنيا وأمور الآخرة ، من حيث يعلم العبد ، ومن حيث لا يعلم ؛ لأنَّ العبد تجري عليه الأحكام في الدارين ، وفقير محتاج إلى الرحمة واللطف في المكانين. هـ.

(٨٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٦٥

يقول الحق جلّ جلاله : {واللائي يَئِسْنَ من المحيض من نسائكم} لكبرهن ، وقدّروه بستين ، أو : بخمس وخمسين. رُوي أنَّ ناساً قالوا : قد عرفنا عِدة الأقراء ، فما

٧٠

عدة التي لم تحض ؟ فنزلت. وقوله : {إِن ارتبتمْ} أي : إن أشكل عليكم حكمهنّ كيف يعتددن ، {فعِدَّتهُنَّ ثلاثةُ أشهرٍ} أو : إن ارتبتم في حيضها ، هل انقطع أو لم ينقطع ، فعِدَّتها بالأشهر ، وهي المرتابة التي غابت حيضتُها ، وهي في سن مَن يحيض ، واختلف فيها ، فقيل : ثلاثة أشهر على ظاهر الآية ، وقيل : تسعة ، وتستبرىء بثلاثة ، وهو المشهور في مذهب مالك ، وقدوته في ذلك عُمر بن الخطاب ، لأنّ مذهبه عُمري ، وقيل : تعتد بالأقراء ، ولو بلغت ثلاثين سنة ، حتى تبلغ سن مَن لا يحيض ، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة. {واللائي لم يَحِضْنَ} من صغر ، فعدتهنّ ثلاثة أشهر ، حذف لدلالة ما قبله ، {وأُولات الأحوالِ أجَلُهُنَّ} أي : عِدّتهن {أن يضعن حَملَهن} سواء كن مطلقات ، أو متوفًّى عنهن أزواجهن ، عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء. وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما : إنما هذا في المطلقات الحوامل ، وأما المتوفَّى عنهن فعدّتهنَ أقصى الأجلين ، إما الوضع ، أو انقضاء أربعة أشهر وعشر ، وحُجة الجمهور : حديث سُبَيْعة ، أنها لما مات زوجها ، ووضعت ، أَمَرَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتزوُّج ، وقد رُوي أن ابن عباس رجع إليه ، ولو بلغ عليًّا لرجع ، فهذه الآية مخصَّصة لِما في سورة البقرة من قوله تعالى : {وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ...} [البقرة : ٢٣٤].

تنبيه : وَضْعُ الحمل إنما يُبرىء الرحم إذا كان من نكاح صحيح ، وأمّا من الزنى فلا يُبرئ ، باتفاقٍ ، فمَن حملت مِن زنى وهي متزوجة فلا تحل للهارب الذي حملت منه إذا طُلّقت بوضع حملها منه ، بل لا بد من ثلاثة قروء بعد الوضع ، نَعَم مَن لا زوج لها من حُرةٍ أو أَمةٍ إذا حملت من زنى تمَّ استبراؤها بوضع حملها.

}

(٨٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٠

ومَن يتقِ اللهَ} في شأن أحكام العدة ومراعاة حقوقها {يجعل له من أمره يُسراً} أي : يُسهل عليه أمره. ويتحلّل عليه ما تعقّد ببركة التقوى ، {ذلك} أي : ما علَّمكم من الأحكام {أمرُ الله أَنزله إِليكم} لتعملوا به. وإفراد الكاف مع أنّ المُشار إليهم جماعة ؛ لأنها لتعيين الفرق بين البُعد والقرب ، لا لتعيين خصوصية المخاطبين {ومَن يتق الله} بالمحافظة على أحكامه {يُكفِّر عنه سيئاتِه} فإنَّ الحسنات يُذهبن السيئات ، {ويُعْظِمْ له أجراً} بالمضاعفة والتكثير.

الإشارة : والنفوس التي يئسن من المساوىء والميل إلى الدنيا ، ثم شككتم في تحقق طهارتها ، تنتظر ثلاثة أشهر ، فإذا مضت هذه المدة ولم يظهر منها ميل ، فالغالب طهارتها ، وكذلك النفوس الزكية ، الباقية على الفطرة ، التي لم يظهر منها خَلل ، تنتظر هذه المدة ، فإن ظهرت سلامتها فلا مجاهدة عليها ، والنفوس الحوامل بكثرة الأشغال عِدَّة تمام فتحها أن تضع كل ما يثقل عليها ويمنعها من السير ، ولقد سمعتُ شيخنا البوزيدي رضي الله عنه

٧١

يقول : إن شئتم أن أُقسم لكم ؛ إنه لا يدخل أحد عالَم الملكوت وفي قلبه علقة. هـ. {ومَن يتق الله} أي : يعزم على البر والتقوى يجعل له تعالى من أمره يُسراً ، يُسهّل عليه طريق السلوك ، ويكفيه كلَّ ما يُثقله ويشغله عنه ، إما بإزالة ذلك له ، أو بغيبته عن شؤونه ، ومَن يتق الله بالفعل يُكَفِّر عنه سيئاتِه ، أي : يُغطّي عنه أوصافه الذميمة بأوصافه الحميدة ، ويُعظم له أجراً بأن يفتح له باب مشاهدته. والله تعالى أعلم.

(٨٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٠

يقول الحق جّل جلاله : {أَسْكِنُوهُنَّ} أي : المطلَقات {من حيثُ سَكَنتم} أي : مكاناً من حيث سكنتم ، فـ " من " للتبعيض ، أي : بعض مكانِ سكناكم. قال قتادة : لو لم يكن له إلاّ بيت واحد سكنها في بعض جوانبه. {من وُجْدِكُم} أي : وُسْعِكم ، أي : ما تطيقونه ، فهو عطف بيان ، أو بدل. قال أبو حيان : لا يُعرف عطف بيان يعاد فيه العامل ، إنما هذا طريقة البدل مع حرف الجر ، ولذلك أعربه أبو البقاء بدلاً. هـ. والوجد ، يجوز فيه الضم ـ وهو أشهر ـ والفتح والكسر.

قال ابن جزي : فأمّا المطلقات غير المبتوتة فيجب لها على زوجها السُكْنَى والنفقة اتفاقاً ، وأمّا المبتوتة ففيها ثلاثة أقوال ، أحدها : أنها يجب لها السكنى دون الفقة ، وهو مذهب مالك والشافعي ، والثاني : أنها يجب لها السكنى والنفقة ، وهو مذهب أبي حنيفة ، والثالث : أنها ليس لها سُكنى ولا نفقة ، وهو قول محمد ، وثابت البناني ، وأُبي بن كعب. فحُجة مالك : حديث فاطمة بنت قيس ، وهو أنَّ زوجها طلَّقها البتَّةَ ، فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " ليس لك عليه نفقة " ، فيوخذ منه : أنَّ لها السُكْنى ، وحُجة مَن أوجب لها السكنى والنفقة : قول عمر بن الخطاب : لا ندع آيةً من كتاب الله ربنا لقول امرأة ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لها السُكْنَى والنفقة " ، وحجة مَن لم يجعل لها سكنى ولا نفقة : أنَّ في بعض الروايات عنها ـ أي : فاطمة بنت قيس ـ أنها قالت : " لم يجعل لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نفقة ولا سُكْنَى ".

{ولا تُضارُّوهُنَّ} في السُّكْنَى {لِتُضيِّقُوا عليهن} ويُلجأن إلى الخروج ، {وإِن كن}

٧٢

أي : المطلقات {أُولات حملٍ فأَنفِقوا عليهن حتى يضعنَ حَملَهن} فيخرجن من العِدّة. قال ابن جزي : اتفق العلماء على وجوب النفقة في العِدّة للمطلقة ، عملاً بالآية ، سواء كان الطلاق رجعيًّا أو بائناً. واتفقوا أنَّ للمطلقة غير الحامل النفقة والسُكْنى في العِدّة إذا كان الطلاق رجعيًّا ، فإن كان بائناً فاختلفوا في نفقتها حسبما ذكرناه ، وأمّا المتوفَّى عنها إذا كانت حاملاً فلا نفقة لها عند مالك والجمهور ، لأنهم رأوا أنَّ هذه الآية إنما هي في المطلقات. وقال قوم : لها النفقة في التركة. هـ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢

فإنْ أرضعنَ لكم} هؤلاء المطلقات أولادَكم {فآتوهن أجورَهُنَّ} أي : أجرة الرضاع ، وهي النفقة وسائر المؤن المُفصل في كتب الفقه. {وأْتَمِرُوا بينكم بمعروفٍ} ، خطاب للرجال والنساء ، أي : يأمر كلُّ

واحد منكم صاحبَه بخيرٍ ؛ من المسامحة والرفق والإحسان ، ولا يكن من الأب مماكسة ، ومن الأم معاسرة ، أو : تشاوروا بينكم على التراضي في الأجرة ، ومنه : {إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ} [القصص : ٢٠]. {وإِن تعاسَرتمْ} ؛ تضايقتم ، فلم ترضَ الأمّ بما ترضع به الأجنبية ، {فسترْضِعُ له أخرى} ؛ فستُوجد مرضعةٌ أخرى ، غير متعاسرة ، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة. والمعنى : إن تشططت الأمّ على الأب في أجرة الرضاع ، وطلبت منه كثيراً ، فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما هو أرفق إلاّ ألاَّ يَقبل الولدُ غيرها ، فتُجبر على رضاعة بأجرة المثل.

{لِيُنفق ذو سَعَةٍ من سَعته ومَن قُدِرَ عليه رزقُه فليُنفق مما آتاه اللهُ} أي : لِينفق كُلٌّ واحد من المعسر والموسر بما يبلغه وسعه ، يعني : ما أمر به من الإنفاق على المطلقات والمرضعات ، {ومن قَدِرَ} أي : ضُيِّق {عليه رزقُه فلينفقْ} عليها {مما آتاه اللهُ} فيَفرض الحاكمُ عليه ما يطيقه ، {لا يُكلِّف اللهُ نفساً إلاَّ ما آتاها} ؛ أعطاها من الرزق ، وفيه تطييب قلب المعسر ، وترغيب له في بذل مجهوده ، وقد أكد ذلك بالوعد ، حيث قال : {سيجعل اللهُ بعد عُسر يُسراً} أي : بعد ضيق في المعيشة سعة فيها ، فإنّ عادته تعالى أن يُعقب العسر باليسر ، كما قال تعالى : {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً} [الشرح : ٥] ، وكرره مرتين ، فلن يغلب عسر يسريْن.

الإشارة : أسكِنوا نفوسَكم من حيث سكنتم بها قبل التوجه ، فينبغي للمريد أن يسايس نفسه شيئاً فشيئاً ، حتى يغيب عنها في شهود الحق ، من غير تشديدٍ في إخراجها عن طبعها بالكلية ، فإنها حينئذٍ تَملّ وتكِلّ ، فقد قيل : مَن سار إلى الله بموافقة طبعه كان الوصول إليه أقرب إليه من طبعه ، ومَن سار إلى الله بمخالفة طبعه كان الوصول إليه على قدر بُعده عن طبعه ، وفيه مشقة وحرج. ولذا قال تعالى : {ولا تُضاروهن لتُضيقوا عليهن} لئلا تمل وترجع من حيث جاءت ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : " لا يكن أحدكم كالمُنْبَت ، فلا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى " ، نعم مخالفة طبعها في حب الظهور والجاه ، أو حب الدنيا ،

واجب حتماً لا رخصة فيه ، وهذه سيرة أشياخنا رضي الله عنهم لا يُضيقون على المريد في جوع ولا عطش ، ولا كثرة رياضة ، وإنما يأمرونه بالخمول وتخريب الظاهر والزهد التام ، والورع الكامل ، فقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي الدرقاوي الحسني رضي الله عنه يقول : سُدُّوا باب الطمع ، وافتحوا باب الورع ، واللهِ إن فعلتم ذلك حتى يستولي باطنكم على ظاهركم. هـ. أي : تستولي المعاني على الحس ، فيتحقق الشهود الكامل. وكان أيضاً يقول : نحن لسنا مع جوعٍ ولا مع شبعة ، نحن مع الله. هـ. أي : غائبون عن الجوع والشبع في ذكر الله وشهوده.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢

وإن كن أُولات حَمل ، أي : ثقل من كثرة العلائق ، فأَنْفِقوا عليهن من الواردات الإلهية بصُحبة الرجال ، حتى تصادم تلك العلائق ، فتهدمها ، فتضع الحمل عنها ، فإن أرْضَعْن لكم ، بإن تهذبت ورجعت روحانيةً تأتيك بالعلوم التي يرتضع منها القلب باليقين والمعرفة ، فأتوهن أجورهن من البرّ بها والرفق ، وائتمروا بينكم بمعروف ، فتُؤمر أنت بالإحسان إليها ، وتُؤمر هي بالطاعة لك ، وإن تعاسرتم ، بأن ضعفت هِمتكم ، وقلّت أمدادكم ، بعدم صحبة أهل الإمداد ، فسترضع له نفس أخرى ، أي : فليتخذ شيخاً كاملاً يُرضع له نفسه من ثدي أسرار العلوم والمعارف ، ولذلك قيل : مَن لا شيخ له فالشيطان شيخه ، لِيُنفق ذو سعة من سعته ، وهم الواصلون العارفون ، يُنفقون من سعة علومهم وأسرارهم ، على المريدين الذي استرضعوهم ، ومَن قُدر عليه رزقه من المريدين السائرين فليُنفق مما آتاه الله على مَن تعلقَ به من المريدين ، لا يُكلف الله نفساً إلاّ ما آتاها ، سيجعل الله بعد عُسرٍ وضيقِ في العلوم والأسرار يُسراً ، فتتسع عليه العلوم والأسرار بعد التمكين. والله تعالى أعلم.

(٨٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٢

يقول الحق جلّ جلاله : {وكَأَيِّن من قريةٍ} أي : كثير من أهل قرية {عَتَتْ} ؛ أعرضت {عن أمر ربها ورُسلِه} أي : عن طاعتهما على وجه العتوّ والعناد ، {فحاسبناها حِساباً شديداً} بالاستقصاء والتنقير والمباحثة في كل نقير وقطمير ، {وعذَّبناها عذاباً نُكراً} ؛ منكراً فظيعاً ، والمراد : إمّا عذاب الآخرة ، والتعبير بالماضي لتحقُّق وقوعه ، أو عذاب الدنيا ، وهو أرجح ؛ لأنه سيذكر عذاب الآخرة بعدُ بقوله : {أعدّ اللهُ لهم عذاباً شديداً...} الخ ،

٧٤

{فذاقت وَبَالَ أمرِها} أي : وخامة شأنها ، وعقوبة فعلها. قال في الصحاح : والوَبَلَة ـ بالتحريك : الثِقَّلُ والوخَامةُ ، وقد وَبُل المرتعُ بالضم وَبْلاً ووَبَالاً ، فهو وَبيلٌ ، أي : وخِيمٌ. هـ. وفي القاموس : وبُلَ ككَرُمَ وبَالةً ووبالاً ووبُولاً ، وأرض وَبِيلَةٌ : وخيمةُ المرتَعِ. هـ. {وكان عاقبةُ أمرها خُسراً} أي : خساراً وهلاكاً. {أعدَّ اللهُ لهم} في الآخرة {عذاباً شديداً} ، وعلى أنَّ الكل في الآخرة يكون هذا تكريراً للوعيد وبياناً لكونه مترقباً ، كأنه قال : أعدّ الله لهم هذا العذاب الشديد ، {فاتقوا اللهَ يا أُولي الألبابِ} في مخالفة أمره ، واحذروا ما حلّ بمَن طغى وعتا. وأولو الألباب هم أهل العقول الصافية ، ثم فسَّرهم بقوله : {الذين آمنوا} إيماناً خالصاً من شوائب الشرك والشك ، فالموصول عطف بيان لأولي الألباب ، أو نعت ، أو منصوب بأعِني ، {قد أنزل اللهُ إليكم ذكراً} أي : القرآن.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٤

وانتصب {رسولا} بفعل مضمر ، أي : وأرسل رسولاً ، أو : هو بدل من " ذِكْراً " كأنه في نفسه ذكر ، أو : على تقدير حذف مضاف ، قد أنزل ذا ذكر رسولاً ، وأريد بالذكر : الشرف ، كقوله : {وَإِنَهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ} [الزخرف : ٤٤] أي : ذو شرف ومجدٍ عند الله ، أو : للمنزَل عليه ، أو : لقارئه ، وبالرسول : جبريل ، أو محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ {يتلوا} أي : الرسول ، أو الله ـ عزّ وجل ـ {عليكم آياتِ الله مُبينات} أي : واضحاتٍ ، قد بيَّنها اللهُ تعالى لقوله : {قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الأَيَات} [آل عمران : ١١٨والحديد : ١٧] وقرىء بكسر الياء ، أي : تُبين ما تحتاجون إليه من الأحكام ، {لِيُخرج الذين آمنوا وَعمِلوا الصالحاتِ من الظلمات إِلى النور} متعلق بـ " يتلو " ، أو : بـ " أنزل " ، وفاعل " يُخرج " إما الله ، أو الرسول ، أي : ليحصّل لهم الله أو الرسول ما هم عليه الآن من الإيمان والعمل الصالح ، أو : ليخرج من عَلِمَ وقدّر أنه سيؤمن ، {ومَن يؤمن بالله ويعمل صالحاً} حسبما بُيّن في تضاعيف ما أنزل من الآيات المبينات {يُدخله جنات تجري من تحتها الأنهارُ} ، وقرأ نافع والشامي بنون العظمة {خالدين فيها أبداً} ، والجمع باعتبار معنى " من " كما أنَّ الإفراد في الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها ، {قد أحسن اللهُ له رزقاً} في الدنيا والآخرة. قال القشيري : الرزقُ الحَسَنُ : ما كان على حَدِّ الكفاية ، لا نقصان فيه ، ليضعف عن كفاية صاحبه ، ولا زيادةَ فيه تَشْغَلهُ عن ربهم. هـ. بالمعنى. وسيأتي في الإشارة بقيته.

الإشارة : وكأيّن من قريةٍ من قرى القلوب عتت عن أمر ربها ؛ عن تحمُّل أعباء العبودية ؛ لأنّ القلب لا يحب إلا العلو والغنى والراحة ، فإذا أراد العبد أن ينزل إلى الخمول والذل والفقر والتعب عَتَا وتَكَبَّر ، وقد حكم اللهُ تعالى بالطبع على القلب المتكبّر ، بقوله : {كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِرٍ جَبَّارٍ} [غافر : ٣٥] في قراءة الإضافة ، والمراد بالرسل : الواردات القهرية ، فالقلب أيضاً شأنه الفرار منها ؛ لأنها تهدم عليه عوائده ، وحسابه تعالى لها إحصاؤه لخواطرها ، وعتابه عليها ، وتعذيبه بالجزع

٧٥

والهلع ، والحرص والطمع ، وغم الحجاب وسوء الحساب ، فهذا وبال القلوب المتكبِّرة على الله ، وعلى أولياء الله ، وعاقبتها حرمان نعيم الحضرة ، ونسيم القربة. فاتقوا الله يا أولي الألباب : القلوب الصافية ، أي : دُوموا على تقواكم ، واحْذروا مما حلّ بالقلوب الخاربة ، الذين آمنوا إيمان الخصوص ، قد أنزل الله إليكم ذكراً ، أي : مذكِّراً ، رسولاً بعثه الله خليفةَ رسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وهو الشيخ الداعي إلى الله ، يتلو عليكم آياته ، أي : شواهده الموصِّلة إليه ، ليُخرج الذين آمنوا وعملوا الأعمال الصالحات ، وهي آداب العبودية ، من ظلمات الجهل والغفلة ، وحس الكائنات إلى نور

العيان ، ومَن يُؤمن بالله ، ويثق به في جميع أموره ، (ويعمل صالحاً) يُعرض عما سوى الله ، يُدخله جنات المعارف ، يخلد فيها ، قد أحسن اللهُ له رزقاً لقلبه وروحه وسره ، من العلوم والمعارف والأسرار.
قال القشيري بعد كلام : وكذلك أرزاقُ القلوب . أي : تكون على حد الكفاية ، من غير زيادة ولا نقصان . ثم قال : وحسنها : أن يكون له من الأحوال ما يشتغلُ به في الوقت من غير نقصان يجعله يتعذّب بتعطُّشه ، ولا تكون بزيادة ، فيكون على خَطَرٍ من مغاليط لا يَخْرُجُ منها إلاّ بتأييدٍ من الله سماويٍّ.هـ.
٧٦

(٩١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٤

سورة التحريم

(٩٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٦
يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبي لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ}. في سبب نزول هذه السورة روايتان ؛ إحداهما : أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء يوماً إلى بيت زوجه حفصة ، فوجدها ذهبت لزيارة أبيها ، فبعث إلى جاريته مارية ، فقال معها في البيت ، فجاءت حفصة ، فقالت : يا رسول الله ؛ أما كان في نسائك أهون مني ، أتفعل هذا في بيتي ، وعلى فراشي ؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام : " أيُرضيك أن أُحَرِّمها " ؟ فقالت : نعم ، فقال : " إني قد حَرّمتها " زاد ابن عباس : وقال مع ذلك : " والله لا أطؤها أبداً " ، ثم قال لها : " لاتُخبري بهذا أحداً ، وأُبشرك أنَّ أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ثم إنِّ حفصة قرعت الجدار الذي بينها وبين عائشة ، وأخبرتها ، وكانتا مصادقتين ، ولم ترَ في إفشائها حَرَجاً ، واستكتمتها ، فأوحى الله إلى نبيه بذلك. ورُوي أنه عليه السلام طلَّق حفصة ، واعتزل نساءه ، فمكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، فنزل جبريلُ ، وأمره برَدِّها ، وقال له : إنها صوّامة قوّامة ، وإنها من نسائك في الجنة ، فردَّها.
والرواية الثانية : أنه عليه الصلاة والسلام كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش ، فتسقيه عسلاً ، فاتفقت عائشةُ وحفصة وسودة على أن تقول له مَن دنا منهن : أكلتَ مغافير ، وهو ضمغ العُرفُط ، وهو حلو كريه الريح ، ففعل ذلك ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " لا ، ولكني شربتُ عسلاً "

، فقُلن له : جَرَست نحلُه العُرفُط ، أي : أكلت ، ويقال للنحل : جراس ، فقال صلى الله عليه وسلم : " لا أشربه أبداً " ، وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة ، فدخل بعد ذلك على زينب ، فقالت : ألاَ أسقيك من ذلك العسل ؟ فقال : " لا حاجة لي به " فنزلت الآية عتاباً له على أن ضيَّق على نفسه تحريم الجارية والعسل. والرواية الأولى أشهر عند

٧٩

المفسرين والثانية خرّجها البخاري في صحيحه.

فإن قلتَ : لِمَ عاتبه اللهُ على هذا التحريم ، ولم يعاتب يعقوبَ على تحريم لحوم الإبل على ما ذكر في سورة آل عمران ؟ قلتُ : رتبة نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ أرفع في المحبة والاعتناء ، فلم يرضَ منه أن يُضيّق على نفسه ، أرأيت إن كان لك ولد تُحبه ، ووسعتَ عليه ، ثم أراد أن يُضيّق على نفسه ، فإنك لا ترضى له ذلك ، محبةً فيه ، وشفقة عليه. وانظر تفسير ابن عرفة.

(٩٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩

قال ابن جزي : ولنتكلم على فقه التحريم : فأمّا تحريم الطعام والمال وسائر الاشياء ما عدا النساء فلا يلزم ، ولا شيء عليه فيه عند مالك ، وأوجب عليه أبو حنيفة كفارة اليمين ، وأمّا تحريم الأَمة فإن نوى به العتق لزم ، وإن لم ينو به ذلك لم يلزم ، وكان حكمه ما ذكرناه في الطعام ، وأمَا تحريم الزوجة ، فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة ، فقال أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم : إنما يلزم فيه كفارة يمين. هـ. قلت : وظاهره : سواء قال لها : أنتِ حرام ، أو حلف بالحرام واحداً أو ثلاثاً ، وسواء كان منجّزاً أومعلّقاً ، كما إذا قال : كل امرأة تزوجتُها عليكِ فهي حرام ، مثلاً ، فلا يلزم من ذلك شيء على قول هؤلاء السادات رضي الله عنهم. ثم قال : وقال مالك في المشهور عنه : هي ثلاث تطليقات في المدخول بها وينوي في غيرها ، وقال ابن الماجشون : هي ثلاث في الوجهين ، ورُوي عن مالك : أنها طلقة بائنة ـ قلتُ : وبهذا جرى العمل اليوم ـ وقيل : رجعية. هـ. {تبتغي مَرْضَاتَ أزواجِك} : حال ، أو استئناف مُبيّن للحال الداعي ، أي : تطلب رضا أزواجك بالتضييق على نفسك ، والمراد : رضا حفصة ، وهذا يُؤيد أنها نزلت في تحريم الجارية ، وأمّا تحريم العسل فلم يقصد به رضا أزواجه ، وإنما تركه لرائحته. {واللهُ غفور} أي : غفور لك ما كان تركه أولى من الصدع بالحق من غير مبالاة بأحدٍ ، ولا تُضيّق على نفسك ، {رحيم} بك ، حيث وسّع عليك ، ولم يرضَ لك أن تُضيق على نفسك. قال القشيري : ظاهرُ هذا الخطاب عتابٌ على كونه حَرَّمَ على نفسه ما أحلّه اللهُ لمراعاة قلب امرأته ، والإشارة فيه : وجوب تقديم حق الله على كل شيء في كل وقت. ثم قال

تعالى ، عنايةً بأمره : {قد فرض اللهُ لكم تَحِلَّةَ أيمانكم} وتجاوزاً عنه بما كان تركه أولى. هـ.
والحاصل : أنه تعالى غفر له ميله للسِّوى سهواً ، والسهو قهرية الحق تعالى ، قهر بها عبادَه ليتميّز ضعف العبودية من قوة الربوبية ، وهو ليس بنقصٍ في حق البشر ، لكنه لمّا

٨٠

كان في الغالب لا يحصل إلاَّ مع عدم العزم عُدَّ تفريطاً وهفوة ، كما قال تعالى في حق آدم : {فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} [طه : ١١٥] ، فالمغفرة في الحقيقة ، وطلب التوبة من السهو ، إنما هو لقلة العزم وعدم الحزم ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولا تصغ بأذنك إلى ما قاله الزمخشري ومَن تبعه من كون ما فعله عليه السلام زلة ، حيث حرّم ما أحلّ الله ، فإنه تجاسر على منصب النبوة ، وقلة أدب.
وقوله تعالى : {ما أحلّ الله لك} زيادة " لك " تَرُدّ ما زعمه الزمخشري ، ولو كان كما قال لقال له : لِم تحرم ما أحلّ الله.

(٩٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩
ثم قال تعالى : {قد فَرَضَ اللهُ لكم تَحِلَّةَ أَيمانكم} أي : شرع لكم تحليلها ، وهو حل ما عقده بالكفَّارة ، أو بالاستثناء متصلاً ، والأول هو المراد هنا ، وهل كفَّر عليه الصلاة والسلام ؟ قال مقاتل : أعتق رقبةً ، وقال الحسن : لم يُكفِّر ؛ لأنه مغفور له. قال بعضهم : هذه التحلة إنما هي لليمين المقرونة بالتحريم ، وقال بعضهم : بل هي لنفس التحريم ، وبه تمسّك أبو حنيفة في تحريم الحلال ، فأوجب كفارةَ اليمين. {واللهُ مولاكم} أي : سيدكم ومتولي أمورَكم ، فلا يُحب ما ضيّق عليكم. قال في الحاشية الفاسية : ومَن تأمّل هذه السورة لاح له منزلةَ حبيب الله عند الله ، وحقق معنى قول عائشة : " يا رسول الله ؛ ما أرى ربك إلاّ يُسارع في هواك " الحديث متفق على صحته هـ {وهو العليمُ} بما يُصلحكم ، فيشرعه لكم ، {الحكيمُ} المتقن في أفعاله وأحكامه ، فلا يأمركم ولا ينهاكم ألاَّ بما تقتضيه الحكمة البالغة.
الإشارة : هذا العتاب يتوجه لكل مَن سبقت له عند الله عناية وزلفى ، إذا ضَيّق على نفسه فيما أحلّ اللهُ له ، فلا يرضى منه ذلك ، محبةً فيه ، وقد صدر مني مثل هذا زمان الوباء ، فحلفت لبعض أزواجي : أني لا أتزوج عليها ، وسبب ذلك أنها كانت مصارِمة لي ، في غاية الغضب والقطيعة ، وقد كان غلب على ظني الموت ، لِما رأيتُ من الازدحام عليه ، فخفتُ أن نموت متقاطعَين ، فلمّا حلفتُ لها رأى بعض الفقراء من أصحابنا : أنه يقرأ عليّ أو معي : {يا أيها النبي لِمَ تُحرم...} الخ السورة ، ففهمت الإشارة على أنّ اليمين لا تلزم ، والله أعلم ، لأنّ بساط اليمين كان غلبة ظن الموت ، فلما تخلّف

انحل اليمين ، كقضية الرجل الذي وجد الزحام على اللحم ، فحلف لا يشتري لحماً أبداً ، ثم وجد الفراغ ، فقال مالك : لا يلزمه شيء. هـ.

وقال الورتجبي : أدب نبيه عليه الصلاة والسلام ألاَّ يستبد برأيه ، ويبتع ما يُوحى إليه. هـ. وجعل القشيري النبيَّ إشارة إلى القلب ، أي : يا أيها القلب المتوجِّه لِمَ تُحرم ما أحلّ الله من حلاوة الشهود ، تبتغي مرضاة نفسك وحظوظها ، فتتبع هواها ، وتترخّص في مباحات الشريعة ، وهي تحجب عن أسرار الحقيقة ، أو : لِمَ تُحرِّم ما أحلّ الله من

٨١

الاستغراق في سُكر بحر الحقيقة ، تبتغي مرضاة بقاء نفسك ، والشعور بوجودها. وكان صلى الله عليه وسلم يقول : " لي وقت لا يَسعني فيه غير ربي " وكان يقول لعائشة حين يغلب عليه السُكْر والاضمحلال في الحق : "كلميني حركيني يا حميراء " وكذلك القلب إذا غلب عليه الوجد ، وخاف من الاصطلام ، أو مِن مَحق البشرية ، يطلب مَن يبرد عليه مِن نفسه أو مِن غيره ، وقد سَمِعْتُ مِن شيخ شيخنا رضي الله عنه أنه قال : كان يغلب عَلَيَّ الوجد والسكر ، فكنت أذهبُ إلى مجالسة العوام ليبُرد عليّ الحال ، خوفاً من الاصطلام أو المحق ، وذلك بعد وفاة شيخه.

(٩٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩

وقوله تعالى : {والله غفور رحيم} أي : فلا يؤاخذ العبدَ بهذا الميل اليسير إلى الحس ، دواء لنفسه ، قد فرض اللهُ لكم تحلةَ أيمانكم ، أي : الميل اليسير إلى الرفق بالنفس ؛ لأنها مطية القلب ، بمجاهدتها يصل إلى كعبة الوصول ، وهي حضرة الرب. وبالله التوفيق.

(٩٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٧٩

يقول الحق جلّ جلاله : {وإذ أَسَرَّ} أي : واذكر أيها السامع حين أَسَرَّ {النبيُّ إلى بعض أزواجه} يعني حفصة {حديثاً} ؛ حديث تحريم مارية ، أو العسل ، أو إمامة الشيخين ، {فلما نَبَّأَتْ به} أي : أخبرت حفصةُ عائشةَ بالحديث وأفشته ، فحذف المفعول ، وهو عائشة ، {وأظْهَرَه اللهُ عليه} أي : أطلع اللهُ تعالى نبيَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ على إفشاء حفصة على لسان جبريل عليه السلام ، أو : أظهر الله عليه الحديث ، من الظهور ، {عَرَّفَ بعضَه} أي : عرَّف النبيُّ صلى الله عليه وسلم حفصةَ بعض

الحديث الذي أفشته ، قيل : هو حديث الإمامة ، رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال لها : " ألم أقل لك اكتمي عليّ " ؟ قالت : " والذي بعثك بالحق ما ملكتُ نفسي " فرحاً بالكرامة التي خَصَّ اللهُ تعالى بها أباها.

{وأَعْرَضَ عن بعضٍ} فلم يُخبرها تكرُّماً. قال سفيان : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وقال الحسن : ما استقصى كريم قط. وقرأ الكسائي : " عَرَّف " بالتخفيف ، أي :

٨٢

جازى عليه ، من قولك للمسيء : لأعْرِفَنَّ لك ما فعلت ، أي : لأجازينَّك عليه ، فاجازاها عليه السلام بأن طلَّقها ، وآلى من نسائه شهراً ، وقعد في مشربة مارية حتى نزلت آية التخيير ، وقيل : هَمَّ بطلاقها ، فقال له جبريل : لا تُطلِّقها ، فإنها صوّامة قوّامة. هـ. قيل : المعرّف : حديث الإمامة ، والمعرَض عنه : حديث مارية. {فلما نَبَّأها به} أي : أخبر صلى الله عليه وسلم حفصةَ بما عرفه من الحديث ، قالت حفصة للنبي عليه السلام : {مَن أنبأكَ هذا قال نبأنيَ العليمُ الخبيرُ} الذي لا تخفى عليه خافية.

{إن تتوبا إلى الله} ، الخطاب لحفصة وعائشة ، على الالتفات للمبالغة في العتاب ، {فقد صَغَتْ قُلوبُكما} ؛ مالت عن الواجب في مخالصة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مِن حُب ما يُحبه ، وكراهة ما يكرهه ، وكان عليه الصلاة والسلام شقَّ عليه تحريم مارية وكَرِهَه ، وهما فرحا بذلك. وجواب الشرط : محذوف ، أي : إن تتوبا إلى الله فهو الواجب ، فقد زالت قلوبكما عن الحق ، أو : تُقبلْ توبتكما ، أو هو : " فقد صغت " أي : إن تتوبا زاغب قلوبكما فاستوجبتما التوبة ، أو : فقد كان منكما ما يقضي أن يُتاب منه. قال ابن عطية : وهذا الجواب للشرط ، وهو متقدم في المعنى ، وإنما نزلت جواباً في اللفظ. هـ. وقُرىء " زاغت " من الزيغ.

}

(٩٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٢

وإن تَظَاهرا عليه} أي : تتعاونا عليه بما يسوؤه ، من الإفراط في الغيرة ، وإفشاء سرّه ، والفرح بتحريم مارية ، {فإنَّ اللهَ هو مولاه} ؛ وليُّه وناصره ، وزيادة " هو " إيذان : أنّه يتولّى ذلك بذاته بلا واسطة ، {وجبريلُ} أيضاً وليّه ، الذي هو رئيس الملائكة المقرّبين ، {وصالحُ المؤمنين} أي : ومَن صلح مِن المؤمنين ، أي : كل مَن آمن وعمل صالحاً ، وقيل : مَن برىء مِن النفاق ، وقيل : الصحابة جملة ، وقال ابن عباس : أبو بكر وعمر ، ورُوي مرفوعاً ، وبه قال عكرمة ومقاتل ، وهو اللائق ؛ لتوسيطه بين جبريل والملائكة عليهم السلام ، فإنه جمع بين التظاهر المعنوي والتظاهر الحسي ، فجبريل ظاهَره

عليه السلام بالتأييدات الإلهية ، وهما وزيراه وظهيراه في أمور الرسالة ، وتمشية أحكامها الظاهرة ، ولأنَّ تظاهرهما له صلى الله عليه وسلم أشد تأثيراً في قلوب ينتيْهما ، وتوهيناً في حقهما ، فكانا حقيقا بالذكر ، بخلاف ما إذا أريد به جنس الصالحين ، كما هو المشهور. قاله أبو السعود.

{والملائكةُ} مع تكاثر عددهم وامتلاء السموات من جموعهم {بعد ذلك} أي : بعد نصرةِ الله عزّ وجل ، وناموسه الأعظم ، وصالح المؤمنين ، {ظهيراً} أي : فوْج ظهير مُعاون له ، كأنهم يد واحدة على مَن يعاديه ، فماذا يفيد تظاهر امرأتين على مَنْ هؤلاء ظُهراؤه ؟ ولمّا كانت مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله ، قال : {بعد ذلك} تعظيماً لنصرتهم ومظاهرتهم.

{عسى ربُّه إِن طَلَّقكُنَّ أن يُبْدِلَه} بالتخفيف ، والتشديد للتكثير ، أي : يعطيه اللهُ

٨٣

تعالى بدلكن {أزواجاً خيراً منكن} ، قال النسفي : فإن قلتَ : كيف تكون المبدّلات خيراً منهنَ ، ولم يكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمهات المؤمنين ؟ قلتُ : إذا طلّقهنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لإيذائهنّ إياه لم يبقين على تلك الصفة ، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف خيراً منهن. هـ. وأجاب أبو السعود : بأنّ ما عُلّق بما لم يقع لا يجب وقوعه. هـ. وليس فيه ما يدلّ على أنه صلى الله عليه وسلم لم يُطلِّق حفصة ، فإنّ تعليق طلاق الكل لا ينافي تطليق واحدة.

ثم وصف المبدَلات بقوله : {مُسلماتٍ مؤمناتٍ} أي : مُقرّات مخلصات ، أو : منقادات مصدّقات ، {قانتاتٍ} ؛ طائعات ، فالقنوت : هو القيام بطاعة الله ، وطاعة الله في طاعة رسوله ، {تائباتٍ} من الذنوب {عابداتٍ} ؛ متعبدات متذللات ، {سائحاتٍ} ؛ صائمات ، وقيل للصائم : سائح ؛ لأنَّ السائح لا زاد معه ، فلا يزال ممسكاً إلى أن يجد من يُطعمه ، فشبّه به الصائم في إمساكه إلى وقت إفطاره ، أو : مهاجرات. قال زيد بن أسلم : لم يكن في هذه الأمة سياحة إلاَّ الهجرة ، {ثيباتٍ وأبكاراً} ، إنما وسط العاطف بين الثيبات والأبكار ، دون سائر الصفات ؛ لأنهما صفتان متباينتان ، وعَطْف الأبكار على الثيبات من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، كقوله تعالى : {وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لاَ كَبِيرَةً...} [التوبة : ١٢١]. والله تعالى أعلم.

(٩٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٢

الإشارة : توجه العتاب له صلى الله عليه وسلم مرتين في تحريم الجارية ، وفي إخفائه لذلك ، إذ فيه بعض مراقبة الخلق ، والعارف لا يُراقب إلاّ الحق ، فهذا قريب من قوله تعالى : {وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ} [الأحزاب : ٣٧] ، ففيه من التصوُّف : أنَّ العارف يكون الناس عنده كالموتى ، أو

كالهباء في الهواء ، وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام : " لا يؤمن أحدكم حتى يكون الناس عنده كالأباعر " إذا ليس بيدهم نفع ولا ضر.

وإشارة الآية على ما قال القشيري : وإذ أَسَرَّ القلبُ إلى بعض أزواجه ، وهي النفس والهوى ، حديث المخالفة ، على طريق " شاوروهنّ وخالِفوهنّ " فلما نبأت النفسُ الهوَى لتفعلا ذلك ، وأظهره الله عليه بوحي الإلهام ، عَرَّف بعضَه وأعرض عن بعض ، أي : عاتبهما على البعض ، وسامحهما في الآخر ، فلما نبأ القلبُ النفسَ بما أفشت للهوى ، قالت : مَن أنبأك هذا.. الخ ، إن تتوبا إلى الله ، وتنقادا لحكمه فقد وقع منكما ما يوجب التوبة ، وإن تظاهرا على القلب بتزيين المخالفة وتتبع الحظوظ والشهوات ، فإنَّ الله هو مولاه ، ينصره بالأجناد السماوية والأرضية ، من التأييدات والواردات ، عسى ربه إن طلقكن

٨٤

وغاب عنكن أن يُبدله أخلاقاً طيبة ، ونفوساً مطمئنة ، مسلماتٍ مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ ، عابداتٍ سائحاتٍ بأفكارها في ميادين الغيوب ، وبحار التوحيد ، ثيبات ، أي : تأتي بعلوم الرسميات وأبكار الحقائق.

(٩٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٢

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا قُو أنفسَكم} أي : نَجُّوها من النار ، بترك المعاصي وفعل الطاعات ، {وأهليكم} بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم ، أو بان تُعلِّموهم وتُرشدوهم. قال القشيري : أظهِروا من أنفسكم الطاعات ليتعلموا منكم ويقتادوا بأفعالكم. هـ. وفي الحديث : " رحِم الله امرءاً قال : يا أهلاه ، صلاتَكم صيامَكم مسْكينَكم ، يتيمَكم " أي : الزموا ما ينفعكم ، فمَن له أهل وأهملهم من التعلُّم والإرشاد عُوتب عليهم ، أي : احملوهم على الطاعة ، لتَقُوهُمْ {ناراً وقُودُهَا الناسُ والحجارةُ} أي : نوعاً من النار لا تتّقد إلاّ بالناس والحجارةن كما تتّقد غيرها بالحطب. قال ابن عباس : هي حجارة الكبريت ، فهي أشد الأشياء حرًّا. {عليها ملائكةٌ} تلي أمرها والتعذيبَ بها ، وهي الزبانية ، {غِلاظٌ شِدادٌ} ؛ غلاظُ الأقوال ، شِدادُ الأحوال ، أو : غلاظُ الخلْق ، شِداد الخُلُق ، أقوياءُ على الأفعال الشديدة ، لم يخلق اللهُ فيهم رحمة ، {لا يَعْصُون اللهَ ما أَمَرَهم} أي : لا يعصون أمره ، فهو بدل اشتمال من " الله " أو : فيما أمرهم ، على نزع الخافض ، {ويفعلون ما يؤمرون} من غير تراخ ولاتثاقل ، وليست الجملتان في معنى واحد ؛ إذ معنى الأولى : أنهم يمتثلون أمره ويلتزمونها ، ومعنى الثانية : أنهم يُؤدون ما يُؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ولا يتوَانون فيه.

ويُقال للكفرة يوم القيامة عند دخولهم النار : {يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليومَ} إذ لا ينفعكم عذركم ؛ حيث فرَّطتم في الدنيا ، {إنما تُجْزَون} اليوم {ما كنتم تعملون} في الدنيا من الكفر والمعاصي ، بعدما نُهيتُم عنها ، وأُمرتم بالإيمان والطاعة ، فلا عُذر لكم قطعاً.

الإشارة : قُوا أنفسكم نارَ الحجبة والقطيعة ، بتخليتها من الرذائل ، وتحليتها بالفضائل ، ليلحقوا بكم في درجاكم. ونار القطيعة وقودها الناس ، أي : عامة الناس والقلوب القاسية ، عليها ملائكة غِلاظ شِداد ، وهم القواطع القهرية ، فمَن كفر بطريق الخصوصية لا ينفعه يوم القيامة اعتذاره ، حين يسقط عن درجة المقرَّبين الأبرار وبالله التوفيق.

٨٥

(١٠٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٥

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها الذين آمنوا تُوبوا إلى الله توبةً نَصوحاً} أي : بالغة في النصح ، وُصفت بذلك مجازاً ، وهي وصف للتائبين ، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم ، فيأتوا بها على طريقتها ، وذلك أن يتوبوا عن القبائح ، لقبْحها ، نادمين عليها ، مغتمِّين أشد الاغتمام لارتكابها ، عازمين على أنهم لا يعودون إلى قبيح من القبائح ، وقيل : نصوحاً : صادقة ، وقيل : خالصة ، يُقال : عسل ناصح : إذا خلص من شمعه ، وقيل : مِن نصاحة الثوب ، أي : ترقيعه ، لأنها ترقع خروقك في دينك وترمّ خللك ، وقيل : توبة تنصح الناس ، أي : تدعوهم إلى مثلها ؛ لظهور آثارها في صاحبها ، باستعمال الجد والعزيمة في العمل على مقتضياتها ، ومَن قرأ بضم النون فمصدر ، أي : ذات نصوح ، أو تنصح نصوحاً. وفي الحديث : " التوبة النصوح أن يتوب ، ثم لا يعود إلى الذنب إلى أن يعود اللبن في الضرع " وعن حذيفة : " بحسب الرجل من الشر أن يتوب من الذنب ثم يعود فيه " وعن ابن عباس رضي الله عنه : " هي الاستغفار باللسان ، والندم بالجنان ، والإقلاع بالأركان ". {عسى ربُّكم أن يُكَفِّرَ عنكم سيئاتِكم} ، هذا على ما جرى به عادة الملوك من الإجابة بعسى ولعل ، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت. وقيل : عبّر بـ " عسى " للإشعار أنّ المغفرة تفضل وإحسان ، وأنّ التوبة غير موجبة لها ، ولِيَبقى العبد بين خوف ورجاء ولو عمل ما عمل. {ويُدْخِلَكم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ يومَ لا يُخزي اللهُ النبيَّ}. هو ظرف لـ " يدخلكم " {والذين آمنوا معه} : عطف على " النبي " ، و " معه " : ظرف لآمنوا ، وفيه تعريض بمَن أخزاهم الله من الكفرة. {نُورُهُمْ} : مبتدأ ، و {يسعى} خبره ، أي : يُضيء {بين أيديهم وبأَيمانهم} أي : على الصراط وفي مواطن القيامة ، {يقولون} حال ، أي : قائلين حين ينطفىء نور المنافقين : {ربنا أتمم لنا نورنا واغفرْ لنا إنك على كل شيءٍ قديرٌ} ، وقيل : يدعون بذلك تقرُّباً إلى

الله مع تمام نورهم ، وقيل : تتفاوت أنوارهم
بحسب أعمالهم ، فيسألون إتمامه تفضُّلاً ، وقيل : السابقون إلى الجنة يمرون مثل البرق على الصراط ، وبعضهم كالريح ، وبعضهم كأجاود الخيل ، وبعضهم حبواً ، وزحفاً ، وهم
٨٦
الذين يقولون : {ربنا أَتمم لنا نورنا}. وقد تقدّم : أنَّ مِن المقربين مَن تُقرّب لهم غُرف الجنات ، فيركبون فيها ، ويسرحون إلى الجنة ، ومنهم مَن يطير في الهواء إلى باب الجنة ، فيقول الخزنة : مَن أنتم ؟ فيقولون : وحن المتحابُّون في الله ، فيقول : اذهبوا فنِعْمَ أجر العاملين ، ويقول بعضهم لبعض : أين الصراط الذي وُعدنه ، فيُقال لهم : جزتموه ولم تشعروا. والله تعالى أعلم.

(١٠١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٦
الإشارة : توبةُ العامة من الذنوب ، وتوبةُ الخاصة من العيوب ، وتوبة خاصة الخاصة من الغيبة عن حضرة علاّم الغيوب ، فهؤلاء أشد الناس افتقاراً إلى التوبة ؛ إذ لا بُد للعبد من سهوٍ وسِنةٍ حتى يجول بقلبه في الأكوان ، أو يميل عن الاعتدال ، فيجب في حقهم الاستغفار منها ، ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يستغفر في المجلس الواحد سبعين أو مائة مرة. وقد تكلم السّلفُ عن التوبة النصوح دون ما تقدّم ، فقال ابن جبير : هي التوبة المقبولة ، ولا تُقبل إلا بثلاثة شروط : خوف ألاَّ تُقبل منه ، ورجاء أن تُقبل ، وإدمان الطاعة. وقال ابن المسيب : توبة تنصحون بها أنفسكم ، وقال القرظي : يجمعها أربعة : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الخلان. وقال الثوري : علامتها أربعة : القِلة ، والعِلة ، والذلة ، والغربة. وقال الفضيل : هو أن يكون الذنب نصب عينيه. وقال الواسطي : تكون لا لعرض دنيوي ولا أخروي. وقال أبو بكر الورّاق : هي أن تضيق عليك الدنيا بما رَحُبتْ ، كحالة الذين خُلِّفوا. وقال رُويم : أن تكون لله وجهاً بلا قفا ، كما كنت عند المعصية قفا بلا وجه ، وقالت رابعة : توبة لا ارتياب فيها ، وقال السري : لا تصلح التوبة النصوح إلاّ بنصيحة النفس والمؤمنين ؛ لأنَّ مَن صحّت توبته أَحبَّ أن يكون الناس مثله ، وقال الجنيد : هي أن تنسى الذنب فلا تذكره أبداً ؛ لأنَّ مَن أحب اللهَ نسي ما دونه. هـ.

(١٠٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٦

يقول الحق جلّ جلاله : {يا أيها النبيُّ جاهِدِ الكفارَ} بالسيف {والمنافقين} بالحجة ، أو : بالقول الغليظ والوعظ البليغ ، أو : بإقامة الحدود ، ولم يؤمر بقتالهم لِتَستُّر ظاهرهم بالإسلام ، " أُمرت أن أحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر " ، {واغْلُظْ

٨٧

عليهم} ؛ واستعمل الخشونة على الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمخاصمة باللسان. {ومأوَاهم جهنمُ} يُباشرون فيها عذاباً غليظاً ، {وبئس المصيرُ} جهنم ، أو مصيرهم.

الإشارة : كُلُّ إنسان مأمور بجهاد أعدائه ، من النفس ، والهوى ، والشيطان ، وسائر القواطع ، وبالغلاظ عليهم ، حتى يُسلموا وينقادوا لحُكمه أو تقل شوكتهم ، وهذا هو الجهاد الأكبر ، لدوامه واتصاله ، فمَن دام عليه حتى ظفر بعدوه ، أو لقي ربه ، كان مِن الصدّيقين ، الذين درجتهم فوق درجة الشهداء ، تلي درجة المرسَلين. وبالله التوفيق.

(١٠٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٧

قلت : " مثلاً " : مفعول ثان لضرب ، أي : جعل ، و " امرأةَ " : مفعول أول ، أي : جعل امرأة نوح وامرأة لوط مثلاً مضروباً للذين كفروا.

يقول الحق جلّ جلاله : {ضَرَبَ اللهُ مثلاً للذين كفروا} ، ضَرْبُ المثل في أمثال هذه المواقع عبارة عن : إيراد حالة غريبة ليُعرف بها حالة أخرى ، مشاكِلة لها في الغرابة ، أي : ضرب الله مثلاً لحال الذين كفروا حيث يُعاقَبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ، ولا ينفعهم ما كان بينهم وبين المؤمنين من النسب والمصاهرة بهاتين المرأتين ، {امرأتَ نوحٍ وامرأتَ لوطٍ} قيل : اسم الأولى : واهلة ، والثانية : راعلة ، {كانتا تحت عبدين من عبادنا صَالِحَينِ} أي : كانتا في عصمة نبيّيْن عظيميْن ، متمكنين من تحصيل خير الدنيا والأخرة ، وحيازة سعادتهما ، {فخانتاهما} بإفشاء سرهما ، أو بالكفر والنفاق ، {فلم يُغنيا عنهما من الله شيئاً} أي : فلم يُغن الرسولان عن المرأتين بحق ما بينهما من الزواج شيئاً من الإغناء من عذاب الله تعالى ، {وقيل} لهما عند موتهما ، أو يومَ القيامة : {ادخلا النارَ مع الداخلين} أي : مع سائر الداخلين من الكفرة ، الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء.

٨٨

قال القشيري : لما سبقتَ للمرأتين الفُرْقةُ يوم القِسْمة ، لم تنفعهما القرابةُ يومَ العقوبة. هـ. قال ابن عطية : وقول مَن قال : إنَّ في المثلَين عبرة لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعيد. هـ. قلت : لا بُعد

فيه لذكره إثر تأديب المرأتين ، وليس فيه غض لجانبهنّ المعظم ، إنما فيه إيقاظ وإرشاد لما يزيدهم شرفاً وقُرباً من تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته ، وصيانة سِره ، والمسارعة إلى ما فيه محبتُه ورضاه ، وكل مَن نصحك فقد أحبّك ، وكل مَن أهملك فقد مقتك.

}

(١٠٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٨

وضَرَبَ اللهُ مثلاً للذين آمنوا} في أنهم ينفعهم إيمانهم ، ولو كانوا تحت قهرية الكفرة ، حيث لم يميلوا عنه ، {امرأة فرعونَ} ، وهي أسية بنت مزاحم ، وهي عمة موسى عليه السلام ، آمنت به فعذّبها بالأوتاد الأربعة ، وتَدَ يديها ورجليها وألقاها في الشمس على ظهرها ، وألقى عليها صخرةً عظيمة ، فأبصرت بيتَها في الجنة ، من دُرة ، وانتزع اللهُ روحَها ، فلقيتها الصخرة بلا روح ، فلم تجد ألماً ، وقال سَلْمَان : كانت امرأة فرعون تُعذَّب بالشمس ، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة ، وفيه بيان أنها لم تمِل عن الإيمان مع شدة ما قاست من العذاب ، وكذا فليكن صوالح النساء ، وأمر عائشة وحفصة أن يكونا كآسية هذه. هـ. من الثعلبي.

{إذ قالتْ} : ظرف لمحذوف ، أي : ضرب مثلاً لحالها حين قالت : {رَبِّ ابْنِ لي عندكَ} أي : قريباً من رضوانك {بيتاً في الجنة} أو : في أعلى درجات المقربين ، رُوي : أنها لَمّا قالت ذلك أُريت بيتها في الجنة. {ونجِّني من فرعونَ وعملِهِ} أي : من نفسه الخبيثة وعمله السيىء {ونجني من القوم الظالمين} أي : من القبط التابعين له في الظلم قال الحسن وابن كيسان : نجاها الله أكرمَ نجاةٍ ، ورفعها إلى الجنة ، فهي فيها تأكل وتشرب. هـ.

{ومريمَ ابنة عمرانَ} : عطف على " امرأة فرعون " أي : وضرب اللهُ مثلاً للذين آمنوا حالَها وما أُتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء على نساء العالمين ، مع كون قومها كفاراً ، {التي أحْصَنَتْ فَرْجَها} ؛ حفظته {فنفخنا في مِن روحنا} المخلوقة لنا ، أو : من روح خَلقتُه بلا واسطة ، {وصدَّقتْ بكلماتِ ربها} ؛ بصُحفه المنزلة ، أو : بما أوحى اللهُ إلى أنبيائه ، {وكتابه} أي : جنس الكتاب الشامل للكل ، وقرأ البصري وحفص بالجمع ، أي : كُتبه الأربعة ، وقُرِىء : " بكلمة الله وكتابه " أي : بعيسى وبالكتاب المنزَّل عليه الإنجيل ، {وكانت من القانِتين} أي : من عدة المواظبين على الطاعة ، والتذكير للتغليب ، والإشعار بأنَّ طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال ، حتى عُدت من جملتهم ، أو كانت من نسل القانتين ؛ لأنها من أعقاب هارون ، أخي موسى عليهما السلام. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " كَمُل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : آسية بنت مزاحم ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت

خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضل عائشة على النساء كفضل
٨٩
الثريد على سائر الطعام ". قال النسفي : وفي طيِّ هذين التمثيلين تعريض بأمَّيِّ المؤمنين المذكورتين في أوّل السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كَرِهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه ، وإشارة إلى أنّ مِن حقهما أن تكونا في الأخلاق كهاتين المؤمنتين ، وألاّ تتكلا على أنهما زوجا رسول الله صلى عليه وسلم. هـ. وفي الثعلبي : وقال ابن عباس وجماعة : قطع اللهُ بهذه الآية طمَعَ مَن ركب المعصية ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره ، وأخبر أنّ معصية غيره لا تضره إذا كان مطيعاً. هـ.

(١٠٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٨

الإشارة : قال القشيري : المرأتان الكافرتان إشارة إلى النفس الأمّارة والهوى المتَّبع ، أي : كانتا تحت القلب والروح ، فخانتاهما ، حيث غلبتا القلبَ والروحَ ، وجذبتاهما إليهما ، فمال القلب إلى الحظوظ الجسمانية ، ومالت الروحُ إلى الحروف الظلمانية ، كحب الجاه والرئاسة والكرامة ، فلم تُغنيا عنهما من الله شيئاً ، حيث فاتهما اليقين والمعرفة العيانية ، والمرأتان المؤمنتان إشارة إلى النفس المطمئنة والقلب المطمئن ، حيث غلبا النفس الأمّارة والهوى ، لم يضرهما صحبتهما ، فقالت النفس المطمئنة : ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنة ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، والقلب لمّا حَفِظَ نفسه من دخول العلل ، نفخ الحقُّ فيه من روحه ، فأحياه به ، وأشْهَده أنوار قدسه ، فصدّق بكلمات الله الدالة على ذاته ، ثم ترقَّى إلى شهود المتكلِم ، وكان من القانتين ، فجمع بين شهود عظمة الربوبية وآداب العبودية. قال الورتجبي : {فنفخنا فيه...} الآية ، أي : ظهر فيه نور الفعل ، ثم ظهر في نور الفعل نور الصفة ، فظهر في نور الصفة نور الذات ، فكان بنور الذات والصفات حيًّا موصوفاً بصفاته ، ناظراً إلى مشاهدة نور ذاته ، لم تنقطع عنه أنوار الذات والصفات والفعل أبداً. وهذه خاصية لمَن له أثر من روحه. قال بعضهم : نفخ من نوره في روح عبده ، ليحيي بذلك الروح ، ويحيى به ، ويطلب النورَ ولا يغفل عن طلب المُنوِّر ، فيعيش في الدنيا حميداً ، ويُبعث في الآخرة شهيداً ، فلمّا وجدت رَوحُ روحِ الله صدّقت بظهوره في العالم ، وشبيه قلوب العالمين بأنه يكون مرآة الحق للخلق ، وذلك قوله : {وصَدَّقت بكلمات ربها} ولمّا باشر أنوار القدس وروح الأنس كادت نفسها أن تميل إلى السكر في الأنانية ، فسبق لها العناية ، وأبقاها في درجة العبودية ، حتى لا تسقط بالسُكر عن مقام الصحو ، ألآ ترى كيف قال : {وكانت من القانتين} أي : من المستقيمين في معرفتها بربها ، ومعرفتها بقيمة نفسها

أنها مُسَخَّرة عاجزة لربها. هـ. وبالله
التوفيق. وصلّى الله على سيدنا محمد وآله.
٩٠

(١٠٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٨٨
سورة الملك

(١٠٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٠
يقول الحق جلّ جلاله : {تباركَ} أي : تعالى وتعاظم عن صفات المخلوقين فالبركة : السمو والزيادة ، حسية أو عقلية ، وكثرة الخير ودوامه ، والمعنى الأول أنسب للمقام ، باعتبار تعاليه عزّ وجل عما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله ، وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك ؛ فإنَّ ما لا يصح نسبته إليه تعالى من الصيغ ، كالتكثُّر ونحوه ، إنما يُنسب إليه تعالى باعتبار غاياتها. وعلى الثاني باعتبار كثرة ما يفيض منه تعالى على مخلوقاته من فنون الخيرات ، أي : تعالى بالذات عن كل ما سواه. {الذي بيده المُلك} أي : بيده التصرُّف التام والاستيلا ء على كل موجود ، وهو مالك المُلك ، يُؤتيه مَن يشاء ، وينزعه عمن يشاء ، واليد : مجاز عن القدرة التامة ، والاستيلاء الكامل. {وهو على كل شيءٍ} من المقدورات ، أو من الإنعام والانتقام {قديرٌ} ؛ مبالغ في القدرة يتصرف فيه على حسب ما تقتضيه مشيئته المبنية على الحِكم البالغة.
والجملة : معطوفة على الصلة ، مقرِّرة لمضمونها ، مفيدة لجريان أحكام مُلكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها ، دالة على العموم والشمول في أنه متصرف في أحوال المُلك
٩١
في إيجاد أعيان الأشياء ؛ المتصرّف فيها وفي إيجاد عوارضها الذاتية. ولو اقتصر على قوله : {بيده الملك} لأوهم قصوره على تغيُّر أحوال المُلك فقط.
ثم أحال على ما هو مُشاهد من التصرُّف بقوله : {الذي خلق الموتَ والحياةَ} أي : موتكم وحياتكم أيها المكلّفون. ومعنى خلق الموت والحياة : إيجاد ما يصحح الإحساس وإعدامه. والموت عند أهل السنة : صفة وجودية مضادة للحياة ، وأمّا ما رُوي عن ابن عباس : أنه تعالى خلق الموتَ في صورة

كبش أملح ، لا يمر بشيء ويجد ريحه إلاّ مات ، وخلق الحياة في صورة فرس ، لا يَمر والا يجد رائحتها شيء إلاّ حيى " فوارد على منهاج التمثيل والتصوير ، ويجوز أن يكون حقيقة ، إذ القدرة صالحة. وتقديم الموت لأنه أدعى لأحسن العمل ، الذي هو حكمة خلق الموت والحياة ، المشار إليه بقوله : {ليبلوكم أَيُّكم أحسنُ عملا} أي : خلق موتكم الذي يعمّ الأمير والأسير ، والحياة التي لا تبقى لعليل ولا طبيب ، ليُعاملكم معالمة مَن يختبركم أيكم أحسن عملاً ؛ فيُجازيكم على مراتب متفاوتة ، حسب طبقات علومكم وأعمالكم ؛ فإنَّ العمل غير مختص بالجوارح ، ولذلك فسَّره صلى الله عليه وسلم بقوله : " أيكم أحسن عقلاً ، وأردع عن محارم الله ، وأسرع في طاعة الله " ، وفي رواية : " أيكم أحسن عقلاً ، وأشدكم له خوفاً ، وأحسنكم في أمره ونهيه نظراً ، ون كانوا أقلّكم تطوُّعاً " وقال ابن عباس وغيره : أيكم أزهد في الدنيا.

(١٠٨/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١

قال القشيري : كيف تكونوا في الصبر في المحنة ، والشكر عند المنّة. وقال النسفي : {أيكم أحسن عملاً} : أخلصه وأصوبه ، فالخالص : أن يكون لوجه الله ، والصواب أن يكون على السُنَّة ، والمراد : أنه أعطاكم الحياة التي تقدرون بها على العمل ، وسلّط عليكم الموت ، الذي هو داعيكم إلى اختيار العمل الحسن على القبيح ، فما وراءه إلاّ البعث والجزاء ، الذي لا بدّ منه ، ولمّا قدّم الموت ـ الذي هو أثر صفة القهر ـ على الحياة ـ التي هي أثر صفة اللطف ـ قدّم صفة القهر على صفة اللطف بقوله : {وهو العزيزُ} : الغالب ، الذي لا يُعجزه مَن أساء العمل ، {الغفور} ؛ الستور ، الذي لاييأس منه أهل الإساءة والزلل. هـ.

ثم استشهد على تمام قدرته بقوله : {الذي خلق سبعَ سمواتٍ طِباقاً} أي : متطابقة بعضها فوق بعض ، من طباق النعلَ : أذا خصفها طبقاً على طبق ، وهو مصدر وصف به ، أو : ذات طباق ، أو : طوبقت طباقاً. وقوله تعالى : {ما ترى في خَلْقِ الرحمنِ من تفاوتٍ} صفة أخرى لسبع سموات ، وضع فيها " خَلْق الرحمن " موضع الضمير للتعظيم ، والإشعار بعلة الحكم ، وبأنه تعالى خلقها بقدرته ، رحمةً وتفضُّلاً ، ولأنَّ في إبداعها نعماً جليلة. أو : استئناف. والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل أحدٍ يصلح للخطاب ، و " مِن " لتأكيد

٩٢

النفي ، أي : ما ترى فيه شيئاً من تفاوت ، أي : اختلاف وعدم تناسب أو اضطراب. وعن السدي : من عيْبٍ. وحقيقة التفاوت : عدم التناسب ، كأنّ بعضاً يفوت بعضاً. وقرأ الأخوان : " تَفَوُّت " كالتعاهد

والتعهّد ، والبناء لواحد. {فارجع البصرَ} أي : ردَّه إلى السماء ، حتى يصحَّ عندك ما أُخْبِرْت به معاينةً ، حتى لا يبقى شُبهة. {هل ترى من فطورٍ} ؛ صدروع وشقوق ، جمع : فَطَر ، وهو الشقّ ، يقال : فطره فانفطر.

{ثم ارجع البصرَ كرتينِ} أي : كرّره رجعتين مع الأُولى ، فتكون ثلاثاً ، أو : بالأُولى ، وقيل : لمَ يُرد الاقتصار على مرتين ، بل أراد به التكرير بكثرةٍ ، أي : كرر نظرك ودقّقه مراراً ، هل ترى خللاً أو عيباً في السموات ؟ وجواب الأمر : {ينقلبْ} ؛ يرجع {إليك البصرُ خاسئاً} ؛ ذليلاً ، أو : بعيداً مما تريد ، وهو حال من البصر ، {وهو حَسِيرٌ} أي : كليل لطول المعاودة ، وكثرة المراجعة ، ولم يحصل ما قصد.

ثم بيَّن حُسنها وبهجتها ، فقال : {ولقد زيَّنا السماءَ الدنيا} أي : القُربى منكم {بمصابيحَ} أي : بكواكب مضيئة بالليل إضاءة السراج فيه ، زينةً لسقف هذه الدار ، من السيارة والثوابت ، تتراءى كأنها كلها مركوزة فيها ، مع أنَّ بعضها في سائر السموات ، وما ذلك إلاَّ لأنَّ كل واحدة منها مخلوقة على نمط رائق ، تحار في فهمه الأفكار ، وطراز فائق تهيم في دركه الأنظار. قال الفخر : وليس في هذه الآية ما يدل على أنَّ الكواكب مركوزة في سماء الدنيا ، وذلك لأنَّ السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في سماء الدنيا ، أو في سماء أخرى فوقها ، فهي لا بد أن تظهر في سماء الدنيا ، وتلوح فيها ، فعلى كِلا التقديرين فالسماء الدنيا مُزَيّنة بها. هـ.

}

(١٠٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١

وجعلناها رُجوماً للشياطين} أي : وجعلنا فيها فائدة أخرى ، هي : رجم أعدائكم الذي يُخرجونكم من النور إلى الظلمات ، بانقضاض الشُهب المقتَبسة منها ، فيأخذ المَلك شعلة من نار الكوكب ، ويضرب بها الجني ، فيقتله ، أو يخبِّله ، فيرجع غُولاً يُفزع الناسَ ، وأمّا الكواكب فلا تزول عن أماكنها ؛ لأنها قارّة في الفلك. قال قتادة : خلق الله النجوم لثلاث : زينة السماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمَن تأوّل فيها غير ذلك ، فقد تكلّف ما لا علم له به. {وأعتدنا لهم} ؛ للشياطين {عذابَ السعير} بعد الإحراق في الدنيا بالشُهب. والله تعالى أعلم.

الإشارة : تبارك الذي بيده المُلك ، المُلْك الظاهري والمُلك الباطني ، يُعطيهما مَن يشاء ، ويمنعهما مَن يشاء ، فالمُلك الظاهري عز يفنى والملك الباطني عز يبقى ، وهما ضدان لا يجتمعان في شخص واحد ، ولا يتفقان ، بل أحدهما يغير من الآخر ، والمراد بالملك الباطني : معرفة الشهود والعيان ، فلا

يناسبها إلاّ الخمول ، ولا تقوم إلاّ به ، ومهما ظهرت أخذ صاحبها وصدمته الحوافر. الذي خلق الموتَ في بعض القلوب والأرواح ، فكانت ميتة جاهلة ذليلة حقيرة ، والحياةَ في بعضها ، فكانت حيّة عارفة مالكة عزيزة ، فعل

٩٣

ذلك ليبلوكم أيك أحسنُ عملاً بالإقبال على الله ، والتوجُّه بكليته إليه ، أو بالإدبار عنه ، والإعراض عن الداعي إليه. وقيل : أحسن العمل : نيسان العمل ورؤية الفضل. هـ. والمراد : أنه يجتهد في العمل ، ويغيب عنه ، ومَن جعل الموتَ نُصب عينيه لا محالة يجتهد ، ولله در القائل :

وَفِي ذِكْرِ هولِ الموتِ والقَبْر والبلاَ
عَن الشغْل باللذَّاتِ للمرء زَاجِر
أَبَعْدَ اقْتِرابِ الأَربَعينَ تَربُّص
وشَيْب فَذاك مُنْذِرٌ لك ذَاعِر
فَكَمْ في بُطون الأرضِ بعد ظُهورها
مَحَاسِنهم فيها بوَالٍ دَوَاثِر
وأنت على الدنيا مُكب مُنَافِس
لِحُطَامِها فيها حَرِيص مُكاثر
علَى خطرٍ تُمسي وتُصبح لاَهِياً
أَتدْرِي بماذا لَوْ عقلت تُخاطِر
وَإِنْ أحد يَسعى لدُنياه جَاهداً
ويَذْهلُ عن أخراه لآ شَكَّ خاسِر
فَجدّ ولا تَغفَل ، فَعَيشك زائِل
وأَنْتِ إِلى دارِ الْمَنِيَّةِ صَائِر

وهو العزيز يُعز مَن أقبل عليه ، والغفور لمَن رجع بعد الإعراض إليه. الذي خلق سبعَ سموات الأرواح ، وتقدّم قريباً تفسيرها ، وعالم الأوراح في غاية الإتقان ، ليس فيه خلل ولا تفاوت ، ولقد زيَّنا السماء الدنيا. قال القشيري : أراد بسماء الدنيا سماء القلب ، لدنوه من سماء الروح ، أي : زيّنا ونوّرنا سماء القلب بمصابيح العلم وأنوار الواردات القلبية ، وسبحات الإلهامات الربانية ، وجعلناها رجوماً للشياطين ؛ الخواطر النفاسية ، والهواجس الظلمانية الشيطانية ، وأعتدنا لتلك الخواطر عذابَ السعير ، فيحترق بالخواطر الملكية والرحمانية. هـ.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩١

يقول الحق جلّ جلاله : {وللذين كفروا بربهم} أي : ولكل مَن كفر بالله مِن الشياطين وغيرهم {عَذابُ جهنم} يُعذّبون بها جميعاً ، {وبئس المصيرُ} ، المرجع جهنم. {إذا أُلقوا فيها} ؛ طُرحوا في جهنم ، كما يُطرح الحطب في النار ، {سَمِعُوا لها} ؛ لجهنم {شهيقاً} ؛ صوتاً منكراً ، كصوت الحمير. شبّه حسيسها المنكر الفظيع بالشهيق. {وهي تفور} ؛ تغلي بهم كغليان المِرْجَل بما فيه.

٩٤

{تكاد تميَّزُ} أي : تتميّز ، يعني : تتقطّع وتتفرّق وينفصل بعضها من بعض {من الغيظ} وذلك حين تمد عنقها إليهم ، لتستولي عليهم. وغيظها حقيقة بالإدراك الذي خلقه الله فيها. {كلما أُلْقِي فيها فوجٌ} ؛ جماعة من الكفار {سألهم خزنتُها} مالك وأعوانه من الزبانية توبيخاً لهم : {ألم يأتكم نذير} ؛ رسولٌ يُخوفكم من هذا العذاب الفظيع ؟ {قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ} ، اعترفوا بعدل الله ، وأنَّ الله أزاح عذرهم ببعث الرسل ، وإنذارهم ما وقعوا فيه ، تحسُّراً على ما فاتهم من السعادة ، وتمهيداً لِما وقع منهم من التفريط تندُّماً اغتماماً على ذلك ، {فكذَّبنا} ذلك النذير في كونه نذيراً من جهته تعالى : {وقلنا ما نزَّل اللهُ من شيءٍ} مما يقولون من وعد ووعيد ، وغير ذلك ، {إن أنتم إلاَّ في ضلالٍ كبير} أي : قال الكفار للمنذِّرين : ما أنتم إلاّ في خطأ عظيم ، بعيد عن الصواب.

وجمع ضمير الخطاب مع أنَّ مخاطب كل فوج نذيرُه ؛ لتغليبه على أمثاله ، مبالغةً في التكذيب ، وتمادياً في التضليل ، كما ينبيء عنه تعميم المنزل مع ترك ذكر المنزل عليه ، فإنه مُلوح لعمومه حتماً ، أو : إقامة تكذيب الواحد مقام تكذيب الكل. ويجوز أن يكون قوله : {إن أنتم إلا في ضلال كبير} من كلام الخزنة للكفار ، على إرادة القول ، ومرادهم بالضلال : الهلاك ، أو : سمُّوا جزاء الضلال باسمه ، كقوله : {وَجَزَآءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا} [الشورى : ٤٠] مشاكلة ، أو : يكون من كلام الرسل ، حكوه للخزنة ، اي : قالوا لنا هذا فلم نهتبله.

}

(١١١/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٤

وقالوا} أيضاً معترفين بتفريطهم : {لو كنا نسمعُ} الإنذار سماع طالب الحقّ {أو نعقلُ} شيئاً {ما كنا في أصحاب السعير} في عِددهم ، ومن أتباعهم ، من الشياطين وغيرهم ، وفيه دليل على أنَّ مدار التكليف على أدلة السمع والعقل ، وأنهما حجتان. {فاعترَفوا بذنبهم} ، الذي هو كفرهم وتكذيبهم الرسل في وقت لا ينفعهم ، {فسُحقاً لأصحابِ السعير} أي : أبعدهم من رحمته وكرامته ، وهو مصدر

مؤكد لعامله ، أي : فسُحقوا سحقاً ، أو : فأسحقهم الله سحقاً ، بحذف الزوائد. وفيه معنى الدعاء.
الإشارة : وللذين كفروا بشهود ربهم في الدنيا عذابُ جهنم ، وهو البُعد والحجاب ، وبئس المرجع ، حين يرجع المقربون إلى مقعد صدق ، عند مليك مقتدر ، إذا أُلقوا في الحُجبة والقطيعة سمعوا لها شهيقاً غيظاً عليهم ، وسخطة بهم ، وبصفاتهم المضلة ، وهي تفور من قُبح أعمالهم. تكاد تميّز من الغيظ عليهم ، كلما أُلقي فيها فوج من أهل الغفلة ، قال لهم خزنتها وهم صور أعمالهم وهيئة أخلاقهم الردية : ألم يأتكم نذير ؛ داع يدعوكم إلى الله ، من العارفين بالله ؟ فاعترفوا بأنهم أنكروهم وجحدوا خصوصيتهم ، فماتوا محجوبين عن الله ، والعياذ بالله.
٩٥

(١١٢/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٤
يقول الحق جلّ جلاله : {إنَّ الذين يخشَون ربهم بالغيب} أي : يخافون عذابه غائباً عنهم ، أو : عن أعين الناس ، أو : بالقلب ؛ لأنّ القلب أمر غيبي ، أو : يخشون ربهم ولم يروه معاينة ، {لهم مغفرة} لذنوبهم {وأجر كبير} لا يقادر قدره ، الجنة وما فيها.
{وأسِرُّوا قولكم أو اجهروا به} ، ظاهره : الأمر بأحد الأمرين ؛ الإسرار والإجهار ومعناه : ليستوِ عندكم إسراركم وإجهاركم ، فإنه في عِلْم الله سواء. كقوله : {سَوَآءٌ مِنكُم مَّنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ} [الرعد : ١٠] ، وكأنه تعالى لمّا قال : {يخشون ربهم بالغيب} ربما يتوهم أن الله تعالى يغيب عنه شيء ، رفع ذلك. وقيل : إنَّ المشركين كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيُخبره جبريلُ عليه السلام بما قالوا فيه ونالوا منه ، فقالوا فيما بينهم : أسِروا قولكم لئلا يسمع رب محمد فيخبره ، فنزلت.
وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاحهم ، ووقوع ما يحذرونه ، وللمبالغة في شمول علمه تعالى ، المحيط بجميع المعلومات ، كأنَّ عِلْمَه تعالى بما يُسرونه أقدم منه بما يجهرونه ، مع كونهما في الحقيقة على السواء ، ولأنَّ مرتبة السر أقدم وجوداً ؛ لأنّ ما يقع به الجهر يتقدّم التحدُّث به في النفس.
وقوله تعالى : {إنه عليم بذات الصدور} تعليل لِما قبله ، أي : عليم بضمائر الصدور قبل أن تترجم الألسنة ، فكيف لا يعلم ما تتكلم به. وفي صيغة " فعيل " ، وتحلية " الصدور " بلام الاستغراق ، ووصف الضمائر بصاحبتها من الجزالة ما لا غاية وراءه ، كأنه قيل : إنه مبالغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارهم الخفية ، المستكنة في صدروهم ، فكيف يخفى عليه ما يُبدونه ؟ ويجوز أن يراد بـ {ذات الصدور} : القلوب التي في الصدور ، أي : عليم بالقلوب وأحوالها ، فلا يخفى عليه من أسرارها ، {ألا يعلم من خلق} " مَنْ " فاعل بيعلم ، {وهو اللطيفُ الخبيرُ} أنكر أن يكون مَن خلق

الأشياء وأوجدها غير عالم بباطنها وظاهرها ، وصفته أنه اللطيف ، أي : العالِم بدقائق الأشياء الخبير ؛ العالم بحقائقها. ويجوز أن يكون (مَن) مفعولاً ، أي : ألاَ يعلم اللهُ مَن خلقه.

وفيه على الأول دليل على خلق أفعال العباد ، وهو مذهب أهل السنة ، ووجه الدليل : أنه تعالى لمّا قرر أنه عالم بالسر والجهر ، وبكل ما في الصدور ، قال بعده : {ألا يعلم مَن خَلَقَ} ، وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله إذا كان تعالى خالقاً لكل ما يفعلونه في السر والجهر ، وفي القلوب والصدور ، فأنه لو لم يكن خالقاً لها لم يكن قوله : {ألا يعلم مَن خلق} مقتضياً كونَه تعالى عالماً بتلك الأشياء ، وهو خالق الأشياء وأحوالها ، وعالم

٩٦

بجميع ذلك ، ولذلك عقَّب ذلك بقوله : {وهو اللطيف الخبير}.

(١١٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٦

الإشارة : إنَّ الذين يخشون ربهم بالغيب ، فراقَبوه وعبدوه ، حتى عرفوه ، فصار الغيب عندهم شهادة. قال الورتجبي : وصف الله معرفة العارفين به ، قبل رؤيتهم مشاهدته ، فإذا عاينوه استفادوا من رؤيته علم المعاينة ، وهو المعرفة بالحقيقة ، خشوا منه في غيبة منه ، وهو خشية القلب ، فلما رأوه على الخشية الإجلال ، وهو علم الروح والسر. هـ.

وقوله تعالى : {وهو اللطيفُ الخبير} ، قال بعضهم : الحق تعالى منزّه عن الأين والجهة ، والكيف ، والمادة ، والصورة ، ومع ذلك لا يخلو منه أين ولا مكان ، ولا كم ، ولا كيف ، ولا جسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ؛ لأنه للطفه سارٍ في كل شيء ، ولنوريته ظاهر في كل شيء ، ولإطلاقه وإحاطته متكيّف بكل كيف ، غير متقيد بذلك ، ومَن لم يذق هذا ، أو لم يشهده ، فهو أعمى البصيرة ، محروم عن مشاهدة الحق. هـ. وقال الغزالي : إنما يستحق هذا الاسم ـ يعني اللطيف ـ مَن يطلع على غوامض الأشياء ، وما دقّ منها وما لطف ، ثم سلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العُنف ، والخبير هو الذي لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ، فلا يجري في المُلك والملكوت شيء ، ولا يتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن ، إلاّ ويكون عنده خبرها. وهو بمعنى العلم ، لكن العلم إذا أُضيف إلى الخفايا الباطنة يسمى خِبرة ، ويسمى صاحبها خبيراً. هـ.

(١١٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٦

يقول الحق جلّ جلاله : {هو الذي جعل لكم الأرضَ ذلولا} ؛ مذلّلة ليّنة يسهل عليكم سلوكها. وتقديم (لكم) على مفعول الجعل ؛ للاهتمام والتشويق ، {فامشُوا في مناكبها} ؛ جوانبها ، وهو تمثيل لفرط التذلُّل ، فإنَّ منكب البعير أرقّ أعضائه وأصعبها على أن يطأها الراكب بقدميه ، فإذا جعل الأرض في الذل بحيث يتأتى المشي في مناكبها لم يبقَ منها شد لم يتذلّل ، {وكُلوا من رزقه} أي : والتمسوا من رزق الله في سلوكها ، أو إذا تعذّر العيس في أرضٍ فامشوا في مناكبها إلى أرض أخرى ، كما قال الشاعر :

يا نفس مالكِ تهوي الإقامةَ في
أرض تعيش بين من ناواكِ بها
أما سمعتِ وعجز المرء منقصَةٌ
في محكم الوحي : فامشوا في مناكبها

٩٧

أو : كُلوا من رزق الله الخارج منها ، {وإليه النُشورُ} أي : الرجوع بالبعث ، فتُسألون عن شكر هذه النعم.

ثم هدَّد مَن لم يشكر فقال : {أأمِنْتُم مَن في السماء} من ملكوته وأسرار ذاته ، وعبّر بها ؛ لأنها منزل قضاياه ، وتدبيراته ووحيه ، ومسكن ملائكته وأوامره ونواهيه ، فكل ما يظهر في الأرض إنما يقضي به في السماء ، وحينئذ يبرز ، فكأنه قال : أأمِنتم خالق السموات ؟ وقال اللجائي : كل شيء علا فهو سماء ، وسماء البيت : سقفه ، وليس المقصود في الآية سماء الدنيا ؛ ولا غيرها من السبع الطباق ، وإنما المعنى : أأمِنتم مَن في العلو ، وهو علو الجلال ، وليس كون الله في سماء الحوادث من صفات الكمال ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. هـ. وسيأتي في الإشارة تحقيقة عند أهل التوحيد. أي : أأمِنتم مَن في السماء أسرار ذاته {أن يخسف بكم الأرضَ} كما خسف بقارون بعد ما جَعلها لكم ذلولاً تمشون في مناكبها ، وتأكلون من رزقه فيها ، بحيث كفرتم تلك النعمة ، فقلبها لكم {فإذا هي تمورُ} ؛ تضطرب وتتحرّك.

{أم أَمِنْتُم مَن في السماء أن يُرسل عليكم حاصباً} ؛ حجارة من السماء كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ، أو : ريحاً فيها حجارة. و " أن " : بدل اشتمال في الموضعين. {فستعلمون} عن قريب {كيف نذيرٍ} أي : إنذاري عن مشاهدتكم للمنذَر به ، ولكن لا ينفعكم العلم حينئذٍ.

}

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٧

ولقد كذَّب الذين مِن قبلهم} ؛ من قبل كفار مكة ، من كفار الأمم السابقة ، كقوم نوح وعاد وأضرابهم ، والالتفات إلى الغيبة ؛ لإبراز كمال الإعراض عنهم ، {فكيف كان نكير} ؛ إنكاري عليهم ، بإنزال العذاب ، أي : كان على غاية الهول والفظاعة ، وهذا هو مورد التأكيد القسمي لا تكذيبهم فقط ، وفيه من المبالغة في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتشديد التهويل ما لا يخفى. والله تعالى أعلم.

الإشارة : هو الذي جعل لكم أرض البشرية مذلّلة للعبودية ، والقيام بآداب الربوبية ، فامشوا في مناكبها ؛ فسيحوا بقلوبكم في جوانبها ، تفكُّراً واعتباراً لِما فيهم من عجائب الإتقان ، وبدائع الحِكم ، فقد جمعت أسرار الوجود بأسره ، وكُلوا من رزقه مما اكتسبه القلب بالنظر والتفكُّر ، من قوة الإيمان ، وهو قوت القلوب ، وشهود الحق فيها ، وهو قوت الأرواح والأسرار ، وإليه النُشور ببعث الأرواح من موت الغفلة والجهل ، إلى حياة اليقظة والمعرفة ، أأمِنتم مَن في السماء أن يخسف بكم الأرض ، أي : إذا أسأتم معه الأدب. واعلم أن ذات الحق ـ جلّ جلاله ـ عمّت الوجود ، فليست محصورة في مكان ولا زمان ، {فأينما تُولوا فَثَمّ وجه الله} ، فأسرار ذاته ـ تعالى ـ سارية في كل شيء ، قائمة بكل شيء ، كما تقدّم ، فهو موجود في كل شيء ، لا يخلو منه شيء ، أسرار المعاني قائمة

٩٨

بالأواني ، وإنما خصّ الحق ـ تعالى ـ السماء بالذكر ؛ لأنها مرتفعة معظّمة ، فناسب ذكر العظيم فيها ، وعلى هذا تُحمل الأحاديث والآيات الواردة على هذا المنوال. وليس هنا حلول ولا اتحاد ؛ إذ ليس في الوجود إلاّ تجليات الحق ومظاهر ذاته وصفاته ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه ، فما مثال الكون إلا كجبريل حين يتطوّر على صورة دحية ، غير أنَّ رداء الكبرياء منشور على وجه ذاته وأسرار معانيه ، وهو ما ظهر من حسن الكائنات ، وما تلوّنت به الخمرة من أوصاف العبوية. ولا يفهم هذا إلاَّ أهل الذوق السليم. وبالله التوفيق.

(١١٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٧

يقول الحق جلّ جلاله : {أَوَلَمْ يَرَوْا} أي : أَغَفلُوا ولم ينظروا {إِلى الطيرِ} ؛ جمع طائر {فوقهم} في الهواء {صافاتٍ} ؛ باسطاتٍ أجنحتها في الجو عند طيرانها {ويقبِضْنَ} ؛ ويضممنها إذا ضربن بها حيناً فحيناً ، للاستظهار به على التحرُّك ، وهو السر في إيثار (ويقبضن) الدال على تجدُّد القبض تارة بعد تارة على " قابضات " ، فـ " يقبضن " : معطوف على اسم الفاعل حملاً على المعنى ، أي : يصففن ويقبضن ، أو : صافات وقابضات. والطيران في الهواء كالسباحة في الماء ، والهواء للطائر كالماء

للسابح ، والأصل في السباحة : مدّ الأطراف وبسطها ، وأمّا القبض فطارىء على البسط للاستظهار به على التحرُّك. {ما يُمسِكُهُنَّ} في الجو عند البسط والقبض على خلاف مقتضى الطبع {إلاَّ الرحمنُ} الواسع رحمته كل شيء ، ومن جملتها : إمساكه الطير في الهواء بقدرته ، وإلا فالثقيل يسفل طبعاً ولا يطفو ، وكذلك لو أمسك حِفظَه وتدبيره للعالم لتهافت وتلاشى. {إنه بكل شيءٍ بصيرٌ} يعلم كيفية إبداع المبدعات ، وتدبير المصنوعات ، ومن مبدعاته : أنَّ الطير على أشكال وخصائص هيّأهن للجري في الهواء.

{أمَّنْ هذا الذي هو جندٌ لكم ينصركم من دون الرحمن} ، هو تبكيت لهم ينفي أن يكون لهم ناصر من عذابه غير الله ، أي : لا ناصر لكم إلاّ الرحمن برحمته. " أم " منقطعة مقدرة ببل ؛ للانتقال من توبيخهم على ترك التأمُّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب قدرة الله تعالى إلى التبكيت بما ذكر من نفي نصرة غيره تعالى ، والالتفات

٩٩

للتشديد في ذلك ، و(من) : مبتدأ و(هذا) : خبره ، و(الذي) وما بعده : صفتهن وإيثار " هذا " تحقيراً له ، و(ينصركم) : صفة لجُند ، باعتبار لفظه ، و(من دون) : إما حال من فاعل " ينصركم " أو لمصدر محذوف ، أي : نصراً حاصلاً من دون الرحمن ، أو : متعلق بينصركم ، كقوله : {مَن يَنصُرُنِى مِنَ اللهِ} [هود : ٣٠] ، والمعنى : بل مَن هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم نصراً كائناً من دون نصرة الرحمن ؟ ! {إنِ الكافرون إلاّ في غرورٍ} أي : ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظ آلهتهم ، لا بحفظه تعالى فقط ، إلاّ في غرور عظيم ، وضلال فاحش من الشيطان. والالتفات إلى الغيبة ؛ للإيذان بافتضاح حالهم ، والإعراض عنهم ، وإظهار قبائحهم ، والإظهار في موضع الإضمار لذمّهم بالكفر ، وتعليل غرورهم به.

}

(١١٧/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٩

أمّنْ هذا الذي يرزقكم إنْ أمسك} اللهُ عزّ وجل {رزقَه} بإمساك المطر وسائر مبادئه ، أي : مَن هذا الحقير الذي يقدر على إتيان رزقكم من آلهتكم إن أمسكه الله ؟ {بل لَجُّوا في عَتُوٍّ ونفورٍ} ، إضراب عن مُقدّر يستدعيه المقام ، كأنه قيل بعد تمام التبكيت والتعجيز : لم يتأثروا بشيء من ذلك ، ولم يذعنوا للحق ، {بل لجُّوا} أي : تمادوا {في عتوٍّ} أي : استكبار وطغيان {ونفورٍ} ؛ وشُرود عن الحق لِثقله عليهم. ثم ضرب مثلاً للمشرِك والموحِّد ، فقال : {أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه} أي : ساقطاً

على وجهه {أهْدى} ، والفاء لترتيب ذلك على ما ظهر من سواء حالهم ، وسقوطهم في مهاوي الغرور ، وركوبهم متن عشواء العتو والنفور. والمُكب : الساقط على وجهه ، والمعنى : أفمن يمشي وهو يعثر في كل ساعة ، ويخرّ على وجهه في كل خطوة أهدى إلى المقصود {أَمَّنْ يمشي سَوِياً} أي : قائماً سالماً من الخبط والعِثار {على صراط مستقيم} مستوي الأجزاء لا عوج فيه ، ولا انحراف ؟ و " من " الثانية : معطوفة على الأُلى عطف المفرد. وقيل : المراد بالمكب : الأعمى ، وبالسوي : البصير. وقيل : مَن يمشي مُكباً هو الذي يُحشر على وجهه إلى النار ، ومَن يمشي سويًّا : الذي يُحشر على قدميه إلى الجنة.

{قل هو الذي أنشأكم} إنشاءً بديعاً ، {وجعل لكم السمعَ} لتسمعوا آيات الله ، وتمتثلوا ما فيها من الأوامر والنواهي ، وتتعظوا بمواعظها ، {والأبصارَ} لتنظروا بها إلى الآيات التكوينية الشاهدة بشؤون الله تعالى ، {والأفئدةَ} لتتفكروا بها فيما تسمعونه وتشاهدونه من الآيات التنزيلية والتكوينية ؛ لتترقوا في معاريج الإيمان والمعرفة ، {قليلاً ما تشكرون} باستعمالها فيما خُلقت له. و " قليلاً " : إما نعت لمحذوف ، أو : ظرف ، و(ما) : صلة لمحذوف ، أي : شكراً قليلاً ، أو : زمناً قليلاً. وقيل : القلة عبارة عن العدم. {قل هو الذي ذرأكم في الأرض} أي : خلقكم وكثَّركم فيها {وإليه تُحشرون} للجزاء لا إلى غيره ، فتهيؤوا للقائه.

الإشارة : أَوَلَم يَرَوا إلى طيور أفكار العارفين فوقهم منزلةً ورفعة ، صافاتٍ ، تجول

١٠٠

في ميادين الغيوب ، ويقبضن عنانهن ، عكوفاً في الحضرة ، وسكوناً في النظرة ، ما يُمسِكُهن فيها إلاَّ الرحمن الذي مَنَّ عليهم برحمته ، فأسكنهم فيها ، إنه بكل شيء بصير ، فيُبصر مَن توجه إليه ومَن لا ، أمَّنْ هذا الذي هو جند لكم ينصركم على طريق السلوك ، ويُبلغكم إلى حضرة مالك المَلوك ، من دون الرحمن ؟ إنِ الكافرون بهذا إلاّ في غرور ، حيث حسبوا أنَّ وصولهم بحسب جهادهم وطاعتهم ، أمَّن هذا الذي يرزقكم إمداد قلوبكم من العلوم والمعارف واليقين الكبير ، إن أمسك رزقه فلم يتوجه إليكم إلاَّ القليل ، بل لجُّوا في عُتو ونفور ، أفمن يمشي مُكبًّا على وجهه ، حيث رام سلوك الطريق بلا شيخ ولا دليل عارف ، أهدى أمَّنْ يمشي سويًّا سالماً من الانحراف ، على صراط مستقيم ، تُوصله إلى حضرة العيان ، وهو مَن سلك الطريق على يد الخبير ، بل مَن سلكه على يد الخبير أهدى وأصوب ، قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم دلائل السلوك إلى معرفته ، لتستدلوا عليه بالأدلة السمعية والعقلية ، ثم تَتَرَقون إلى صريح معرفته ، بسلوك الطريق على يد الخبير ، قل هو الذي ذرأكم في أرض العبودية ، وإليه تُحشرون بشهود عظمة الربوبية.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٩٩

يقول الحق جلّ جلاله : {ويقولون} مِن فرط عتوهم وعنادهم استهزاءً : {متى هذا الوعدُ} أي : الحشر الموعود {إن كنتم صادقين} فيما تعدونه من مجيء الساعة ؟ والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين المشاركين له عليه السلام في الوعد ، وتلاوة الآيات المتضمنة له ، وجواب الشرط : محذوف ، أي : إن صدقتم فيه فبيَّنوا وقته ؟ {قل إنما العلمُ} أي : العلم بوقته {عند الله} تعالى ، لا يطلع عليه غيره {وإنما أنا نذير مبينٌ} أُنذركم وقوع الموعود لا محالة ، وأمّا العلم بوقت وقوعه فليس من وظائف الإنذار.

{فلما رَأَوه} أي : العذاب الموعود. والفاء فصيحة مُعربة عن تقدير جملة ، كأنه قيل : قد أتاهم الموعود فلما رأوه... الخ ، نزّل ما سيقع بمنزلة الواقع لتحقق وقوعه ، و {زُلفةً} : حال من مفعول " رَأَوه " أي : قريباً منهم ، وهو مصدر ، أي : ذا زلفة ، {سِيئَتْ} أي : تغيرت {وجوهُ الذين كفروا} بأن غشيها الكآبة ورهقها القَترُ والذلة. ووضع الموصول موضع ضميرهم ؛ لذمهم بالكفر ، وتعليل المساءة به. {وقيل} توبيخاً لهم ، وتشديداً لعذابهم : {هذا الذي كنتم به تَدَّعون} ؛ تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه

١٠١

إنكاراً واستهزاءً ، وهو " تفتعلون " من الدعاء ، وقيل : من الدعوى ، أي : تدعون ألاَّ بعث ولا حشر. ورُوي عن مجاهد : أنَّ الموعود يوم بدر ، وهو بعيد.

{قل أرأيتم} أي : أخبروني {إن أهلكنيَ اللهُ} أي : أماتني. والتعبير عنه بالهلاك لِما كانوا يدعون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين بالهلاك ، {ومَن معيَ} مِن المؤمنين {أو رَحِمَنا} باخير آجالنا ، فنحن في جوار رحمته متربصون إحدى الحسنيين {فمَن يُجير الكافرين من عذاب أليم} أي : لا يُنجيكم منه أحد ، متنا أو بَقينا. ووضع " الكافرين " موضع ضميرهم ؛ للتسجيل عليهم بالكفر ، وتعليل نفي الإنجاء به ، أي : لا بد من لحوق العذاب لكفركم ، مُتنا أو بقينا ، فلا فائدة في دعائكم علينا.

}

(١١٩/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠١

قل هو} أي : الذي أدعوكم إليه {الرحمن} مولى النعم كلها ، {آمَنَّا به} وحده ؛ لعِلْمنا ألاَّ راحم سواه ، {وعليه توكلنا} وحده ؛ لعِلْمنا أنَّ ما عداه كائناً ما كان بمعزل عن النفع والضر. {فستعلمون} عن قريب

{مَن هو في ضلالٍ مبينٍ} منا ومنكم ، {قل أرأيتم} ؛ أخبروني {إن أصبحَ ماؤُكم غوراً} ؛ غائراً في الأرض بالكلية ، أو : لا تناله الدلاء {فمَن يأتيكم بماءٍ معين} ؛ جارٍ أو ظاهر سهل المأخذ ، يصل إليه مَن وصله ؟ . وفي القاموس : ماء معيون ومعين : ظاهر. هـ. وقال مكي : ويجوز أن يكون معين " فعيل " من مَعَن الماء : كثر ، ويجوز أن يكون مفعولاً من العَين ، وأصله : معيون ، ثم أعل ، أي : فمَن يأتيكم بماء يُرى بالعين. هـ. مختصراً.

وقرئت الآية عند مُلحدٍ ، فقال : يأتي بالمعول والفؤوس ، فذهبت عيناه تلك الليلة وَعمِيَ ، وقيل : إنه محمد بن زكريا المتطبب ، أعاذنا الله من سوء الأدب مع كتابه. قال ابن عرفة : ذكر ابن عطية في فضل السورة أربعة أحاديث ، وقد تقرّر أنَّ أحاديث الفضائل لم تصح إلاَّ أحاديث قليلة ، ليس هذا منها. هـ. وفي الموطأ : إنها تُجادل عن صاحبها.

الإشارة : ويقولون ـ أي : أهل الإنكار على المريدين ـ : متى هذا الوعد بالفتح إن كنتم صادقين في الوعد بالفتح على أهل التوجه ؟ قل أيها العارف الداعي إلى الله : إنما العلمُ عند الله ، وإنما أنا نذير مبين ، أُنذر البقاء في غم الحجاب وسوء الحساب ، فلما رأوه ـ أي رأوا أثر الفتح على المتوجهين ، بظهور سيما العارفين على وجوههم ، ونبع الحِكَم من قلوبهم على ألسنتهم ـ زلفةً ، أي : قريباً ، سيئت وجوه الذين كفروا بطريق الخصوص ، وأنكروها ـ أي ساءهم ذلك حسداً أو ندماً ، وقيل هذا الذي كنتم به تَدَّعون ، أي : تدَّعون أنه لا يكون ، وأنه قد انقضى زمانه ، وأهل الإنكار لا محالة يتمنون هلاكَ أهل النِسبة ، فيُقال لهم : أرأيتم إن أهلكنا الله بالموت ، أو رَحِمَنا بالحياة ، فمَن يُجيركم أنتم من

عذاب القطيعة والبُعد ، أي : هو لا حق لكم لا محالة ، متنا أو عشنا ، قل هو ، أي : الذي توجهنا إليه ، الرحمن وضمّنا إليه ، آمنّا به وعليه توكلنا في كفاية شروركم ، فستعلمون حين يُرفع المقربون في أعلى عليين ، ويسقط أهل الحجاب في الحضيض الأسفل من الجنة ، مَن هو اليوم في ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم ـ ماء حياة قلوبكم من الإيمان والتوحيد ، غَوْراً ، فمَن يأتيكم بماء معين ؟ أي : فمَن يُظهره لكم ، ما يأتي به إلاَّ أهل العلم بالله.

(١٢٠/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠١

والله تعالى أعلم. وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠١

سورة القلم

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٣

يقول الحق جلّ جلاله : {نا} ، هو من جملة الرموز ، كـ {ص} و {ق} ، وكأنه . والله أعلم . يُشير إلى ما خصّ به نبيَّه من أسرار النبوة والخلافة ، أي : نبأناك ونبَّهناك ونوّبناك خليفة عنا ، أو نوّهنا بك في مُلكنا وملكوتنا ، أو : أيها النبي المفخّم ، والرسول المعظّم ، وحق نون والقلم ما أنت بمجنون. وقيل : مختصر من نور وناصر ونصير ، وقيل : من الرحمن ، لكن ورد في الحديث : " أول ما خلق اللهُ القلم ، ثم خَلَقَ النون " ، وهو الدواة ، وذلك قوله : {ن والقلم} فإن صَحّ الحديث فهو أولى في تفسير الآية ، وقد رُوي عن ابن عباس وغيره ، في تفسير الآية : أنه الدواة والقلم الذي بأيدي الناس ، ورُوي عن ابن عباس أيضاً : أنه الحوت الأعظم ، الذي عليه الأرضون السبع.

قال الكلبي ومقاتل : اسمه يهموت . بالياء . وقيل : ليُوثا ، وقيل : باهوتا. رُوي : أنّ الله تعالى لمّا خلق الأرض وفَتَقَها ، بعث مِن تحت العرش ملكاً ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه بالمشرق ، والأخرى بالمغرب ، باسطتين ، قابضتين على الأرضين السبع ، فلم يكن لقدميه موضع قرار ، فأهبط الله من الفردوس ثوراً ، له أربعون ألف قرنٍ ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدم الملك على سنامه فلم تستقر قدماه ، فأهبط الله ياقوتة خضراء من أعلى درجة في الفردوس ، غلظها خمسمائة عام ، فوضعها على سنام الثور إلى أذنه ، فاستقرت قدما المَلك عليه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، ومنخاره في البحر ، فهو يتنفس كل يوم

١٠٤

نفساً ، فإذا تنفّس مدَّ البحرُ ، وإذا هدأ نَفَسُه جزرَ البحر ، فلم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله صخرة خضراء ، كغلظ سبع سموات وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه : {فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ} [لقمان : ١٦] الآية ، فلم تستقر الصخرة ، فخلق الله نوناً . وهو الحوت العظيم . فوضع الصخرة على ظهره ، وسائر جسده عارٍ ، والحوت على البحر ، والبحر على متن الريح ، والريح على القدرة الأزلية ، يُقلُّ الدنيا بما فيها حرفان "كن فيكون ". هـ. من الثعلبي

، وهذا من باب عالَم الحكمة ، وإلاّ فما ثَمَّ إلا تجليات الحق وأسرار الذات ، والصفات الأزلية.
وتفسير {ن} بهذا الحوت ضعيف.

(١٢٣/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤
قال ابن جزي : ويُبطل قول مَن قال : إنه الحوت أو الدواة ، بأنه لو كان كذلك لكان مُعرباً ، ولَكَان في آخره تنوين ، فكونه موقوفاً دليل على أنه حرف هجاء ، نحو : {الام} وغيره. هـ.
ثم أقسم بالقلم ، فقال : {والقلم وما يسطرون} ، قيل : هو القلم الذي كتب اللوح المحفوظ ، فالضمير في {يسطرون} للملائكة ، وقيل : القلم المعروف عند الناس ، أقسم له بِما فيه من المنافع والحِكم. قال ابن الهيثم : من جلالة القلم أنه لم يكتب الله كتاباً إلا به ، ولذلك أقسم به. الأقلام مطايا الفِطن ورسل الكرام ، وقيل : البيان اثنان : بيان لسان ، وبيان بَنَان ، ومِن فضل بيان البنان أنَّ ما تبيَّنته الأقلام باق على الأيام ، وبيان اللسان تدْرُسه الأعوام ، ولبعض الحكماء : قِوام أمور الدين والدنيا : القلم ، والسيف تحت القلم. وأنشد بعضهم في هذا المعنى :

قَلَمٌ مِنَ القَصَبِ الضَّعيف الأجْوفِ
أَمضَى من الرُّمْح الطويل الأهيَفِ
ومِن النِّصال إذا انْبَرَتْ لِقسِيِّها
ومِن المُهَنَّد في الصِّقال المُرْهَفِ
وأَشَدُّ إقدَاماً من الليْثِ الذي
يَكْوِي القُلوبَ إذا بدا في الموقِفِ

وقال آخر :

قَوْمٌ إذا عَرَفوا عَداوةَ حَاسِدٍ
سَفَكُوا الدِّمَا بأَسِنَّةِ الأَقْلامِ
ولَضَرْبَةٌ مِن كاتبٍ بِبَنَانِهِ
أَمْضَى وأَبْلَغُ من رقيق حُسَامِ

فالضمير في {يَسْطُرون} على هذا لبني آدم ، فالضمير يعود على الكتبة المفهومة من القلم اللازمة له.
ثم ذكر المقسَم عليه ، فقال : {ما أنت بنعمةِ ربك بمجنونٍ} أي : ليس بك جنون كما يزعمه الكفرة ، فـ(بنعمة ربك) : اعتراض بين " ما " وخبرها ، كما تقول : أنت بحمد الله فاضل ، وقيل : المجرور في موضع الحال ، والعامل فيه معنى النفي ، كأنه قيل : أنت بريء

من الجنون ، ملتبساً بنعمة ربك ، التي هي النبوة والرسالة. والتعبير بعنوان الربوبية المنبئة عن التبليغ إلى معاريج الكمال ، مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه عليه السلام والإيذان بأنه تعالى يُتم نعمته عليه ، ويُبلغه من العلو إلى غاية لا غاية وراءه ، والمراد : تنزيهه عليه السلام عما كانوا ينسبونه من الجنون حسداً وعداوة ومكابرة ، مع جزمهم بأنه صلى الله عليه وسلم في غاية الغايات القاصية ، ونهاية النهايات الثابتة من حصافة العقل ، ورزانة الرأي. {وإِنَّ لك} في مقابلةِ مقاساتك ألوان الشدائد من جهتهم ، وتحمُّلك لأعباء الرسالة {لأجراً} عظيماً لا يُقادَر قدره {غيرَ ممنونٍ} ؛ غير مقطوع ، أو : غير ممنون به عليك من جهة الناس ، بأن أعطاه تعالى لك بلا واسطة.

}

(١٢٤/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم} لا يُدْرِك شأوَه أحدٌ مِن الخلق ، ولذلك تَحْتَمِل من جهتهم ما لا يحتمله أحد من البشر. وسُئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلقة صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خُلقه القرأن ، ألست تقرأ القرآن : {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...} [المؤمنون : ١] الآية. وقيل : المراد : التأدُّب بآداب القرآن ، بامتثال أمره واجتناب نهيه.

قال ابن جُزي : وتفصيل ذلك : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جمع كل فضيلة ، وحاز كل خصلة جميلة ، فمن ذلك : شرف النسب ، ووفور العقل ، وكثرة العلم والعبادة ، وشدة الحياء ، والسخاء ، والصدْق ، والشجاعة ، والصبر ، والشكر ، والمروءة ، والتوءدة ، والاقتصاد ، والزهد ، والتواضع ، والشفقة ، والعدل ، والعفو ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، وحُسن المعاشرة ، وحسن التدبير ، وفصاحة اللسان ، وقوة الحواس ، وحسن الصورة ، وغير ذلك ، حسبما ورد في أخباره وسِيرَه صلى الله عليه وسلم ، ولذلك قال : " بُعثت لأتمم مكارمَ الأخلاق " ، قال الجنيد : سُمي خُلقه عظيماً ؛ لأنه لم تكن له همة سوى الله عزّ وجل. هـ. والخُلق : السجية والطبع. قال في القاموس : الخُلْق بالضم وبضمتين : السجية ، والطبع ، والمروءة والدين. هـ.

وعرَّف بعضهم حقيقة الخُلق ، فقال : مَلكة للنفس ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ، من غير فكر ولا رَوية ، فخرج الصبر ؛ لأنه بصُعوبة ، والفكرة ؛ لأنها تكون بروية ، ثم ينظر في تلك الأفعال الصادرة عن تلك المَلكة ؛ فإن كانت سيئة ، كالغضب ، والعَجَلة ، والكِبر ، والفظاظة ، والغلظة ، والقسوة ، والبُخل ، والجُبن ، وغير ذلك من القبائح ، سُمي خُلقاً سيئاً ، وإن كانت تلك الأفعال حسنة ، كالعفو ،

والحلم ، والجود ، والصبر ، والرحمة ، ولين الجانب ، وتحمل الأذى ، سُمي خلقاً حسناً ، الذي اتصف به صلى الله عليه سلم على أكمل الوجوه ، ومَدَحه بقوله : " ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق ، وإن صاحب حسن

١٠٦

الخلق يبلغ درجة الصائم القائم " وبقوله : " أفضل ما أُعطي المرء الخلق الحسن " في أحاديث كثيرة. وبالله التوفيق.

الإشارة : قد يُقال : أشار بقوله : {ن} إلى سرعة إنفاذ أمره بين الكاف والنون ، ثم أقسم بالقلم على تنزيه نبيه من الجنون ، ويُقال مثل ذلك لخلفائه ، إذا رُمُوا بالجنون أو السحر أو سخافة العقل ، ويُقال لهم في إرشاد الناس وتذكيرهم ما قيل لنبيّهم : {وإِنَّ لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم} ، فحُسن الخلق دليل على ثبوت الخصوصية ، وعدمه دليل على عدم وجودها ؛ لأنّ الخمرة إذا دخلت القلب والروح هَذّبت أخلاقهما ، وطهّرت أكدارهما ، وما تُبقي إلاَّ الذهب الإبريز.

(١٢٥/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

وقال شيخ شيوخنا ، سيدي عبد الرحمن العارف : كان صلى الله عليه وسلم على خُلقٍ عظيم ؛ لشرح صدره بالنور ، كما قال تعالى : {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الشرح : ١] ، ولحديث شرح صدره وشقه وتطهيره ، ونزع حظ الشيطان منه ، ثم إفراغ الحكمة والنور فيه ، حتى مُلىء بذلك ، فكان شيئاً محضاً لله تعالى ، لا تعلُّق له بغيره ، فناسب القرأن ، وصار خُلقاً له ، منقوشاً فيه ، من غير روية ، ولا تكسب في ذلك ، بل طُبع على ذلك ، وسرى فيه أمر الوحي ، وجرى على مقتضاه في جميع أحواله ، ولذلك تجد السُنة مشرعة من القرآن ، وخارجة منه خروج اللبن من الضرع ، والزبد من اللبن ، فصار متخلّقاً بالقرآن ، وفي الحقيقة متخلّقاً بخُلق الله ، ومظهرَ أوصافه ، ومجلاة سره وشأنه ، {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ} [الفتح : ١٠] الآية ، ومَن رآه فقد رأى الحق. والله أعلم. هـ. فعائشة رضي الله عنها احتشمت وسترت حيث عبّرت بالقرآن ، ولم تقل كان خلقه خلق الرحمن.

(١٢٦/٨)

جزء : ٨ رقم الصفحة : ١٠٤

يقول الحق جلّ جلاله : {فسَتُبْصِرُ} يا محمد {ويُبصرون} أي : كفارُ قريش عاقبةَ أمرك

وأمرهم ، أو : مَن هو المجنون منكم. قال ابن عباس رضي الله عنه : فستعلم ويعلمون يوم القيامة حين يتبيّن الحق من الباطل. هـ. وقيل : في الدنيا بظهور عاقبة أمرك بظهور الإسلام ، واستيلائك عليهم بالقتل والنهب ، ويبصرونك مُهاباً معظّماً في قلوب العالمين ، وكونهم أذلةً صاغرين. قال مقاتل : هذا وعيد بعذاب يوم بدر.

والباء في قوله : {بأيِّكم المفتونُ} قيل : زائدة ، أي : تُبصرون أيكم المفتون ، أي : المجنون ، وقيل : غير زائدة ، أي : بأيكم الفتنة ، فالمفتون مصدر ، كقولهم : ما لك معقول ، أي : عقل ، وقيل : الباء بمعنى " في " ، أي : في أي فريق منكم المفتون ، هل في فريق المؤمنين أم المشركين ؟ والآية تعريض بأبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، وأضرابهما ، وتهديد ، كقوله تعالى : {سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ(٢٦)} [القمر : ٢٦].

{إِنَّ ربك هو أعلمُ بمَن ضلَّ عن سبيله} تعليل لمضمون ما قبله ، من ظهور جنونهم ، بحيث لا يخفى على أحد ، وتأكيد لِما فيه من الوعد والوعيد ، أي : هو أعلم بمَن ضلّ عن طريقه الموصلة إلى سعادة الدارين ، وبمن هو في تيه الضلال ، متوجهاً إلى ما يسوقه إلى الشقاوة الأبدية ، وهذا هو المجنون الذي لا يُفرّق بين الضرر والنفع ، بل يحسب الضررَ نفعاً فيؤثره ، والنفعَ ضرراً فيهجره ، {وهو أعلمُ بالمهتدين} إلى سبيله ، الفائزين بكل مطلوب ، الناجين من كل مرهوب ، وهم العقلاء المراجيح ، فيجزي كُلاًّ من الفريقين حسبما يستحقه من العقاب والثواب. وإعادة {هو أعلم} لزيادة التقرير.

وإذا تقرّر أنك على الهدى ، ومُكَذبوك على الضلال {فلا تُطع المكذِّبين} ، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها ، أي : دُم على ما أنت عليه ، من عدم طاعتهم ، وتَصَلّبْ في ذلك. وهذا تهييج للتصميم على عصيانهم ، وقد أرادوه على أن يعبدوا الله مدة ، ويعبد آلهتهم مدة ، ويكفُّوا عنه غوائلهم ، فنهاه عن ذلك ، أو : نُهي عن مداهنتهم ومداراتهم ، بإظهار خلاف ما في ضميره صلى الله عليه وسلم ؛ استجلاباً لقلوبهم. {وَدُّوا لو تُدْهِنُ} ؛ لو تلين لهم {فيُدْهِنُون} ؛ فيلينون لك ، ولم ينصب بإضمار " أن " مع أنه جواب التمني ؛ لأنه عدل به إلى طريق آخر ، وهو أن جعله خبر مبتدأ محذوف ، أي : فهم مدهنون ، أي : فهم الآن يُدهنون لطمعهم في إدهانك ، فليس داخلاً في حيّز تمنيهم ؛ بل هو حاصل لهم ، وفي بعض المصاحف : {فيدهنوا} على أنه جواب التمني.

}

(١٢٧/٨)